الكاتب الأكثر مبيعًا

رايلي ساجر

«حبس أنفاسي حتى الصفحة الأخيرة - هذا هو ساجر في أوج براعته» - بوكليست

تُرجمت رواياته لأكثر من 35 لغة

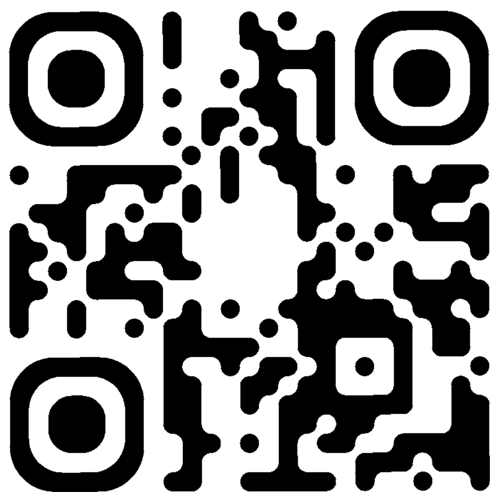
مكتبة

لم يتبقَّ غيرها

رواية

ترجمة
عبد الرحيم يوسف





لم يتبقَّ غيرها



الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

العنوان الأصلي: *The Only One Left*

ساجر، رايلي.
لم يتبقَّ غيرها: رواية/ رايلي ساجر؛ ترجمها عن الإنجليزية عبد الرحيم يوسف - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.

تدمك: 9789779603490
١- القصص الإنجليزية.
أ- يوسف، عبد الرحيم (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٧٩١ / ٢٠٢٥

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

رايلي ساجر

لم يتبق غيرها

رواية

ترجمها عن الإنجليزية
عبد الرحيم يوسف



إلى أسرتي

نحن أمام الآلة الكاتبة مرة أخرى، لينورا في كرسيها المتحرك، وأنا واقفة إلى جوارها فيما أضع يدي اليسرى فوق مفاتيح الآلة. ثمة ورقة جديدة تستقر في العربة، لتحل محل الورقة التي كانت بها ليلة أمس. ها هي ذي الآن مقلوبة على المكتب، تمثل جزءًا من نص محادثتنا.

أريد أن أخبرك بكل شيء

أشياء لم أخبر بها أحدًا غيرك

نعم عن تلك الليلة

لأنني أثق بك

لكني لا أثق بلينورا.

لا أثق بها تمام الثقة.

إنها قادرة على فعل القليل، لكنها متهمة بالكثير، وسأظل ممزقة بين الرغبة في حمايتها والحاجة إلى الشك فيها.

لكن إذا أرادت أن تخبرني بما حدث، فأنا مستعدة للإنصات.

على الرغم من أنني أشك في أن أغلب ما ستخبرني به لن يكون إلا أكاذيب.

أو الأسوأ من ذلك، سيكون الحقيقة الكاملة المريعة.

تدق أصابع يد لينورا اليسرى على المفاتيح. هي متلهفة على البدء. آخذ نفسًا عميقًا، وأومئ برأسي، وأساعدها على نقر الجملة الأولى.

أول ما أتذكره

أول ما أتذكره -- الشيء الذي ما زالت تنتابني الكوابيس حوله -- هو عندما انتهى كل شيء.

أتذكر هدير الريح وأنا أخطو على الشرفة. كانت تهب من المحيط في زوابع عاوية تحتك بالمنحدر قبل أن تصفعني مباشرة. كنت أهتز واقفة على كعبي، شاعرة كأن حشدًا جامدًا غير مرئي يدفعني إلى الوراء نحو المنزل.

آخر مكان أردت أن أكون فيه.

استعدت توازني مزمجرة، وبدأت أشق طريقي عبر الشرفة، التي صارت أرضيتها زلقة بفعل المطر المنهمر. كانت تمطر بغزارة، وحبات المطر شديدة البرودة، كأن كل قطرة منها وخزة إبرة. وبسرعة شديدة وجدت نفسي وقد أفقت من حالة الذهول التي كنت فيها. انتبهت فجأة، وبدأت ألاحظ الأشياء.

قميص نومي ملطخ بالأحمر.

يداي دافئتان ولزجتان بالدم.

السكين ما زالت في قبضتي.

كانت هي أيضًا ملوثة بالدم لكن المطر البارد طفق ينظفها بسرعة الآن.

ظللت أتقدم مخترقة الريح التي كانت تدفعني إلى الوراء، وأنا ألهث مع كل قطرة مطر حادة. وأمامي كان المحيط، وقد أهاجته العاصفة بسياطها، وصارت

أمواجه تتحطم على سفح المنحدر تحتي بخمسين قدمًا. لم يفصلني عن هوة البحر المظلمة إلا السياج الرخامي القصير الممتد بطول الشرفة.

عندما بلغت السياج، أصدرت صوتًا غريبًا مخبولًا مخنوقًا. نصف ضحكة، ونصف نشيج.

لقد ولت الآن وإلى الأبد تلك الحياة التي كانت لي منذ مجرد ساعات.

وكذلك والداي.

لكن في تلك اللحظة، وأنا مائلة إلى سياج الشرفة والسكين في يدي، والريح القاسية على وجهي، والمطر المتجمد يضرب جسدي المنقوع في الدم، لم أشعر إلا بالراحة. عرفت أنني سأتحرر بعد قليل من كل شيء.

استدرت عائدة إلى المنزل. كل نافذة في كل غرفة كانت مضاءة. متوهجة مثل الشموع التي زينت كعكة عيد ميلادي متعددة الطبقات قبل ثمانية أشهر. بدت جميلة الإضاءة مثلما كانت الحال الآن. أنيقة. كل ذلك المال يلتمع خلف ألواح الزجاج النظيفة.

لكني كنت أعرف أن المظاهر خادعة.

وأنه حتى السجون قد تبدو جميلة لو أضيئت على نحو صحيح.

في الداخل، صرخت أختي. صرخات مرعوبة ارتفعت وانخفضت مثل سرينة إنذار. ذلك النوع من الصراخ الذي تسمعه عندما يحدث شيء فظيع تمامًا.

وهو ما حدث.

أطرقت ناظرة إلى السكين، كانت يدي ما زالت قابضة عليها وقد صارت الآن نظيفة تمامًا. عرفت أن بمقدوري استخدامها مرة أخرى. ضربة واحدة أخيرة. طعنة واحدة أخيرة.

لم أستطع أن أحمل نفسي على فعلها. رميت السكين من فوق السياج وراقبتها وهي تختفي في جوف الأمواج المتلاطمة بعيدًا بالأسفل.

وبينما كانت أختي مستمرة في الصراخ، تركت الشرفة وذهبت إلى الجراج لأحضر حبلًا.

تلك ذكراي... وما كنت أحلم به عندما أيقظتك. أصابني رعب شديد لأنها بدت كأنها تعاود الحدوث من جديد.

لكن ليس هذا أكبر ما تشعرين بالفضول تجاهه، أليس كذلك؟

تريدين أن تعرفي إن كنت شريرة كما يقول الجميع عني.

الإجابة لا.

ونعم.

١

المكتب في الشارع الرئيسي، محشور بين صالون تجميل وواجهة متجر تبدو الآن، وبعد فوات الأوان، منذرة بالشر. عندما جئت إلى هنا لإجراء مقابلة العمل الأولى لي، كانت وكالة سفر، وفي الواجهة ملصقات توحي بالحرية والهروب والسماء المشرقة. لكن في زيارتي الأخيرة، عندما أُخبرت بإيقافي عن العمل، كانت خاوية ومظلمة. والآن، بعد ستة أشهر، صارت صالة تمارين رياضية، ولا فكرة لديَّ عما ينذر به هذا.

داخل المكتب، ينتظرني مستر جرلين خلف طاولة في الطرف القصي لمساحة من الواضح أن القصد منها أن تكون مساحة للبيع بالتجزئة. بخلوه من الرفوف وماكينات تسجيل المدفوعات النقدية والمنتجات المعروضة، يبدو المكان أشد اتساعًا وفراغًا من مجرد كونه مكتبًا لا يعمل به إلا شخص واحد فقط. يتردد صدى صوت انغلاق الباب من خلفي عبر المساحة الفارغة، عاليًا بشكل غير طبيعي.

يقول مستر جرلين بطريقة أكثر ودًّا بكثير من طريقته خلال زيارتي الأخيرة:

- أهلًا كيت. سعيد جدًّا برؤيتك مرة أخرى.

- وأنا أيضًا.

أقولها كاذبة. لم أشعر قَطُّ بالارتياح تجاه مستر جرلين. رجل نحيل طويل، له سمت الطيور الجارحة بعض الشيء، ومن الممكن جدًّا أن يتخيله المرء مديرًا

لقاعة جنازات. يتابع تفاصيل الموقف، ويتحقق من الكيفية التي ستكون عليها المحطة التالية عادة بالنسبة إلى أغلب من ترعاهم الوكالة.

وكالة جرلين لمقدمي الرعاية الصحية المنزلية وكالة متخصصة في الرعاية المنزلية طويلة الأمد، وهي واحدة من الوكالات القليلة جدًّا في ولاية مين التي تقوم بهذا العمل. تحمل جدران الوكالة ملصقات لممرضات يبتسمن، على الرغم من أن أغلب طاقم عمل الوكالة - مثلي - لا يمكنهم أن يدَّعوا هذا اللقب بشكل قانوني.

قال لي مستر جرلين في أثناء تلك الزيارة الأولى المصيرية:

- أنتِ مقدمة رعاية الآن. أنتِ لا تُمرِّضين، بل تقدمين الرعاية.

القائمة الحالية لمقدمي الرعاية مثبتة على لوحة الإعلانات خلف طاولة مستر جرلين، تُبيِّن من المتاح حاليًّا ومن المشغول مع مريض. كان اسمي وسطهم ذات مرة، غير متاحة دائمًا، أعتني بأحدهم دائمًا. كنت فخورًا بذلك. كلما سُئلت عما أعمل كي أكسب رزقي، استدعيت أفضل ما لديَّ من انطباعات مستر جرلين وأجبت: «أنا مقدمة رعاية». بدا وقعها نبيلًا. تستحق الإعجاب. كان الناس ينظرون إليَّ بمزيدٍ من الاحترام بعد أن أقولها، ويجعلونني أعتقد أنني وجدت أخيرًا غاية في الحياة. اجتزت المدرسة الثانوية بعناء. فتاة ذكية لكن لم يعتبرني أحد تلميذة نجيبة، وبعد التخرج، كافحت كي أجد ما أفعله بحياتي.

قالت أمي بعد أن فُصلت من مكتب سكرتارية:

- أنتِ تجيدين التعامل مع الناس. ربما يمكنكِ العمل بالتمريض.

لكن العمل ممرضة يتطلب مزيدًا من الدراسة.

لذلك أصبحت أفضل شيء يلي ذلك.

إلى أن فعلت الشيء الخطأ.

وهأنذا الآن، أشعر بالتوتر والضيق والتعب. تعب شديد جدًّا.

يقول مستر جرلين:

- كيف حالكِ يا كيت؟ أتمنى أن تكوني قد نلتِ قسطًا من الراحة والاستجمام.

لا يوجد ما هو أفضل للروح من الاستمتاع ببعض الوقت المستقطع في إجازة.

صراحة لا أعرف كيف أرد. هل أشعر بالراحة بعد إيقافي عن العمل من دون مرتب منذ ستة أشهر؟ هل من الاستجمام أن أُجبَر على النوم في غرفة نوم طفولتي والسير على أطراف أصابعي حول أبي الذي يغلي في صمت، والذي يصبغ إحباطه كل تعاملاتنا؟ هل استمتعت بالتحقيق معي من جانب الوكالة، ووزارة الصحة والخدمات الإنسانية بالولاية، والشرطة؟ الإجابة عن كل هذه الأسئلة: لا.

بدلًا من الاعتراف بأيٍّ من ذلك لمستر جرلين، أقول فقط:

- نعم.

يجيبني:

- رائع! والآن فلنلقِ كل المنغصات خلف ظهورنا، فقد حان الوقت لبداية جديدة.

أتصلب في وقفتي. منغصات! كأن الأمر لم يكن إلا مجرد سوء تفاهم. الحقيقة أنني قضيت اثنتَي عشرة سنة مع الوكالة. كنت أفخر بعملي. كنت مُجيدة في عملي. كنت أقدم الرعاية باهتمام. لكن ما إن سار أمر ما على نحو خاطئ، حتى عاملني مستر جرلين كأنني مجرمة على الفور. وعلى الرغم من تبرئتي من أي خطأ والسماح لي بالعمل من جديد، فإن المحنة بأكملها تركتني غاضبة وشاعرة بالمرارة. وبشكل خاص تجاه مستر جرلين.

لم تكن خطتي العودة إلى الوكالة. لكن بحثي عن وظيفة جديدة أفضى إلى فشل ذريع. ملأت العشرات من طلبات العمل في وظائف لم أرغب فيها لكنني شعرت بالقهر، على أي حال، عندما لم أتلقَّ أي اتصال قَطُّ لإجراء مقابلة شخصية. ملء الرفوف في سوبرماركت. تشغيل ماكينة تسجيل مدفوعات نقدية في صيدلية. تقليب شرائح البرجر في ذلك الفرع الجديد لماكدونالدز الملحق به ملعب بالقرب من الطريق السريع. وفي الوقت الحالي، وكالة جرلين لمقدمي الرعاية الصحية المنزلية هي خياري الوحيد. وعلى الرغم من أنني أكره مستر جرلين، فإنني أكره البطالة أكثر.

أقول محاوِلة جعل هذا الحوار سريعًا قدر الإمكان:
- هل لديك مهمة جديدة من أجلي؟
يقول مستر جرلين:
- نعم. عانت المريضة سلسلة سكتات دماغية منذ سنوات عديدة، وتتطلب عناية مستمرة. كانت لديها ممرضة بدوام كامل - ممرضة خصوصية - رحلت بشكل مفاجئ إلى حدٍّ كبير.
- عناية مستمرة. هذا يعني...
- أنه سيُطلب منكِ العيش معها، نعم.
أومئ برأسي لأخفي دهشتي. ظننت أن مستر جرلين سيبقيني تحت ناظريه في مهمتي الأولى بعد العودة، ويعطيني واحدة من تلك المهام التي تتضمن قضاء نهار من التاسعة صباحًا إلى الخامسة مساءً مع عجوز، والتي تقدمها الوكالة أحيانًا لأهل المدينة مقابل خصم. لكن هذه تبدو أشبه بمهمة حقيقية.
يتابع مستر جرلين:
- سيتوفر لكِ بالطبع السكن والطعام، لكنكِ ستكونين جاهزة عند الطلب أربعًا وعشرين ساعة في اليوم. وأي إجازة تحتاجين إليها ستكون بالاتفاق بينكِ وبين المريضة. هل أنتِ مهتمة؟
بالطبع أنا مهتمة. لكن يمنعني مائة سؤال مختلف من إبداء الموافقة على الفور. أبدأ بسؤال بسيط لكن مهم:
- متى يبدأ العمل؟
- على الفور. أما بالنسبة إلى المدة التي ستقضينها هناك، حسنًا، إذا كان أداؤكِ مُرضيًا، لا أرى سببًا يمنع بقاءك باستمرار إلى ألا تعود هناك حاجة إليك.
إلى أن تموت المريضة، بعبارة أخرى. الحقيقة القاسية المتعلقة بكونك مقدم رعاية صحية منزلية أن الوظيفة دائمًا مؤقتة.
- وأين المكان؟

أسأل آملة أن يكون في منطقة نائية من الولاية. كلما كان أبعد، كان أفضل.

يقول مستر جرلين محطمًا تلك الآمال:

- خارج البلدة.

لكنه يحييها بعد لحظة عندما يضيف:

- على المنحدرات.

المنحدرات. لا يعيش فيها إلا الأثرياء السفهاء، متحصنين في منازل هائلة فوق المنحدرات الصخرية المطلة على المحيط. أجلس ويداي مضمومتان في حِجري، وأظفاري تحفر في كفَّي. هذا غير متوقع. فرصة لأن أستبدل حالًا بمنزل المزرعة الحقير الذي نشأت فيه منزلًا على المنحدرات؟ هذا يبدو أجمل من أن يكون حقيقيًّا. وهو ما لا بد أنه الحال. لا أحد يترك وظيفة مثل هذه إلا إذا كانت هناك مشكلة.

- لماذا رحلت الممرضة السابقة؟

يقول مستر جرلين:

- لا فكرة لديَّ. كل ما قيل لي إن العثور على بديل مناسب كان مشكلة.

- هل المريضة...

أتوقف عن إكمال السؤال. لا أستطيع أن أقول صعبة، على الرغم من أنها أقرب كلمة أريد استخدامها.

- في حاجة إلى رعاية خاصة؟

يقول مستر جرلين:

- لا أعتقد أن المشكلة في حالتها، على الرغم من حساسيتها. المسألة بصراحة شديدة هي سمعة المريضة.

أتململ في مجلسي.

- من المريضة؟

- لينورا هوب.

لم أسمع بذلك الاسم طوال سنوات. عقد من الزمان على الأقل. ربما عقدان.

يجعلني سماعه الآن أرفع ناظري عن حجري مندهشة. في الحقيقة أنا أكثر من مندهشة. أنا مشدوهة. شعور لست واثقة بأنني مررت به من قبل. لكنه ماثل وحاضر، نوع من الصدمة القلقة ترفرف وراء أضلعي كطائر حبيس في قفص.

- لينورا هوب نفسها؟

- نعم.

يقولها مستر جرلين في شمم، كأنه أهين لمجرد إساءة فهمه ولو قليلًا.

- لم أكن أعرف أنها ما زالت على قيد الحياة.

عندما كنت أصغر سنًّا، لم أفهم حتى أن لينورا هوب حقيقية. افترضت أنها أسطورة ابتدعها الصغار كي يخيف بعضهم بعضًا. تتلوى أغنية كنا نرددها في فناء المدرسة، ونسيتها منذ الطفولة، لتشق طريقها عائدة إلى ذاكرتي.

في السابعة عشرة، لينورا هوب

خنقت أختها بحبل وهوب!

بعض الفتيات الأكبر سنًّا أقسمن إنك لو أطفأت كل الأنوار، ووقفت أمام المرآة، وأنشدت تلك الأغنية، قد تتجلى لينورا بنفسها في المرآة. وإذا حدث ذلك، فاحترس، لأن معناه أن أسرتك سوف تموت بعدها. لم أصدق ذلك قَطُّ. أيقنت أنها مجرد تنويعة على حكاية بلودي ماري(1)، التي كانت مختلقة بالكامل، وهو ما يعني من ثَمَّ أن لينورا هوب ليست حقيقية.

لم أعرف الحقيقة إلا في فترة مراهقتي. لينورا هوب ليست حقيقية فحسب، بل هي من أبناء البلدة، وتعيش حياة رغدة في منزل منيف على بعد عدة أميال خارج البلدة.

إلى أن انفجرت فجأة ذات ليلة.

طعنت أباها بسكِّينة

---

(1) ماري الدموية (Bloody Mary): أسطورة عن شبح أو ساحرة يقال إنها تظهر في المرآة عند ذكر اسمها ثلاث مرات أو أكثر في غرفة مظلمة، وهي تحمل سكينًا، وإحدى يديها مقطوعة، وتلبس ثوبًا أبيض، وعلى وجهها دماء. (المترجم).

وأنهت حياة أمها المسكينة

يقول مستر جرلين:

- إنها لا تزال على قيد الحياة.

- يا إلهي! لا بد أنها عجوز جدًّا.

- هي في الحادية والسبعين من العمر.

يبدو ذلك مستحيلًا. افترضت دائمًا أن حوادث القتل قد وقعت في قرن مختلف. عصر التنورات المطوقة، ومصابيح الغاز، والعربات التي تجرها الخيول. لكن لو كان مستر جرلين محقًّا، فهذا يعني أن مذبحة عائلة هوب وقعت في زمن ليس بعيدًا جدًّا، إذا وضعنا كل الأمور في الحسبان.

أُجري الحسابات في ذهني، لأجد أن جرائم القتل كانت في عام ١٩٢٩. منذ أربعة وخمسين عامًا فقط. وإذ يتضح التاريخ مستقرًّا مع صوت تكة على شاشة التقويم في ذهني، يتجلى مثله السطران الأخيران من الأغنية.

«لم تكن أنا»، هكذا أقسمت

لكنها الوحيدة التي لم تمُت

وهي الحال نفسها ما زالت كما هي واضحة. لينورا هوب ذات الصيت الشائن لا تزال على قيد الحياة، ليست بخير، وفي حاجة إلى الرعاية. رعايتي أنا، إذا كنت أريد المهمة. وأنا لا أريدها.

- ألا يوجد شيء آخر متاح؟ أي مريض آخر جديد؟

يقول مستر جرلين:

- أخشى أنه لا يوجد غيرها.

- ألا يوجد أي مقدم رعاية آخر متاح؟

يقول مستر جرلين وهو يُشبك أصابعه:

- كلهم محجوزون. هل لديكِ مشكلة مع هذه المهمة؟

نعم، لديَّ مشكلة. مشكلات عديدة، أولاها أن مستر جرلين ما زال يعتقد أنني مذنبة، لكنه لا يملك أي أساس قانوني كي يفصلني من دون أدلة أخرى.

وبما أن الإيقاف لم يبعدني، فهو يحاول أن يفعل ذلك بتكليفي أن أعتني بامرأة هي ليزي بوردن[1] البلدة.

- الأمر فقط، أنا لست...

أتلعثم باحثة عن الكلمات الصحيحة قبل أنا أقول:

- نظرًا إلى ما فعلته، لا أعتقد أنني سأشعر بالارتياح وأنا أعتني بامرأة على شاكلة لينورا هوب.

يقول مستر جرلين:

- هي لم تُدَن قَطُّ بأي جريمة. وبما أنه لم تثبت إدانتها، لا خيار أمامنا إلا تصديق أنها بريئة. اعتقدت أنكِ من بين جميع الناس من سيُقدِّر ذلك.

تنطلق الموسيقى في صالة التمارين الرياضية المجاورة، مكتومة خلف الجدار المشترك. أغنية «فيزيكال» للمغنية أوليفيا نيوتن-جون. لا علاقة للأغنية بالتمارين الرياضية، على الرغم من أنني أراهن أن ربات المنازل هؤلاء اللاتي يكدحن في قمصان ممزقة متعرقة وجوارب رياضية سميكة لا يبالين. هن ببساطة قانعات بإهدار المال على محاربة سمنة منتصف العمر. وتلك رفاهية لا أستطيع تحمُّل ثمنها.

يقول مستر جرلين:

- أنتِ تعرفين كيف تسير الأمور يا كيت. أنا أحدد المهام ومقدمو الرعاية يلتزمون بها. إذا كنتِ غير مستريحة إلى هذا، فأقترح أن يفترق طريقانا إلى الأبد.

كنت لأحب أن أفعل ذلك تمامًا. لكنني أعرف أيضًا أنني في حاجة إلى عمل. أي عمل.

أحتاج إلى البدء في إعادة تكوين مدخراتي، التي تقلصت إلى العدم تقريبًا.

---

(١) ليزي بوردن (١٨٦٠-١٩٢٧): امرأة أمريكية ذاع صيتها بسبب محاكمتها ثم تبرئتها في قضية قتل والدها وزوجته بالفأس سنة ١٨٩٢ بمدينة فول ريفر بولاية ماساتشوستس. كانت قضيتها شهيرة في جميع أنحاء الولايات المتحدة. (المترجم).

وقبل كل شيء، أحتاج إلى الهروب من أبي، الذي لم يتحدث إليَّ تقريبًا طوال ستة أشهر. أتذكر بوضوح شديد أن آخر جملة كاملة وجَّهها إليَّ كانت من الممكن أن تخترق الجلد. كان جالسًا وراء طاولة المطبخ، يقرأ جريدة الصباح، وفطوره لم يُمس. ألقى الجريدة على الطاولة بقوة، وأشار إلى العنوان الرئيسي في الصفحة الأولى.

اجتاحني شعور بالطفو وأنا أحدق إليه. كأن ذلك لا يحدث لي بل لشخص يمثِّل دوري في فيلم تلفزيوني سيئ. تضمَّن المقال صورتي في الكتاب السنوي. لم تكن صورة جيدة، كما هي حال الصور دومًا. صورتي وأنا أحاول أن أرسم ابتسامة أمام تلك الخلفية الزرقاء المقامة في صالة الألعاب الرياضية بالمدرسة الثانوية التي بدت موحلة ورمادية عندما استحالت إلى نقاط من الحبر في طباعة الجريدة. في الصورة، بدا شعري الريشي[1] كما كان بالضبط ذلك الصباح. أصابتني الصدمة بالخدر، وأول ما خطر ببالي أنني في حاجة إلى تحديث تصفيفة شعري.

قال أبي، كأنه يحاول أن يُحسِّن معنوياتي:

- ما يقولونه ليس صحيحًا يا كيت كات.

لكن كلماته لم تتوافق مع تعبيره المنزعج. عرفت أنه لم يقُلها من أجل خاطري، لكن من أجله هو. كان يحاول أن يقنع نفسه أن الأمر ليس صحيحًا.

رمى أبي الجريدة في سلة المهملات، وغادر المطبخ من دون أن ينطق بكلمة أخرى. لم يقل كثيرًا لي بعدها. والآن أفكر في ذلك الصمت الطويل المشحون الخانق وأقول:

- سأفعلها. سأقبل المهمة.

أقول لنفسي لن تكون بذلك السوء. هي فقط مهمة مؤقتة. بضعة أشهر بحد

---

(١) تصفيفة شعر كانت شائعة في السبعينيات وأوائل الثمانينيات، حيث يُصفف الشعر الناعم في طبقات مع فرق الشعر من المنتصف أو الجانب، ويُمشط إلى الخلف من الجانبين ليعطي مظهرًا مشابهًا لريش الطيور. (المترجم).

أقصى. فقط إلى أن أدخر ما يكفي من المال كي أنتقل إلى مكان جديد. مكان أفضل. مكان بعيد عن هنا.

يقول مستر جرلين من دون أي لمحة حماسة:

- رائع. سيكون عليكِ أن تستلمي عملكِ في أسرع وقت ممكن.

يعطيني توجيهاته للوصول إلى منزل لينورا هوب، ورقم هاتف كي أتصل إن قابلتني مشكلة في العثور عليه، وإيماءة رأس إشارة إلى أن المسألة سُوِّيت. وبينما أهمُّ بالانصراف، أختلس نظرة إلى لوحة الإعلانات وراء طاولته. يوجد حاليًّا ثلاثة مقدمي رعاية بلا مهام. إذن يوجد آخرون متاحون. لا يغيب عني السبب وراء كذب مستر جرلين بشأن ذلك.

ما زلت أعاقَب على مخالفة البروتوكول وتشويه سمعة الوكالة القوية كالجنيه الإسترليني.

لكن وأنا أدفع الباب خارجة إلى هواء أكتوبر اللاذع في ولاية مين، أفكر في سبب آخر وراء تكليفي بهذه المهمة. سبب أكثر برودة من الجو.

لقد اختارني مستر جرلين لأن لينورا هوب مريضة لا أحد - ولا حتى الشرطة - سيبالي إن قتلتها.

٢

أستغرق أقل من ساعة كي أجمع متعلقاتي. تعلمت مبكرًا أن مقدم الرعاية ينبغي أن يحزم أمتعة خفيفة. حقيبة طبية، وحقيبة ملابس، وصندوق. لا حاجة إلى ما هو أكثر من ذلك.

تمتلئ الحقيبة الطبية بأدوات مهنتي. ترمومتر، وجهاز قياس ضغط الدم، وسماعة طبيب. قدَّم لي والداي تلك الحقيبة الجلدية السوداء عندما وظفني مستر جرلين لأول مرة. وبعد اثنتَي عشرة سنة، ما زلت أستخدمها، على الرغم من أن السحَّابة تعلُق والجلد متشقق عند الحواف.

تمتلئ حقيبة الملابس بحقيبة أدوات نظافتي الشخصية وملابسي. سراويل فضفاضة وسترات صوفية عادية محتشمة انقضت عشر سنوات على موضتها. لقد كففت منذ زمن طويل عن محاولة أن أسير وفق الموضة. الراحة والاقتصاد أهم.

يمتلئ الصندوق بالكتب. أغلبها طبعات شعبية. كانت تخص أمي ذات يوم، وتحمل سمت التآكل والاستعمال من قارئة نهمة.

اعتادت أن تقول:

- لا تشعرين أبدًا بالوحدة عندما يكون بقربك كتاب. أبدًا على الإطلاق.

وعلى الرغم من أنني أحمل تقديرًا لذلك الرأي العاطفي، فإنني أعرف أيضًا

أنه كذبة. طوال ستة أشهر، كنت محاطة بالكتب، ولم أشعر قَطُّ بأنني أكثر وحدة من تلك الفترة.

بعد أن حزمت كل شيء، أتلصص على الرواق لأتأكد من خلو الطريق إلى الباب الخلفي من المطبخ. عاد أبي إلى المنزل لتناول الغداء، وهو ما يفعله أحيانًا عندما يكون موقع العمل قريبًا. هو الآن في غرفة المعيشة، يشاهد التلفزيون ويأكل شطيرة وهو يغوص في جلسته داخل مقعده الكبير الوثير.

في الأشهر الستة الماضية، أصبح كلانا خبيرًا في تجنُّب الآخر. مضت أسابيع كاملة لم يرَ أحدنا الآخر. بقيت في غرفتي أغلب الوقت، مجازِفة بالذهاب إلى المطبخ فقط عندما أكون على يقين أن أبي في العمل أو نائم أو خرج مع الخليلة التي من المفترض ألا أعرف بأمرها. لم تتعرف إحدانا بالأخرى. عرفت بوجودها فقط لأني سمعتهما يتحدثان في غرفة المعيشة قبل أسبوع، واندهشت لسماع صوت امرأة أخرى في المنزل. في الليلة التالية، تسلل أبي خارجًا مثل تلميذ صغير، إما لأنه كان أكثر خوفًا من الاعتراف بأنه بدأ المواعدة من جديد، وإما لأنه أكثر خجلًا من المجازفة بأن أقابل مصادفة صديقته السيدة الجديدة.

أنا الآن من أتسلل خارجة، سائرة على أطراف أصابعي وأنا أقطع الطريق إلى سيارتي مرتين، مرة من أجل حقيبة الملابس والحقيبة الطبية، ومرة من أجل صندوق الكتب. في المرة الثانية، أجد كيني مستندًا إلى سيارتي الفورد إسكورت. من الواضح أنه رآني أحمل حقيبة الملابس وخرج من منزله المجاور لنا، كي يتحرى الأمر. يقول وهو يحدق إلى الصندوق في يدَي:

- هل ستنتقلين من المنزل؟

- نعم، حاليًّا. وربما إلى الأبد. حصلت على مهمة عمل جديدة.

- ظننت أنك فُصلتِ.

- أوقفت عن العمل. وانتهى الإيقاف للتو.

يقول كيني عابسًا:

- أوه!

هذا أمر نادر منه. في العادة لا ينظر إلا نظرة هائجة جائعة.

- هل نفعلها بسرعة قبل أن ترحلي؟

هذا\هو كيني الذي اعتدت أن أراه منذ أن بدأنا ننام معًا في شهر مايو. هو مثلي عاطل عن العمل حاليًّا ويعيش مع والديه. وعلى عكسي، هو فقط في العشرين من عمره. هو سري الصغير المشين. أو الأرجح، أنا سره الصغير المشين.

بدأ الأمر ذات ظهيرة عندما كنا مستلقيين في فناءينا المتصلين في الوقت نفسه، أنا مع طبعة شعبية لإحدى روايات الكاتب سيدني شيلدون، وكيني مع سيجارة ماريجوانا. تبادلنا النظرات عبر العشب بضع مرات قبل أن يقول:

- ألديكِ عمل اليوم؟

- لا. وأنت؟

- لا.

بعد ذلك، وبما أنني كنت ضجرة ووحيدة، قلت:

- أتريد زجاجة من البيرة؟

قال كيني:

- بالتأكيد.

وهو ما أدى إلى تناول الشراب معًا. وهو ما أدى إلى محادثة قصيرة. وهي ما أدت إلى مداعبات على أريكة غرفة المعيشة.

أخيرًا قال كيني:

- هل تريدين مضاجعة أو شيئًا من هذا القبيل؟

كان قد مر شهر على إيقافي عن العمل، وكنت ممتلئة بالرثاء لذاتي. تفحصته. لم يكن قبيح الهيئة، على الرغم من الشارب الذي تدلى أسفل أنفه مثل دودة ميتة. كانت بقيته أفضل بكثير. خصوصًا ذراعيه، اللتين كانتا مفتولتين وقويتين ومصطبغتين بسمرة الشمس. كان بمقدوري - وقد فعلتها من قبل - أن أقبل بما هو أسوأ بكثير.

قلت وأنا أهز كتفي:

- طبعًا. لِمَ لا؟

عندما انتهى الأمر، أقسمت ألا أكررها مرة أخرى. يا إلهي! كنت في الحادية عشرة من عمري عندما وُلد كيني. أتذكر والديه وهما عائدان به من المستشفى، وأمي تهدهده، وأبي يدس ظرفًا به بعض المال في كف أبيه المُتعرقة. لكن عندما ظهر كيني عند الباب الخلفي بعد يومين، وبدا أشبه بكلب ضال يبحث عن بقايا الطعام، سمحت له بالدخول وأرشدته إلى غرفة نومي.

هكذا جرى الأمر مرة، ومرتين، وأحيانًا ثلاث مرات في الأسبوع. أعرف حقيقة المسألة. هذه ليست قصة حب رومانسية. إننا حتى لا نتحدث نصف الوقت. وعلى الرغم من شعوري بالذنب حيال هذا الموضوع، فإنني أعرف أيضًا أنني كنت بحاجة إلى شيء إلى جانب القراءة كي أمرر الأيام الطويلة الموحشة.

أقول لكيني:

- أبي في الداخل. ومريضتي الجديدة تنتظرني.

فقط لا أخبره من تكون هذه المريضة الجديدة. أخشى ما سيعتقده فيَّ لو أخبرته.

يقول كيني من دون أن يبذل جهدًا كبيرًا كي يخفي خيبة أمله:

- طبعًا، أفهم الأمر. أراكِ قريبًا، كما أظن.

أراقبه وهو يسير قاطعًا تلك المسافة القصيرة عائدًا إلى منزله. عندما يدخل من دون أن يلقي نظرة وراءه، أشعر بوخزة في قلبي. ليس حزنًا بالضبط، لكن شيئًا ما قريبًا منه بقوة. لعله لم يكن إلا جنسًا، ولعله لم يكن إلا كيني، لكن على الأقل كان شيئًا، كان شخصًا.

والآن لا يوجد شيء، ولا يوجد أحد.

أضع الصندوق وحقيبة الملابس داخل صندوق السيارة قبل أن أقوم بمشوار أخير إلى داخل المنزل. في غرفة المعيشة، أجد أبي يشاهد نشرة أخبار الظهيرة لأن ذلك ما اعتادت أمي فعله. إنها عادة، وبالنسبة إلى رجل مثل بات ماكدير، من الصعب أن تموت العادات القديمة. في التلفزيون مقطع للرئيس ريجان وهو

يلقي خطبة حول الاقتصاد، بينما تقف نانسي، صاحبة شعار «فقط قُل لا»[1]، متأنقة إلى جواره. أبي، الذي يكره كل السياسيين بصرف النظر عن الحزب، يُطلق نخرة ساخرة.

يتمتم وفمه ممتلئ بالشطيرة:

- هراء يا روني. حاول أن تفعل شيئًا يساعد أشخاصًا مثلي مرة واحدة.

أقف على عتبة الباب، وأتنحنح وأقول:

- أبي، أنا راحلة.

- أوه.

ليست هناك أي دهشة وراء الكلمة. وإن كان هناك شيء، فإن أبي يبدو مرتاحًا.

أضيف عندما لا يلح على معرفة التفاصيل:

- عدت إلى العمل. مريضتي الجديدة ضحية لسكتة دماغية. تعيش هناك في المنحدرات.

أقولها على أمل أن يثير هذا إعجابه - أو على الأقل اهتمامه - بفكرة أن أناسًا أثرياء لديهم من الثقة بي ما يكفي لأن أعتني بأحدهم. إذا كان أحس بأيٍّ من هذا، فهو لم يُبدِه.

يقول:

- لا بأس.

أعرف أن الطريقة الوحيدة الأكيدة لإثارة اهتمام أبي كاملًا هي أن أخبره باسم مريضتي الجديدة. لكن مثلما هي الحال مع كيني، لا أفكر حتى في الأمر. إن معرفة أنني سأعتني بلينورا هوب ستجعل أبي فقط يحتقرني أكثر. إذا كان هذا شيئًا ممكنًا.

بدلًا من ذلك أقول:

---

(١) حملة إعلانية سادت خلال الثمانينيات وأوائل التسعينيات كجزء من الحرب التي خاضتها الولايات المتحدة ضد المخدرات، بهدف ثني الأطفال عن التعاطي، ودعمت نانسي ريجان ذلك الشعار في أثناء فترة رئاسة زوجها. (المترجم).

- هل تحتاج إلى أي شيء قبل أن أمضي؟

يقضم أبي قطعة أخرى من الشطيرة ويهز رأسه. تعود الوخزة التي شعرت بها في الخارج لتضربني من جديد. وعلى نحو أقسى هذه المرة. قسوة شديدة بما يكفي كي أقسم إن قطعة من قلبي انكسرت، وها هي ذي تسقط الآن في أعماق جوفي.

- سأحاول أن أطمئن عليك كل أسبوعين.

يقول أبي:

- ليس هناك داعٍ.

وهذا هو كل ما يقوله.

أتلكع في المدخل قليلًا؛ منتظرة، آملة، متوسلة في صمت طلبًا للمزيد. أي شيء سيكفي. وداعًا. إلى الجحيم. أي شيء غير صمته العدائي الذي يجعلني أحس كأنني لا شيء. أسوأ من اللاشيء.

غير مرئية.

هكذا أحس.

أرحل بعد ذلك، من دون أن أكلف نفسي عناء قول «وداعًا». لا أريد أن يجيبني الصمت عندما يرفض أبي أن يرد تحية الوداع لي.

٣

تهدر أغنيات فرقة «دوران دوران» من جهاز الاستريو في سيارتي وأنا أتتبع طريقًا يعانق شريط الساحل الصخري، ويعلو مرتفعًا أكثر فأكثر إلى أن ترتج سيارتي الفورد إسكورت، وتغدو مياه المحيط الأطلنطي الهائجة أضغاثًا من البياض تتحطم على شرائط من الرمال بعيدة في الأسفل. تظهر في مرآة الرؤية الخلفية بسيارتي منطقة هي بالتأكيد المنحدرات. منطقة تضج فعليًّا بمظاهر العز التليد، حيث تتشبث المنازل الضخمة المهيبة بالمنحدرات الصخرية كأنها أعشاش طيور الأخرق، تكاد تختفي وراء الأسوار الحجرية وعرائش اللبلاب.

هكذا يعيش النصف الآخر.

هكذا كانت أمي لتصف تلك المنازل على جانب المنحدرات، المنازل ذات الأبراج والسقائف المسيجة المكشوفة والنوافذ البارزة المطلة على البحر.

فلتسمح لي بالاختلاف معها. ولا حتى النصف الآخر يستطيع تحمُّل كلفة العيش في منطقة المنحدرات. لطالما كانت المنطقة - وستظل دائمًا - ذات طبيعة مختلفة وجيهة. إنها مقر صفوة الصفوة، جاثمة في عليائها فوق كل شخص وكل شيء، كأن الرب نفسه وضعها هناك.

كانت أمي ستقول:

- لكن ها أنتِ ذي يا كيت كات. في طريقكِ إلى وظيفة في أحد هذه المنازل.

ومرة أخرى، كنت لأختلف معها. المكان الذي أقصده لا يقترب من فكرة أي إنسان عن الوجهة الفاخرة.

هوبز إند.

إلى يومنا هذا، لم أسمع به إلا مشارًا إليه فقط باسم «هوب هاوس»، عادة بتلك النغمة الخفيضة المدخرة للأمور المأساوية. والآن أعرف السبب. يخطر لي فجأة أن هوبز إند اسم كارثي مذهل[1] بالنسبة إلى أي عقار مملوك. خصوصًا في ضوء ما حدث هناك.

لا تتجاوز معرفتي ما يقال في الأغنية القديمة. أعرف أن ونستون هوب صنع ثروة من الشحن البحري، وبنى قصره على الساحل الصخري لشماليِّ مين، وليس في بار هاربور أو نيوبورت، لأن الأرض هنا في أغلبها لم تكن تحت أنظار التطوير العقاري، واستطاع أن ينتقي على هواه ما شاء من المطلات الخالصة على المحيط. أعرف أيضًا أن ونستون كانت له زوجة، اسمها إيڤانجلين، وابنتان: لينورا وڤرجينيا.

وأعرف أنه ذات ليلة أكتوبرية منذ زمن بعيد، قُتل ثلاثة منهم، واتُّهمت الرابعة في الأسرة بارتكاب جريمة القتل. فتاة في السابعة عشرة من عمرها، لا أكثر ولا أقل. لا عجب أنني اعتقدت أن الأغنية الكئيبة التي عرفتها أول مرة في الملعب القذر خلف المدرسة الابتدائية كانت مختلقة. بدا الأمر كله أكثر قوطية من أن يكون حقيقيًّا.

لكنه حدث.

وصار الآن أسطورة البلدة.

تلك النوعية من الأمور التي يتهامس الصغار حولها في ليالي تجمُّعهم للنوم في منزل أحدهم ولا يروق للكبار التهامس حولها على الإطلاق.

زعمت لينورا، الوحيدة التي بقيت، أن لا علاقة لها بالأمر. أخبرت المحققين

---

(١) إشارة، ستتكرر عدة مرات، إلى التورية الكامنة في اسم المكان الذي يعني «نهاية الأمل» حرفيًّا، وإن كان يحمل اسم العائلة كذلك: هوب. (المترجم).

بأنها كانت نائمة خلال حوادث القتل، ولم تعرف بها إلا بعد أن استيقظت، ونزلت إلى الطابق الأرضي، واكتشفت أن بقية أسرتها قد ماتت.

ما لم تستطِع إخباره للشرطة هو من غيرها كان بمقدوره أن يفعلها.

أو كيف.

أو لماذا.

لم تستطِع لينورا أن تفسر لماذا لم يستهدفها القاتل، وهو ما أدى بالشرطة إلى الاشتباه في كونها الفاعلة، على الرغم من أن أحدًا لم يستطِع أن يثبت ذلك. كان كل الخدم قد مُنحوا تلك الليلة إجازة كي تكتمل الظروف الملائمة وينتفي احتمال وجود أي شهود. وفي غياب أي دليل مادي يربطها بالجرائم، لم تُوجَّه التهمة إلى لينورا قَطُّ. لكن ما على المرء إلا أن يستمع إلى أغنية التلاميذ تلك حتى يتبين ما كان يعتقده الناس. يؤكد السطر الأول من الأغنية - في السابعة عشرة، لينورا هوب - تمام التأكيد أنها المذنبة في الأمر كله.

لست مندهشة. لا يوجد شيء اسمه البراءة المفترضة وأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

أعرف ذلك من واقع الخبرة.

عندما أصدرت البلدة حكمها على لينورا هوب، توارت في منزل عائلتها، ولم تُرَ بعدها قَطُّ. لكنها لم تمنع الناس من المحاولة. عندما كنت في المدرسة الثانوية، كان من الشائع بين شِلل الأولاد أن يتحدى بعضهم بعضًا حول التسلل بالقرب من المنزل والتلصص على النوافذ أملًا في اقتناص لمحة من لينورا. وعلى حد علمي، لم يحظَ أحدهم بأي لمحة، وهو ما أكسب الآنسة هوب بعض الاحترام على مضض في رأيي. فأنا أتمنى لو أستطيع الاختفاء.

إلى الأمام، تكتسب الأرض مزيدًا من الارتفاع، وينحرف الطريق مستجيبًا لهذا الارتفاع. ترتج سيارتي مرة أخرى عندما ألمح سورًا حجريًّا يلوح من بعيد في بقعة بها خطوط من نور الشمس والظل. سور مرتفع بما يكفي لإخفاء أي لمحة مما يوجد خلفه وقديم بما يكفي لأن ينحني الطريق حوله، كما لو كان احترامًا له.

أسير مع الانحناءة، وأنا أقود سيارتي ببطء إلى أن أرى كلمات مكتوبة بطلاء الرش على السور. تخبرني عبارة الجرافيت بلونها الأزرق المتوهج على الطوب الأحمر الفخم أنني في المكان الصحيح.

فلتتعفني في الجحيم يا لينورا هوب

أغض البصر عن الكلمات، متسائلة إن كان ينبغي لي أن أمضي قُدمًا أم أنطلق مبتعدة بأسرع ما يمكن. أعرف الإجابة. إنها تلك التي ليست في إمكاني.

هكذا أستمر في طريقي، دافعة السيارة حتى أقرب نقطة من البوابة المزخرفة التي تغطي فجوة في السور المخرَّب. على الجانب الآخر، يقطع ممر السيارات مرجًا زمرديًّا نحو منزل هوب نفسه.

حين أنظر إليه الآن، أتساءل لماذا يدعوه أي إنسان بالمنزل أصلًا.

إنه ليس منزلًا.

إنه قصر.

شيء لم أرَه شخصيًّا منذ أن أخذني والداي في رحلة ليوم واحد إلى بلدة بار هاربور عندما كنت في الرابعة عشرة. أتذكر كيف قضى أبي اليوم كله متذمرًا من هؤلاء الأوغاد الأثرياء الذين بنوا تلك المنازل الفخمة هناك. يعلم الله ماذا كان ليقول عن هوبز إند، الذي يتفوق على تلك المنازل الفخمة في تلك البلدة المتغطرسة. هو أكبر وأفخم. يليق به أن يظهر في دالاس أو ديناستي أو أي مسلسل من تلك المسلسلات التلفزيونية السخيفة التي تُعرض في وقت الذروة، والتي اعتادت أمي مشاهدتها.

بارتفاعه البالغ ثلاثة طوابق واتساعه البادي كأنه سفينة سياحية، يمثل القصر أعجوبة من أعاجيب إسراف العصر المذهب[1]. الجدران من الطوب الأحمر. حول الأبواب الأمامية المزدوجة والنوافذ كلها زخارف رخامية لا تؤدي غرضًا

(١) يُطلق هذا الاسم في تاريخ الولايات المتحدة على المدة من أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر إلى أواخر تسعينيات القرن نفسه، وقد استعاره المؤرخون من عنوان رواية العصر المذهب: حكاية معاصرة لمارك توين. (المترجم).

إلا إظهار مقدار المال الذي كانت عائلة هوب تمتلكه يومًا ما. لا بد أنهم كانوا يمتلكون طنًّا منه لو حكمنا بمقدار المنحنيات والخطوط الزخرفية الملتوية المنحوتة في الواجهة. تحتفظ نوافذ الطابق الثالث بالرخام، لكنها تبرز عن السطح المائل المتوج بدستة من المداخن الضيقة التي تشبه الشموع على كعكة عيد ميلاد مزينة.

عند البوابة ثمة جهاز اتصال داخلي صغير. أُنزل زجاج نافذتي وأمد ذراعي كي أضغط عليه. تمر ثلاثون ثانية قبل أن يطقطق منبعثًا إلى الحياة في نوبة من الوشيش، تبعها صوت امرأة:

- نعم.

ليس سؤالًا. في الواقع، الطريقة التي تقولها بها مشحونة بقدر ما يمكن أن تحمله هذه الأحرف الثلاثة من نفاد صبر.

- أهلًا. أنا كيت ماكدير.

أسكت كي أسمح لمصدر الصوت بتقديم نفسها أيضًا. لكنها لا تفعل، فتدفعني إلى إضافة:

- أعمل مع وكالة جرلين لمقدمي الرعاية الصحية المنزلية. أنا مقدمة الرعاية الجد...

تقاطعني المرأة باقتضاب، قبل أن يصمت جهاز الاتصال الداخلي:

- اصعدي إلى المنزل.

أمام السيارة، تبدأ البوابة في الانفتاح، وتندُّ عنها ارتجاجة عصبية، كأن حضوري أثار روعها. يتعالى صريرها وهي تتأرجح لتوسع الطريق ببطء، جاعلة إياي أتساءل: ترى كم مرة يستقبل هوبز إند الضيوف؟ ليس كثيرًا على ما أظن، خصوصًا عندما تصلصل البوابة متوقفة على الرغم من أنها لم تقطع إلا نصف الطريق كي تنفتح بالكامل. أتقدم بالسيارة قليلًا، محاوِلة أن أتبين إن كان يوجد حيز كافٍ للمرور. لا يوجد. خصوصًا إذا كنت أريد الاحتفاظ بمرآتَي الجانبيتين، وأنا أريد هذا كثيرًا. ميزانيتي، كما هي الآن، لا تتضمن إصلاح أعطاب في السيارة.

أوشك على النزول من السيارة ودفع البوابة بنفسي عندما ينادي صوت رجل من بعيد:

- هل علقت مرة أخرى؟

يقترب مصدر الصوت، دافعًا عربة يدوية مكدسة بأوراق الشجر الساقطة. ألاحظ أنه وسيم. في منتصف الثلاثينيات. له هيئة جيدة جدًّا، بقدر ما يمكنني أن أتبين، تحت قميصه القطني وبنطاله الجينز الملطخ بالتراب. له لحية مكتملة وشعر نما أطول قليلًا مما يجب بحيث تلتوي أطرافه بعض الشيء عند مؤخرة عنقه. كنت لأهتم به في ظل ظروف مختلفة. مختلفة تمامًا. مختلفة اختلاف العيش في وجود آخر. لا تتسع حياتي للورطات الرومانسية، تمامًا مثل مسألة إصلاح السيارة. وبالطبع لا يُحسب كيني في هذه المسألة.

أقول من خلال النافذة المفتوحة:

- لا أعرف أمر المرة الأخرى، لكنها عالقة الآن بالتأكيد.

يجيبني الرجل وهو يلوي شفتيه بابتسامة محببة:

- كان يجدر بكِ أن تقولي مرات. تلك أقرب إلى المرة العاشرة. أنسى باستمرار إضافتها إلى قائمة الأشياء الأخرى الكثيرة التي يجب أن أفعلها هنا. هل أنتِ الممرضة الجديدة؟

أقول:

- مقدمة الرعاية.

تصحيح ضروري. تدرس الممرضات في معاهد. أما مقدمو الرعاية، مثلي، فيحصلون على تدريب متخصص - ١٨٠ ساعة إلزامية من الدولة في ولاية مين - يعلمنا الأساسيات. الاطمئنان على الوظائف الحيوية، وصرف الأدوية، والعلاج الطبيعي الخفيف. لكن تفسير كل ذلك لشخص غريب يستغرق وقتًا أكثر مما يستحق.

- إذن فلنفتح هذه البوابة كي تتمكني من بدء عملكِ.

يجذب الرجل زوجًا من قفازات العمل من الجيب الخلفي لبنطاله الجينز. يقول وهو يرتديهما بطريقة استعراضية:

- الأمان أولًا. لقد تعلمت بالطريقة الصعبة... هذا المكان من الممكن أن يعض.

يجذب البوابة بعنف، وتُطلق البوابة صريرًا فظيعًا بشدة، حتى إنني كنت لأصفها بأنها متألمة لو خرج هذا الصوت من شخص في رعايتي.

أسأله وأنا أرفع صوتي كي يُسمع أعلى من صوت البوابة:

- هل تعمل هنا بدوام كامل؟

يقول الرجل:

- نعم. لم يَعُد كثير منا هنا، على الرغم من أنه ذات يوم كان هذا المكان يعج بالمساعدين العاملين. مثلًا، كان يوجد بستاني وحارس للأرض وعامل صيانة، بالإضافة إلى مجموعة من المساعدين بدوام جزئي. والآن أنا كلهم مجموعون في شخص واحد.

- هل يعجبك المكان هنا؟

يدفع الرجل البوابة دفعة أخيرة، مبعدًا إياها عن ممر السيارات. يلتفت إليَّ ويقول:

- هل أنا خائف، هذا ما تقصدين.

نعم، هذا ما أقصده. قصدت به أن يكون سؤالًا بريئًا. سؤالًا طبيعيًّا، نظرًا إلى ما حدث هنا. لكن بعد فوات الأوان أدرك كيف من الممكن أيضًا اعتباره سؤالًا وقحًا بشدة.

- أنا فقط...

يقول الرجل:

- لا بأس. أنتِ فقط تشعرين بالفضول. أعرف ما يقوله الناس وراء هذه الأسوار عن هذا المكان.

- أظن أن ذلك يعني لا.

- ظنٌّ صحيح.

يخلع الرجل أحد قفازيه ويمد يده قائلًا:

- أنا كارتر، بالمناسبة.

أصافحه وأقول:

- كيت ماكدير.

- سعيد بمقابلتكِ يا كيت. أنا واثق بأنني سأصحبكِ لرؤية المكان.

أتوقف قبل أن أبتعد بالسيارة وأقول:

- شكرًا على مساعدتي في مسألة البوابة. لا أعرف ماذا كنت لأفعل لو لم تأتِ.

- أعتقد أنكِ كنت ستتمكنين من التصرف بطريقة ما.

يتفحصني كارتر، وقد أمال رأسه تعبيرًا عن تقييم فضولي.

- ينتابني شعور أنكِ واسعة الحيلة.

كنت كذلك، ولم أعُد. لا يُوقَف واسعو الحيلة عن عملهم، ويستطيعون العثور على وظائف جديدة إذا أوقفوا، ولا يستمرون في العيش في منازل آبائهم في سن الحادية والثلاثين. على الرغم من ذلك، أتقبل المجاملة بإيماءة رأس.

يقترب كارتر من نافذة السيارة المفتوحة وينحني حتى تلتقي أعيننا ويقول:

- شيء آخر، انسي ما يقوله الجميع عن لينورا هوب وما حدث هنا. لا يعرفون عما يتحدثون. الآنسة هوب لا ضرر منها على الإطلاق.

على الرغم من أن كارتر أراد من كلماته أن تكون مطمئنة، فإنها لم تؤكد إلا الحقيقة السريالية للموقف. نعم، عرفت ما تضمنته الوظيفة عندما غادرت مكتب مستر جرلين. لكنها كانت فكرة مجردة، دفعتها إلى الخلفية أفعال مثل حزم الأمتعة، والتعامل مع تناقضات أبي، ومحاولة العثور على هذا المكان. لكن الآن بعد أن صرت هنا، تضربني مثل لكمة غير متوقعة.

أنا على وشك مقابلة امرأة ذبحت أسرتها.

أُذكِّر نفسي: من المزعوم أنها ذبحتهم. لم تُدَن لينورا قَطُّ بأي جريمة، كما ذكَّرني مستر جرلين باحتشام شديد. لكن مَن غير لينورا يمكن أن يكون قد فعلها؟ لم يكن هناك أحد آخر في المنزل، ولم يكن هناك مشتبه فيهم آخرون لوضعهم في الحسبان، ولم يبقَ أحد آخر حيًّا. يلح السطر الأخير من الأغنية على أفكاري.

لكنها الوحيدة التي لم تمُت

تسري قشعريرة في ظهري وأنا أقود السيارة مبتعدة عن كارتر، وأتوجه رأسًا نحو المنزل الرئيسي. أقود ببطء، ونظرتي ثابتة على البناء المذهل الذي يلوح أمامي. لكن عندما أقترب أكثر، تتبدد الفخامة المترفة للمكان مثل الضباب، كاشفة عن الإهمال المتواري على مرأى من الجميع.

أدرك، عن قرب، أن هوبز إند في حالة سيئة.

إحدى نوافذ الطابق الثاني تفتقد ألواحها الزجاجية، وتُغطى فتحتها الفاغرة الآن بلوح من رقائق الخشب. تكسرت قطع من الرخام وانفصلت عن الزخارف المحيطة ببعض الأبواب والنوافذ. يفتقد السطح خُمس ألواحه الإردوازية، وهو ما يمنحه هيئة متداعية مجدورة تبدو مريحة صراحة. أخيرًا، مكان محطم مثلما أشعر.

ينتهي ممر السيارات بدوران أمام المنزل، مع وجود ممر فرعي آخر يؤدي إلى جراج منخفض على بُعد بضع ياردات من المنزل الرئيسي. ألتف بسيارتي مع الدوران، وأعدُّ أبواب الجراج.

خمسة.

هكذا يعيش النصف الآخر فعلًا.

أوقف سيارتي أمام المنزل، وأخرج منها، وأقفز صاعدة ثلاث درجات إلى مجموعة ضخمة من الأبواب المزدوجة الموجودة في وسط القصر تمامًا. قبل حتى أن أتمكن من الطرق، تنفتح الأبواب، كاشفة عن امرأة تقف بالداخل. يفزعني حضورها المباغت. أو ربما فقط مظهرها أحادي اللون هو المُفزع. شعر أبيض يصل إلى كتفيها. فستان أسود محبوك حول هيكل ممشوق. ياقة من الدانتيل تشبه مفارش المائدة التي كانت جدتي تنسجها بالكروشيه. بشرة شاحبة. عينان زرقاوان. طلاء شفاه بلون الكرز الصريح. مظهر مسرحي وصارم بشدة، إلى درجة أنني لا أستطيع أن أحدد بدقة عمر المرأة. إذا كان عليَّ أن أخمن، سأقول إنها في الخامسة والسبعين، مدركة أنني قد أكون مخطئة بمقدار عشر سنوات على الأقل أكبر أو أصغر.

تتدلى نظارة بإطار على شكل عينَي القطة من سلسلة حول عنق المرأة. تضعها على عينيها وترمقني جزءًا من الثانية - تقييم لحظي.

أخيرًا تقول:

- آنسة ماكدير. مرحبًا.

- أشكرك.

أقولها على الرغم من أن نبرة المرأة لا تحمل أي ترحيب حرفيًّا. من الواضح أنها المرأة نفسها التي تحدثتُ إليها عبر جهاز الاتصال الداخلي. لا يمكن أن يخطئ المرء هذا الصوت الفاتر.

- أنا مدام بيكر، مديرة المنزل.

تتوقف المرأة كي تتفحص ما أرتديه، ويبدو أنها وجدت معطفي غير لائق. معطف أزرق من الصوف وبه نتف هائشة في مواضع أكثر من أن تُعَد. حصلت عليه منذ زمن بعيد، حتى إنني لا أستطيع أن أتذكر متى أو أين اشتريته. أو ربما يكون نفور مدام بيكر الظاهر مدخرًا لما هو تحت المعطف. بلوزة بيضاء. تنورة رمادية. حذاء أسود مسطح ارتديته آخر مرة في جنازة أمي. إذا كان الأمر كذلك، فهو شيء لا أستطيع اجتنابه. تلك هي أفضل ثياب أمتلكها.

بعد لحظة من التردد الواضح، تضيف مدام بيكر:

- ادخلي.

أتردد أيضًا، متأرجحة في وقفتي بالخارج. يوقفني المدخل. واسع بقدر ارتفاعه تقريبًا ومحاط بمزيد من تلك الزخارف الرخامية المنتشرة في كل مكان، يشبه فمًا مفتوحًا بشكل ما. يُذكِّرني النظر إليه بشيء قاله كارتر.

هذا المكان من الممكن أن يعض.

أشتاق فجأة إلى المنزل. مفاجأة كاملة، نظرًا إلى الكيفية التي لم أشعر بها أن ذلك المنزل هو منزلي منذ أن ماتت أمي. لكنه يومًا ما كان مكانًا سعيدًا، ممتلئًا بذكريات سعيدة بالمثل. أعياد كريسماس يتساقط فيها الثلج وكعكات عيد ميلاد وأمي بمئزرها السخيف بنقوشه الوردية تصنع الخبز المحمص الفرنسي في

صباحات الأحد. هل يملك هوبز إند أي ذكريات سعيدة أم تلاشت جميعها في تلك الليلة الرهيبة؟ هل الحزن هو الشيء الوحيد الذي يبقى؟

تقول مدام بيكر بعد نحنحة، نافدة الصبر:

- هل ستدخلين يا عزيزتي؟

جزء مني لا يريد الدخول. المكان كله - حجمه، وأبهته، وسمعته على نحو خاص - يجعلني راغبة في الاستدارة على عقبي والعودة إلى منزلي رأسًا.

لكني عندئذ أتذكر أبي، وغرفة نومي، وبقايا المال في حساب مدخراتي. لن يتغير شيء من ذلك إذا لم أفعل شيئًا حياله. لو رحلت - وهو ما أريد فعله بلهفة - سأعلق في الجحيم نفسها التي سكنتها طوال الأشهر الستة الماضية. لكن العمل هنا، حتى لبضعة أسابيع فقط، قد يغير كل شيء.

بوضع هذا في ذهني، آخذ نفسًا عميقًا، وأجتاز الباب، وأسمح لهوبز إند بابتلاعي كلية.

٤

هوبز إند من الداخل ألطف من الخارج، قليلًا فقط. خلف الباب تمامًا بهو كبير له بلاط من الرخام، وستائر مخملية تتدلى على النوافذ، وأبسطة على الجدران. تمتد المفروشات من نبتات في أصص إلى مقاعد خشبية فاخرة لها مساند مغبرة تحت وسائد مطرزة. في الأعلى، ثمة سماء مرسومة بألوان الزيت ممتلئة بسحب وردية منفوشة تزين السقف المقوس. كل شيء يبدو في الوقت نفسه فاخرًا وباليًا وعالقًا في الزمن. كأنه بهو فندق أربع نجوم هُجر فجأة منذ عقود.

إلى اليسار، يمتد رواق طويل إلى جانب نوافذ طويلة ومدخل وحيد مفتوح، يؤدي إلى مجموعة من الأبواب المزدوجة المغلقة حاليًّا. ثم ينعطف إلى اليمين بحدة، مختفيًا وراء زاوية. على اليمين رواق آخر، يتيح رؤية مباشرة لغرفة غارقة في نور الشمس.

لكن انتباهي مُركَّز في أغلبه على ما هو أمامي. درج مغطى ببساط أحمر يقع قبالة الباب الأمامي مباشرة، ويرتفع قرابة اثنتَي عشرة درجة قبل أن ينقسم إلى درجين أشبه بجناحين. ثم ينحني كل نصف متطابق صاعدًا إلى الطابق الثاني. أعلى البسطة الوسطى تلوح نافذة من الزجاج الملون، تخترقها خطوط مائلة من نور الشمس بألوان قوس قزح تلون البساط.

تقول مدام بيكر:

- الدرج الكبير. بُني مع المنزل عام ١٩١٣ . لم يتغير إلا القليل جدًّا في المنزل من وقتها. حرص السيد هوب على اختيار تصميم عابر للزمن.

تستمر في السير، وكعبا حذائها يدقان مثل بندول الإيقاع على البلاط الرخامي. أسير وراءها، متعثرة قليلًا في الأرضية. تبدو غير مستوية في مواضع منها، تعلو وتنخفض مثل المحيط في الخارج.

تقول مدام بيكر:

- تستطيعين إحضار أمتعتك فيما بعد. اعتقدت أنه من اللطيف أن نتحدث في غرفة التشمس أولًا. إنها غرفة صغيرة مبهجة.

سأصدق ذلك عندما أراها. حتى الآن، لا شيء في هوبز إند يوحي بالبهجة، حتى الأشياء القليلة الجميلة. يبدو أن الكآبة والمأساة سكنتا الأركان، وتجمعتا هناك مثل أنسجة العناكب. ثمة رعدة باردة أيضًا في الهواء - شيء مالح وغامض يجعلني أرتجف.

أعرف أنه خيالي فقط. مات ثلاثة أشخاص هنا. ماتوا بطريقة مريعة، إذا صدقنا الأسطورة. معرفةٌ من هذا القبيل قادرة على التلاعب بعقلك.

كأن هذه النقطة بحاجة إلى رسم توضيحي؛ نمر بلوحة زيتية مؤطرة تصور فتاة مراهقة ترتدي فستانًا من الساتان الوردي.

تقول مدام بيكر من دون أن تكلف نفسها عناء النظر إلى البورتريه وهي تمر بجواره:

- الآنسة هوب، رُسمت بتكليف من والدها للاحتفال بعيد ميلادها.

على عكس مدام بيكر، أتسمَّر واقفة أمام البورتريه. فيه تجلس لينورا على أريكة بيضاء، وخلفها ورق جدران بخطوط وردية، وأعلى كتفها تمامًا قسم من مرآة في إطار مذهب. تستند لينورا بطريقة خرقاء بعض الشيء إلى ذراع الأريكة. تستقر يداها في حِجرها، بأصابع متشابكة توحي بتوتر حاول الرسَّام جاهدًا إخفاءه بوضعية اعتيادية أكثر من اللازم.

تُذكِّرني بشرتها الشاحبة وملامحها الرقيقة بزهرة قبل تفتُّحها مباشرة. كان

للينورا الصغيرة أنف منمنم، وشفتان ناضجتان، وعينان خضراوان لامعتان تقريبًا مثل الزجاج الملون أعلى الدرج الكبير. تحدق إلى الرسَّام مباشرة، وفي نظرتها بريق من الخبث، كأنها تعرف ما سيقوله الناس عنها بعد عقود في المستقبل.

تلتفت مدام بيكر، التي سبقتني بخمس خطوات، لتحدجني بنظرة نفاد صبر وتقول:

- غرفة التشمس من هنا يا آنسة ماكدير.

أتابع السير، لكن ليس قبل أن أتزود بنظرة أخيرة لبورتريه لينورا. ثمة ثلاثة بورتريهات أخرى، مطابقة في الشكل والحجم، معلقة في صف إلى جوار بورتريه لينورا، ومخفية وراء غلالة من الحرير الأسود. بدلًا من إسداله فوق اللوحات، انشد القماش وثُبت في مكانه بمسامير مدقوقة في الأطر مباشرة. لكن كل هذا الجهد لم ينجح تمامًا في إخفاء البورتريهات. أستطيع أن أراها قليلًا من خلف القماش الشفاف، مُضببَّة وبلا ملامح. كأنها لأشباح.

ونستون، وإيڤانجلين، وڤرجينيا هوب.

ولينورا الوحيدة المعروضة لأنها الوحيدة الباقية.

ألحق مدام بيكر، وأتبعها بسرعة عبر بقية الصالة، نمرُّ بغرف مغلقة أبوابها بإحكام، لتوحي بأماكن محظورة. عند كل باب، أشعر برعدة أخرى قصيرة. أقول لنفسي إنها تيارات هوائية. يحدث هذا طوال الوقت في المنازل الكبيرة القديمة مثل هذا المنزل.

غرفة التشمس على الأقل أكثر إنارة من بقية المنزل، إن لم تكن مبهجة بالضبط. الأثاث من نوعية التحف العتيقة نفسها المتناثرة في أرجاء هوبز إند. كثير من المخمل والتطريز والشراشيب. يستقر بيانو كبير في الطرف القصي من الغرفة، غطاؤه مسدل ومغلق بإحكام أكثر من أي نعش.

اختناق الغرفة تخففه صفوف من النوافذ تمتد من الأرض إلى السقف بطول جدارين. يواجه صف من هذه النوافذ رقعة النجيل، وعبرها أستطيع أن أرى كارتر من بعيد، وقد عاد إلى جمع الأوراق المتساقطة. أما مجموعة النوافذ الأخرى

فتطل على شرفة كبيرة خاوية. ويمتد بطول الشرفة سياج رخامي قصير، لا يبلغ حتى ارتفاع الخصر. لا أستطيع أن أرى شيئًا بعد السياج، لأنه لا يوجد حرفيًّا أي شيء آخر لرؤيته. مجرد امتداد لا نهائي من سماء زرقاء تجعل الأمر يبدو كأن المنزل يطفو حرفيًّا وسط الهواء.

تمنحني مدام بيكر بضع لحظات أخرى من التحديق قبل أن تشير إلى أريكة صغيرة مكسوة بالمخمل الأحمر وتقول:

- تفضلي بالجلوس.

أجلس على حافة الأريكة، كأنني خائفة من كسرها. وأنا فعلًا خائفة. كل شيء في هوبز إند يبدو قديمًا جدًّا وثمينًا جدًّا، حتى إنني أظن أن لا شيء هنا قابل للاستبدال. لا تُظهر مدام بيكر مثل هذا التردد وهي تلقي جسدها على الأريكة الصغيرة في مواجهتي. تثير هذه الحركة زوبعة صغيرة من الغبار تتصاعد من النسيج في سحابة فطر مصغرة.

تقول:

- والآن يا آنسة ماكدير، أخبريني بالقليل عن نفسك.

قبل أن أتمكن من الحديث، تقتحم امرأة أخرى الغرفة في ضجة وجلجلة. شابة تحمل دلوًا معدنية في يد، وتستخدم الأخرى في جر مكنسة كهربائية خلفها. تتجمد في مكانها عندما ترانا، مانحة إياي بضع ثوانٍ لاستيعاب هيئتها الكاملة. في قرابة العشرين من عمرها، على حدٍّ أقصى، وترتدي زي خادمة تقليديًّا يليق بفيلم أبيض وأسود. فستان أسود يصل إلى الركبتين. ياقة بيضاء مُنشَّاة لها طرفان مدببان. مئزر أبيض يحمل أثرًا ملطخًا حيث يبدو أنها مسحت يديها.

لكن بقيتها تنتمي تمامًا إلى الأفلام الملونة. شعرها المصبوغ بدرجة صارخة من اللون الأحمر يحتوي أيضًا على خيطين أزرقين متوهجين يتدليان على جانبَي وجهها مثل ذراعَي أخطبوط. درجة مشابهة من الأزرق تلون جفونها وتمتد في خطين يتلاشيان عند صدغيها. تلون شفتيها بدرجة وردية أقرب إلى لون العلكة الوردية. أضفى طلاء الخدود درجة وردية أغمق على وجنتيها.

تقول:

- يا إلهي! أنا آسفة!

تلتفت مرة أخرى بسرعة عندما تراني، مندهشة بوضوح من وجود شخص غريب في هوبز إند. أظن أن هذا لا يحدث كثيرًا.

- ظننت الغرفة فارغة.

تلتفت كي تغادر، وتندُّ عنها جلجلة أخرى أدرك أنها صادرة عن نصف دستة من الأساور البلاستيكية بألوان قوس قزح تحيط بكل رسغ من رسغيها.

تقول مدام بيكر:

- إنها غلطتي يا جيسيكا. كان ينبغي لي أن أخبركِ بأنني سأحتاج إلى الغرفة هذه الظهيرة. أقدم لكِ الآنسة ماكدير، مقدمة الرعاية الجديدة للآنسة هوب.

أقول وأنا ألوح بيدي تلويحة صغيرة:

- أهلًا.

تردُّ الفتاة التحية بتلويحة من يدها، وتجلجل أساورها:

- أهلًا. مرحبًا بكِ على متن السفينة.

تقول مدام بيكر:

- كنت أنا وهي، على وشك التعارف بشكل أفضل. ربما يمكنكِ الاستمرار في تنظيف البهو. يبدو مهملًا قليلًا.

- لكنني نظفته بالأمس.

تقول مدام بيكر بابتسامة مشدودة إلى درجة تقترب من الشراسة:

- هل تشيرين إلى أن عينَي خدعتاني؟

تهز الفتاة رأسها، فيهتز معها قرطاها الدائريان.

- لا يا مدام بيكر.

تنحني الخادمة الشابة، حركة ساخرة يبدو أن مدام بيكر تظنها طاعة. ثم ترحل، مانحة إياي نظرة فضولية أخرى قبل أن تسحب دلوها ومكنستها وحُليَّها المجلجلة وتخرج من غرفة التشمس.

تقول مدام بيكر:

- من فضلكِ سامحي جيسيكا. من الصعب جدًّا العثور على مساعدة جيدة هذه الأيام.

- أوه!

هذا كل ما أستطيع قوله ردًّا على ذلك. ألا أُعَد أنا أيضًا مساعدة؟ ألا تُعَد مدام بيكر هكذا؟

ترتدي نظارتها، وتضبطها على قنطرة أنفها قبل أن ترمقني عبر عدستيها السميكتين.

- والآن يا آنسة ماكدير...

- يمكنكِ أن تدعوني كيت.

- كيت...

تقولها مدام بيكر، وهي تلقي اسمي بلسانها كأن له مذاقًا سيئًا.

- أظن أنه اختصار لشيء ما.

- نعم. كيتريدج.

- إنه فخم بعض الشيء على أن يكون اسمًا أول.

أفهم ما تعنيه. فخم على شخص مثلي.

- كان اسم جدتي لأمي قبل الزواج.

ينِدُّ صوت ما عن مدام بيكر. ليس إممم بالضبط، لكنْ شيء من هذا القبيل.

- وأهلك؟ من أين أنتِ؟

أقول:

- من هنا.

- سيجب عليكِ أن تكوني أكثر تحديدًا من هذا.

مرة أخرى أفهمها. لا توجد هنا واحدة فقط. توجد القصور المتشبثة بالمنحدرات، موطن الطبقات الموسرة التي كانت عائلة هوب تطل عليها من عَلٍ. وبعد ذلك يوجد الآخرون جميعهم.

أقول:

- من البلدة.

تومئ مدام بيكر برأسها وتقول:

- ظننت ذلك.

- أبي عامل صيانة، وأمي كانت أمينة مكتبة.

أتطوع بقول ذلك محاوِلة ترك انطباع لدى مدام بيكر بأن عائلتي تستحق الاحترام تمامًا كعائلة هوب وأمثالها.

- هذا مثير للاهتمام.

تقولها مدام بيكر بطريقة توضح أنها قد ترى في هذا الكلام أي شيء إلا أنه يثير الاهتمام.

- هل لديكِ خبرة جيدة بوصفكِ مقدمة رعاية؟

أتوتر، متشككة في مقدار ما تعرفه بالفعل.

- نعم. ما الذي أخبركِ به مستر جرلين؟

- أقل القليل. كنت أتمنى لو استطعت أن أقول إنك جئت بتزكية كبيرة، لكن هذه ستكون كذبة. لم يقُل لي أي شيء تقريبًا عنك.

آخذ نفسًا عميقًا. قد يكون هذا شيئًا جيدًا. وربما لا يكون. لأنه يعني أني سأضطر إلى تفسير كل شيء بنفسي لو سُئلت.

أقول في عقلي: من فضلك لا تسألي.

أقول:

- عملت مع وكالة جرلين لمقدمي الرعاية الصحية المنزلية لمدة اثنَي عشر عامًا.

- هذه فترة طويلة فعلًا.

تثبت مدام بيكر نظرتها عليَّ، ولا ينم وجهها عن شيء.

- أظن أنكِ تعلمت الكثير في تلك الأعوام الاثني عشر.

- تعلمت الكثير، نعم.

أبدأ في تعداد كل الأشياء التي أجيد أداءها، والتي تتراوح ما بين العادي والتافه - الطهو الخفيف، والتنظيف الخفيف، وتغيير الملاءات بينما ما زال الشخص في الفراش - إلى الأشياء الاحترافية: الاستحمام في الفراش وإدخال أنابيب القسطرة، وسحب الدم وحقن الأنسولين، وفحص لوحَي الكتفين والمؤخرة بحثًا عن قرح الفراش.

تقاطعني مدام بيكر عندما أسهب في الحديث أطول مما يجب:

- عجبًا! أنتِ فعليًا ممرضة. هل لديكِ خبرة كبيرة في رعاية ضحايا السكتات الدماغية؟

- لديَّ بعض الخبرة.

أقولها متذكرة السيدة بلانكرز وكيف اعتنيت بها أقل من شهرين قبل أن ينفد مال زوجها المسكين ويعجز عن دفع مقابل خدمات الوكالة. نُقلت السيدة بلانكرز إلى دار رعاية تمولها الدولة، وكُلفت أنا بمريض آخر.

تقول مدام بيكر:

- حالة الآنسة هوب قد تتطلب انتباهًا أكبر مما اعتدتِه. لقد ابتُليت بسوء الصحة أغلب حياتها. نوبة شلل أطفال في العشرينيات من عمرها أضعفت ساقيها، إلى درجة أنها لم تتمكن من السير من وقتها. وطوال السنوات العشرين الماضية، عانت سلسلة من السكتات الدماغية. تركتها عاجزة عن الكلام ومصابة بشلل نصفي في الجانب الأيمن من جسدها. تستطيع تحريك رأسها وعنقها، لكن أحيانًا يكون من الصعب عليها التحكم فيهما. كل ما تستطيعه في الحقيقة هو الاستخدام المحدود لذراعها اليسرى.

أثني ذراعي اليسرى، غير قادرة على تخيُّل أنني أتحكم فقط في ذلك الجزء الوحيد الصغير من جسدي. أعرف الآن على الأقل لماذا لم تغادر لينورا قَطُّ هوبز إند. لم تستطِع.

- ألهذا رحلت الممرضة السابقة؟

- ماري؟

تقولها السيدة بيكر، مرتبكة على ما يبدو. أول شعور حقيقي أراه منها.

- لا، كانت ماهرة في عملها إلى حدٍّ كبير. قضت معنا ما يزيد على عام. أحبتها الآنسة هوب.

- إذن لماذا رحلت هكذا فجأة؟

- ليتني أعرف. لم تخبر أحدًا لماذا سترحل، أو إلى أين ستذهب، أو حتى أنها راحلة أصلًا. لقد رحلت هكذا ببساطة. في منتصف الليل، تصوري! تُركت الآنسة هوب المسكينة من دون رعاية طوال الليل، وخلال ذلك الوقت كان من الممكن أن يقع شيء فظيع. كما تعرفين جيدًا، باعتبار ما حدث لآخر شخص كان تحت رعايتكِ.

تضطرب أنفاسي في صدري.

هي تعرف.

تعرف بالتأكيد.

أشعر بالارتباك أمام نظرة السيدة بيكر القاتلة، وكل ما أستطيع قوله هو:

- بمقدوري أن أوضح الأمر.

- افعلي ذلك من فضلك.

أشيح بعينَي بعيدًا عن نظرتها شاعرة بالخجل. أشعر بأنني مكشوفة. عارية تمامًا، إلى درجة أنني أبدأ في تسوية تنورتي على ساقَي، محاوِلة أن أغطي جسدي بأكبر قدر يسمح به قماشها.

- كنت أرعى...

ينقطع صوتي، على الرغم من أنني حكيت هذه القصة ما يقرب من عشر مرات لما يقرب من عشرة أشخاص لديهم الشكوك نفسها. شرطيون. موظفون حكوميون. مستر جرلين.

- كنت أرعى مريضة. لديها مرض خطير. سرطان المعدة. اكتشفت الأمر بعد فوات الأوان. كان قد انتشر... في كل مكان. ولم تكن الجراحة ممكنة. لم يكن لديها إلا العلاج الكيماوي حتى ذلك الوقت. لم يكن هناك ما يمكن

عمله إلا إبقاؤها مستريحة والانتظار حتى تأتي النهاية. لكن الألم، حسنًا، كان مبرحًا.

أكمل حديثي محدقة إلى حِجري، إلى يدَي، إلى الطريقة التي ظلتا تسويان بها تنورتي. لكن كلماتي ليست بهذا الحرص. تغدو أسرع، وأكثر تحررًا - شيء لم يحدث قَطُّ في حجرة التحقيقات تلك التي تشبه صندوقًا رماديًّا في قسم الشرطة. أعزو ذلك إلى كوني داخل هوبز إند. هذا المكان على ألفة بالموت.

أقول:

- أعطاها طبيبها روشتة بها مُسكِّن الفينتانيل. يؤخذ فقط بشكل متقطع وفقط عند الضرورة. ذات ليلة، جاءت الضرورة. لم أرَ أحدًا قَطُّ يتألم إلى هذه الدرجة. ذاك النوع من الألم؟ ليس عابرًا. إنه يمكث. يُهلك. وعندما نظرت إلى عينيها، رأيت وجعًا خالصًا. لذا أعطيتها جرعة واحدة من الفينتانيل وراقبت الألم. بدا أنه ساعد على تخفيفه، لذلك آويت إلى الفراش.

أتوقف عن الكلام قليلًا، مثلما أفعل كل مرة عندما أصل إلى هذه النقطة في القصة. أحتاج دومًا إلى لحظة قبل الغوص في تفاصيل فشلي.

- استيقظت في الصباح التالي مبكرًا عن المعتاد.

أقولها متذكرة السماء الرمادية القاتمة خارج نافذتي، وهي ما زالت ملطخة ببقايا الليل. بدت تلك الظلمة نذير شر. من نظرة واحدة إليها علمت أن خطبًا ما قد وقع.

- ذهبت للاطمئنان على المريضة ولم أجد منها استجابة. على الفور اتصلت بـ٩١١، وهذا بروتوكول اعتيادي.

أتغاضى عن الجزء الذي أعرف بالفعل أنه مضيعة للوقت. أميز الموت عندما أراه.

- كنت في انتظار فنيي الإسعاف عندما رأيت زجاجة الفينتانيل. كانت سياسة الشركة الاحتفاظ بكل الأدوية في صندوق مغلق بالقفل أسفل أسِرَّتنا. بهذه الطريقة يكون القائم على الرعاية فقط من يملك سبيل الوصول إليها. ربما

كنت متعَبة. أو مصدومة من مقدار الألم الذي كانت عليه. أيًّا كان السبب، نسيت أن آخذ الزجاجة معي.

أغلق عينَي وأعتصرهما محاولة ألا أتصور الزجاجة راقدة على جانبها مستندة إلى مصباح الطاولة المجاورة للفراش. لكني أراها على أي حال. أرى كل شيء؛ الزجاجة، والغطاء مستقرًّا على بُعد بضع بوصات، والحبة الوحيدة التي بقيت، حلقة صغيرة لونها أزرق فاتح ظننت دائمًا أنها أجمل من أن تكون لشيء بهذه الخطورة.

أقول:

- خلال الليل، ابتلعتها كلها إلا واحدة. ماتت بينما كنت نائمة. أُعلنت وفاتها في مكان الحادث وأخذوها في سيارة الإسعاف. قال الطبيب الشرعي فيما بعد إنها توفيت بالسكتة القلبية نتيجة تناول جرعة زائدة من الفينتانيل.

تقول مدام بيكر:

- هل تعتقدين أن هذا كان متعمدًا؟

أفتح عينَي وأرى أن تعبيرها لان قليلًا. ليس إلى حد المجازفة باعتباره تعاطفًا. ليس هذا أسلوب مدام بيكر. لكن ما أراه في عينَي السيدة العجوز هو شيء أعقد: الفهم.

- نعم. أعتقد أنها كانت تعرف بالضبط ما كانت تفعله.

- لكن الناس ألقوا اللوم عليكِ.

- نعم. ترك الزجاجة في المتناول كان إهمالًا. لن أختلف حول ذلك. ولم أختلف قَطُّ. لكن الجميع ظنوا الأسوأ. أُوقفت عن العمل من دون مرتب. جرى تحقيق رسمي. تدخلت الشرطة. حدثت ضجة كافية لأن تجعل الجريدة المحلية...

أتوقف وأتصور والدي ومعه الجريدة، وعيناه متسعتان ودامعتان.

ما يقولونه ليس صحيحًا يا كيت كات.

أتابع حديثي:

- لم أُتهم قَطُّ بارتكاب أي جريمة. حُكم بأنها حادثة، وانتهى إيقافي في النهاية، وأنا الآن في العمل من جديد. لكنني أعرف أن أغلب الناس يظنون الأسوأ. يشكُّون أنني تركت هذه الأقراص عن عمد. أو حتى أنني ساعدتها على تناولها.

- وهل فعلتِ ذلك؟

أحدق إلى السيدة بيكر، شاعرة بالذهول والإهانة في الوقت نفسه.

- أي سؤال هذا؟

- سؤال صادق يستحق إجابة صادقة، ألا تعتقدين ذلك؟

تجلس السيدة بيكر في هدوء، مثالًا للصبر. ألاحظ أن وضعيتها مثالية. عمودها الفقري المستقيم كاللوح لا يقترب من لمس ظهر الأريكة الصغيرة المتربة. أنا العكس - منحنية في مقعدي، شابكة ذراعَي، مسمَّرة تحت ثقل سؤالها.

- هل ستصدقينني لو قلت لا؟

- نعم.

- أغلب الناس لا يصدقونني.

- نحن أهل هوبز إند لسنا مثل أغلب الناس.

تلتفت مدام بيكر نحو صف النوافذ وسياج الشرفة خلفه تمامًا. وخلف ذلك... لا شيء. هوة مؤلفة من سماء في الأعلى ومياه في الأسفل، كما هو مفترض.

- هنا نمنح الشابات المتهمات بأفعال فظيعة ميزة افتراض حسن النية.

أعتدل في جلستي مندهشة. من سلوك مدام بيكر العملي كنت قد افترضت أنه من المحظور الحديث عن الماضي المأساوي لهوبز إند. تقول:

- دعينا لا نتظاهر بأنكِ لا تعرفين ما حدث هنا يا عزيزتي. أنتِ تعرفين. مثلما تعرفين أن الجميع يعتقدون أن الآنسة هوب هي المسؤولة.

- وهل هي كذلك؟

هذه المرة، أفاجئ حتى نفسي. في العادة، لا أكون بهذه الوقاحة. مرة أخرى، أظن أن المنزل هو الملوم. منزل يستدعي الأسئلة الوقحة.

تتكلف مدام بيكر الابتسام، ربما هي راضية، وربما لا.

- هل ستصدقينني لو قلت لا؟

أنظر في أرجاء الغرفة، مستوعبة الأثاث المثقل بالتفاصيل، وصفوف النوافذ، والعشب والشرفة والسماء السرمدية.

- بما أنني هنا، سيكون لزامًا عليَّ أن أمنحها ميزة افتراض حسن النية.

من الواضح أنها الإجابة الصحيحة. أو على الأقل هي إجابة مقبولة. لأن مدام بيكر تنهض وتقول:

- سأريكِ بقية المنزل الآن. بعد ذلك، سأقدمك للآنسة هوب.

هذا يجعل الأمر رسميًّا. أنا الآن مقدمة الرعاية الجديدة للآنسة لينورا هوب.

لا يهم أنني كذبت على مدام بيكر.

ليس فقط بشأن مريضتي السابقة.

لكن بشأن لينورا هوب، التي لم يتغير رأيي فيها. ما زلت أعتقد أنها قاتلة. أعرف أيضًا أن ما أعتقده ليس مهمًّا. هي مريضتي. وظيفتي أن أعتني بها. إذا لم أؤدِّ عملي، فلن أتلقى أجري. هكذا ببساطة.

نترك غرفة التشمس ونتوجه عائدتين عبر الرواق نحو قلب المنزل. عندما نصل إلى البورتريهات، أختلس نظرة نحو البورتريه الوحيد المعروض.

تبدو عينا لينورا المرسومتان بألوان الزيت كأنهما تتبعاننا بينما نمرُّ.

٥

تقول السيدة بيكر ونحن عائدتان إلى البهو:

- تجبرنا قيود الميزانية على الاحتفاظ فقط بطاقم عمل صغير في المنزل. الأعمال الخارجية يؤديها كارتر، الذي أعتقد أنك قابلتِه بالفعل.

يتصلب جسدي في توتر خفيف. كيف عرفت ذلك؟

أقول:

- قابلته، نعم.

تقودني السيدة بيكر ونحن نمرُّ بالدرج الكبير إلى الصالة متوجهتين نحو الطرف الآخر من المنزل.

- داخل المنزل توجد جيسيكا التي تنظف، وأرشيبالد الذي يطهو.

- وأنتِ ماذا تفعلين؟

سؤال وقح آخر. خرج بطريقة عفوية هكذا. لكن هذه المرة لا شك في رد فعل مدام بيكر. هي مستاءة بالتأكيد.

تقول وهي تأخذ شهيقًا ساخطًا حتى إنه رفع ثدييها:

- أنا مديرة المنزل. أحافظ على المنزل في أفضل حالة ممكنة في ظل ظروف محدودة بشدة. كل القرارات تصدر عني. كل القرارات التي أتخذها نهائية.

ومع عدم تمكُّن الآنسة هوب من القيام بمهمة الاعتناء بهذه التركة، حملت أنا العبء. تلك هي وظيفتي.

- منذ متى وأنتِ مع الآنسة هوب؟

- منذ عقود. وصلت إلى هنا عام ١٩٢٨، عُيِّنت لتعليم الآنسة هوب وأختها الأساليب التي ينبغي أن تتصرف بها الشابات. كنت في التاسعة عشرة من عمري فقط، وانتويت أن أبقى عامًا أو عامين. بالطبع تغيرت تلك الخطة. عندما تقلص طاقم الخدمة في المنزل بعد الـ... الحادث، رحلت وذهبت إلى أوروبا فترة من الوقت. عندما مات خطيبي، اخترت أن أعود إلى هوبز إند، وأن أكرس حياتي للعناية بالآنسة هوب.

ليس هذا بالخيار الذي كنت لأتخذه. لكنني من ناحية أخرى لم يكن لديَّ خطيب قَطُّ، أو حتى خليل لأي فترة يُعتد بها من الوقت. لا يسمح عملي لي بذلك. ذات مرة قالت لي زميلة في وكالة جرلين لمقدمي الرعاية الصحية المنزلية:

- اخرجي وأنت ما زلتِ محتفظة بجمالك، وإلا لن تحظي برجل أبدًا.

أتساءل الآن إن كان قد فات الأوان بالفعل. ربما مقدور عليَّ بالفعل أن أصبح مثل مدام بيكر - امرأة ترتدي السواد بشعر أبيض وبشرة شاحبة، مفرغة من كل الألوان.

- إذا كنتِ لم تتزوجي قَطُّ، لماذا يدعونك مدام بيكر؟

- لأن هذا هو اللقب المعطى لمديرة المنزل الأساسية يا عزيزتي، سواء كانت متزوجة أم لا. هذا منصب يستلزم الاحترام.

أتفحص ما يحيط بي ونحن مستمرتان في السير داخل الرواق. أمامنا مباشرة أبواب مزدوجة موصدة بإحكام، وعلى يميني مدخل مفتوح. أسترق النظر عبره لأرى غرفة طعام رسمية، غير مضاءة لكنها ساطعة بمجموعتين من الأبواب الفرنسية التي تؤدي إلى الشرفة. بينهما مدفأة مزخرفة كبيرة، إلى درجة أنني أستطيع أن أصفَّ سيارتي داخلها. تدلت ثريتان فوق طرفَي مائدة طويلة بما يكفي لأن يجلس حولها أربعة وعشرون شخصًا.

تقول مدام بيكر عندما نصل إلى الأبواب المزدوجة الموصدة عند نهاية الممر:

- هوبز إند به ست وثلاثون غرفة. لا يجب عليك أن تهتمي إلا بثلاث منها. غرفة الآنسة هوب، وغرفتك، وهنا.

أتبع مدام بيكر عندما تنحرف يمينًا عند الزاوية وتدخل مطبخًا كبيرًا بما يليق بمطعم. هناك عديد من الأفران والمواقد، وثمة مدفأة مبطنة بالطوب يطقطق داخلها لهب صغير. تصطف على الجدران رفوف ملأى بأوعية خزفية، وعشرات الآنية النحاسية تتدلى من السقف على رفوف من الحديد المطاوع. يستقر نضد خشبي ضخم في مركز الغرفة، ممتدًّا من جدار إلى آخر تقريبًا.

منذ عقود، كان جيش من الطهاة والخدم يهرعون على الأرجح فوق الأرضية ذات البلاطات البيضاء والسوداء في طريقهم إلى غرفة الطعام المجاورة. والآن لا يوجد إلا واحد - رجل ذو صدر غليظ وبطن أغلظ يرتدي بنطالًا بنقشة مربعات ومعطف طاهٍ أبيض. في السبعينيات من عمره، له رأس حليق وأنف مقوس قليلًا، لكن ابتسامته عريضة.

تقول مدام بيكر:

- يا أرشيبالد، هذه هي الراعية الجديدة للآنسة هوب. يا كيت، أعرفكِ بأرشيبالد.

يرفع ناظريه عن النضد حيث يعجن العجين من أجل الخبز المصنوع في المنزل.

- مرحبًا يا كيت. وناديني آرشي.

تقول لي مدام بيكر:

- كل وجبات الآنسة هوب يُعدها أرشيبالد، لذلك لن نحتاج إليكِ في هذه المهمة. وهو يطهو أيضًا من أجل بقية طاقم العمل. أنت حرة بالتأكيد في إعداد وجباتك، لكنني أنصحك بالعكس. أرشيبالد أفضل طباخ في ساحل ولاية مين كلها.

يخطر على بالي كم تغيرت حياتي سريعًا. استيقظت هذا الصباح في الفراش

نفسه الذي صار لي منذ أن كنت في العاشرة من عمري. والليلة، سأنام في قصر به طباخ محترف، وخادمة، وشرفة تطل على البحر.

كأنها تعيدني في صمت إلى الواقع. تكمل مدام بيكر جولتها، وتقودني إلى مجموعة من السلالم المتوارية في ركن من المطبخ. على عكس الدرج الكبير، تبدو هذه السلالم منحدرة وضيقة ومظلمة. مصنوعة بوضوح من أجل الخدم. وأنا واحدة منهم. لا أستطيع نسيان ذلك.

تقول مدام بيكر وصوتها يتردد صداه في نطاق السلم الضيق ونحن نصعده:

- لأرشيبالد وجيسيكا حجرتان في الطابق الثالث. غرفتكِ في الطابق الثاني، إلى جوار غرفة الآنسة هوب.

أقول مندهشة:

- هي في طابق علوي؟ إذا كانت عاجزة عن الحركة، ألا ينبغي أن تكون في الطابق الأرضي لتسهيل الوصول إليها؟

- أؤكد لكِ أن الآنسة هوب لا يعنيها ذلك.

- هل يوجد مصعد في المنزل؟

- بالتأكيد لا.

- إذن كيف سأصطحبها إلى الخارج؟

تتوقف مدام بيكر تمامًا في منتصف السلم. حدث هذا بسرعة شديدة حتى كدت أرتطم بها. ولتجنُّب التصادم، أنزل درجة، وهو ما يسمح لمدام بيكر بالنظر إليَّ من علٍ وهي تقول:

- الآنسة هوب لا تخرج.

- أبدًا؟

- أبدًا.

تتابع مدام بيكر التحرك مرة أخرى، صاعدة بسرعة بقية السلم المتهالك.

- لم تخرج الآنسة هوب من هذا المنزل طوال عقود.

- ماذا لو احتاجت إلى رؤية طبيب؟

- سيأتي الطبيب إليها.
- لكن ماذا لو كان من الضروري أخذها إلى المستشفى؟
- لن يحدث هذا أبدًا.
- لكن ماذا لو...

حدثت حالة طارئة. هذا ما أحاول قوله. لا أستطيع أن أنطق بالكلمات لأن مدام بيكر تتوقف مرة أخرى، هذه المرة على البسطة. تقول:

- وُلدت الآنسة هوب في هذا المنزل، وهنا ستموت. تلك هي رغبتها، ووظيفتي أن أنفذها. إذا كانت لديكِ مشكلة مع ذلك فيمكنكِ المغادرة فورًا. هل كلامي مفهوم؟

أخفض عينَي، مدركة تمامًا أنني بعد أقل من خمس دقائق في الوظيفة \أقترب إلى هذا الحد من الطرد. الشيء الوحيد الذي يحول بيني وبين العودة قسرًا إلى غرفة نومي القديمة وصمت أبي هو ما سأقوله تاليًا. أرد عليها:

- نعم. أعتذر عن مساءلة رغبات الآنسة هوب.
- حسنًا.

تمنحني مدام بيكر ابتسامة بشفتيها الحمراوين قصيرة وقاطعة مثل ضربة موسى.

- فلنكمل.

ننطلق في ممر طويل. مثل أروقة الطابق الأرضي، يمتد من أحد جانبَي المنزل إلى الجانب الآخر، وفي المنتصف الجزء العلوي من الدرج الكبير. لكن على عكس تلك الممرات الأوسع وذات الإضاءة الأفضل، هذا الممر ضيق وكابي الإضاءة كأنه نفق. البساط أحمر. ورق الجدران يشبه الحرير الدمشقي الأزرق الطاووسي. تصطف مجموعة من الأبواب على كل جانب، كلها موصدة.

أشعر بإحساس غريب وأنا أتحرك عبر الممر. ليس دوارًا. ليس شيئًا قويًا إلى هذا الحد.

عدم توازن.

هذا ما أشعر به.

كأنني تناولت للتو بضع كؤوس من شراب قوي.

ألمس الجدار مستندة إليه، وتحتك كفي بورق الجدران الأزرق. شيء مربك. اللون أغمق من اللازم والنقش الوردي أكثر صخبًا مما يليق بهذه المساحة المحصورة. كل هذه البتلات المزخرفة المتفتحة والمتشابكة تعطي انطباعًا بوجود حديقة نمت بشكل وحشي وشرير وتستولي الآن على المنزل. ترتد يدي من الجدار عندما تخطر لي هذه الفكرة التي تدفعني إلى الميل قليلًا إلى الجانب الآخر.

تقول مدام بيكر من دون أن تنظر وراءها:

- ما تشعرين به هو المنزل. يميل قليلًا نحو المحيط. ليس هذا ملحوظًا بشدة في الطابق الأول. يمكنك أن تشعري به فقط في الطوابق العليا.

- لماذا يميل؟

- المنحدر يا عزيزتي. تخلخلت التربة هنا في الأعلى مع الوقت ومع تآكل المنحدر.

ما لم تقله مدام بيكر، لكنه واضح بشدة من الأرضية المائلة؛ أن هوبز إند يتآكل معه. وذات يوم - ربما عاجلًا، وربما بعد قرن من الزمان - سينفصل المنحدر والمنزل ويهويان إلى المحيط.

- ألا يقلقك هذا؟

- أوه، لقد غدونا جميعًا معتادين عليه. يتطلب الأمر فقط بعض الوقت. مثلما تعتادين السير فوق سفينة تتأرجح في البحر.

وكيف لي أن أعرف؟ خبرتي في الإبحار مقصورة على رحلة ميدانية لمشاهدة الحيتان قمت بها في الصف السادس. لكنني لا أستطيع أن أتخيل أصلًا اعتياد هذا. وعندما تتوقف مدام بيكر عند واحد من هذه الأبواب الموصدة بإحكام على اليسار، أميل مستندة إلى الجدار، شاعرة بالارتياح.

تقول:

- هذه غرفتك.

تدير مقبض الباب لكنها لا تفتحه. ينفتح وحده، مصدرًا صريرًا وهو ينفرج بفضل ميل المنزل المشؤوم.

- بعد أن تنتهي من تغيير ثيابك سأقدمك للآنسة هوب.

أدفع الجدار كي أعتدل في وقفتي متسائلة:

- تغيير؟ إلى ماذا؟

- زيك الرسمي بالتأكيد.

تتنحى مدام بيكر عن الباب، سامحة لي بإلقاء نظرة على الداخل. الغرفة صغيرة لكنها مُرتَّبة. جدران صفراء بلون الزُّبد، خزانة ذات أدراج، مقعد قراءة، رف كتب كبير ممتلئ بالكتب والحمد لله. بل هناك مطل على المحيط، وهو ما كان ليجعل قلبي يغني طربًا في ظروف مختلفة. لكن تركيزي مُنصب بشدة على الفراش وزي الممرضة الأبيض المستقر فوقه، مطويًّا بنظام كأنه منديل مائدة في مطعم فاخر.

تقول مدام بيكر:

- إذا لم يكن على مقاسك بشكل صحيح، أستطيع أن أجد خيَّاطة قادرة على إجراء بعض التعديلات.

أرنو إلى الزي الرسمي كأنه قنبلة موقوتة تتعالى تكَّاتها.

- هل تريدين بجدية أن أرتدي هذا؟

- لا يا عزيزتي. أنا أطلب ارتداءه.

- لكنني لست ممرضة.

- أنتِ كذلك هنا.

كان ينبغي لي معرفة أن هذا سيحدث. لقد رأيت جيسيكا في زي الخادمة السخيف الذي كانت ترتديه وآرشي في زي الطاهي.

تقول مدام بيكر:

- أعرف أنكِ ترين الأمر سخيفًا. كان هذا موقف الممرضات اللاتي سبقنك

أيضًا. وحتى ماري. لكننا نلتزم بالطرائق القديمة هنا. وهذه الطرائق تتضمن قواعد صارمة فيما يخص الملابس. علاوة على ذلك، هذا ما اعتادته الآنسة هوب. مخالفته الآن ستربكها وتزعجها على الأرجح.

هذه العبارة الأخيرة هي التي تجعلني أستسلم للهزيمة. على الرغم من أنني لا يعنيني إطلاقًا الالتزام بالطرائق القديمة - لماذا أتبعها إذا كان لا يوجد أحد يلاحظها هنا أصلًا؟ - فإنني لا أستطيع الجدال في مسألة عدم الرغبة في إزعاج مريض. لا خيار أمامي إلا تقبُّل هذه السخافة وارتداء الزي.

تنتظر مدام بيكر في الصالة بينما أغلق الباب وأخلع معطفي وتنورتي وبلوزتي. أرتدي الزي الذي لا تنطبق عليَّ مقاساته تمام الانطباق. فضفاض عند الفخذين، مضبوط عند الصدر، ضيق عند الكتفين، يشعرني في الوقت نفسه بأنه مريح أكثر من اللازم وغير مريح بما فيه الكفاية. وعندما أثبِّت غطاء الرأس المجنَّح على رأسي، أشعر بأنني سخيفة تمامًا.

في الحمَّام الملحق، ألقي نظرة لأرى كيف أبدو.

في الواقع... ليس سيئًا.

على الرغم من أنه زي رسمي بما لا يقبل الإنكار، فإن ضيقه عند الكتفين يجعلني أبدو أطول قليلًا. بعد أن خرجت قسرًا من ركودي الدائم، أبدو أقل شبهًا بمقدمة رعاية وأقرب إلى ممرضة رسمية. لأول مرة خلال شهور، أشعر بأنني واسعة الحيلة مرة أخرى. تغيير منعش لوتيرة الحياة.

بالتأكيد تُبدي مدام بيكر استحسانها. عندما أخرج من غرفة النوم، ترفع نظارتها إلى عينيها وتقول:

- نعم، هذا أفضل بكثير.

ثم تتحرك مرة أخرى، إلى الباب التالي في الرواق.

غرفة لينورا هوب.

آخذ نفسًا عميقًا عندما تفتح مدام بيكر الباب، شاعرة بالحاجة إلى التأهب. من أجل ماذا؟ لا أعرف. لا يعني هذا أن لينورا هوب ستكون واقفة بالداخل

ممسكة بسكين في يد وبحبل مشنقة في الأخرى. لكن ذلك هو الشيء الوحيد الذي أستطيع تخيُّله بينما تومئ مدام بيكر إليَّ كي أخطو إلى الداخل.

بعد نفَس آخر عميق، أفعلها.

أول شيء ألاحظه في الغرفة هو ورق الجدران. خطوط وردية. تمامًا مثلما هي في البورتريه بالطابق الأرضي. الأريكة البيضاء موجودة أيضًا، كسا الزمن نسيجها دُكنة، لكن من الواضح أنها الأريكة نفسها التي تموضعت عليها لينورا أمام الرسَّام. على الجدار خلفها تلك المرآة ذات الإطار المذهب التي ظهرت لمحة منها في البورتريه. يجعلني التحديق إلى المرآة بأكملها - وانعكاس صورتي بالزي الرسمي فيها - أشعر كأنني أُشبه قليلًا أليس وهي تَلِجُ في المرآة. لكن بدلًا من بلاد العجائب، انتهى بي الأمر داخل بورتريه لينورا هوب، وأحدق الآن إلى نفسي من خارج الإطار.

الشيء الثاني الذي يسترعي انتباهي هو النوافذ الطويلة التي تواجه المحيط الأطلنطي. المنظر وراءها مذهل بشكل أكبر حتى من المنظر في غرفة التشمس. المحيط ظاهر من هنا - لوحة هائلة من المياه المتلاطمة التي تبدو أشبه بنسخة من السماء في منزل مرايا بالملاهي. الاثنتان زرقاوان، واحدة تمرق فيها السحب، والأخرى تجري فيها الأمواج المزبدة. تمنحني نقطة الرؤية الأعلى في الطابق الثاني فكرة أفضل عن مدى قرب المنزل من حافة المنحدر. إنه يستند إليها في الواقع. لا توجد أرض بعد سياج الشرفة. فقط هاوية مباشرة إلى مياه المحيط.

بسبب الميل الخفيف للمنزل، يبدو المنظر مدوخًا. على الرغم من أنني واقفة في منتصف الغرفة، أشعر كأنني أضغط بجبهتي على إحدى النوافذ، ناظرة إلى أسفل. تصيبني نوبة أخرى من انعدام التوازن، وأمر بلحظة مفعمة بالقلق من أنني على وشك السقوط.

لكن عندئذ ألاحظ أخيرًا الكرسي المتحرك المركون في زاوية الغرفة، مواجهًا النوافذ. كرسي عتيق الطراز، مصنوع من الخوص والخشب، وله عجلتان كبيرتان

في الأمام وعجلة صغيرة في الخلف، كأنه دراجة ثلاثية. لم تُستخدم هذه النوعية من الكراسي المتحركة منذ عقود.

تجلس فيه امرأة، صامتة وساكنة، رأسها مائل إلى الأمام كأنها نائمة.

لينورا هوب.

يتلاشى شعوري بالدوار في لحظة. فتنني حضور لينورا حتى لم أعُد ألاحظ الأرضية المائلة على الإطلاق. أو المنظر خارج النوافذ. أو حتى وجود مدام بيكر خلفي. كل ما أستطيع التركيز عليه هو لينورا، الجالسة في ذلك الكرسي المتحرك القديم، تستحم في ضوء الشمس شديد السطوع، حتى إنه يجعلها تبدو شاحبة، كأنها شفافة.

لينورا هوب ذات السمعة الشائنة، استحالت شبحًا.

كل شيء فيها، فعلًا، يبدو مسلوب اللون. رداؤها رث ورمادي، وكذلك النعلان في قدميها. ثمة جوربان رماديان يرتفعان إلى أسفل ركبتيها تمامًا، حيث يرتخيان ويتدليان. ربما كان قميص النوم تحت الرداء أبيض في زمن مضى، لكن مرات الغسيل أكثر مما يجب تركته بالدرجة الرمادية ذاتها التي اكتسبتها بشرتها. يمتد اللون الرمادي إلى شعرها، الذي بقي طويلًا ومفرودًا ومنسدلًا على كتفيها.

فقط عندما ترفع لينورا رأسها أرى لمحة واحدة من الألوان.

عيناها.

لونهما الأخضر زاهٍ تقريبًا مثلما كانت عيناها في البورتريه بالطابق الأرضي. لكن ما كان فاتنًا في اللوحة أضحى مفزعًا تمامًا في الواقع، خصوصًا عندما أحيط بكل هذا الرمادي. ذكَّرتني عيناها بأشعة الليزر. حارقة.

يجذبني ذلك اللون الأخضر المتوهج. أجد نفسي راغبة في التحديق إلى تلكما العينين اللامعتين بشكل مفزع كي أرى إن كان في إمكاني أن أتعرف على جزء من ذاتي فيهما. إذا لم أتمكن، فلعل هذا يعني أنني لست بالسوء الذي يعتقده الناس. حتى أبي.

أخطو خطوة مترددة نحو لينورا ويعود الميل، بشكل أكثر وضوحًا هذه المرة.

لكن، ربما ليس السبب فيه تلك الأرضية المائلة. ربما يحدث هذا ببساطة لأنني في غرفة واحدة مع لينورا هوب - تلك حقيقة سريالية بقدر ما هي مدهشة. تتسلل الأغنية مرة أخرى إلى أفكاري.

في السابعة عشرة، لينورا هوب
ترى هل ينبغي لي أن أخاف؟
خنقت أختها بحبل وهوب!
لأنني خائفة.
طعنت أباها بسكِّينة
على الرغم من أنه لا يوجد أي سبب للخوف.
أنهت حياة أمها المسكينة

هذه ليست لينورا هوب نفسها التي تتحدث عنها تلك الأغنية الفظيعة. ليست حتى لينورا الموجودة في البورتريه بالطابق الأرضي - اليافعة والناضجة وربما التي كانت في تلك اللحظة عينها تخطط لمقتل عائلتها. لينورا هذه عجوز، ذابلة، هزيلة. أتذكر قراءة رواية صورة دوريان جراي في المدرسة الثانوية. كأن هذا عكس الكتاب - تغدو اللوحة في الصالة أكثر نضارة في النهار بينما يُكفِّر جسد لينورا القعيد عن خطاياها.

أخطو بضع خطوات أخرى، ولم يَعُد المنزل المائل يزعجني على الإطلاق. لعلَّ مدام بيكر على حق. لعلِّي بدأت أعتاد المكان.

أقول:

- أهلًا لينورا.

تقول مدام بيكر من وقفتها عند الباب مصححة لي:

- الآنسة هوب. لا يجب أبدًا على طاقم الخدمة أن يشير إلى سيدة المنزل باسمها الأول.

أقول:

- آسفة. أهلًا آنسة هوب.

لا تتحرك لينورا، ناهيك بملاحظة وجودي. أركع أمام الكرسي المتحرك مباشرة، على أمل أن أحظى بنظرة أفضل إلى عينيها الخضراوين المفزعتين. يتوتر جسدي، متأهبًا لأي رؤى قد تلتمع فيهما. عن لينورا. عني.

لكن لينورا لا تتعاون. تحدق إلى ما ورائي، خارج النافذة، نظرة ثابتة على البحر المتلاطم بالأسفل.

أقول:

- أنا كيت. كيت ماكدير.

تلتقي عينا لينورا فجأة بعينَي.

أحدق إليهما بدوري.

ما أراه غير متوقع.

من بين كل الأشياء، يلتمع الفضول في نظرة لينورا. كأنها تعرفني بالفعل. كأنها تعرف كل شيء عني. أنني وقعت في الشَّرك، واتُّهمت، وحُكم عليَّ ونُبذت وأُهملت. يبدو النظر إلى عينَي لينورا هوب أشبه بالنظر إلى تلك المرآة مذهبة الإطار ورؤية انعكاسي يحدق إليَّ.

أقول:

- من اللطيف جدًّا مقابلتك. سوف أعتني بكِ من الآن فصاعدًا. هل يعجبكِ هذا؟

تومئ لينورا هوب برأسها.

ثم تبتسم.

قبل أن نكمل، يجب أن أوضح شيئًا. لا تحاولي مساعدتي على كتابة هذا. أعرف ما أريد قوله. أنت هنا فقط لتحلي محل اليد التي لا أستطيع استخدامها. افعلي فقط ما أحتاج إليك أن تفعليه عندما أحتاج منك إلى أن تفعليه.

مفهوم؟

ممتاز.

ثانيًا، انا لا اكتب هذا كي تشعري بالأسى من أجلي. انا لا أريد ولا أحتاج إلى شفقتك. أنا لا أفعل هذا أيضًا كي أثبت براءتي. هذا ما سيقرره الآخرون، عندما أكمل هذا... إذا انتهيت منه أصلًا.

أكتب هذا لأنني عندما أموت، وهو ما يمكن أن يحدث في أي يوم الآن، أريد أن يكون هناك تسجيل للحقائق. هذه هي الحقيقة... بخيرها وشرها.

والحقيقة أن كل هذا بدأ يوم البورتريه. بداية النهاية، على الرغم من أنه لم يخطر ببالي ساعتها أن الأمر سيسير على ذلك النحو. كان هذا قبل ثمانية أشهر من حوادث القتل. عمر كامل عندما تكونين صبية مثلما كنت وقتها.

كان أيضًا عيد ميلادي. آخر عيد ميلاد احتفل به أصلًا في هذا المنزل.

قرر أبي ذلك العام أن يجلس كل واحد منا يوم عيد ميلاده ليرسم له بورتريه. كانت تلك فكرته عن الهدايا، التي ربما كانت جميلة بالنسبة إليه وإلى أمي،

لكنها لم تكن على هذا القدر من الجمال بالنسبة إلى أختي وإليَّ. لم تكن هناك فتاة في عمرنا تريد بورتريه هدية، خصوصًا عندما كان هذا يعني أن تجلس في كامل زينتها لساعات طويلة، غير مسموح لها بالحركة. أفضل ما في الموضوع كان الرسام، الذي كان وسيمًا جدًا.

كان اسمه بيتر.

بيتر وورد.

بما أن أبي كلفه برسم بورتريهات لكل فرد من أفراد الأسرة، كانت تلك هي المرة الرابعة له في هوبز إند. عندئذ، كنت قد صرت متيمة به. ارتديت أجمل ما لديَّ — فستان من الساتان الوردي -- وتأكدت أنني أبدو جميلة قدر الإمكان. أردت بشدة أن ألفت انتباهه.

من سوء الحظ، فعلت أختي الأمر نفسه، أختي التي كانت تحوم حوله طوال الوقت، على الرغم من حرص الآنسة بيكر على إبقاء عينيها على الرسام بالفعل. ولأن البورتريه كان يرسم في غرفة نومي، كانت قلقة من احتمال حدوث شيء غير لائق إذا تُركت أنا وبيتر وحدنا. كان هذا السلوك معتادًا من الآنسة بيكر، التي عُينت قبل عام لتعليمنا الإتيكيت وفن الإلقاء. لكنني كنت أعرف حقيقة وظيفتها. مُربية لفتيات لا يحتجن إلى مربيات.

جلست على الأريكة، محاولة ألا أتحرك. وقفت الآنسة بيكر في الزاوية بصرامة، وعلى وجهها نظرة مستاءة. لكن أختي كانت تتهادى في الغرفة خلف بيتر، متفحصة لوحته وهي تقول أشياء من قبيل:

- أوه! هذا رائع. يشبهها تمامًا.

وكل مرة تفعل ذلك، لم يكن بوسعي إلا أن أضحك، وهو ما جعل بيتر يوبخني عدة مرات.

- ابقي ساكنة من فضلك.

كان يقولها بنبرة جادة جدًا، حتى إنها كانت تجعلني أضحك أكثر. قضيت أغلب الجلسة محاولة ألا تفتر شفتاي عن ابتسامة، على الرغم من أنها خرجت

على أي حال في البورتريه النهائي. كانت أختي محقة في ذلك. لقد أسرني بيتر تمامًا.

قلت عندما امتدت الجلسة إلى وقت متأخر من الظهيرة:

- لكنني ضجرة جدًا. هل أستطيع على الأقل أن أقرأ كتابًا بينما ترسم؟

- تستطيعين ذلك، لكن ساعتها لن أتمكن من رؤية عينيك، ولك عينان جميلتان جدًا.

تلك هي هدية عيد الميلاد التي تتمناها أي فتاة في سني. لم يقل أحد من قبل على أي جزء مني إنه جميل، وسماع ذلك من بيتر جعل جسدي كله يرتجف.

فجأة، بدأت أتساءل إن كان بيتر قد رسم من قبل امرأة عارية. امرأة أنضج وأكبر مني، امرأة لا تخجل من جسدها. تساءلت كيف سيبدو شعوري عندما أنضو عني فستاني الوردي، وأستلقي على الأريكة، وأجعل بيتر ينظر إلى جسدي العاري. هل سيظل يعتقد أنني جميلة؟ هل سيشعر برغبة قاهرة في أن يترك حامل لوحته وينضم إليَّ على الأريكة، يلمس بشرتي، ويداعب شعري؟

بدأت أتورد خجلًا، مصدومة من جنون أفكاري. نظرت إلى الآنسة بيكر، التي كانت تتأملني بعينين مظلمتين، كأنها كانت تعرف بالضبط فيما كنت أفكر.

من الواضح أن أختي أيضًا حدست ذلك. اقتربت من بيتر، صارت خلفه إلى أن التصقت بظهره. وضعت يدها على كتفه، وظلت هناك بينما تهمس له بدلال:

- بيتر، أنت أكثر رجل موهوب قابلته في حياتي.

فجأة أحسست بالغرفة ساخنة، وفي تلك اللحظة، كان كل ما أردته أن أبتعد عنهم جميعًا. تقت إلى أن أكون في الخارج، جالسة على حافة المنحدر والريح الباردة تداعب شعري.

تساءلت:

- هل كدنا ننتهي؟

قال بيتر:

- ساعة أخرى أو ساعتان.

أضافت الآنسة بيكر:

- كوني صبورًا.

لكن لم يعد لديَّ صبر. كرهتها. كرهت أختي. كرهت أبي لأنه أحضر بيتر إلى هذا المنزل. في تلك اللحظة، كان الشخص الوحيد في أسرتي الذي لم أبغضه هو أمي. أشفقت عليها.

لم أتمكن من الجلوس ساكنة لحظة أخرى، فقفزت من فوق الأريكة وتوجهت نحو الباب.

هتف بيتر ورائي:

- لم أنتهِ بعد.

رددت عليه:

- وأنا انتهيت بكل تأكيد.

هرعت هابطة السلم الخلفي ودخلت المطبخ، الذي كان يعج بالنشاط حيث يجهز الطهاة والخادمات عشاء عيد ميلادي. أدهشني غضبي. كنت أعرف أن أختي ليس لديها اهتمام حقيقي ببيتر، وأن بيتر غير مهتم بي. وصراحة، لم أكن مهتمة به أيضًا. لكنني أردت بشدة أن يلاحظني أحد، أن يراني، أن يفهمني.

أيضًا، كنت قد سئمت وتعبت من وجودي في هوبز إند. اسمه يليق به، لأنه بدا كأننا في آخر العالم، منقطعين عن أي أمل في أن نكون في أي مكان غيره.

بنى أبي هوبز إند مكافأة لنفسه. بالطبع زعم غير ذلك. ثمة سمة مميزة لأغلب الرجال المعجبين بأنفسهم هي حاجتهم إلى محاولة إخفاء إعجابهم بأنفسهم. فعل أبي هذا بزعم أن هوبز إند شيد من أجل زوجته الحبيبة والفتاة الرضيعة التي كانت قد أنجبتها للتو.

ليس صحيحًا.

شيده لأنه أراد أن يُري الجميع كم هو ثري.

وأفلح الأمر. لأنه لا يستطيع أحد أن يلمح هوبز إند من دون أن يفكر: «هذا منزل رجل بالغ الثراء».

كنا أثرياء. لكن سعداء؟ ليس كثيرًا. والمنزل، على الرغم من فخامته، كان يعكس ذلك. مكان بارد. مكان غير مُرحب. أعرف أنك تستطيعين الشعور بذلك. قليلة هي الراحة التي يمكن أن تجديها هنا.

وكل ما أردته أن أقابل الناس، أزور الأماكن، أجرب الأشياء التي قرأت عنها فقط في الكتب. كان هذا عام ١٩٢٩، والعالم ممتلئ بالسيارات السريعة وموسيقى الجاز والرقص طوال الليل في أثناء شرب الخمر الرديئة. لم أجرب أيًا من هذا. وكيف لي أن أصبح كاتبة عظيمة من دون أن أمتلك أي تجارب لأكتب عنها؟

في بعض الأيام، بدا هوبز إند أشبه بسجن حتى كدت أظن أنني سأصرخ لو اضطررت إلى قضاء دقيقة أخرى بين جدرانه. كلما وصلت إلى هذا الحد، كان العلاج الوحيد أن أخرج. أحببت الأرض والبحر والسماء. كان بمقدورها دائمًا أن تهدئني، وهو ما فعلته بالضبط يومها.

وقفت في الشرفة، واستنشقت الهواء المالح وشعرت بالريح الباردة على وجهي. استندت إلى السياج ورفعت عينَي محدقة إلى النوافذ الطويلة التي تمتد حول الزاوية الجنوبية الشرقية من المنزل. غرفة نوم أمي، المنفصلة عن غرفة نوم أبي. كان الاثنان قد توقفا منذ زمن طويل عن النوم في فراش واحد.

كانت الستائر مسدلة، وهو ما يعني أنها كانت تعاني نوبة أخرى من نوباتها العصبية. عندئذ، كانت نادرًا ما تغادر غرفتها.

ارتجفت لمرأى تلك الستائر المغلقة بإحكام. لم أستطع أن أتخيل حبستي في غرفتي طوال اليوم، كل يوم، وعدم مغادرتها أبدًا. بدا لي هذا كأنه مصير أسوأ من الموت.

لكن هأنذا، أعيش ذلك السيناريو بالضبط.

تبين أنني كنت على حق.

لأنه ثمة حقيقة غريبة تخص هوبز إند: لا يمكن أن توصد أبواب كل غرف النوم إلا من الخارج، وفتحها يتطلب مفاتيح خاصة بكل باب. عندما كنت أنا وأختي صغيرتين، كان من ألعاب أبي المفضلة أن يحبسنا في غرفتَي نومنا. ومن

تتحمل البقاء لأطول وقت من دون أن تتوسل للسماح لها بالخروج تتلقى جائزة. في العادة بعض المال أو قطعة حلوى فاخرة، وذات مرة: سوار ذهبي. يجب على الفائزة أيضًا أن تقرر طول المدة الإضافية التي يجب أن تبقاها الخاسرة في غرفتها.

فازت أختي في كل مرة.

لم تشكل لها اللعبة أي مشكلة، لكن -- أوه -- كم كانت تدفعني إلى الجنون. لم أتمكن قَطُّ من البقاء أكثر من بضع ساعات قبل أن تبدو الجدران كأنها ستنطبق عليَّ وستحبسني إلى الأبد إن لم أخرج.

ولأنني كنت دائمًا أول من يتوسل إلى أبي كي يفتح الباب، كان عليَّ البقاء في غرفتي بقدر ما تقرر أختي. ذات مرة، اختارت أن تبقيني محبوسة لمدة اثنتي عشرة ساعة إضافية. قضيت تلك الليلة بأكملها وأنا أصرخ وأدق على الباب، طالبة بأن يسمح لي بالخروج. عندما لم يفلح ذلك، حاولت أن أكسر الباب بإلقاء نفسي عليه. لم يتزحزح الباب قَطُّ. وعلى الرغم من أنني خسرت، فإن أبي وأختي لم يرضخا قَطُّ. بقيت محبوسة في الداخل حتى الضحى.

هكذا تبدو الحال بالوجود في هذا المنزل، في هذه الغرفة، في هذا الجسد. كأنني انحبست بالداخل في أثناء واحدة من ألعاب أبي، ولا يوجد أحد على الناحية الأخرى من الباب يمسك المفتاح الذي يمكن أن يحررني.

٦

أنا ولينورا لدينا غرفتان ملحقتان إحداهما بالأخرى، تلك حقيقة اكتشفتها بعد أن أحضرت أمتعتي إلى الطابق العلوي. أول ما أخرجته الصندوق المعدني الذي أستخدمه لتخزين الأدوية. الصندوق نفسه الذي عرَّضني للإيقاف عن العمل والتحقيق من جانب الشرطة بعد أن فشلت في استخدامه. هو فارغ الآن. أدسه تحت الفراش وألقي المفتاح في درج الطاولة المجاورة للفراش.

بعد ذلك ملابسي. أفتح حقيبتي، وأجرب ما ظننته خزانة ثياب. وبدلًا من ذلك، أجد نفسي وأنا أتطلع مباشرة داخل غرفة لينورا. مدام بيكر ما زالت هناك، تضع سماعتَي رأس هزيلتين على أذنَي لينورا. سماعتان متصلتان بجهاز ووكمان يشبه الطوبة يستقر في حجر لينورا.

تقول مدام بيكر وهي تضغط على زر تشغيل الووكمان:

- آه، كيت، فلنراجع روتين الآنسة هوب.

أندفع إلى داخل غرفة لينورا، شاعرة بالفضول. منظر غريب: امرأة في السبعينيات من عمرها، منحنية في كرسي متحرك لم يُصنع مرة أخرى على الأرجح منذ الأربعينيات، تستمتع بأحدث تكنولوجيات الثمانينيات.

- ما الذي تستمع إليه؟

تقول مدام بيكر كأن السؤال نفسه أهانها:

- كتاب على شريط كاسيت. تسجل جيسيكا لنفسها وهي تقرأ بصوت عالٍ، وتعطي بعد ذلك الشرائط للآنسة هوب كي تستمع إليها.

- هذا لطف شديد منها.

- كما ترين.

تتجه مدام بيكر إلى خوان أسفل النافذة. داخله عشرات من شرائط الكاسيت في علب بلاستيكية. مكتوبة على بطاقاتها بقلم تحديد أحمر عناوين كثيرة أميزها. طيور الشوك. عشيرة دب الكهف. وعدد لا بأس به من كتب الروائية جاكي كولينز.

في الجوار، تنصت لينورا لأحد الشرائط وعلى وجهها نظرة رضا. كأنها طفلة ناولوها للتو لعبتها المفضلة. تبقى على تلك الحال بينما تعطيني مدام بيكر دورة مكثفة حول كيفية العناية بها. نراجع أولًا أدوية لينورا، التي يوجد منها الكثير. أسبرين، قرص مدرٌّ للبول، مضاد تجلط، دواء مخفض للكوليسترول، قرص للتحكم في تشنجات العضلات، قرص آخر لمقاومة هشاشة العظام. تستقر كلها على طاولة بجوار الفراش. ست زجاجات صغيرة برتقالية مرتبة في صف فوق صينية من الفضة.

أفتح كل زجاجة لأعوِّد نفسي على أشكال وأحجام وألوان أقراص الدواء. على الصينية أيضًا هاون ومدقة. ينبئني حضورهما بأنه من المفروض أن أطحن أقراص الدواء.

- أخلطها في طعام الآنسة هوب، صحيح؟

- ثلاثة أقراص مع الإفطار، وثلاثة أقراص مع العشاء. مكتوب على الزجاجات.

ألاحظ الملصقات على الزجاجات فيما تكمل هي موضحة لي كيف سأقضي ساعتين كل يوم - واحدة في الصباح والأخرى في المساء - أحرك برفق ذراعَي وساقَي لينورا لأحسن دورتها الدموية. كل صباح ومساء من المفترض بي أيضًا أن أغسل أسنانها بالفرشاة، وأمشط شعرها، وأغير لها ثياب النوم إلى ثياب النهار والعكس. يجب أن أطعمها، وأحممها، وأساعدها على

قضاء حاجتها في المرحاض إذا استطاعت الذهاب إليه، وتغيير حفاضتها إذا لم تستطِع.

نتكلم كأن لينورا ليست معنا في الغرفة، صامتة وساكنة في كرسيها المتحرك. بين لحظة ولحظة ألقي نظرة في اتجاهها، محاوِلة أن أتبين مقدار وعيها بما يجري حولها. تبدو نصف الوقت غافلة عن وجودنا، قانعة بالتحديق خارج النافذة والإنصات لكتابها المسجل. لكن في النصف الآخر أحس بتركيز حاد. كأنها تتبع باستمرار كل حركة مني. في لحظة ما، تغادر نظرة لينورا النافذة وتتحرك في اتجاهي. لمحة جانبية لا تريدني أن ألاحظها. وعندما ألاحظها، ترتد عيناها في لحظة خاطفة إلى النافذة.

- ما الذي تفعله الآنسة هوب على سبيل المتعة؟

- المتعة؟

تقولها مدام بيكر كأنها لم تسمع قَطُّ بهذه الكلمة قبل أن تتابع:

- الآنسة هوب لا تستمتع. تستريح.

- طوال اليوم؟

أتفحص الغرفة من حولي، هي أكبر من غرفتي لكنها مزدحمة ومختنقة أيضًا، سواء في تدفق الهواء أو المفروشات. النوافذ مغلقة بإحكام، لتجعلني أتساءل متى فُتحت آخر مرة. نسيم المحيط المنعش سيفعل العجائب. لكنها لا تفوح برائحة غرف المرضى كذلك. وهذا مريح. لقد قضيت وقتًا أطول من اللازم أتحرك في أرجاء غرف كريهة تفوح برائحة العرق والأجساد والتحلل.

أما عن الأثاث، حسنًا، فليس من الممكن عمل الكثير حياله. بالإضافة إلى الخوان والأريكة الباهتة، توجد خزانة أمام الجدار المقابل، ومكتب في الركن، ومقعد بذراعين يوافق الأريكة في الطراز، وعدة طاولات جانبية عليها أباجورات من الزجاج الملون. الغرفة بشكل عام مزخرفة وذات طبيعة بناتية تجعلني أستنتج أنها كانت غرفة نوم لينورا في طفولتها، وبقيت من دون تغيير طوال عقود. قد تبدو فكرة وجود امرأة تنام في الغرفة نفسها التي كانت لها وهي طفلة فكرة غريبة لولا حقيقة أنني مررت تمامًا بالخبرة نفسها.

الإشارة الوحيدة إلى الحداثة في الغرفة رافعة مرضى بجوار الفراش، تلك التي تسمح بانتقال أسهل إلى الكرسي المتحرك ومنه. لقد استخدمتها مرات كثيرة، على الرغم من أن هذه تبدو من طراز قديم. لها قاعدة على شكل حرف U، وعمود دعم بزاوية، ومضخة هيدروليكية، كلها ليست في أناقة الموديلات الأحدث. في أعلى الرافعة تتدلى حمَّالة من النايلون مما يبدو أشبه بمشجب معطف أكبر من المعتاد.

الفراش نفسه مزدحم بالوسائد التي تحمل أثر فجوة على شكل بشري. أرتجف من فكرة الإجبار على الرقاد هناك طوال اليوم من دون فعل أي شيء.

أقول:

- بالتأكيد هناك شيء تود فعله.

وأنا أفتِّش عن تلفزيون في مكان ما في الغرفة. كان أغلب مرضاي الآخرين يحبون أن يكون التلفزيون مفتوحًا، حتى إذا كانوا لا يشاهدونه فعلًا. مجرد صوته كان يؤنسهم.

بدلًا من التلفزيون، ألمح آلة كاتبة على المكتب. قديمة - لونها أخضر نعناعي، مفاتيحها عاجية اللون، من الواضح أنها أثر قديم من الستينيات - لكنها في حالة جيدة، كما يتضح من ورقة مدسوسة في العربة.

- هل هذه تخص الآنسة هوب؟

تلقي مدام بيكر نظرة عابرة على الآلة الكاتبة وتقول:

- في صباها، أرادت أن تكون كاتبة. وعندما اكتشفت ماري هذه الحقيقة، اشترت آلة كاتبة بدافع تعليم الآنسة هوب كيفية استخدامها.

- وهل فعلت؟

- لا. لكن عبر السنين ابتكرنا طريقة لها كي تعبر عن احتياجاتها. تستطيع الإجابة بنعم أو لا عن طريق الدق بيدها اليسرى. مرة تعني «لا» ومرتان «نعم». ليست بالطريقة المثالية، لكنها أبلت بلاءً حسنًا حتى الآن.

أثني يدي اليسرى مرة أخرى، وقد أزعجتني فكرة ألا أملك إلاها للتواصل.

ألقي نظرة سريعة أخرى على لينورا، التي عادت إلى مراقبتي. وهذه المرة، لا تحاول إخفاء ذلك. تكتفي لينورا بالتحديق.

- بالنسبة إلى رعاية الآنسة هوب...

تقولها مدام بيكر وهي تضغط على الكلمة لتوضح اعتقادها بأن كل الموضوعات الأخرى تافهة.

- يُقدَّم العشاء في السابعة. بالتأكيد مُرحَّب بانضمامكِ إلينا في المطبخ بعد إطعام الآنسة هوب، لكن أغلب الممرضات وجدن أن الأسهل تناول الطعام هنا معها. بعد العشاء، يحين الوقت لساعة ثانية من العلاج الطبيعي لتنشيط الدورة الدموية، وبعدها حمَّام الآنسة هوب.

تفتح بابًا إلى جوار الخزانة. بالداخل حمَّام له بلاط أبيض لامع، وشبكة تبريد هواء تفح أسفل رف المناشف، ورافعة مرضى أخرى بجوار حوض الاستحمام ذي القاعدة المخلبية، وحوض عالٍ بما يكفي لاستيعاب كرسي لينورا المتحرك.

- توضع الآنسة هوب في الفراش في تمام التاسعة. إذا احتاجت إلى مساعدة خلال الليل، تستخدم الآنسة هوب زر الاتصال ذاك لاستدعائك.

تتجه مدام بيكر إلى الطاولة المجاورة للفراش على يسار فراش لينورا، وتلتقط مربعًا سميكًا من البلاستيك يشبه جهاز التحكم في لعبة الأتاري من دون عصا التوجيه. لكن الزر هو نفسه. دائرة حمراء غليظة تضغطها مدام بيكر بإبهامها. يدوي طنين عالٍ من غرفتي. وفي صحبته ضوء أحمر أستطيع رؤيته عبر الباب المجاور المفتوح، يتوهج من قائم بلاستيكي على طاولة فراشي.

تقول مدام بيكر:

- هل لديكِ أي أسئلة؟

- إذا فكرت في أي أسئلة، فسأطرحها بالتأكيد.

تقول مدام بيكر بصوت جاف مثل نباتات العوسج:

- لا شك لديَّ في ذلك على الإطلاق. أنا الآن أعهد إليكِ رسميًّا بالآنسة هوب كي تعتني بها. عسى أن تخدميها جيدًا.

تخرج الكلمات من مدام بيكر منعدمة الحماسة، كأنها تشك في أن هذا سيتحقق. ثم تستدير وتغادر الغرفة، ويتلاشى حفيف فستانها الأسود. أبقى قرب الباب لحظة، أتأرجح قليلًا. أود أن أعتقد في كون ميل المنزل هو السبب، لكني أعرف السبب الحقيقي.

أنا الآن وحدي مع لينورا هوب.

يتسارع نبضي فجأة. بعد رؤية ذلك الجانب من نفسي في عينَي لينورا، لم أعتقد أنني سأتوتر إلى هذا الحد. لكن الغرفة تبدو مختلفة الآن بعد أن لم يَعُد فيها إلانا. ثمة شحنة في الهواء، لعلها كانت مكتومة بوجود مدام بيكر. وبانصرافها، أشعر بثقلها الكامل، شحنة مكهربة ومنذرة بالشر على نحو غامض.

ومخيفة. مخيفة بشكل مدهش.

منذ سنوات، عندما كنت صغيرة وما زال أبي يكلمني، كنا في الفناء الخلفي عندما حطت نحلة على ذراعي. قبل أن أتمكن من الصراخ أو الهروب، أمسكني أبي من كتفي وأبقاني في مكاني وهمس:

- إياكِ وإظهار الخوف يا كيت كات. بمقدورها أن تعرف إن كنت خائفة، وعندئذ تلسعك.

بقيت ساكنة، متظاهرة بالشجاعة بينما النحلة تزحف صاعدة إلى ذراعي، وعابرة عنقي، لتقف على وجنتي. ثم طارت بعيدًا، تاركة إياي من دون أذى.

أحاول استحضار وهم غياب الخوف نفسه الآن وأنا أقترب من لينورا، مائلة قليلًا لأوازن الأرضية المائلة. أتفحص الووكمان في حجرها. لم يَعُد الشريط بالداخل يدور، وقد وصل إلى نهايته منذ دقائق لا علم لنا بها. أرفع بحذر شديد سماعتَي الرأس من فوق أذنيها، وأضعهما على الخوان مع الووكمان. يستثير هذا نظرة منزعجة من لينورا.

أقول:

- آسفة. الآن بعد أن لم يَعُد هنا غيرنا، اعتقدت أننا ينبغي - أنني ينبغي - أن أتحدث. أعرفك عليَّ بشكل أفضل.

أجلس على الأريكة وأواجه لينورا التي تسرح نظرتها قليلًا قبل أن تركز هاتان العينان الخضراوان عليَّ مرة أخرى. بالإضافة إلى كونهما لامعتين بشكل مخيف، كانت عيناها معبرتين بشكل دقيق. أثر جانبي لعدم القدرة على الكلام. صار لزامًا على عينَي لينورا أن تقوما بالعمل كله. والآن، هما تومضان بالحذر والقليل من الحيرة. كأنها لا تعرف تمامًا ماذا تصنع بي.

وأنا بالمثل يا لينورا. بالمثل.

- إذن يا آنسة هوب...

أتوقف عن الكلام، كارهة الطريقة التي يبدو عليها وقعه. طريقة رسمية أكثر مما يجب، أيًّا كان ما تقوله مدام بيكر. كما أنني دائمًا ما وجدت أن مخاطبة الشخص باسمه الأول تجعله يبدو أقل رهبة. لعل هذا هو السبب في أن مدام بيكر لا تكشف أبدًا اسمها الأول. إنها أمارة سلطة. وبما أن الآنسة هوب مثيرة للرهبة بما فيه الكفاية من دون هذه الرسمية، أقرر في جزء من الثانية استخدام اسمها الأول في غياب مدام بيكر.

أبدأ حديثي من جديد:

- إذن يا لينورا، كما قلت من قبل، اسمي كيت. وأنا هنا لمساعدتك في أي شيء تحتاجين إليه.

وهو كل شيء.

إدراكٌ آخر شاق.

كل مرضاي السابقين كان بمقدورهم أن يطعموا أنفسهم أو يسيروا بمساعدة. وكلهم كان بمقدورهم الكلام، يسمحون لي بمعرفة ما يحتاجون إليه ومتى يحتاجون إليه. كل ما تستطيع لينورا فعله استخدام ذراعها اليسرى، ولا فكرة لديَّ إن كان هذا يتجاوز القدرة على ضغط زر أحمر.

أقول:

- فلنبدأ باختبار نظام الاتصال الذي أخبرتني به مدام بيكر. تستطيعين استخدامه، صحيح؟

تلوي لينورا أصابع يدها اليسرى إلى الداخل، لتضمها في قبضة واهية. ثم تهوي بسلاميات أصابعها على مسند ذراعها في كرسيها المتحرك مرة، والثانية. تلك هي نعم.

أقول:

- رائع. والآن دعينا نرَ كيف هي لياقتك البدنية.

أُحضر حقيبتي الطبية وأقوم بفحص روتيني لوظائف لينورا الحيوية. ضغط دمها مرتفع قليلًا، لكن ليس إلى حدٍّ مثير للقلق، ونبضها طبيعي بالنسبة إلى امرأة في سنها وحالتها. عندما أختبر ردود أفعالها، تستجيب كل أطراف لينورا ببعض الكفاءة. كفاءة عادية بالنسبة إلى ذراعها اليمنى - الشلل لا يعني عدم قدرة الجسم على الاستجابة - وساقيها، التي جعلها شلل الأطفال أضعف من أن تُستخدم. أما بالنسبة إلى ذراعها اليسرى، فهي تستجيب بالطريقة نفسها التي ينبغي أن تُبديها ذراع سليمة لشخص في السبعين.

السبب الوحيد للقليل من القلق كدمة باهتة في الجزء الداخلي من ساعد لينورا. كدمة صغيرة - مجرد بقعة أرجوانية محاطة بالصفار - ويبدو أنها تبرأ بشكل سليم.

- ماذا حدث هنا؟ هل اصطدمتِ بشيء؟

تدق لينورا مرتين. نعم أخرى.

- هل تؤلمك؟

دقة واحدة هذه المرة. لا.

- دعيني أعرف إذا آلمتك. والآن، لنرَ ماذا تستطيع هذه الذراع أن تفعل غير ذلك.

أمسك بيد لينورا اليسرى. باردة وشاحبة. شفافة فعليًّا. وثمة خريطة طريق من الأوردة أسفل البشرة الورقية الهشة.

- حركيها من أجلي، من فضلك.

تتلوى أصابع لينورا في يدَي.

- جميل. والآن ضمي يدك. أريدها قبضة مضمومة قدر ما تستطيعين.

تخدش أظفارها كفي ويدها تلتوي مضمومة في قبضة أقوى من تلك التي صنعتها لتدق على مسند الذراع.

- لا بأس بها. فلنرَ كم تستطيع هذه اليد أن تمسك.

أتناول زجاجة دواء من الصينية على طاولة الفراش وأضعها في كف لينورا المفتوحة. تلف أصابعها حول الزجاجة، وتُبقي قبضتها ثابتة.

أقول وأنا أعيد الزجاجة إلى الصينية:

- رائع جدًّا.

أدور بعينَي في الغرفة باحثة عن شيء آخر لاستخدامه، وألمح كرة ثلج زجاجية فوق الخوان. في حجم كرة تنس تقريبًا، ومن الواضح أنها قديمة. كرة من الزجاج، وليست من البلاستيك، وداخلها منظر مرسوم باليد لباريس يتضمن برج إيفل منمنمًا يرتفع إلى قمة القبة الزجاجية. أهز كرة الثلج. أي سائل كان فيها يومًا ما تبخر منذ زمن بعيد، تاركًا الندف الذهبية بالداخل تتقلب بجفاف كأنها قصاصات ورق أُعيد استخدامه.

أضع كرة الثلج في يد لينورا اليسرى. ثقيلة على الرغم من حجمها الصغير، وترتعد يد لينورا تحت ثقلها. يند عن حلقها صوت ما. نعيق صغير معذب يجعلني آخذ كرة الثلج على الفور بينما تسقط يد لينورا عائدة إلى مسند الذراع. تقطب جبينها، وتبدو محبطة لأنها فشلت.

- لا بأس. لقد حاولتِ بأقصى طاقتك.

أُعيد كرة الثلج إلى الخوان، وقد أثارت الحركة زوبعة ذهبية أخرى داخلها.

أعود إلى جوار لينورا، وأمسك يدها. تحت جلدها تنبض الأوردة قليلًا.

- هل ذهبتِ من قبل إلى باريس؟

تضم لينورا يدها في قبضة ضعيفة، وتدق على كفي دقة واحدة حزينة.

- وأنا أيضًا. أكانت كرة الثلج هدية من شخص ذهب إلى باريس؟

دقتان هذه المرة.

- والداكِ؟

دقتان أخريان.

- هل تفتقدينهما؟

تفكر لينورا في السؤال. ليس لوقت طويل، لكن بما يكفي كي ألاحظ السكتة. ثم تدق مرتين على كفي.

- وأختك؟ هل تفتقدينها أيضًا؟

أحصل على دقة واحدة هذه المرة. دقة صلبة حتى إنها تلسع يدي.

لا.

إجابة مقلقة، مصحوبة بفكرة أكثر إثارة للقلق: استخدمت لينورا هذه اليد عندما قتلت أختها

بحبل.

وأباها

بسكّينة.

وأمها

أنهت حياتها المسكينة.

معرفة أن اليد التي أمسكها فعلت كل هذه الأشياء المريعة تجعلني أفلتها وأنا أشهق. تسقط يد لينورا في حجرها، وتتبعها نظرة حادة من عينيها، مندهشة من ناحية ومتألمة من ناحية أخرى. لكن سرعان ما يتغير تعبيرها إلى شيء أكثر وعيًا، يكاد يقترب من التسلية.

هي تعرف ما كنت أفكر فيه.

لأنني لست أول مقدمة رعاية تفكر في هذه الأشياء.

فعلها آخرون من قبل. ولعل بعضهم ألقوا يدها كأنها قطعة بطاطس ساخنة بعدها على الفور. حتى ماري. لعلهم مثلي لم يتساءلوا فقط كيف قتلت لينورا عائلتها، بل لماذا. هذا هو اللغز الكبير في نهاية الأمر. لا بد أن هناك سببًا ما. لا أحد يذبح أسرته كلها من دون دافع.

أقصد لا أحد عاقلًا يفعل ذلك.

أنظر إلى لينورا، وأتساءل إن كان وراء صمتها وسكونها يموج الجنون. لا يبدو الأمر كذلك، خصوصًا عندما تبادلني لينورا النظرات. أحس بذكاء حاد يضطرم خلف تلكما العينين الخضراوين وهي تحولهما عني إلى الآلة الكاتبة على المكتب. النظرة ملحة. كأنها تقريبًا تحاول إخباري بشيء ما.

أسألها:

- أتريدين استخدامها؟

تدق لينورا مرتين.

- هل علَّمتكِ ماري الطريقة؟

دقتان أخريان. دقتان حاسمتان إلى درجة أن صداهما يتردد في الغرفة. على الرغم من ذلك، لديَّ شكوكي. يبدو من المستحيل على شخص في حالة لينورا أن يستخدمها، حتى مع وجود المساعدة. لقد فُصلتُ من مكتب آلة سكرتارية. أعرف كم يمكن أن تكون هذه الآلات صعبة على شخص لديه إمكانية استخدام يديه الاثنتين.

ومع ذلك، أدفع كرسي لينورا إلى المكتب وأضع يدها اليسرى على لوحة المفاتيح. بخفة أكبر وانتباه أشد، تنزلق أصابعها على المفاتيح، كأنها تقرر بعناية أيها ستضغطه أولًا. تستقر على واحد، وتستخدم سبابتها لتدفعه إلى الأسفل بكل قوتها. يقفز شريط الكتابة من الآلة ويضرب الورقة بتكة عالية.

تبتسم لينورا. إنها تستمتع بهذا.

بعد الضغط على ثمانية مفاتيح أخرى، من ضمنها شريط المسافة، تزفر راضية.

ولأنها لا تستطيع فعل ذلك وحدها، أتولى أنا الدق على بادئة السطر وإعادة العربة إلى وضع البدء. هذه الحركة تدفع الصفحة إلى أعلى مسافة سطر، سامحة لي برؤية ما نقرته لينورا.

اهلًا كيت

أبتسم على الرغم من توتري وأقول:

- أهلًا.

تهز لينورا رأسها في اتجاه الآلة الكاتبة. إشارة إلى أنها تريد الاستمرار. أقول:

- أليس هذا شاقًّا عليك؟

ومرة أخرى، تطوف يدها اليسرى على المفاتيح قبل أن تضغط حرفًا. نقرها ليس سريعًا. أظن أنها في المتوسط تكتب كلمة كل دقيقة، وهو معدل ليس أسوأ بكثير مني في مكتب السكرتارية. على عكسي، هي مثابرة، تعمل بتركيز شديد. بينما هي تطارد الحروف حرفًا حرفًا وتنقرها، يعبس جبينها ويخرج طرف لسانها من زاوية فمها. سرعان ما تكتب خمس كلمات أخرى، كل كلمة تفصلها ضربة من شريط المسافة.

جسدي ميت لكن عقلي حي

ترفع لينورا عينيها نحوي مترقبة، وهي تعض شفتها السفلى في توتر، محاوِلة أن تتبين رد فعلي. تعبير صافٍ تمامًا. مشاعرها شديدة الوضوح، حتى إنها تُذكرني بأداء المراهقات. كأنها صبية لا تستطيع إلا أن تبوح بما في مكنون صدرها.

يخطر على بالي أن لينورا لا تزال تُشبه المراهقة من نواحٍ عديدة. طوال عقود، ظلت تعيش في هذا المنزل، في هذه الغرفة، محاطة بأشياء صباها. لم يتغير شيء من حياتها منذ أن كانت في السابعة عشرة. من دون عائلة أو أصدقاء أو حتى تغيير مناظر يدفعها إلى النضج، قد لا تزال لينورا مراهقة عقليًّا.

وهو ما يعني وجود احتمال بأن حالتها العاطفية الآن هي بالضبط كما كانت ليلة مقتل عائلتها. تقفز الأغنية مرة أخرى عبر ذاكرتي ساخرة.

في السابعة عشرة، لينورا هوب

أُبعد يدي في عصبية عن الآلة الكاتبة، كأن يد لينورا على وشك أن تمتد وتمسك بي. تلاحظ بالتأكيد، وتومئ إليَّ كي أضغط على بادئة السطر. أفعل ذلك بسرعة وحِدَّة، مراعية ألا يحدث أي تلامس بيننا.

ردًّا على ذلك، تنقر لينورا ثلاث كلمات صغيرة لكنها ذات مغزى.

لا تكوني خائفة

إيماءة أخرى منها، ودفعة سريعة أخرى مني لبادئة السطر كي تسمح للينورا بكتابة سطر آخر.

لا أستطيع إيذاءك

لو كان الهدف أن تهدئ مخاوفي، فقد فشلت لينورا فشلًا ذريعًا.

لن أوذيك.

كانت تلك العبارة لتهدئ مخاوفي.

لكن ما كتبته لينورا يفعل العكس. تلك العبارة الماكرة القصيرة توحي بافتقاد القدرة، لا الإرادة.

وأن لينورا كانت لتؤذيني لو استطاعت.

٧

نتناول العشاء في صمت، وهو ما صرت معتادة عليه تمامًا في الأشهر الستة الماضية. أجلس مواجهةً لينورا، مراعية ألا تتلامس رُكَبنا. منذ أن تركنا الآلة الكاتبة، أبقيت الاتصال الجسدي في حده الأدنى.

تستقر أطباقنا على صينية خشبية ثبَّتها على كرسي لينورا المتحرك. دجاج مشوي وجزر محمص بالعسل من أجلي، وقرع بلوط مهروس ومتبَّل بأقراص الدواء المطحونة من أجل لينورا. وبما أنني لا أعرف من يجب أن يأكل أولًا، أنا أم هي، أقرر أن تسير اللقم بالتبادل. لقمة للينورا ولقمة لي، إلى أن تغدو أطباقنا نظيفة تمامًا.

بعد العشاء التحلية. أحصل على كعكة شوكولاتة. تحصل لينورا على بودينج.

بعد التحلية، يحين وقت تمارين لينورا المسائية لتنشيط الدورة الدموية. وهو الشيء الذي لا أصبو إليه لأنه يعني أن تلامسنا المحدود لا بد أن ينتهي. لبقية المساء، سأكون أنا ولينورا متقاربتين بشكل غير مريح.

أستخدم رافعة المرضى لإخراجها من الكرسي المتحرك ووضعها على الفراش. يتطلب هذا تمرير الحمَّالة من تحتها، ورفعها من فوق الكرسي المتحرك، وتحريك هذه الآلة كلها بينما تتدلى هي مثل طفل على أرجوحة، وإنزالها على الفراش، ثم جذب الحمَّالة من تحتها. الأمر أسهل نظريًّا منه عمليًّا، خصوصًا

لأن لينورا أثقل مما تبدو. ثمة متانة مدهشة تختفي داخل هيكلها الأشبه بهيكل العصفور.

على الفراش، أرفع ساق لينورا اليمنى قبل أن أثنيها، دافعة الركبة نحو صدرها. تحدق لينورا إلى السقف بينما أفعل ذلك، وقد بدا عليها السأم. أفكر كم مرة - مع كم ممرضة مختلفة - كان عليها أن تفعل هذا. آلاف المرات على الأرجح. صباحًا ومساءً، يومًا بعد يوم بعد يوم. وعندما أنتقل إلى ساقها اليسرى، تميل لينورا برأسها جانبًا كأنها تحاول رؤية النافذة من ورائي.

على الرغم من أن الظلام حل الآن ولا يوجد الكثير كي تراه، فإنني أفهم السبب. هو أفضل من النظر إلى السقف. على الأقل يوجد تنوُّع في الخارج، حتى في الظلام. ينحدر البدر على الأفق منخفضًا جدًّا، كأنه يتأرجح على سطح المحيط. تمر من أمامه سحب هزيلة كالأصابع. من بعيد، تمخر سفينة أمواج الليل، وتلتمع أضواؤها كالنجوم.

أرنو إلى لينورا وألاحظ في عينيها اشتياقًا. بمقدوري أن أفهم العلة. طوال حياتي شعرت بأن العالم يمر من أمامي. وُلدت عام ١٩٥٢، وتزامنت سنوات مراهقتي المتأخرة مع نهاية الستينيات. قضيت سنوات دراستي الثانوية أعمل في مطعم صغير، أشاهد أصدقائي القلائل يرتحلون إلى سان فرانسيسكو، أو يتجهون شمالًا إلى كندا ليهربوا من التجنيد الإلزامي، أو يذهبون إلى بلدة وودستوك الساحرة ويعودون منسجمين، نشطين، منقطعين عن الدراسة. شاهدت الهبوط على سطح القمر في وردية المساء، والتقطت لمحات من التاريخ وأنا أحمل صينيات عليها أطباق اليوم مخفضة السعر.

طمأنتني أمي كي لا أقلق. قالت لي إنه من خلال القراءة يمكن استكشاف عوالم كاملة من دون مغادرة المنزل أصلًا. لكن أبي على الجانب الآخر حذرني كي أعتاد ذلك. قال لي:

- إنه نصيبنا في الحياة يا كيت كات. يكدح أمثالنا من الناس. يعمل الأثرياء الأوغاد الذين يديرون كل شيء على ضمان حدوث هذا.

صدقته. أعتقد أن هذا ساهم بشكل جزئي في أن ينتهي بي الأمر مقدمة رعاية، على أتم استعداد لوضع احتياجات الآخرين قبل احتياجاتي، ولا تنتابني حتى أحلام اليقظة عن حياة أكبر.

أقول للينورا:

- لا أحظى بالكثير أنا أيضًا. لقد ظللت في الأساس عالقة بالداخل طوال السنوات الاثنتَي عشرة الماضية.

تفاجئني صياغتي للكلام على ذلك النحو. اثنتا عشرة سنة طويلة. ليست بطول سنين لينورا، لكنها عالقة على أي حال. لم يتغير إلا الغرف والمرضى. أحاول أن أتذكرهم جميعًا وأندهش عندما لا أستطيع.

كم من الغريب أن تقضي كل هذا الوقت في مكان واحد مع شخص ما وتنسى كل شيء عن ذلك. عنهم. أعزو ذلك إلى الرتابة. اختلف الناس والأماكن، لكن ظلت الوظيفة هي نفسها. يوم بعد أسبوع بعد عام إلى أن صار كل شيء ضبابيًّا. يخطر لي أنني - ربما مثل لينورا - فاتتني السبعينيات تمامًا. كل هذه المحكَّات التي مر بها الآخرون جميعًا مرت بي كسيارة مسرعة. لم أذهب قَطُّ إلى صالة ديسكو. لم أشاهد فيلم الفك المفترس إلى أن عُرض في التلفزيون. عبرت أزمتَي البنزين من دون حتى أن أنتظر في طابور لأملأ خزان سيارتي. فضيحة ووترجيت وكل الاضطراب السياسي الذي أعقبها كانا مجرد ضوضاء خلفية بينما أُطعم المرضى بالملاعق، وأعطيهم أقراص دوائهم، وأمسح بالإسفنج المبلل أجسادهم الذابلة.

يوخزني ألم خفيف في جنبي. كأنه سكين توخز أضلعي. أدرك أنه الاشتياق. الاشتياق إلى حياة لم أعِشها قَطُّ، ولن أعيشها على الأرجح أبدًا.

- هل ينتابكِ إحساس مثل هذا يا لينورا؟ أن هناك حياة كاملة في الخارج كان بمقدوركِ أن تعيشيها ولم تفعلي؟

تدق لينورا بيدها مرتين على مرتبة الفراش.

- ظننت ذلك.

سرعان ما ننتهي من التمارين ونشرع في المهمة التالية: وقت الاستحمام.

في الحمَّام، أبدأ بملء الحوض قبل أن أدفع لينورا بكرسيها بالقرب منه. عندما يمتلئ الحوض، أمد ذراعي إلى يد لينورا اليسرى لكنني لا أستطيع أن أدفع نفسي إلى الإمساك بها. هكذا فقط؛ عدت إلى القلق من لمسها.

ألعن في عقلي مستر جرلين، وأجبر يدي على الإحاطة بيد لينورا وغمسها في الماء.

- أسخن من اللازم؟

تدق لينورا بيدها مرة واحدة على الحوض. لا.

- متأكدة؟

أقولها على سبيل المماطلة، غير راغبة في مواجهة الخطوة التالية: تجريد لينورا من ثيابها.

بعد دقتين تشيران إلى تأكيدها، لا يوجد مفر. أنا ولينورا هوب على وشك التعارف بشكل حميمي.

في بداية عملي، اعتدت أن أشيح بوجهي عند خلع ثياب المرضى. طبعًا من منطلق احترامهم، لكن أيضًا لأنني لم أرغب في رؤية ما يخبئه لي المستقبل. كل تلك التجاعيد والبقع والأثداء المتدلية. صرت الآن على وفاق مع ذلك. هكذا سأبدو في النهاية. ما سيبدو عليه الجميع. إذا كانوا محظوظين أقصد. أو ربما إذا كانوا سيئي الحظ. ما زلت متشككة في هذا.

رؤية المريض عاريًا مجرد جزء من الوظيفة. مثلها مثل سوائل الجسم. في الاثنتَي عشرة سنة الماضية، قابلت أغلبها. الدم والبول. القيء والمخاط والخراء. الكثير جدًّا من ذلك.

أستخدم رافعة المرضى لإدخال لينورا في الحوض. تزداد المهمة صعوبة بسبب الحمَّام الضيق، وزيي الرسمي غير المريح، وتلك الرغبة المتواصلة في تقليل الاتصال الجسدي بيننا قدر الإمكان. كل هذا يجعلني أتصرف بطريقة متعثرة وخرقاء، إلى حدٍّ بلغ أنني صدمت كوع لينورا عرَضًا بحافة الحوض. تضيق عيناها وتلتمعان بنظرة ضيق.

- آسفة.

تتنهد لينورا، ولأول مرة أحس بإحباط لا تستطيع التعبير عنه. الشعور متبادل. هناك الكثير مما أريد أن أسألها عنه. الكثير مما أحتاج إلى معرفته. لأنني لا أعتقد أنني أستطيع الاستمرار بهذا الشكل. متوترة في حضورها. خائفة حتى من لمسها، وهو السبب الجوهري أصلًا لوجودي هنا - أن أفعل كل الأشياء التي لا تستطيع أن تفعلها ذراعها اليمنى وساقاها.

- يجب أن نتكلم... أقصد أنني يجب أن أتكلم.

أسكت هُنيهة، كأن لينورا تستطيع الرد. بدلًا من ذلك، يملأ صمتها الحمَّام مثل البخار، جاعلًا إياه يبدو صغيرًا، يكاد يختنق بالسخونة والرطوبة.

- أنتِ على حق. أنا خائفة. سأحاول ألا أكون كذلك. لكنه صعب. ربما سيكون الأمر أسهل لو عرفت لماذا...

أمسك لساني قبل أن أتمكن من إنهاء الجملة. لماذا قتلتِ بقية أسرتك؟ لينورا تعرف ما أعنيه على أي حال. أستطيع أن أشعر بذلك وأنا أضغط زجاجة الشامبو في يدَي وأشرع في إرغاء شعرها.

- لأنني ربما أفهم.

أغرف الماء في يدَي وأصبه على رأس لينورا، حريصة ألا يدخل الماء بالصابون في عينيها. كانت أمي تفعل الشيء نفسه عندما كنت صغيرة. رددت لها الجميل عندما كان عليَّ أن أحممها بعد سنوات. لطالما رأيت هذا الفعل ذا صبغة مقدسة. مثل التعميد. وفعله الآن، في هذا الحمَّام الخانق الصامت، يضعني في مزاج اعترافي.

هذا شيء اقترحه أبي، مباشرة قبل أن يتوقف عن الحديث معي كلية. اذهبي إلى القس. اعترفي بذنوبك.

لم أفعلها وقتها. لكني أحاول أن أفعلها الآن.

- آخر المطاف يبدو أننا متشابهتان كثيرًا يا لينورا.

أغرف مزيدًا من الماء، وأنثره على رأسها، وأدعه يسيل على شعرها كأن هذا الفعل سيغسل عنا ذنوبنا معًا.

- كلتانا تحب الكتب. لم نذهب إلى أي مكان طوال سنوات وسنوات. وأعرف ما تمرين به.

أسكت قليلًا، غير واثقة إن كان ينبغي أن أكمل. أو حتى إن كنت أرغب في الإكمال. لكن عندئذ تمنحني لينورا نظرة جانبية، نظرة تحمل من الفضول تجاهي مثلما أحمل تجاهها.

أخيرًا أقول:

- هذا أكبر الأشياء المشتركة بيننا، أن الجميع يعتقدون أنني قتلت أمي.



على الرغم من أنني كنت سأعتني بأمي مجانًا، فإن والدَي أصرا على توظيفي من خلال وكالة جرلين لمقدمي الرعاية الصحية المنزلية. فكرة أمي. يا لها من امرأة ذات كبرياء. كان من المستحيل أن تقبل كاثلين ماكدير الإحسان. على الرغم من أن سرطان المعدة كان يأكل فيها - وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يعرفون أنه فات الأوان على فعل أي شيء حيال ذلك - فإنها أصرت على الدفع.

هكذا تركت المريضة التي كنت أعتني بها، ثمانينية مملة بعض الشيء تعاني التهاب مفاصل مزمنًا، وعدت إلى غرفة نوم طفولتي. في البداية كان من الغريب معاملة أمي كأنها واحدة من مرضاي. بدوا كلهم عجائز. أما هي فلم تبدُ كذلك.

لا يعني هذا أنها كانت صغيرة. كانت أمي في الرابعة والثلاثين عندما أنجبتني، وأبي في التاسعة والثلاثين. لطالما ظننت أنني من المتوقع أن أرعاهما ذات يوم. فقط لم أعتقد أنه سيكون يومًا قريبًا إلى هذا الحد.

أو قاسيًا إلى هذا الحد.

كان هذا شيئًا لست مستعدة له، مهما كان عدد المرضى الآخرين الذين اعتنيت بهم. يختلف الأمر عندما تكون أمك هي المريضة. يكتسب الأمر أهمية أكبر، ويتسبب في ألم أكبر أيضًا. لكن أي ألم شعرت به لا يمكن مقارنته بما كانت أمي تعانيه. قضت أول بضعة أسابيع من مرضها في حالة دوار، مذهولة من كل

الأشكال التي بدأ جسدها يخونها بها. ثم جاء الألم، ألم حاد جدًّا، حتى إنه أحيانًا كان يتركها تتلوى وتبكي. ألححت على طبيبها كي يكتب لها مخدر الفينتانيل، على الرغم من أنه أراد الانتظار.

قال:

- فقط بضعة أسابيع أخرى.

قلت:

- لكنها تتعذب الآن.

كتب الروشتة.

بعد أسبوعين ماتت أمي من جرعة فينتانيل زائدة.

بالنسبة إلى أي عين غير مدربة، قد تبدو كأنها حادثة مأساوية. مريضة أصابها الألم بالجنون فتناولت أقراصًا أكثر مما ينبغي لها. لكن بالنسبة إلى أي عين مدربة، كان الأمر أسوأ من ذلك. بسبب حالتها، كان من الممكن القول إن أمي لم تكن في حالة عقلية سليمة. وهو ما يعني أنني - بوصفي مقدمة الرعاية - كنت مسؤولة عن اتخاذ القرارات نيابة عنها ولمصلحتها. وبما أنني تركت دواءً معروفًا باحتمالية تناول جرعة زائدة منه في متناولها، يمكن القول أيضًا إنني أهملت في رعايتها ومن ثَمَّ مسؤولة عن موتها.

هذا ما اعتقده مستر جرلين، بمجرد أن اعترفت بأنني نسيت أن أضع زجاجة الأقراص في الصندوق المعدني المغلق تحت فراشي. لم يخبرني بهذا طبعًا. فقط اتصل بوزارة الصحة والخدمات الإنسانية التي اتصلت بعد ذلك بالشرطة المحلية.

بعد يوم من جنازة أمي، جاء محقق إلى المنزل. ريتشارد ڤيك. كنت أعرفه معرفة سطحية لأنه كان صديقًا لأبي في زمن مضى. كانت له هيئة جدٍّ في المسلسلات الكوميدية القصيرة. رأس ممتلئ بالشعر الأبيض. ابتسامة ودود. عينان طيبتان.

قال:

- أهلًا يا كيت. خالص تعازيَّ لخسارتك القريبة.

نظرت إليه في حيرة، على الرغم من أنني وقتها كان ينبغي أن أعرف سبب وجوده.

- هل في إمكاني مساعدتك في شيء يا مستر ڤيك؟

- المحقق ڤيك، إذا كان هذا لا يضايقك.

ومنحني ابتسامة صغيرة، كأنه يعتذر عن الرسمية في الأداء.

- هل والدك هنا؟

لم يكن. كالعادة ذهب أبي، المتماسك في أساه، إلى العمل ذلك اليوم، ومنه إلى تصليح المواسير الصاخبة في منزل السيدة مايويذر العجوز. قلت هذا للمحقق ڤيك، وأضفت في أدب:

- سأخبره بأنك مررت.

- أنا في الحقيقة هنا لأراكِ.

- أوه!

فتحت الباب أكثر وطلبت منه الدخول.

عدَّل المحقق ڤيك ربطة عنقه، وتنحنح، وقال:

- قد يكون من الأفضل لو فعلنا هذا في القسم.

- هل أنا بحاجة إلى محامٍ؟

قيل لي لا، بالتأكيد لا، إنها مجرد محادثة غير رسمية عما حدث. لم أكن مشتبهًا فيها لأنه لم يكن هناك شيء يُشتبه فيه. كلها أكاذيب، كما علمت عندما تبعت المحقق ڤيك إلى القسم واصطُحبت إلى غرفة تحقيقات بها جهاز تسجيل أداره ما إن جلسنا.

قال:

- من فضلك اذكري اسمك.

- أنت تعرف اسمي.

- هذا من أجل التسجيل.

حدقت إلى جهاز التسجيل، وشاهدت البكرات تدور وتدور. كان هذا عندما أدركت أنني في مشكلة.

- كيت ماكدير.
- وماذا تعملين يا كيت؟
- أنا مقدمة رعاية منزلية أعمل مع وكالة جرلين لمقدمي الرعاية الصحية المنزلية.
- منذ متى وأنتِ تقومين بهذا العمل؟
- منذ اثنتَي عشرة سنة.
- هذا وقت طويل. أظن أنك ربما صرتِ خبيرة فيه الآن.

هززت كتفي وقلت:

- أظن ذلك.

فتح المحقق ڤيك ملفًّا أمامه، بداخله كان تقرير الطبيب الشرعي حول وفاة أمي.

- يقول التقرير هنا إن أمك ماتت نتيجة جرعة زائدة من مُسكِّن موصوف بأمر الطبيب، وإنك، بوصفك مقدمة الرعاية لها، من وجدتِ جثتها.
- هذا صحيح.
- كيف كان شعورك عندما أدركتِ أن أمك ماتت؟

عدت بذاكرتي إلى ذلك الصباح. كيف استيقظت في وقت مبكر، وألقيت نظرة واحدة على السماء الملطخة بالرمادي، وعرفت فقط أن أمي رحلت. قبل عبور الصالة إلى غرفتها، كان بمقدوري أن أوقظ أبي الذي اعتاد النوم فوق الأريكة ليعطي أمي مساحة أكبر في الفراش. كان بمقدورنا أن نطمئن عليها معًا، وأوفر على نفسي عبء كوني من وجدها ميتة. بدلًا من ذلك، اختلست النظر داخل غرفتها، ووجدت أمي ورأسها على وسادتها، وعينيها مغلقتين، ويديها مطويتين على صدرها. أخيرًا، صارت في سلام.

قلت:

- حزينة، ومستريحة.

رفع المحقق ڤيك حاجبًا. لم تَعُد عيناه طيبتين. وبدلًا من ذلك، أشع منهما الارتياب.

- مستريحة؟

- لأنها لم تَعُد تعاني.

- أظن أنه من الطبيعي التفكير على هذا النحو.

- هو كذلك.

أجبته بحِدَّة أكبر مما يليق بمثل هذه الظروف. لم أستطِع منع نفسي.

- أخبرني رب عملك، مستر جرلين، بأن هناك إجراءً اعتياديًّا يقضي بوضع كل أقراص الدواء بعيدًا وفي مكان مغلق عندما تكونين نائمة لمنع المرضى من الوصول إليها. هل هذا صحيح؟

أومئ برأسي.

قال المحقق ڤيك وهو يومئ برأسه نحو جهاز التسجيل:

- أريدكِ أن تجيبي عن هذا السؤال يا كيت.

قلت:

- نعم.

- لكن مستر جرلين أخبرني أيضًا بأنكِ اعترفت له أنكِ لم تفعلي ذلك فيما يتعلق بالأقراص التي أخذت أمك جرعة زائدة منها.

- لم أعترف.

قلتها وقد أربكتني الكلمة.

- إذن أنت أبعدت الأقراص.

- لا، تركتها في الخارج. لكني لم أعترف. هذا يجعلني أبدو مذنبة بشيء ما. أنا فقط أخبرت مستر جرلين بأنني تركتها في الخارج.

- هل سبق أن تركت دواءً مثل هذا من قبل؟

- لا.

- أبدًا؟

- أبدًا.

- إذن تلك كانت المرة الأولى التي تنسين فيها إبعاد الأقراص كما هو مفترض منك أن تفعلي؟

- نعم.

قلتها وأنا أتنهد بينما خيبة أملي تزيد. نظرت مرة أخرى إلى جهاز التسجيل وتساءلت كيف ستبدو التنهيدة عند إعادة تشغيل الشريط. نافدة الصبر؟ مذنبة؟

تساءل المحقق ڤيك:

- هل تركتِها في الخارج عن عمد؟

- لا. كانت مجرد حادثة.

- أجد من الصعب تصديق هذا يا كيت.

- هذا لا يعني أنه ليس صحيحًا.

- طوال الاثنتَي عشرة سنة التي عملتِ فيها مقدمة رعاية، لم تنسي قَطُّ مرة واحدة الأدوية في متناول المريض. والمرة الوحيدة التي تفعلين فيها ذلك، يصدف أن تتناول المريضة جرعة زائدة هكذا. وليست فقط أي مريضة. أمك نفسها، التي كانت تعاني ألمًا شديدًا، إلى درجة أنكِ رجوت الطبيب كي يكتب لها الدواء نفسه الذي قتلها. وعندما ماتت، تعترفين بأنك شعرت بالارتياح. لا تبدو هذه لي أشبه بحادثة يا كيت.

ظللت أرمق جهاز التسجيل، والبكرات تدور وتدور وتدور.

قلت:

- أريد محاميًا.

بعد ذلك، تهاوى كل شيء كقطع الدومينو. بدأ تحقيق شرطي رسمي. أوقفني مستر جرلين عن العمل، وأوكل إليَّ محاميًا عامًّا أخبرني بأنني على الأرجح سأُتهم بالقتل غير العمد في أفضل الأحوال والقتل العمد في أسوئها لو اعتقدت الشرطة أنني أجبرت أمي على تناول هذه الأقراص. أوصى بأن أقبل أي صفقة إقرار بالذنب يعرضونها عليَّ. قطعة الدومينو الأخيرة - القشة

الأخيرة بالنسبة إلى أبي - كانت عندما ظهر التحقيق على الصفحة الأولى للجريدة المحلية.

الشرطة تشك في ابنة تسببت في جرعة زائدة قاتلة لأمها

لكن في النهاية، لم تكن هناك طريقة لإثبات أنني تركت هذه الأقراص خارجًا عن عمد أو أنني جعلت أمي تتناولها. لا شك لديَّ أن غياب الأدلة هو السبب الوحيد في كوني أسير حرة اليوم. أعرف أن المحقق فيك يعتقد أنني مسؤولة. الجميع يعتقدون ذلك.

- ومن ضمنهم أبي.

أقول للينورا بعد أن حكيت لها قصتي الحزينة وأنا أرفعها من الحوض، وأجفف جسدها بالمنشفة، وألبسها قميص نوم نظيفًا وحفاضة كبار جديدة، وأضعها في الفراش.

- قد لا يكلمني مرة أخرى. لهذا أنا هنا بدلًا من أن أكون هناك.

أجمع أدويتها من فوق طاولة الفراش، وألقي الزجاجات داخل الصندوق المعدني، الذي أُعيده بعد ذلك إلى أسفل فراشي. على الرغم من أنه لا سبيل إلى لينورا كي تصل إليها على الطاولة، يحق لي أن أكون حذرة. خصوصًا بعد ما حدث مع أمي.

أعود إلى غرفة لينورا، وأضع زر الاستدعاء الأحمر بجوار يدها اليسرى حتى تتمكن من استخدامه بسهولة.

- سأكون في الغرفة المجاورة تمامًا إذا احتجتِ إليَّ.

وهو ما كنت أقوله لأمي أيضًا كل ليلة في أثناء عنايتي بها.

تتطلع لينورا إليَّ، والخوف يغيم عينيها الخضراوين. تنقبض معدتي إذ أدرك ما يعنيه هذا.

حتى هي تعتقد أنني مذنبة.

أظن أن هذا يجعلنا متعادلتين.

كان عشاء عيد ميلادي لا يطاق. شيء تعيس جدًا، على الرغم من كل الجهد المبذول فيه. ضمت قائمة الطعام: لحم ضأن، وحساء كراث، وبطاطس مشوية بأوراق الروزماري.

لم يحضر العشاء إلا أنا والآنسة بيكر وأبي وأختي، وضيف خاص بناء على طلبها — بيتر. وعلى الرغم من وجود مكان مجهز لأمي، أرسلت خادمتها لتبلغنا أنها تشعر بأنها أضعف من أن تنزل من أجل العشاء.

للتحلية، أتى طاقم المطبخ يدفعون على طاولة متحركة كعكة هائلة من ثلاث طبقات عليها كريمة تزيين وردية، وشموع عيد الميلاد موقدة. حاولت أن أبدو متحمسة وأنا أنفخها لأطفئها، حاولت صدقًا. لكن بما أن كل شيء كان له إحساس فظيع، لم أتمكن من ذلك جيدًا.

لا يعني هذا أن أحدًا لاحظ. كانت أختي مشغولة بمغازلة بيتر، وكان أبي مشغولًا للغاية بالتحديق إلى أحدث خادمة، سالي. كان في إمكاني أن أقتطع ملء يدي من الكعكة وأدفعها في فمي ولن يطرف جفن لأحد إلا الآنسة بيكر الصارمة.

بعد العشاء، صعدت إلى الطابق العلوي لأرى أمي. كانت في الفراش، بالطبع، واللحاف مشدود إلى صدرها. بدت صغيرة الحجم جدًا ومثيرة للشفقة، إلى درجة أنه كان من الصعب تصديق أنها كانت بالغة الحسن يومًا ما.

«أجمل فتاة في بوسطن» كما كان يحلو لأبي أن يتفاخر فيما مضى عندما كنت أنا وأختي أصغر سنًا، وكان والداي على الأقل يتظاهران بحب أحدهما للآخر.

أعرف أنه كان يقول الحقيقة. في شبابها، كانت أمي جميلة بشكل مذهل. ولم يضرها أنها أيضًا كانت سليلة واحدة من أغنى العائلات في نيو إنجلاند. تلك الحقيقة، بالإضافة إلى جمالها البالغ، جعلتها امرأة لا تقاوم بالنسبة إلى أبي، الذي كان عصاميًا بكل معنى الكلمة. باجتهاده الذي لا يعرف طموحه حدًا، وضع ناظريه على إيفانجلين ستوتون.

لم يهمه أن بوسطن كلها كانت تتهامس أنها أقامت علاقة ما مع واحد من الخدم، لتثير فضيحة لعائلتها حتى كادوا يتبرأون منها. ظل أبي يطاردها بإصرار.

استمتعت أمي طبعًا بهذا الاهتمام. سمعت أكثر من مرة أنها كانت توصف بأنها وردة تتفتح في نور الشمس. ولا بد أن شمس أبي سطعت بشدة، لأنهما تزوجا في غضون أسابيع. وسرعان ما حبلت أمي بعدها وبنى أبي هوبز إند.

بعد سنين، عندما بدأ اهتمامه يذوي، ذبلت أمي، مثل أي زهرة يبعدونها عن النور. لم يكن هناك أي شيء شبيه بالورد فيها ليلة عيد ميلادي. شاحبة، وواهنة، ونحيلة إلى حد الهزال. لم تكن بها إلا الأشواك.

قالت:

- أهلًا حبيبتي.

مستخدمة مفردة التحبب المخصصة لي فقط. لكل واحدة منا، أنا وأختي، مفردة خاصة، اختارها والدانا يوم مولدنا. أختي كانت محبوبة. وأنا حبيبة.

لكن تلك الليلة همهمت بها أمي بطريقة جعلتني غير واثقة إن كانت تخاطبني أم تخاطب زجاجة الشراب بنية اللون المستقرة على الوسادة بجوارها.

صبغة الأفيون.

دواؤها لكل داء، على الرغم من أنه على حد علمي، لم يشفِ شيئًا.

- هل قضيت عيد ميلاد سعيدًا؟

تأكدت أنني فعلًا من كانت تتحدث إليه. كذبت وأخبرتها بأنني استمتعت جدًا. قالت أمي:

- أتمنى لو استطعنا أن نحتفل به في بوسطن.

وكذلك أنا. بالنسبة إليَّ، كانت بوسطن عالمًا آخر لم يكن مسموحًا لي بالتمتع به إلا مرة في السنة قبل أن يزج بي عائدة إلى سأم هوبز إند. كان بها كل شيء لا يملكه هذا المكان. مطاعم ومتاجر، ودور مسرح وسينما. آخر مرة زرناها كانت بعد الكريسماس مباشرة. ذقت الشمبانيا لأول مرة، وركبت قاربًا على شكل بجعة في متنزه بوسطن كومون، وذهبت إلى السينما، وشاهدت ميكي ماوس في فيلم «القارب البخاري ويلي». كنت متلهفة على العودة.

قلت آملة:

- ربما في عيد ميلادي المقبل.

أومأت أمي برأسها إيماءة ناعسة وقالت:

- توجد هدية من أجلك هناك. مجرد تذكار صغير من أبيك ومني.

كانت على التسريحة علبة صغيرة مغلفة بورق زينة وردي وشريط أزرق. بداخلها كرة ثلج صغيرة بها برج إيفل مصغر يرتفع فوق صف من أسقف مائلة منمنمة. قالت أمي:

- هزيها.

هززتها، لتدور رقائق ذهبية ضئيلة داخل الكرة.

- أردت بشدة أن أصطحبك أنت وأختك إلى باريس.

قالتها أمي كأن هذه الرحلة لم تَعُد ممكنة.

- عديني بأن تذهبي ذات يوم.

قبضت على كرة الثلج بإحكام وأومأت برأسي.

- اذهبي إلى باريس ولتقعي في الحب، ثم اكتبي كل شيء عن هذا. أعرف كم تحبين الكتابة. اكتبي كل أفكارك وآمالك وأحلامك عندما تخوضين مغامرات كبيرة. عديني بأن تفعلي ذلك يا حبيبتي. عديني بألا تظلي هنا.

قلت:

- أعدك.

عندئذ بدأت أمي تبكي. بكت بوضوح، ومدت يدها إلى زجاجة صبغة الأفيون ورفعتها إلى شفتيها.

غادرت غرفتها قبل أن تبدأ في تجرعها.

٩

لا أشعر بالدهشة عندما أكتشف عدم وجود تلفزيون في غرفتي أيضًا. لقد رأيت ما فيه الكفاية من هوبز إند لأعرف أنه يكاد يكون موجودًا في الماضي، من صندوق الهاتف العتيق الذي لمحته في المطبخ إلى المرحاض القديم في حمَّامي، الذي لا يمكن دفق الماء فيه إلا بجذب حبل. على الرغم من أنه لا يهمني عدم وجود تلفزيون - فأنا لم أشاهده كثيرًا من قبل على أي حال - فإنني سعيدة لأنني أحضرت كثيرًا من الكتب.

أضع صندوق الكتب على الأرض وأفتحه، وأنا أسائل نفسي إن كانت لديَّ الطاقة اللازمة لمحاولة حشرها على رف الكتب الممتلئ بالفعل. قضاء اليوم في العناية بلينورا والتشاغل كشكل من التعويض المفرط اللاواعي عن قلقي من المنزل المائل تركاني شاعرة بالوجع والإرهاق. الاشتغال في تقديم الرعاية عمل شاق. فهو يستخدم عضلات لا تعرف أبدًا أنك تملكها إلى أن يأتي أول يوم تقضيه مع مريضك الأول.

أو ربما كان الكلام عن أمي هو ما أرهقني. هو يرهقني عادة. الحديث عما حدث يعطي ثقلًا للذكريات السيئة، ويجعلها تبدو فجة وحديثة. حاليًّا، أشعر بثقلها البالغ، إلى درجة أنني بدلًا من إفراغ الصندوق وحقيبة ملابسي أشعر برغبة في السقوط على الفراش وعدم الاستيقاظ إلى أن تسترق الشمس النظرات من

وراء الأفق مع الشروق. لكنني عندئذ أسمع دقة حادة على باب غرفة نومي. أظنها مدام بيكر مستعدة لانتقادي أو توبيخي أو إبلاغي بشيء آخر يجب فعله.

لكني أجد جيسيكا واقفة في الرواق. ذهب عنها زيها الرسمي، وحل محله الآن بنطلون ستريتش وتيشيرت فضفاض يحمل صورة المطربة مادونًّا. ومع ذلك، بقيت الحُلي تجلجل وهي تلوِّح بيدها مبتسمة وتقول:

- مرحبًا. الاسم كيت، صحيح؟

- صحيح. وأنتِ جيسيكا.

- جيسي. مدام بيكر فقط من تناديني جيسيكا.

وتبدأ في العبث بإحدى أساورها.

- على أي حال، أردت فقط أن أرحب بكِ رسميًّا في هوبز إند. بالمناسبة، هو اسم على مسمى. عن كل أمل تخلوا، أيها الداخلون هنا.

أُجبر نفسي على الابتسام، على الرغم من أن نكتتها تحمل على الرعب أكثر مما تحمل من الفكاهة. للمرة الألف في ذلك اليوم، أتساءل ما الذي ورطت نفسي فيه بالضبط.

تتساءل جيسي:

- هل استقرت بكِ الحال على ما يرام؟

- هأنذا أحاول.

وأشير إلى حقيبة الملابس على فراشي وصندوق الكتب على البلاط.

- لم تواتِني الفرصة حتى أفرغ أمتعتي بعد. لينورا - الآنسة هوب - أبقتني مشغولة للغاية اليوم.

- في إمكانك أن تلقي شؤون الآنسة هوب كلها على عاتقي. مدام بيكر فقط هي من تهتم بذلك.

تضع جيسي يديها وراء ظهرها وتقف على أطراف أصابعها.

- لكن بما أنكِ كنت مشغولة طوال اليوم، أظن أنك لا تشعرين بالرغبة في القيام بجولة في المنزل الآن.

- أخذتني مدام بيكر في جولة بالفعل.

- أقصد جولة غير رسمية. جولة المقتلة. قامت بها ماري من أجلي عندما جئت إلى هنا أول مرة. قالت إنه من الأفضل معرفة أين حدث كل شيء تلك الليلة. مَن مات وأين. أشياء من ذلك القبيل.

- هذا لطف كبير منك، لكنني أعتقد أنني بخير هكذا.

أقولها شاعرة بالنفور من الفكرة. يكفي سوءًا معرفة ما حدث هنا. لست بحاجة إلى التفاصيل.

- كنت آمل أن أتجنب هذه الأماكن.

تهز جيسي كتفيها وتقول:

- معقول. لكن كيف تخططين لتجنبها بينما أنت لا تعرفين موضعها؟

نقطة وجيهة جدًّا. على حد علمي، يمكن أن يكون أحد أفراد عائلة هوب قد قُتل في هذه الغرفة نفسها. لكن ذلك ليس السبب الوحيد الذي يجعلني أقرر قبول عرض جيسي. بين أبي ولينورا، قضيت وقتًا طويلًا جدًّا مع أشخاص لا يستطيعون - أو لا يريدون - الرد عليَّ إلى درجة أنني نسيت كم تبدو محادثة الناس لطيفة. خصوصًا مع شخص أصغر من الستين.

أقول:

- لا بأس. يمكنكِ أن تريني المكان. وبعد ذلك سأعرف كيف لا أدخل تلك الغرف مرة أخرى.

تقول جيسي بابتسامة شيطانية عريضة:

- مستحيل. أحد هذه الأماكن ليس غرفة.

تنطلق في الرواق متجهة إلى الدرج الكبير. أتبعها محاوِلة أن أبقى هادئة، على الرغم من أن حُلي جيسي المجلجلة تجعلها تبدو أشبه بأجراس ريح على شكل امرأة بينما نمر بجوار غرفة لينورا. تنبعث الموسيقى من خلف الباب المغلق للغرفة المجاورة لها. أغنية قديمة من موسيقى الجاز تستغرق مني لحظة كي أتعرف عليها: «هيَّا نسيء الأدب».

ترفع جيسي سبابتها إلى شفتيها وتحركهما من دون صوت: مدام بيكر.

أبطئ خطواتي، وأتابع السير على أطراف أصابعي. حتى جيسي تبطئ خطواتها، وتسير بذراعين مفرودتين كي تمنع أساورها من الجلجلة. تظل على تلك الحال إلى أن نصل إلى أعلى الدرج الكبير. أهبط من جانب، وتستخدم جيسي الجانب الآخر.

تقول عندما نلتقي مرة أخرى على البسطة:

- كيف يبدو لك المكان هنا؟

- أكبر مما يمكنني استيعابه.

- تمامًا. لكنه ليس سيئًا. هل قابلتِ كارتر؟

- نعم. في طريقي للدخول.

- هو... أعني... رائع تمامًا، صحيح؟

على الرغم من أنني متفقة معها تمامًا، أقول:

- أظن ذلك.

نقف في ظل النافذة المصنوعة من الزجاج الملون، وقد توارت ألوانها بسبب الظلام في الخارج. أسفل أقدامنا مباشرة، ثمة بقعة حمراء غير منتظمة الشكل لونها أغمق درجتين من البساط المحيط تشغل معظم البسطة. في وقت سابق من اليوم، اعتقدت أنها بسبب الضوء المنساب عبر الزجاج الملون. لكن في وقفتي عليها الآن، أدرك حقيقتها.

بقعة دم.

بقعة كبيرة.

أقفز مبتعدة عنها إلى درجة أدنى، حيث أجد بقعة ثانية أصغر. وبقعة ثالثة على الدرجة الأدنى منها. أتقافز إلى أرضية البهو، وأرفع ناظري محدقة إلى جيسي وأقول:

- كان يمكنكِ أن تحذريني.

- وأفوِّت رد الفعل ذاك؟ لا أعتقد هذا.

تهبط بقية الدرجات، وهي تخطو على عدة بقع أخرى من الدماء في البساط

الأحمر وتجعلني ألاحظ نمطًا معينًا للبقع. تبدو كأن شخصًا ينزف بغزارة حاول صعود الدرج الكبير قبل أن يوقفه شيء ما عند البسطة.

- إيڤانجلين هوب.

تقولها جيسي، كأنها تعلم بالضبط فيما أفكر.

- من المفترض أنها طُعِنت في البهو، وحاولت أن تهرب صاعدة الدرج، وطُعنت مرة أخرى على البسطة، حيث نزفت حتى الموت.

أرتجف وأشيح بوجهي بعيدًا، ناظرة بدلًا من ذلك إلى الباب الأمامي المؤدي إلى الخارج.

- لماذا لم تحاول المغادرة؟

- لا أحد يعرف. يظل الكثير مما يتعلق بتلك الليلة مجهولًا.

تبدأ في التحرك عبر الرواق الكائن على اليمين، ذلك الذي ينتهي عند غرفة التشمس. لا نصل إلى ذلك الحد. في منتصف الطريق، بعد بورتريه لينورا بالضبط، تتوقف جيسي عند واحد من أبواب الممر الكثيرة المغلقة. تدفعه لتفتحه وتضغط زرًّا في الداخل. تغرق الأنوار الغرفة، منبعثة من ثريا من الزجاج الأخضر في السقف وشمعدانات من الشكل نفسه على الجدران.

- قاعة البلياردو.

تعلنها جيسي بحماسة تقتصر عادة على المرشدين السياحيين الذين يحبون عملهم قولًا وفعلًا.

- حيث لاقى ونستون هوب حتفه.

أول فكرة تخطر لي أن نعم؛ تبدو هذه حقًّا أشبه بالغرفة التي يحق لرجل في مكانة السيد هوب أن يموت فيها. الديكور فظ. أسلحة نارية عتيقة مختلفة معلقة على الجدران، إلى جانب رؤوس حيوانات ربما قُتلت بهذه الأسلحة. أسد. دب. عدة غزلان. زوج من المقاعد الجلدية المتماثلة ذات الذراعين مستقران على جلد حمار وحشي أمام مدفأة. على أحد الجدران رف لعصي البلياردو، على الرغم من أنه لا توجد أي طاولة بلياردو في القاعة. العلامة الوحيدة على

وجودها هنا أصلًا مسار مستطيل في منتصف القاعة حيث بُليت الأرضية من نعال الأحذية الفاخرة.

- ماذا حدث لطاولة البلياردو؟

- سقط ونستون هوب فوقها. وبما أن حلقه كان مقطوعًا، أظن أنها غدت دامية بشدة فتعذَّر الإبقاء عليها.

ألتفت إليها مفزوعة وأقول:

- تقول الأغنية إنه طُعن.

- أوه، صحيح. طعنة في جنبه، قبل أن يُقطع حلقه. أظن أن هذا كان أعقد من أن يصنع قافية للأغنية.

- كيف تعرفين الكثير هكذا عن كل هذا؟

- أغلبه من ماري. تعرف الكثير عما حدث تلك الليلة. هي أقرب إلى أن تكون مهووسة تمامًا بجرائم القتل. أعتقد أن هذا هو السبب في قبولها الوظيفة، تعرفين ذلك النوع؟

لا أعرف. باستثناء منزل أبي، هذا هو آخر مكان أريد أن أكون فيه.

أقول:

- لماذا قبلتِ أنت وظيفة هنا؟

تهز جيسي كتفيها فتجلجل حليها وهي تقول:

- هذا المكان يبدو جيدًا مثل غيره. كان يجب أن أفعل شيئًا، أليس كذلك؟ العمل هو العمل والمال هو المال.

هذا رأي أستطيع أن أتفق معه. فأنا لم أفكر قَطُّ في أنني سأكون مقدمة رعاية، مثلما أنا واثقة بأن جيسي لم تفكر قَطُّ في أنها ستنظف منزلًا شهد جرائم قتل. لكنه أفضل من لا شيء، ولم يكن في حوزتي قبل اليوم غير اللاشيء.

بعد أن لم يَعُد هناك مزيد لاستكشافه في قاعة البلياردو، نغادرها. تطفئ جيسي الأنوار وتغلق الباب قبل أن تأخذني إلى الغرفة المقابلة لها في الناحية الأخرى من الرواق.

- ماذا يوجد هنا؟
- مفاجأة.

تقولها جيسي وهي تضيء الأنوار، لتكشف عن مكتبة. أتأمل الرفوف الممتدة من الأرض إلى السقف، والأريكة الجلدية، والمقعدين الكبيرين المتماثلين بجوار مدفأة رخامية. على رفها ثلاث مزهريات مطعمة بها نقوش متوافقة من الزهور العاجية والزرقاء المتشابكة. خلفها يلوح مستطيل من ورق الجدران أغمق لونًا من المساحة المحيطة.

- هل كانت هناك لوحة فيما مضى هناك؟
- نعم، لوحة أصلية للرسَّام الشهير وينسلو هومر، كما يقول آرشي. اضطرت مدام بيكر إلى بيعها منذ سنوات.

أتجه إلى رف المدفأة لألقي نظرة عن قرب على المزهريات. وسط الكروم اختفت طيور طنان ضئيلة، أعينها عبارة عن نقاط ياقوتية صغيرة. وفي وسط كل زهرة عاجية دائرة من الذهب.

- لماذا لم تبعِ هذه أيضًا؟
- ربما تكون هذه آخر شيء ستبيعه، فقد يكون هذا غير قانوني. أعتقد أن هناك قوانين بشأن بيع الموتى.

أبتعد خطوة عن الرف، وقد فهمت خطئي. إنها ليست مزهريات، بل جِرار لحفظ رماد الموتى. وبداخلها ما تبقى من ونستون وإيڤانجلين وڤرجينيا هوب.

تقول جيسي:

- أتريدين إلقاء نظرة؟
- بالقطع لا. هل نظرتِ أنت؟

تلوي جيسي وجهها وتقول:

- مستحيل. يكفيني سوءًا أنني مضطرة إلى مسحها مرة كل أسبوع.
- أنا مندهشة لأنهم لم يُدفنوا.
- أظن أنه كان من الأسهل حرقهم. كان هذا أكثر خصوصية. على الأقل أبعد

المتطفلين الراغبين في إلقاء نظرة. وقتها ربما عرفت لينورا أن الجميع يعتقدون أنها من فعلتها.

نحن بالقرب من الباب الآن، وقد ابتعدت كلتانا بشكل لا واعٍ عن الجرار. يثير اقترابي منها اضطرابي. المشكلة ليست فيما داخل الجرار. إنه مجرد تراب ورماد ثلاثة أشخاص. ما يزعجني هو كيف مات هؤلاء الأشخاص.

بشكل مأساوي.

بشكل عنيف.

على بسطة درج فاخر، وفوق طاولة بلياردو، وفي مكان لم أرَه بعد لكنني واثقة بأن جيسي ستكشفه في الخطوة التالية. لكي أنتهي من الأمر، أغادر المكتبة، وجيسي في أثري. نعود إلى الرواق، ونتوقف عند البورتريهات؛ ثلاثة مغطاة وواحد مكشوف. على الرغم من الضوء الكابي في الرواق، ما زالت عينا لينورا الخضراوان تلتمعان من اللوحة، كأن اللوحة مضاءة من الداخل.

أقول:

- لماذا فعلتها في رأيك؟

تقول جيسي وهي تهز كتفيها:

- ربما لم تفعلها. لديَّ حدس بأن ونستون هوب نفسه هو من فعلها. جرت جرائم القتل ليلة التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٢٩. الثلاثاء الأسود. انهارت سوق الأسهم، خسرت ثلة من الرجال الأثرياء ملايين، وبدأ الكساد الكبير. لهذا لم يعرف كثير من الناس خارج ولاية مين ما حدث هنا. احتل الثلاثاء الأسود كل العناوين الرئيسية في الجرائد. شعر الناس تجاه احتمال أن يصبحوا فقراء بقلق أكبر من أن يولوا اهتمامًا لونستون هوب وعائلته الميتة. لا أستطيع أن ألومهم. بوصفي شخصًا فقيرًا، أفهم كيف يمكن للفقر أن يفوق كل الهموم الأخرى.

تتابع جيسي حديثها:

- أعتقد أن ونستون هوب عرف أنه على وشك أن يخسر كل شيء. وبدلًا

من العيش مثل بقيتنا - وهو شيء مقرف تمامًا في الحقيقة - قرر أن ينهي كل شيء. قتل زوجته، ثم ڤرجينيا، ثم...

تحاكي بيدها حركة سحب سكين فوق حلقها.

- انتحار ناجح على الطراز القديم.

- لكن ماذا عن الطعنة في جنبه؟

أقولها قبل أن يظهر لي سؤال أكثر منطقية.

- ولماذا ترك لينورا على قيد الحياة؟ ولماذا لم تخبر الشرطة بالحقيقة؟

تكمل جيسي:

- وماذا حدث للسكين؟ قُطع حلق ونستون وطُعنت إيڤانجلين مرات عديدة، لكن لم يعثر أحد إطلاقًا على سلاح الجريمة.

- وهو ما يعني أنها لا بد أن تكون لينورا. قتلتهم وألقت السكين.

- هذا ما يبدو أن أغلب الناس يعتقدونه.

تميل جيسي برأسها متفحصة البورتريه كأنها خبيرة بالفن وتتابع:

- وهذه اللوحة تجعلها قادرة على القتل، أليس كذلك؟

- إذن لماذا لم يُقبض عليها وتحاكَم؟

- لم تكن هناك أدلة كافية. بحثوا عن بصمات أصابع، لكنهم وجدوا منها الكثير من كل فرد في الأسرة وكل خادم، إلى درجة أنه كان من المستحيل تحديد المسؤول. ومع غياب سلاح الجريمة، لم يكن هناك سبيل لإثبات أن لينورا هي المذنبة.

- أو أنها بريئة.

أقولها واعية تمامًا برياء حجتي المضادة. غياب الأدلة هو السبب الوحيد في أنني لم يُقبض عليَّ ولم أحاكَم.

- صحيح. ثم هناك فكرة بأنها ربما كذبت لتغطي على شخص آخر. مثله.

تشير جيسي إلى توقيع في أسفل الركن الأيمن من البورتريه. أميل إلى الأمام وأقرأ الاسم المكتوب باللون الأبيض.

- بيتر وورد؟

- الفنان. هذا هو تخمين ماري المجنون. لديها كثير من النظريات. من نظرياتها الأخرى أن هوبز إند مسكون. تزعم أنها رأت شبح ڤرجينيا هوب هائمًا في الطابق الثاني.

تعاودني الرجفة التي شعرت بها أول مرة لي في هذا الرواق. قطعًا ليس تيارًا هوائيًّا. رجفة شديدة البرودة، غير طبيعية تمامًا. على الرغم من أنني لا أومن بالأشباح، أستطيع أن أفهم لماذا اعتقدت ماري أن شبحًا يسكن هوبز إند.

- ألهذا رحلت؟

تقول جيسي وقد خفت صوتها:

- نعم. أعتقد أنها كانت خائفة. هوبز إند ليس منزلًا عاديًّا. ثمة عتمة هنا. أستطيع الشعور بها. وشعرت بها ماري. وأعتقد أنها لم تستطِع أن تتحملها أكثر من هذا.

نعود عبر الرواق، وجيسي تسترق النظر وراءها، كأن شيئًا يكمن وراءنا. عند الدرج الكبير، لا أملك إلا أن ألقي نظرة أخرى كئيبة على بقع الدم في البساط. من هناك نتحرك عبر الجانب الآخر من المنزل، ونتوقف عند مجموعة الأبواب المزدوجة قبل أن ينعطف الرواق يمينًا نحو المطبخ.

- قاعة الرقص.

تقولها جيسي بوقار قبل أن تدفع الأبواب لتفتحها.

- حيث ماتت ڤرجينيا هوب.

تضيء الأنوار، التي تتضمن شمعدانات موضوعة بين مرايا كبيرة على الجدران وثلاث ثريات تتدلى من السقف. ثريات ضخمة، كل واحدة منها بها ما يزيد على ثلاثين شمعة إضاءة. احترق نصفها. وبقيتها تطن وترعش، لتمنح القاعة هيئة مثيرة للتوتر.

بينما تتجول جيسي بحرية، أبقى على حافة أرضية الرقص الخشبية، مدركة أنني حيثما أخطو قد أطأ الموضع الذي رقد فيه جثمان ڤرجينيا هوب ذات مرة.

تقول جيسي:

- لا تقلقي. ماتت ڤرجينيا هناك بالأعلى.

تشير إلى الثريا المعلقة في منتصف قاعة الرقص. تتدلى أكثر من الأخريين وبزاوية مائلة بعض الشيء، كأن ثقل جسد ڤرجينيا جذبها من السقف قليلًا.

- إذن كانت الأغنية صحيحة بشأن ذلك.

- نعم. خنقت أختها بحبل.

أخطو بضع خطوات حذرة نحو وسط القاعة لألقي نظرة أقرب على الثريا. على الرغم من أنها منخفضة بما يكفي لاحتمال الوصول إليها بحبل في أثناء الوقوف على مقعد، فإنني لا أستطيع تصوُّر فتاة في السابعة عشرة تفعل هذا، ثم ترفع أختها عاليًا بما يكفي لشنقها. يبدو أمرًا غير محتمل، إن لم يكن مستحيلًا.

ثم إن أيًّا من هذه الجرائم لا يبدو منطقيًّا، بما في ذلك أماكن وقوعها. ثلاث ميتات في ثلاثة مواضع مختلفة عبر الطابق الأول. إذا كان ونستون هوب، هل شنق ڤرجينيا أولًا، وأمسكت به زوجته وهو يفعل هذا فطعنها عند الدرج الكبير قبل الذهاب إلى قاعة البلياردو ليقتل نفسه؟ أم قُتل هو أولًا - على يد لينورا أو شخص آخر - ووجدت إيڤانجلين جثته، فجرت إلى الدرج مغطاة بدمائه، واصطدمت بالقاتل على البسطة؟ من دون معرفة من مات أولًا، من المستحيل التحديد. ولا شيء من هذا يفسر مصير ڤرجينيا المسكينة والسكين المفقودة.

أقول:

- تُرى لماذا شُنِقت ڤرجينيا بينما قُتل الآخران بسكين؟

- لستِ الوحيدة التي تسأل هذا السؤال، الكل يسأل. أظن أننا يمكن أن نسأل دائمًا.

- ربما. لكن لينورا لا تستطيع الإجابة. حتى عندما كانت تستطيع، لم تقُل الكثير.

- قصدت ڤرجينيا.

تقولها جيسي في عصبية وهي تلوي إحدى أساورها المحيطة برسغها.

- ماذا لو كانت ماري على حق وڤرجينيا تسكن هذا المكان حقًّا؟ في هذه الحالة باستطاعتنا أن نتصل بروحها ونسألها عما حدث.

- فقط لو كان لدينا لوح ويجا.

أقول ذلك مزحة. أولًا لأنني لا أعتقد أن هوبز إند مسكون، وثانيًا لأنني لا أومن بأن ألواح الويجا يمكنها أن تتصل بالموتى. لكن بمجرد أن أقولها، تلتمع عينا جيسي وتقول:

- سأذهب وآتي بلوحي. انتظري هنا، سأعود على الفور.

تنطلق جيسي خارجة، تاركة إياي وحدي في قاعة الرقص، وانعكاس صورتي عالق في مرايا كثيرة على الجدران. من المذهل رؤية كل هذه النسخ المختلفة من نفسي. في كل مكان ألتفت إليه، أجد نفسي. يجعلني هذا أفكر في ڤرجينيا هوب وهي تتأرجح من الثريا. طريقة مرعبة للموت. ويزيدها سوءًا حقيقة أنها، لو كانت عيناها مفتوحتين، فقد رأت عشرات الانعكاسات للحياة وهي تخرج منها مختنقة.

أدعو أن تكون قد أبقتهما مغلقتين.

فوق رأسي، تطن واحدة من الشمعات في الثريا التي تدلت منها ڤرجينيا، وتتوهج قبل أن تظلم بعد فرقعة كهربائية مفزعة. وعلى الرغم من أنني متأكدة أن السبب هو الأسلاك القديمة والشمعة التي على الأرجح لم تُستبدل منذ عام ١٩٢٩، فإنني أعتبرها إشارة كي أغادر قاعة الرقص.

لكن ما إن أوشك على الخروج، حتى تدخل جيسي، حاملة لوح ويجا باليًا. فوقه مؤشر كتابة خشبي صغير ينزلق حول اللوح بينما تتحرك جيسي، كأن أيادي خفية تحركه.

أقول:

- ألم نكبر قليلًا على هذا؟

- تكلمي عن نفسك.

تضع جيسي لوح الويجا في وسط قاعة الرقص.

- أنا صغيرة وغبية. على الأقل هذا ما تقوله مدام بيكر. والآن انضمي إليَّ وإلا سأخبر الجميع بأنك خوَّافة.

أنضم إليها، لمصلحة جيسي أكثر مما هو لمصلحتي. إنه من الصعب أن تكون شابة هكذا وتعيش وتعمل في هذا المنزل الكبير العجوز. أظن أن هذه الجولة كلها كانت نتيجة لشعورها بالوحدة ورغبتها في اكتساب صديقة جديدة. أريد ذلك أنا أيضًا. تقلصت دائرة أصدقائي إلى حجم النقطة قبل موت أمي. وبعد جنازتها، وجدت نفسي من دون أحد منهم على الإطلاق.

نضع أصابعنا على المؤشر وتقول جيسي:

- هل توجد روح حاضرة؟

أقول:

- هذا سخيف.

- ششش.

تحدق جيسي إلى المؤشر وتقول:

- أشعر بشيء ما.

- لا، أنتِ واهمة.

- قلت ششش. ألا تحسين بها؟

في البداية لا أحس. لكن سرعان ما يبدأ المؤشر في الانزلاق نحو الكلمة المكتوبة في الركن العلوي الأيمن من اللوح.

نعم

تشهق جيسي مبتهجة. أتنهد وأنا أرفع عينَي إلى السقف ضجرًا. من الواضح أنها قادتنا إلى الكلمة.

تقول جيسي:

- أيتها الروح، هل يوجد شيء تريدين توصيله إلينا؟

مرة أخرى، يتحرك المؤشر، ويدور ببطء حول الكلمة نفسها.

نعم

يستمر في الدوران، على الرغم من أن أطراف أصابعي بالكاد تلمس المؤشر. وهو ما يعني أن هذا ما زال من فعل جيسي.

- أيتها الروح، من فضلك عرِّفي نفسك.

ينزلق المؤشر ببطء إلى وسط اللوح وصفَّي الحروف المقوسين المطبوعين عبره. وكما هو متوقع، يتوقف بالقرب من منتصف الصف الثاني.

ڤ

بعد ذلك، ينزلق إلى الحرف الموجود أعلاه إلى اليسار قليلًا.

ر

ثم ينزلق المؤشر إلى يمين الصف الأول مشيرًا إلى الحرف التالي المحتوم.

ج

أهمس:

- كُفِّي عن التظاهر بأنكِ لا تحركينه.

تهمس جيسي ردًّا عليَّ:

- أنا لا أحركه.

ثم تُوجِّه حديثها إلى الغرفة الخالية وتقول:

- أيتها الروح، هل أنتِ ڤرجينيا هوب؟

يتحرك المؤشر مرة أخرى إلى الركن العلوي الأيمن من اللوح. أسرع هذه المرة. اندفاعة مفاجئة مفزعة.

نعم

تنظر جيسي إليَّ من وراء اللوح. ثمة مفاجأة في عينيها - ولمسة خوف فقط. تقول:

- لم تكن تلك أنا.

لا بد أنها كذلك. لم أفعلها أنا بالتأكيد. لمستي على المؤشر خفيفة جدًّا إلى درجة أنها تكاد لا توجد. لكن عندما أطرق ناظرة، أرى أن أطراف أصابع جيسي تلمسه بالكاد أيضًا. بيد أن المؤشر ما زال يتحرك، منزلقًا إلى الوراء وإلى الأمام أسفل كلمة نعم، كأنه يحاول أن يضع خطًّا تحتها.

تبتلع جيسي ريقها وتنظر إلى الثريا المعلقة فوقنا مباشرة، كأن ڤرجينيا هوب ما زالت مشنوقة هناك، وتقول:

- ڤرجينيا، هل قتلتكِ أختك؟

يتأرجح المؤشر متجهًا إلى الجانب الآخر من اللوح، ويركز بشكل مباشر على الكلمة الموجودة في الزاوية اليسرى العلوية.

لا

يستمر المؤشر في الاهتزاز إلى الأمام، وطرفه المدبب يطعن الكلمة. ثم يطير خارج اللوح تمامًا قبل أن يتقافز منزلقًا على البلاط.

أنتفض مبعدة يدي عن لوح الويجا، بينما تطلق جيسي صرخة مصدومة وتقول:

- ماذا حدث للتو بحق الجحيم؟

- هذا ليس مضحكًا.

- لكني لم أفعلها! كنت ألمسه بالكاد! لا بد أنها...

ينفتح فم جيسي وتتسع عيناها مفزوعة من شيء ما خلفي. ألتفت بسرعة لأواجه الجدار المكسو بالمرايا في ظهري، متوقعة أن أرى... حسنًا، لا أعرف. لا أرى إلا انعكاس صورتي المرتاعة، وخلفي ينفرج فم جيسي في ابتسامة واسعة تحاول إخفاءها بوضع يدها على فمها.

أقول:

- ليس لطيفًا.

تقول جيسي وهي تضحك علنًا الآن:

- أنا آسفة. لكن كان ينبغي أن تري النظرة في عينيك. يمكنني القول إنني نلت منك تمامًا.

أنهض وأنفض الغبار عن تنورة زيي الرسمي.

- إذن ما قلتِه عن اعتقاد ماري أن هذا المكان مسكون مجرد...

- اختلاق تام.

تقولها جيسي معترفة، بينما ترفع لوح الويجا وتستعيد المؤشر.

- كنت أعبث معك فقط.
- إذن لماذا رحلت ماري فعلًا؟
- لا أعرف.

تطفئ جيسي الأنوار وتغادر قاعة الرقص. أتبعها، مغلقة الأبواب خلفي.

- ذات يوم، رحلت هكذا... فقط.
- ألم تكونا صديقتين مقربتين؟
- اعتقدت أناذلك. قريبتان بما يكفي لأن تخبرني على الأقل بأنها سترحل.
- ولا يعرف أحد آخر لماذا غادرت؟
- لا.

نحن في المطبخ الآن، جيسي متوجهة إلى سلم الخدم وأنا أستند إلى النضد المركزي.

- ألستِ قلقة بشأنها؟
- قليلًا. لكن ماري ذكية. وفي العادة مسؤولة بشكل فائق. أعلم أنها لم تكن لتغادر على هذا النحو إلا لسبب وجيه.
- هل تعتقدين أن للينورا علاقة بهذا؟
- تقصدين أن ماري خافت منها؟

تهز جيسي رأسها وتكمل:

- مستحيل. كانت تحب لينورا. أعتقد أنها رحلت بسبب ظرف عائلي طارئ أو شيء من هذا القبيل. يعيش والداها في المقاطعة المجاورة. ربما مرض أحدهما واضطرت إلى الرحيل على الفور مثلًا. أنا واثقة بأنها ستتصل وتخبرني بما حدث عندما تواتيها الفرصة.

أتمنى أن يكون هذا صحيحًا، من أجل جيسي. لكني أعرف من الخبرة الشخصية أن الأمر لا يسير على هذا النحو. عندما تركت مريضة كي أعتني بأمي، كان لا بد من ترتيب وجود بديل لي. لم أغادر هكذا في منتصف الليل مثلما فعلت ماري.

تقول جيسي وهي تتثاءب قليلًا:

- يجب أن أعود إلى غرفتي. أنا على وشك البدء في تسجيل كتاب جديد من أجل لينورا. رواية دانتيل للكاتبة شيرلي كونران.

- قرأتها. رواية جيدة. مليئة بالحيوية.

- رائع. لينورا تحب الكتب المليئة بالحيوية.

أتمنى لها ليلة سعيدة، وأقف لحظة في المطبخ الفسيح الفارغ. أمسح بنظرتي الجدران، محاولة أن أقدِّر حجمها، الذي ربما يفوق حجم منزل والدي كله. كانت هذه الحقيقة لتثير إعجاب أمي تمامًا. لكنها لن تثير شيئًا من هذا لدى أبي، الذي يكره الأغنياء بمقدار ما يكره السياسيين.

ألمس الهاتف العتيق إلى درجة أنه من الممكن أن يكون في متحف. لكنه ما زال يعمل. أرفع السماعة من مستقرها. أسمع الطنين الثابت لنغمة الاتصال. أدير رقم أبي بسرعة، مبررة هذا لنفسي بأنه سيريد على الأقل أن يعرف أين أكون. بحسب ساعة المطبخ العتيقة بالمثل، تجاوزت الساعة العاشرة للتو، لذا أظن أنه ما زال مستيقظًا.

- ألو؟

لا أنطق بكلمة. تفر الرغبة في الكلام عندما أسمع صوته. في الخلفية، أسمع امرأة تتكلم. قد يكون التلفزيون. أو قد تكون خليلته الجديدة. صار مسموحًا لها بقضاء الليل الآن بما أنني لست هناك.

يقول مرة أخرى:

- ألو؟ من المتصل؟

أغلق الخط وأبتعد عن الهاتف، شاعرة بالقلق من تأكده أنني المتصلة وأنه سيحاول الآن الاتصال بدوره. استحالة. هو لا يعرف أين أنا أو رقم الهاتف في هوبز إند. وبما أنه لم يرغب في الحديث معي بينما كنت أعيش معه، فلا أرى الآن سببًا قد يجعله يفعل هذا بعد أن رحلت.

الشيء الوحيد الذي أتيقن منه بينما أصعد الدرج هو أن أبي الآن على الأقل يعرف كيف يبدو الشعور عندما يقابلك الصمت.

١٠

مثلما قادتني مدام بيكر أول مرة إليه، يتحرك باب غرفة نومي وحده كما يبدو. لمسة واحدة للمقبض هي كل ما يتطلبه الأمر لفتحه على اتساعه مع صرير حاد.

في الداخل، تتوهج الغرفة بلون أحمر. ضوء نابض متقطع يكسو الجدران، ويضفي على الغرفة هيئة كابوسية. ومع كل ومضة حمراء يأتي صوت طنين لجوج.

زر الاستدعاء الخاص بلينورا.

تحتاج إليَّ.

أندفع داخل الغرفة، وأنا أشعر بلسعة في عينَي من الضوء الأحمر النابض على الطاولة بجوار الفراش. أتعثر في صندوق الكتب القابع في منتصف الغرفة على البلاط، وأقلبه. تتناثر الكتب ذات الأغلفة الورقية حول كاحلَي وأنا مستمرة في التقدم.

إلى الباب المشترك.

إلى داخل غرفة لينورا.

إلى فراشها، حيث ترقد ويدها اليسرى مضمومة حول زر الاستدعاء. عيناها مفتوحتان على اتساعهما في نظرة مجنونة.

- ما الخطب؟

أقولها وقد منعني القلق من التفكير في واقع أنها لا تستطيع أن تجيبني. أي شيء يمكن أن يكون خطبًا. جلطة أخرى. أزمة قلبية. نوبة صدرية أو مرض أو موت وشيك.

عندما تراني، تتراخى قبضتها على زر الاستدعاء. تتنهد، تبدو طفولية ومرتبكة، وأعتقد أنني فهمت ما حدث.

- هل رأيتِ كابوسًا؟

كانت لا تزال ممسكة بزر الاستدعاء، فتستخدمه للدق مرتين على غطاء الفراش.

- لا بد أنه كان هولًا حقيقيًا.

هكذا كانت تصف أمي الكوابيس البشعة. ذلك النوع الذي يتلكأ معك قليلًا بعد أن تستيقظ. النوع الذي يجعلك خائفًا من أن تغلق عينيك مرة أخرى.

- أتريدينني أن أبقى حتى تعودي إلى النوم؟

دقتان أخريان.

عندما كنت صغيرة وأرى كابوسًا من نوع الهول الحقيقي ذاك، كانت أمي تندس في فراشي وتحيطني بذراعيها، وهو ما أفعله الآن مع لينورا. ترتجف بشدة كما يبدو - ما زالت خائفة تمامًا - إلى درجة أنني سأشعر بالذنب إن لم أفعل ذلك.

أقول لها شيئًا آخر كانت تقوله أمي:

- ليست الكوابيس إلا عقلك وهو يظن أنها عيد الهالوين. كلها خدعة، لكن بلا مكافأة.

تعثر يد لينورا اليسرى على يدي اليمنى وتتشبث بأصابعي. تبعث هذه الحركة، على الرغم من رقتها ولهفتها تقريبًا، القشعريرة في جسدي كله. لينورا هوب، صورتي في البلدة عن «البعبع» والمرأة التي ما زال الصغار يتغنون بجُرمها إلى يومنا هذا، تمسك بيدي.

جزء مني يرغب في الابتعاد عن لمستها. وجزء آخر يشعر بفظاعة هذا. مهما

فعلت في الماضي - وهو سيئ جدًّا جدًّا كي نكون على بيِّنة - ما زالت لينورا إنسانة تستحق أن تُعامل مثل أي إنسانة.

هذا لو فعلت كل الأشياء التي يتهمونها بها. تخطر لي الآن الفكرة نفسها التي مرت على بالي في قاعة الرقص: هل بمقدور فتاة في السابعة عشرة أن تقتل ثلاثة أشخاص هكذا؟ كانت تلك جرائم تتطلب قوة بدنية. ذبح أبيها. طعن أمها. ربط أنشوطة حول عنق أختها ورفعها إلى حتفها. لم أكن لأقدر على فعل ذلك، وهو ما يجعل من الصعب عليَّ تصديق أن تتمكن فتاة في نصف عمري من فعله.

ربما تكون نظرية جيسي صحيحة والفاعل كان ونستون هوب أو شخصًا غيره. في هذه الحالة، دفعت لينورا ثمنًا باهظًا. صحيح أنها لم تذهب إلى السجن، لكنها سُجنت لعقود.

في منزلها نفسه.

في غرفة نوم طفولتها.

في جسد يرفض أن يعمل.

لكن مرة أخرى، لو كان ما يقوله الجميع صحيحًا، فهذا يعني أنني أعانق قاتلة. قاتلة أنا مسؤولة عن العناية بها وبصحتها. لست واثقة أي سيناريو هو الأسوأ. ولست واثقة أيضًا إن كان بمقدوري الاستمرار في العمل هنا من دون معرفة الحقيقة. ربما هذا ما جعل ماري ترحل من دون إنذار. لم يَعُد بمقدورها تحمُّل عدم المعرفة.

أهمس:

- لينورا... هل فعلتها حقًّا؟

تترك يدي، وأحبس أنفاسي، متأهبة لأن تُدق الإجابة على غطاء الفراش. ولدهشتي، لا تدق لينورا بيدها. بدلًا من ذلك، أنال منها إيماءة نحو الآلة الكاتبة على الجانب الآخر من الغرفة.

- أتريدين الكتابة عليها؟

تدق لينورا مرتين على يدي.

- الآن؟

دقتان أخريان. أكثر إلحاحًا هذه المرة.

ولأنه يبدو من الأسهل أن أُحضر الآلة الكاتبة إلى لينورا بدلًا من الذهاب إليها، أحملها عبر الغرفة متمايلة بطريقة خرقاء وأهوي بها على طرف المرتبة. ثم أصعد مرة أخرى إلى الفراش، وأُسند لينورا إليَّ حتى تتمكن من الوصول إلى لوحة المفاتيح بسهولة. أتعرق بسبب كل هذا المجهود. عسى أن يستحق الأمر هذا العناء.

أقول وأنا أضع يدها اليسرى على المفاتيح:

- هيَّا بنا.

تقطب لينورا حاجبيها مفكرة. ثم تنقر كلمتين قبل أن تومئ برأسها، مشيرة إليَّ كي أضرب بادئة السطر.

لن اوذيك

يتسارع نبضي عندما أقرأ الجملة.

- أنا ممتنة لهذا.

أقولها وأنا لست متأكدة إن كانت لديَّ إجابة أخرى. كيف عرفت لينورا أنني أردت سماع هذا؟ هل مشاعري مكشوفة بسهولة مثل مشاعرها؟

تعاود لينورا النقر.

اظن انك سمعت الأغنية عني

- الأغنية؟

أقولها مندهشة من معرفتها بوجودها. لا بد أنه من المريع أن تُختزل حياتها - وميتات عائلتها - في أغنية طفولية.

- سمعتها. إنها... قاسية.

أجدها مسلية

مفاجأة أخرى.

- فعلًا؟

كل هذا الجهد من أجلي أنا العجوز الضئيلة

- هل هي صحيحة؟

تستطيعين أن تكتشفي

يوخزني الفضول. وكذلك الخوف وجرعة كبيرة من الشك.

- كيف؟

أريد أن أخبرك بكل شيء

- كل شيء؟ ماذا يعني هذا؟

أشياء لم أخبر بها أحدًا غيرك

- عن حوادث القتل؟

أقولها مندهشة من قدرتي على سماع صوتي من خلف خفقات قلبي التي تعالت مثل دق الطبول في أذنَي.

نعم عن تلك الليلة

أنظر إلى لينورا. ضوء الغرفة الكابي يجعل عينيها أكثر لمعانًا بطريقة ما. تومضان بشراسة الآن. كأن فيهما زمردًا متوهجًا، يبقيني رهينة نظرتها.

يا إلهي! إنها جادة.

- لماذا أنا؟ لماذا الآن؟

لأنني أثق بك

- هل أنتِ متأكدة؟

تنزلق يد لينورا من الآلة الكاتبة وتسقط على المرتبة. لغة جسدها واضحة تمامًا. هي متأكدة.

أقول وأنا أحمل الآلة الكاتبة عائدة بها إلى المكتب:

- سأفكر في هذا.

قبل أن أعود إلى الفراش، تكون لينورا قد نامت. يمكنني أن أجزم من صوت تنفسها - في إيقاع عميق منتظم. أطفئ النور وأضع زر الاستدعاء إلى جوار يدها اليسرى قبل أن أبتعد على أطراف أصابعي.

أعود إلى غرفتي. أتخلص أخيرًا من زي الممرضة. يشبه التجرد منه خلع درع. أشعر بأنني أكثر حرية، نعم، لكني عرضة للهجوم بشكل غريب أيضًا. اختفى الشعور بوجود الغاية من الحياة الذي شعرت به عندما ارتديته أولًا. عدت الآن إلى كوني بلا هدف، إلى هيئتي المعتادة بكتفين متهدلتين.

بعد ارتداء قميص نوم وجوربين سميكين، أضغط بيدي على قلبي. ما زال يدق متسارعًا. وهذه المرة، أعرف السبب بدقة.

بعد عقود من الصمت، تريد لينورا هوب أن تبوح بكل شيء.

ويجب أن أقرر إن كنت أريد سماع هذا.

جزء مني يعتقد أن الإجابة، بوضوح، هي نعم. هذا المكان - بماضيه القاتل، وميله المربك للذهن، وقتامته العامة - ممتلئ بما فيه الكفاية. أشك إن كان التعامل مع كل هذا سيصير أهون لو عرفت ما حدث تلك الليلة - ودور لينورا فيه. خصوصًا أنني الشخص الذي سيقضي أغلب الوقت معها. الشخص المكلف بإطعامها، وتحميمها، وإلباسها، وإبقائها حية. على الأقل لن يكون هناك مزيد من التساؤلات، ولا مزيد من الشكوك.

لكن مرة أخرى، عدم المعرفة يوفر على الأقل شذرة من التفاؤل. لو اعترفت لينورا بقتل عائلتها، لاختفت هذه الشذرة.

أستمر في موازنة خياراتي فيما أبدأ في تفريغ أشيائي، بادئة بالكتب التي كنت قد تركتها عندما ظهرت جيسي عند بابي. أمسك حفنة منها وآخذها إلى رف الكتب، الممتلئ بالفعل بكتب الطبعات الشعبية، من دون أن يترك حيزًا لكتبي. أتناول كتابًا - رواية عين الإبرة للكاتب الويلزي كين فوليت - وأفتحه. وراء الغلاف الأمامي ملحوظة مكتوبة بالقلم الحبر الجاف.

هذا الكتاب ملكية خاصة لماري ميلتون

تلك الكلمات نفسها موجودة في الكتاب التالي الذي ألتقطه، نسخة بالية من رواية جون إرفينج فندق نيو هامبشاير. وعلى الرغم من أنه قد يبدو غريبًا أن تترك ماري كل هذه الكتب وراءها، فإنني أفهم ذلك أيضًا. ليس من السهل نقل الكتب – وربما ظنت ماري أن من سيحل محلها سيستمتع بها.

لكن الأمور تغدو أقل منطقية عندما أترك الكتب وأحاول تفريغ ملابسي. درج الخزانة العلوي ممتلئ بأطقم ممتازة لزي الممرضة مثل زيي تمامًا. وعلى الرغم من أنني أتفهم تمامًا لماذا تركتها ماري وراءها – كنت لأفعل الشيء نفسه – فإن مزيدًا من ملابسها يملأ بقية الأدراج. ليس فقط زي الممرضة، بل سراويل وبلوزات وثياب داخلية. أعتقد أنها تخص ماري لأن بعض حواشيها يحمل الحروف الأولى مكتوبة بقلم التحديد.

م م

وعندما أفرز الملابس، أرى بنطلون جينز ماركة يورداش، وقميص لاكوست ورديًّا قصير الكمين، وبلوزة مخططة ما زالت بطاقة السعر ملصقة بها. من سلسلة محلات «سيرز». اثنا عشر دولارًا. كلها تبدو جديدة وفي حالة ممتازة، ألطف بكثير من ملابسي.

في الخزانة، أجد معطفًا صوفيًّا معلقًا على مشجب، وحذاءً عالي الرقبة على الأرضية أسفله، وصندوقًا فارغًا من الورق المقوى يحمل كلمة مكتوبة بقلم التحديد مرة أخرى: كُتب.

إلى جانبه، مستطيل ضيق من الأرضية النظيفة – محاط بطبقة خفيفة من الغبار – حيث كان شيء ما مستقرًّا فيما مضى. لكن لا فكرة لديَّ عن ماهيته. لعله كان صندوقًا آخر. اختفى الآن.

على رف الخزانة حقيبة طبية تشبه في الشكل والحجم الحقيبة التي أعطاها لي والداي. أُنزلها وأتطلع داخلها لأرى أغلب الأشياء نفسها التي أحتفظ بها في حقيبتي، مُرتبة بأسلوب منظم. وجودها ليس منطقيًّا. لو كان هناك ظرف عائلي

طارئ، كما تظن جيسي، لقضت ماري بالتأكيد دقيقة كي تأخذ حقيبتها الطبية وبعض ملابسها على الأقل.

لكنها بدلًا من ذلك تركت كل شيء تقريبًا وراءها.

أكف عن محاولة تفريغ أمتعتي. الوقت متأخر، وأنا متعبة، ولا يوجد أي مكان لأضع أيًّا من متعلقاتي. عندما أطفئ الأنوار وأصعد إلى الفراش، تخطر لي فكرتان في تتابع سريع - حقيقة وسؤال.

الحقيقة: رحلت ماري في عجلة من أمرها.

السؤال: ما الذي دفعها إلى الرحيل؟

بعد وضع كرة الثلج في غرفتي، نزلت إلى الطابق الأرضي، على أمل أن أحشو معدتي بما تبقى من كعكة عيد الميلاد. لكني لم أجد أي أثر لها. لم تكن هناك إلا برنيس مايهيو، التي لم يبدُ عليها أي قدر من السرور بغسل الأطباق في تلك الساعة المتأخرة.

تمتمت عندما رأتني:

- عيد ميلاد سعيد يا آنسة هوب.

لم تكن في نبرتها حتى قطرة من السعادة.

في طريقي إلى الصالة، لاحظت أن باب قاعة البلياردو مفتوح قليلًا. ربما كان بعض الخدم يلعبون، وهو ما كانوا يفعلونه أحيانًا من وراء أبي. في العادة، كانوا يسمحون لي بالانضمام إليهم، وهو ما كان يثير ذعر الآنسة بيكر.

قالت لي ذات مرة:

- لا ينبغي أن تلعب السيدات البلياردو.

أجبتها:

- من حسن حظي أنني لست سيدة.

توقفت عند الباب واسترقت النظر داخل الغرفة. بالفعل كانت خادمة بالداخل.

لم أستطع أن أرى من كانت لأنها كانت متمددة على وجهها فوق طاولة البلياردو، وتنورتها مرفوعة إلى خصرها.

خلفها كان أبي، بنطاله حول كاحليه ووجهه يحتقن احمرارًا وهو يلجها.

شهقت بصوت عالٍ إلى درجة تكفي كي يسمعا. نظر أبي إلى الباب بينما كنت أهرول مبتعدة. لكن بعد فوات الأوان. لقد لمحني. جريت على أي حال، عبر الصالة، بجوار بورتريهات أسرتي التي رسمها بيتر من قبل. حدقت وجوههم إليَّ، كأنني الشخص الذي ارتكب شيئًا خطأً.

جريت إلى الجانب الآخر من المنزل وانسللت إلى قاعة الرقص. هناك انهرت على الأرض، وفي عقلي غابة من الأفكار، يغلب عليها الشر. تساءلت كم من الخادمات الأخريات ضاجعهن أبي، وفي كم غرفة أخرى. تساءلت من كانت تلك الخادمة، وإن كانت تجد متعة في ذلك أم أجبرها أبي على تقبل الأمر. تساءلت إن كان بيتر في اللحظة نفسها أراد أن يفعل الشيء نفسه بأختي. وأكثر من ذلك، تساءلت إن كان أحد أصلًا قد يريدني بهذا الشكل.

سرعان ما ظهر أبي في المدخل، ملقيًا ظلًّا طويلًا على أرضية قاعة الرقص. للحظة، اعتقدت أنه على وشك الاعتراف بآثامه، والاعتذار، والتعهد بأن يفعل أي شيء في مقدوره كي يكفر عنها. لو فعل ذلك، ربما كانت أمي لتشعر بتحسن يكفي لمغادرتها غرفة نومها. ربما لن أُعامل أنا وأختي مثل السجناء. ربما قد تكون هناك بعض السعادة مرة أخرى في هذا المنزل البائس.

بدلًا من ذلك، انضم إليَّ أبي على الأرضية ومسح الدموع التي بدأت تنساب على وجنتَي. أدركت أنها المرة الأولى التي يلمسني فيها خلال شهور.

قال:

- كفى يا حبيبتي. لا يستحق هذا أن تحسي بالانزعاج منه.

سألته:

- من كانت؟

- لا يهم.

كان يهمني. قبل ذلك، كنت قد علمت بالشائعات القائلة إن أبي يروق له إغواء الخادمات. كثيرًا ما تهامست برنيس بهذا إلى درجة أنني لم أملك إلا أن أسمع. لكنني أردت أن أعرف من كانت ولماذا فعل أبي ذلك.

قلت وأنا أحاول بشدة أن أحبس دموعي:

- ألا تحب أمي؟

- أحبها. بطريقة معقدة جدًا. هل تحبينها؟

- طبعًا.

- إذن من الأفضل ألا تخبريها بشيء عن هذا. سيقتلها. ولن تريدي ذلك، صحيح؟

- لا، حضرتك.

أجبته مطرقة لأنني لم أستطع تحمل النظر إليه.

ربت أسفل ذقني كأنني طفلة رضيعة. أو أسوأ من ذلك، كأنني كلب.

- تلك فتاتي المطيعة.

عندما استدار أبي وغادر قاعة الرقص، كدت أهتف بأنه الوالد الذي أريده أن يموت. في النهاية، هو يستحق ذلك. لكنني لم أفعل لأنني شعرت بالحاجة إلى التصرف على نمط الفتاة المطيعة الطيبة الذي ينتظره مني.

لكن الحقيقة غير ذلك -- لم أكن فتاة طيبة.

إطلاقًا.

وسترين بنفسك بعد قليل.

١١

لا يأتي النوم بسهولة.

الحقيقة أنني لا أنام جيدًا أبدًا في أول بضع ليالٍ مع مريضة جديدة. غرفة مختلفة. فراش مختلف، وبعض الأسِرَّة تكون مريحة أكثر من بعضها الآخر. منزل مختلف، بكل أصواته الليلية الفريدة. في هوبز إند، الأصوات الليلية المهيمنة هي المحيط والريح - ثنائي متنافر يبقيني مستيقظة. الأمواج ثابتة في القرار، تتحطم على المنحدر في الأسفل بإيقاع كان ليغدو مهدئًا لولا الريح التي تضرب المنزل في هبات غير منتظمة. كل ضربة تجلجل النوافذ وترج الجدران، التي تصر وتتأوه بدورها، لتذكرني أين أنا.

منزل متمايل على حافة المحيط.

داخله امرأة يظن أغلب الناس أنها قتلت عائلتها.

امرأة عرضت عليَّ الآن أن تخبرني بكل شيء.

يكرر النمط نفسه. التفكير في لينورا، ثم هدهدة الموج حتى أنعس، ثم أصحو مفزوعة من الريح. مع كل ضربة منها، أقبض على حافة المرتبة، موقنة أن باستطاعتي الشعور بالمنزل وهو يميل نحو المحيط. ثم تهدأ الريح، وتدور أفكاري، ويستمر الموج، وتبدأ العملية برمتها من جديد.

يستمر هذا إلى أن أسمع صوتًا آخر.

ليس الريح.
ولا الأمواج.
يبدو كأنه صوت لوح أرضية يصدر صريرًا شديد الخفوت.

أجلس في الفراش وأمسح الغرفة بعينَي باحثة عن... حسنًا، لا أعرف ماذا أتوقع. مقتحم؟ لص؟ أن يبدأ المنزل انزلاقه الحتمي إلى المحيط الأطلنطي؟ لكن لا يوجد شيء كي أراه. أنا الشخص الوحيد في الغرفة، الأمر الذي يجعلني أخلص إلى أن الريح فقط تجعل هوبز إند يصرُّ بطريقة لم أسمعها من قبل.

أزحف حتى أهبط من الفراش، وأفتح باب غرفتي قليلًا، وأسترق النظر في الرواق. هو فارغ حاليًّا. أعرف أنه ربما فاتني شخص يمر، فأخطو إلى الرواق وأنصت بحثًا عن وقع خطوات مبتعدة أو باب يُغلَق.

أقول بصوت خافت:

- مرحبًا! هل يوجد أحد هنا؟

لا أحد يُجيب.

ولا يُسمع صوت آخر.

إلى أن أعود إلى غرفتي.

عندما يعود الصرير، أدرك بالضبط من أين يأتي.

غرفة لينورا.

أضع أذني على الباب الفاصل بين غرفتينا، محاولة التنصت على أي أمارات حركة. مرة أخرى، لا يوجد شيء. فقط الصمت الليلي وشعاع من نور القمر في غرفة لينورا يتسلل عبر شق بين الباب والأرضية.

يتناهى الصوت مرة أخرى.

هذه المرة، أفتح الباب وأنظر إلى الداخل.

لا يوجد أحد آخر هناك. لينورا فقط، بالضبط كما تركتها: في الفراش، ممددة على ظهرها، يداها إلى جانبيها، واليسرى إلى جوار زر الاستدعاء. صوت تنفسها المنخفض ينبئني بأنها ما زالت نائمة.

أما بالنسبة إلى ما أثار هذا الصرير، فلا فكرة لديَّ عنه. لم يكن لينورا بالتأكيد.

أغلق الباب المشترك وأعود إلى الفراش، حيث يعاود الموج والريح التصارع على جذب انتباهي. وعندما أسقط أخيرًا في النوم، أرى كابوسًا.

أرى هولًا حقيقيًّا.

أنا فتاة مرة أخرى، على الزلاقة المعدنية في فناء مدرستي الابتدائية. الزلاقة التي لم أحبها قَطُّ لأنها تغدو شديدة البرودة شتاءً وحارقةً صيفًا. حولي مجموعة من الصغار - غير مرئيين لكنهم مسموعون بشكل مزعج - يغنون معًا.

في السابعة عشرة، لينورا هوب

أبقى على الزلاقة، لست عالقة بالضبط، لكني لا أنزلق بسرعة كذلك. وبدلًا من ذلك، أنزلها بوصة بوصة بينما يستمر الغناء.

خنقت أختها بحبل وهوب

في أسفل الزلاقة تقف أمي، ليست بالهيئة التي كانت عليها وأنا صغيرة بل في الأيام الأخيرة من حياتها. كومة متمايلة من الجلد والعظام في قميص نوم أزرق فاتح.

طعنت أباها بسكِّينة

تتوسل أمي إليَّ، غير أنني لا أستطيع سماع ما تقوله. كلما فتحت فمها، وبدلًا من الكلمات، لا أسمع إلا صوت تكتكة مفاتيح الآلة الكاتبة.

أنهت حياة أمها المسكينة

لكنني أعرف ما تقول، كأن الكلمات تُكتب على صفحة بيضاء.

من فضلك يا كيت كات.

من فضلك.

سآخذ واحدة فقط.

أعدك.

١٢

كنت مخطئة بشأن الشروق.

إنه لا يسترق النظرات من وراء الأفق.

بل يحدِّق.

أنهض جالسة في الفراش، وأضيق عينَي ناظرة إلى النور البرتقالي الفاتح المتوهج عبر النافذة. وبينما أفعل ذلك، ألاحظ شيئًا غريبًا. كل شيء على الفراش - المرتبة والبطانية وأنا - متجمع عند طرفه الأدنى. بسبب ميل المنزل، انزلقنا جميعًا بضع بوصات إلى الأسفل خلال الليل. ذلك يفسر على الأقل الشعور بالانزلاق البطيء خلال كابوسي.

أتمايل عندما أهبط من الفراش، كأن الأرضية انحدرت بضع درجات أخرى في الليل. وهو ربما ما حدث، على حد علمي. تحت الدش ألاحظ أن الماء أعلى قليلًا في جانب من الحوض عن الجانب الآخر في اندفاعه نحو البالوعة. يحدث الشيء نفسه في الحوض وأنا أغسل أسناني. وبينما أشاهد الماء المتجمع يقبق وهو يهبط في البالوعة، أتساءل إن كان هذا ما جعل ماري ترحل. لم تستطِع أن تقضي دقيقة أخرى داخل هذا المنزل المائل.

بعد ارتداء واحد من أزياء ماري المهجورة، أذهب إلى الباب المشترك كي أطمئن على لينورا. أتوقف قبل فتحه، متذكرة أصوات الصرير التي سمعتها خلال

الليل. لا أستطيع التفكير في أي شيء تسبب فيها إلا شخص يتمشى داخل تلك الغرفة.

لكن لم يكن هناك أحد آخر.

لينورا فقط.

أفتح الباب قليلًا وأسترق النظر إلى الداخل، لأجدها ما زالت نائمة وفي الوضع نفسه كما رأيتها آخر مرة. وهو بالتأكيد ما لا بد أن يكون. لا تستطيع لينورا أن تحرك شيئًا من دون مساعدة إلا ذراعها اليسرى. التفكير في شيء خلاف ذلك سخيف - وجنوني.

حرصًا على ألا أوقظها، أغلق الباب المشترك بهدوء قبل أن أتسلل خارجة من غرفتي وهابطة إلى الطابق الأرضي. في منتصف سلم الخدم، ألاحظ شقًّا في الجدار، أنا شبه واثقة بأنه لم يكن موجودًا ليلة أمس. طوله قرابة أربع أقدام، ومتعرج مثل صاعقة البرق، ومن ثَمَّ من المستحيل عدم ملاحظته. إما أنني لم ألاحظه طوال يوم أمس، وإما أنه ظهر ليلًا.

أفكر في ريح ليلة الأمس وكيف بدا أنها ترج المنزل كله. يدور عقلي متسائلًا إن كان هذا ما تسبب في حدوث الشق. وإن كان هناك مزيد مثله متناثرًا الآن في أرجاء هوبز إند. وإذا كانت بضع هبات من الريح يمكنها أن تفعل كل هذا، ما مقدار الدمار الذي يمكن أن تسببه عاصفة حقيقية؟ تدفعني الفكرة إلى هبوط الدرجات الباقية مهرولة، متلهفة على أن أكون فوق أرض صلبة. حسنًا، بقدر ما يمكن لأرض أن تكون صلبة فوق منحدر ينحر البحر فيه.

في المطبخ، أجد آرشي عند الموقد، يبدو كأنه كان يطهو منذ ساعات، على الرغم من أن الساعة قد تجاوزت السابعة بالكاد. تستقر كومة من الفطائر على طبق كبير فوق النضد، إلى جانب طبق ممتلئ باللحم المقدد، وسلة ممتلئة بكعك التوت المخبوز توًّا.

أقول:

- من اللطيف رؤية زميل في الاستيقاظ مبكرًا.

يقول آرشي:

- اليوم الثلاثاء. يوم توصيل الطلبات. كل بقالة الأسبوع تصل مبكرًا كل ثلاثاء.

يشير إلى الطعام على النضد ويقول:

- تفضلي بالمناسبة. وتوجد قهوة طازجة أيضًا.

أتجه إلى القهوة مباشرة، وأصب لنفسي كوبًا. رائحتها فقط تبعث فيَّ النشاط. آخذ الكوب إلى النضد، وأبتلع نصف القهوة في ثلاث جرعات كبيرة.

يلاحظ آرشي ويقول:

- ليلة صعبة؟

- واجهت مشكلة في النوم.

- هذا لا يدهشني. مكان جديد وكل هذه الأمور. ربما لم يساعدك أن الريح كانت عاتية ليلة الأمس.

عند الموقد، يعاير آرشي كمية من حبوب الشوفان ماركة «كويكر أوتس» من أسطوانة كرتونية ويفرغها في وعاء به ماء يغلي.

- دائمًا ما نتعرض للقليل من الزوابع، بما أننا هنا على المنحدر ولا شيء يحمينا. لكن ليلة الأمس كانت شيئًا مختلفًا.

لا يفسر هذا ما سمعته من أصوات أخرى خلال الليل. أعرف كيف يبدو صوت الريح. وهو لا يبدو مثل وقع الأقدام. أفكر مرة أخرى في ماري. هل سمعتها أيضًا؟ هل يمكن أن يكون ذلك هو السبب وراء رحيلها فجأة هكذا؟

- هل ذكرت ممرضة الآنسة هوب السابقة في أي وقت سماعها أشياء أو مواجهتها مشكلة في النوم؟

- ماري؟ لا أذكر شيئًا كهذا.

أتناول كعكة توت محلاة من فوق النضد، وأبدأ في تقشير خطوط الزينة منها.

- هل كنت على معرفة جيدة بها؟

- جيدة إلى حدٍّ كبير كما أظن. فتاة لطيفة. بدا أنها على وفاق كبير مع الآنسة هوب.

يقولها آرشي مثبتًا أن جيسي مخطئة بشأن مسألة أن مدام بيكر وحدها من لا يدعو لينورا باسمها الأول.

- لكني لا أستطيع قول إنني معجب بالطريقة التي رحلت ماري بها عن المنزل. أفهم أن هذا المكان ليس لطيفًا للجميع. لكن لا يرحل المرء منه هكذا في منتصف الليل.

- ألم تكن هناك أي أمارات على أي شيء خطأ؟

- لم أرَ شيئًا مثل هذا.

- إذن لم تكن لديها مشكلات مع الآنسة هوب؟

- لا أعتقد هذا.

- ولم تذكر ماري قَطُّ أنها تتوتر في أثناء وجودها بالقرب منها؟

يلتفت آرشي إليَّ، وهو يقلب حبوب الشوفان التي تبقبق الآن على الموقد، ويقول:

- هل تشعرين أنت بالتوتر في وجودكِ بالقرب من الآنسة هوب؟

- لا.

أقولها مدركة أن الرد جاء بسرعة وحسم بالغين. ولمداراة ذلك، آخذ قضمة من الكعكة. لذيذة جدًّا إلى درجة أنني أوقن بأنني سوف آكل كعكة ثانية، وربما أتناول واحدة ثالثة كوجبة خفيفة لاحقًا.

يقول آرشي:

- لذيذة، صحيح؟ أضع التوت في الدقيق، لكني لا أجعله يغوص إلى القاع.

- أين تعلمت الطهو بهذا الشكل؟

يقول ملتفتًا إلى الوعاء مرة أخرى:

- هنا. لقد شببت إلى حدٍّ كبير في هذا المطبخ. بدأت بغسل الأطباق وأنا في الرابعة عشرة. قبل أن أتم الثامنة عشرة، كنت مساعد رئيس الطهاة.

- كم لبثت تعمل هنا؟

- قرابة الستين عامًا.

أسكت قليلًا، ويتوقف الجزء العلوي من الكعكة في يدي في منتصف الطريق إلى فمي.

- إذن كنت هنا عام ١٩٢٩؟

- نعم. أنا ومدام بيكر الوحيدان الباقيان من الأيام الخوالي.

- هل كنت هنا ليلة الـ...

- لا.

يقولها آرشي أيضًا بسرعة وحسم بالغين.

- لم يكن أحد من طاقم الخدمة موجودًا هنا تلك الليلة. بمن في ذلك مدام بيكر. كانت قد تركت خدمة مستر هوب في وقت أسبق ذلك اليوم.

معلومة مثيرة للاهتمام، خصوصًا أن مدام بيكر ذكرت بالأمس أنها تركت هوبز إند بعد حوادث القتل. آخذ قضمة أخرى من الكعكة المحلاة، غالبًا للتغطية على حقيقة أن رأسي يدور في دوامة مزيد من الأسئلة.

أقول بعد أن أبتلع ما قضمته:

- لا بد أنك تحب المكان هنا. أو تحبك الآنسة هوب. سمعت أن أغلب طاقم العمل سُرِّح.

- الكثير، نعم. ترك الباقون العمل مباشرة بعد...

يبتر آرشي بقية الجملة. لا حاجة إلى قولها. ألتقط الإشارة. فضَّل أغلب الطاقم الرحيل بدلًا من الاستمرار في العمل من أجل قاتلة.

أقول:

- آسفة لإثارة الموضوع، كنت مندهشة فقط من أنك تعرف الآنسة هوب طوال هذا الوقت.

- منذ أن كنا صغيرين.

عاد صوت آرشي إلى دفئه المعتاد. أرتاح إلى هذا. الرجل الذي يعد وجباتي هو آخر شخص أريد أن أزعجه.

- كنت أنا والآنسة هوب قريبين للغاية في فترة صبانا.

- وهل ما زلتما قريبين؟
- ليس كما كنا.
يقولها آرشي ويتصلب ظهره العريض وتتوقف يده عن تقليب ما في الوعاء.
- تغيرت الأمور.
ما لا يقوله - لكنني أستنتجه - أن أمرًا واحدًا تغير. أقصد مقتل بقية عائلة هوب.
أقول:
- من المُرحَّب به أن تصعد وتراها. أعتقد أنها تشعر بالوحدة.
- لهذا أنتِ هنا.
يقولها آرشي ببرود شديد مرة أخرى بينما يغرف حبوب الشوفان في سلطانية موضوعة على صينية طعام خشبية. يضع الصينية أمامي ويقول:
- فطور الآنسة هوب. ينبغي أن تأخذيه إليها قبل أن يبرد.
ألتقط الإشارة حتى قبل أن يلتفت آرشي مرة أخرى إلى الموقد. لن يكون هناك مزيد من الحديث عن لينورا اليوم. أو ربما إلى الأبد.
- أشكرك على الفطور.
أقولها قبل أن أضع قهوتي وكعكة أخرى في الصينية وأحملها إلى سلم الخدم. في منتصف السلم، أقابل مدام بيكر في طريق نزولها إلى الطابق الأرضي. تبدو مثل هيئتها بالأمس تمامًا: فستان أسود، بشرة شاحبة، شفتان حمراوان، نظارة ترفعها إلى وجهها لتتفحص هيئتي.
- صباح الخير يا كيت. لعل ليلتك الأولى هنا كانت طيبة.
أقول كاذبة:
- نعم كانت. أشكرك على السؤال.
أرمق الشق المتعرج في الجدار، تُرى هل لاحظته مدام بيكر؟ بالتأكيد لاحظته. إنه ملحوظ جدًّا. لكنها تتصرف كأن شيئًا لم يكن.
- وهل تجدين غرفتك الجديدة مُرضية؟
- جدًّا. على الرغم من أن لديَّ سؤالًا عن أشياء ماري.

- أشياء؟

تقولها مدام بيكر وهي تميل برأسها متخذة هيئة معلمة في مدرسة.

- سيجب عليك أن تكوني أكثر تحديدًا يا عزيزتي.

- متعلقاتها. كل شيء ما زال في غرفتي.

- كل شيء؟

- كتبها، وملابسها، حتى حقيبتها الطبية.

وبينما أتحدث، تخطر فكرة على بالي:

- هل من المحتمل أنها تخطط للعودة؟

كان ينبغي لهذه الفكرة أن تخطر لي قبل ذلك. إنها أكثر منطقية من أي فكرة أخرى عن السبب في تركها كل شيء وراءها. لعل ماري استُدعيت - من جانب عائلتها أو لأمر آخر مُلِح - ولديها نية واضحة في العودة.

تقول مدام بيكر:

- إذا عادت ماري، فلن يُرحَّب بعودتها. مستحيل بعد تركها الآنسة هوب وحدها هكذا.

أُطلق تنهيدة ارتياح صغيرة. على الأقل ما زالت لديَّ وظيفة.

- لكنها تستطيع العودة من أجل أشيائها، أليس كذلك؟

- لقد مر أسبوع. لو أرادت أيًّا منها، لعادت من قبل.

- إذن ماذا ينبغي أن أفعل بها؟

تقول مدام بيكر:

- فقط احتفظي بكل شيء، إذا كان هذا لا يضايقك.

لكنه في الحقيقة يضايقني. هذا قصر حرفيًّا، به عشرات الغرف الفارغة. بالتأكيد يوجد مكان آخر لتخزين كل هذه الأشياء.

- سأقرر ما يجب أن نفعله بها كلها في وقت لاحق.

تتصرف كأن هذا يسوي المسألة، بينما الحقيقة غير ذلك. تعاود نزولها مجبرة إياي على الهتاف خلفها:

- لديَّ سؤال آخر في الحقيقة.

أتوقف عن الكلام منتظرة منها أن تقف، وهو ما تفعله باستياء واضح بعد نزول ثلاث درجات أخرى.

- هل كنتِ في غرفة الآنسة هوب ليلة الأمس؟

- بما أنكِ هنا الآن، لا سبب لديَّ لدخول غرفة الآنسة هوب.

- إذن الإجابة لا.

- نعم يا عزيزتي. لا قاطعة.

- لكني اعتقدت...

أتوقف عن الكلام وأُطرق ناظرة إلى الصينية قبل أن أكمل:

- اعتقدت أنني سمعت أحدًا يمشي داخل غرفتها ليلة الأمس.

لم تكن مدام بيكر لتبدو أكثر تشككًا منها الآن لو كنت قد تكلمت عن الفضائيين أو بابا نويل.

- يمشي؟ هذا سخيف.

- لكني سمعت ألواح الأرضية تصرُّ.

- هل تحريت الأمر؟

- نعم. ولم أرَ أحدًا.

- إذن ربما كان خيالك، أو الريح. أحيانًا، عندما تضرب المنزل على هذا النحو، تصدر كل أنواع الأصوات.

- هل يدخل أي شخص آخر غرفة الآنسة هوب بشكل معتاد؟ آرشي مثلًا؟ أو جيسي؟

- الشخص الوحيد المفترض أن يتردد على غرفة الآنسة هوب هو أنتِ. لذلك أقترح أن تعودي إلى هناك قبل أن تستيقظ.

- تمام يا مدام بيكر.

أقولها شاعرة بالرغبة في الانحناء بالطريقة نفسها التي فعلتها جيسي بالأمس. وربما كنت لأفعلها أيضًا لولا الصينية في يدَي.

- آسفة على إزعاجك.

أتوجه إلى غرفة لينورا لأجدها مستيقظة في مثلث من ضوء شمس الصباح يمنحها وهجًا ملائكيًّا محيرًا. بدلًا من تضييق عينيها كما فعلتُ، يبدو أن لينورا تستمتع بالضوء. أمالت رأسها، وفتحت فمها قليلًا، وندت عن فمها المفتوح تنهيدة راضية.

تتحرك رقعة الضوء ببطء عبر فراش لينورا بينما أسندها كي تتخذ وضعية الجلوس وأطعمها وجبتها من حبوب الشوفان بعد أن طحنت فيها أقراص دوائها الصباحية. بعد أن أنتهي من تنظيفها وتغيير ثيابها وتمارين تنشيط دورتها الدموية، يكون ضوء الشمس قد انزلق من فوق المرتبة واستقر على الأرضية في مستطيل منتظم. ترمقه لينورا من كرسيها المتحرك وأنا أتفحص وظائفها الحيوية وأتأكد من استمرار الكدمة على ساعدها في التعافي. عندما ينتهي هذا، تنزلق نظرتها إلى الآلة الكاتبة.

إنها تذكر ليلة الأمس.

اعتقد جزء مني أنها نسيت.

ويتمنى جزء أكبر مني أن تكون قد نسيت.

لأن ما تنوي كتابته أيًّا كان، لم أقرر بعد إن كنت أريد رؤيته.

لكن لينورا حسمت أمرها. تنقل نظرتها من الآلة الكاتبة إليَّ، وتمنحني نظرة نصفها قلق، ونصفها أمل. ربما لم يكن من الممكن لأحدهما من دون الآخر أن يحملني على تغيير رأيي. لكن مزج الاثنين معًا يجعلني أدرك أن لا علاقة للأمر بما أريده.

بل بما تريده لينورا.

والآن، هي تريد أن تكتب.

ما زلت لا أعرف السبب. لا أستطيع التفكير في أي سبب جعلها تنتظر كل هذه المدة كي تتحدث عن تلك الليلة. لو كانت بريئة، لحكت قصتها منذ عقود.

إلا إذا اعتقدت أن أحدًا لن يصدقها.

بالأمس، أخبرتني مدام بيكر بأن هوبز إند مكان تُمنح فيه الشابات ميزة افتراض حسن النية. هذا ليس صحيحًا في كل مكان. بل من الصعب أن يصح في أي مكان. ربما حاولت لينورا أن تحكي قصتها طوال تلك السنوات الماضية ولم يصدقها أحد. أو الأسوأ من ذلك، لم ينصت لها أحد.

ربما تعتقد أنني سأنصت.

وأنني سأصدق أنها بريئة.

لأنها تعتقد فيَّ الأمر نفسه.

تلك الفكرة - أن رغبة لينورا في الكلام لا تنبع من شعور مشترك بالذنب بل ربما من شعور مشترك بالبراءة - هي ما تجعلني في آخر المطاف أدفع الكرسي بها إلى المكتب، حيث تستقر الورقة المكتوبة ليلة الأمس إلى جوار الآلة الكاتبة. على الرغم من أنني لا أتذكر أنني أخرجتها من الآلة، فإنني لا بد أن أخرجتها. أنبش عقلي محاولة أن أتذكر وقائع ليلة الأمس.

عرض لينورا أن تحكي لي كل شيء.

العثور على متعلقات ماري.

الريح والأمواج وصرير ألواح الأرضية.

كلما فكرت في الأمر، زاد اقتناعي بأنني تركت الورقة في الآلة الكاتبة.

- لينورا، هل كان أحد هنا ليلة الأمس؟

ترد بدقة واحدة على مسند ذراع الكرسي المتحرك.

- هل أنتِ متأكدة؟

دقتان.

أحدق إلى لينورا. تحدق إليَّ بدورها، تبدو بريئة تمامًا. إن كانت تكذب - وأنا لا أرى سببًا يدعوها إلى ذلك - فهي تخفي كذبها جيدًا. وعلى الرغم من أنني شبه متيقنة من أنني لم أخرج الورقة، فأنا واعية أيضًا بأن شخصًا آخر من الممكن أن يكون قد فعلها بينما لينورا نائمة. مدام بيكر تتسلل لتتجسس قليلًا على سبيل المثال. أو جيسي تدخل مبكرًا لترتب الغرفة.

- لا يهم.

أقولها لأن الأمر لا يهم حقًّا. المهم أن لينورا على وشك أن تكشف كل شيء. وعملي مساعدتها على فعل ذلك.

في درج المكتب أعثر على ما تبقى من رزمة ورق وأضع ورقة جديدة في عربة الآلة. ثم أضع يد لينورا اليسرى على الآلة الكاتبة، وأنا أسأل نفسي إن كانت هذه بداية شيء رائع أم شيء سأندم عليه.

أو إن كان الأمر سينتهي إلى أي شيء أصلًا.

ترفرف أصابع لينورا فوق المفاتيح، كأنها غير قادرة على إبقائها ساكنة بعد الآن.

آخذ شهيقًا، وأزفر، وأومئ إليها برأسي.

ثم نبدأ.

١٣

أول ما أتذكره — الشيء الذي ما زالت تنتابني الكوابيس حوله — هو عندما انتهى كل شيء.

هذا أول ما كتبته لينورا، منذ ساعات، عندما كانت الشمس لا تزال مرتفعة فوق الأطلنطي. فاجأتني الجملة كاملة. حتى ذلك الوقت، لم تكتب من قبل إلا شذرات، متجاهلة قواعد كتابة الحروف الكبيرة وعلامات الترقيم. استغرق الأمر بضع ثوانٍ مرتبكة مني، وبضع دقات منزعجة منها قبل أن أدرك أنها أرادت مني الضغط على مفتاح التحويل بينما هي تنقر ذلك الحرف الأول الكبير في بداية الجملة. واستغرق الأمر منا وقتًا أطول لنستقر على شكل من الإيقاع. لكننا وصلنا إليه في النهاية.

وهناك نبقى، على الرغم من أن الشمس غادرت السماء وخيم ضوء الغسق القاتم على المحيط في الخارج. تستخدم لينورا يدها السليمة لتمسح بها على يدي، إشارة إلى أنها تريد مني أن أضغط على مفتاح التحويل. وعندما تدق الآلة الكاتبة رنَّتها، أضرب شريط العودة، لتعود العربة إلى سطر جديد. تنقر لينورا مزيدًا وتومئ برأسها، إشارة إليَّ كي أدفع العربة من جديد وتبدأ فقرة جديدة.

نُبقي الباب مغلقًا حتى لا يزعجنا أحد. هكذا أصرت لينورا، على الرغم من

أنني لا أعرف السبب. باستثناء آرشي، الذي أحضر الغداء بطَرقة مقتضبة على الباب، لم أسمع أي أحد يتحرك في الطابق الثاني. وعلى الرغم من أنه يبدو كأن لينورا وجود ثانوي في ذلك المكان الذي تملكه كله، قد يكون هذا بسبب وجودي هنا. مقدمة الرعاية لها. دور أحاول الاستمرار فيه بينما ألعب دورًا آخر كسكرتيرة.

بعد كل صفحة، أمسد يد لينورا اليسرى، وأجعلها تتناول رشفة ماء بالشفاطة، وأسألها إن كانت تريد أن نكمل. والإجابة دائمًا دقتان على الآلة الكاتبة. ثمة حماسة لا يمكن أن يخطئها المرء في نقرها على الآلة. نادرًا ما تتوقف كي تفكر فيما ستكتبه. تنهمر القصة ببساطة على الصفحة، كأن لينورا كتبتها كلها في رأسها منذ سنوات ولا تفعل الآن إلا إطلاق سراحها.

أما ماذا تكون هذه القصة، فما زلت لا أعرف. ما بين الاستجابة لإشارات لينورا، والدق باستمرار على شريط العودة، ونزع وإدخال الأوراق في الآلة الكاتبة، لم تتسنَّ لي فرصة كبيرة لرؤية ما تكتبه.

تمسح لينورا يدي، وأضغط على مفتاح التحويل. ضغطتان أخريان وإيماءتان لاحقًا، وأخيرًا تضع يدها مفرودة على المفاتيح؛ إشارتها بأن فصلًا آخر انتهى.

أنتزع الورقة من الآلة الكاتبة وأضعها مقلوبة على الست عشرة ورقة الأخرى التي كتبناها اليوم. مقدار مذهل. لكن لو كانت لينورا تحس بالتعب، فهي لا تُظهر أي أمارة على ذلك. تمنحني نظرة مترقبة، كأنها تنتظرني كي أُدخل ورقة جديدة في العربة.

أقول:

- لقد عملنا كفايتنا اليوم.

على الأقل أنا. وعلى عكس لينورا، أنا مرهقة. وقفتي المنحنية إلى جوارها طوال اليوم تركتني شاعرة بالتيبس والوجع. عندما أعتدل في وقفتي، تطلق نصف مفاصلي طرقعة ارتياح.

- حان وقت العشاء تقريبًا.

تمضي بقية المساء حسب الجدول. عشاء وأقراص. تحلية. تمارين الدورة

الدموية، ثم الحمَّام، ثم الفراش. تظل لينورا تائهة في أفكارها طوال كل هذا. لعلها تؤلف ما تخطط لكتابته غدًا.

أعرف ذلك الإحساس جيدًا. عندما ظهر ذلك المقال عني في الجريدة، اتصلت بالمراسل الصحفي وطلبت منه أن يسمع جانبي من القصة. استمع المراسل من دون اهتمام وأنا أخبره بأن موت أمي كان انتحارًا، وأن ترك تلك الأقراص في متناولها مجرد حادث عابر، وأنني لم أكن قَطُّ لأفعل شيئًا يؤذيها. قال المراسل الصحفي:

- المحقق ڤيك يقول العكس.

كأن كلام الشرطة إنجيل وأنا مجرد كاذبة أحاول التغطية على آثاري.

كان هذا منذ ستة أشهر، وما زلت أحيانًا أشعر برغبة مكبوتة في الصراخ معلِنة براءتي من فوق كل سطح في البلدة. لا يمكنني إلا أن أتخيل كيف تحس لينورا. لقد مرت أربع وخمسون سنة بالنسبة إليها. لا عجب أنها لا تريد التوقف عن الكتابة.

بعد إرقادها في الفراش ووضع زر الاستدعاء إلى جوار يدها، أقول:

- هل تريدينني أن أبقى إلى أن تنامي؟

تدق لينورا بيدها مرتين على غطاء الفراش.

أومئ برأسي وأقول:

- إذن سأبقى.

تغلق عينيها وأجمع الأوراق المكتوبة وآخذها إلى الأريكة. عندما تثقل أنفاس لينورا مع النوم، أبدأ قراءة ما كتبت. على الرغم من أنني رأيت مقتطفات طوال اليوم، تدهشني جودة كتابتها. ظننت أن نثرها سيكون متقطعًا وضعيفًا - خيط من أنصاف الجمل لا يختلف عن الاستجابات المكتوبة التي كانت تقدمها لي. بدلًا من ذلك، أجد في لينورا حكَّاءة بالفطرة. كتابتها واضحة وغير مثقلة بالتفاصيل، وفي الوقت نفسه لها صوت مميز. من أول سطر، أعلَق في شِباكها.

لكن قبل أن أقترب من النهاية، تنقلب دهشتي إلى صدمة.

أعرف الآن ما حدث للسكين المستخدمة في قتل ونستون وإيڤانجلين هوب.

ألقتها لينورا في المحيط.

ذلك الفعل - إضافة إلى حقيقة أن قميص نومها كان مغطى بالدماء - يجعلها تبدو مذنبة أكثر من أي وقت مضى.

لا يجديها قولها عن نفسها إنها طيبة وشريرة معًا. الآن، من الممكن أن يُعزى بعض ذلك إلى حياتها المنزلية، التي يمكن وصفها بأي شيء إلا أنها كانت سعيدة. أم مدمنة. أب زير نساء. أخت لا يبدو أن هناك أي شيء مشترك بينهما. لا عجب أن لينورا كانت تتوق إلى الهروب ولفت انتباه شخص من الجنس الآخر. أعرف ذلك الشعور جيدًا جدًّا، حتى الآن في الثلاثينيات من عمري. لهذا بدأتُ النوم مع كيني، في النهاية. لكن لينورا كانت يافعة جدًّا، وبلا خبرة على الإطلاق. عندما تكونين في ذلك العمر، ممتلئة بالمشاعر الغاضبة، وبالرغبة طبعًا، من المحتمل جدًّا أن لينورا رأت تلك المشاعر الطبيعية شريرة... أو أسوأ من ذلك.

لكن ذلك لا يفسر قميص النوم الدامي.

أو التخلص من السلاح الذي قتل والديها.

أو لماذا أحضرت حبلًا بينما صرخات أختها تدوي في أرجاء المنزل.

لا أستطيع التوقف عن التفكير في كل ذلك بينما أقرأ الجمل الثلاث الأخيرة التي كتبتها لينورا اليوم.

لكن الحقيقة غير ذلك -- لم أكن فتاة طيبة.

إطلاقًا.

وسترين بنفسك بعد قليل.

أُخفض الأوراق وأتطلع إلى الفراش، حيث ترقد لينورا وقد نامت بسرعة. وإذ أراقبها، ينتابني إحساس بالقلق.

ظننت أنها أرادت أن تحكي قصتها في محاولة لإبراء ساحتها أخيرًا. وأنها

اختارتني للمساعدة لأنها رأتنا روحين قريبتين. متهمة بالخطأ تحكي قصتها لمتهمة أخرى بالخطأ، وتعملان معًا لإعلان براءتها.

والآن أخشى أن العكس هو الصحيح.

لم تختَرني لينورا لأنها تعتقد أنني بريئة.

اختارتني لأنها تعتقد أنني مذنبة.

وما كنا نكتبه اليوم ليس محاولة لإبراء ساحتها.

إنه اعتراف.

١٤

أضع الأوراق في الصندوق المعدني المقفل تحت فراشي، متظاهرة بأنني لا أخبئها، بينما هذا ما أفعله بالتحديد. أدسها أسفل زجاجات أقراص دواء لينورا المتلاطمة المجلجلة، لأنني لا أريد لأي شخص آخر أن يجدها. لكن قلقي ليس على لينورا وأنا أغلق الصندوق بالقفل وأعيده تحت الفراش؛ قلقي أن وجود اعتراف لينورا الجزئي في حوزتي سيجعلني بطريقة ما أبدو بالسوء نفسه.

ذنب بالارتباط.

ألقي مفتاح قفل الصندوق داخل درج الطاولة المجاورة للفراش عندما أسمع سلسلة من الأصوات في الخارج قادمة من أعلى.

طقطقة، احتكاك، قعقعة في الشرفة.

أندفع إلى النافذة، مجاهدة كي أرى ماذا يكون. الظلام دامس في الخارج، والأنوار داخل غرفة النوم لا تعكس إلا وجهي القلِق المتعب على زجاج النافذة.

يذهب تفكيري إلى أن ما سمعته للتو أيًّا كان قد تكون له علاقة بالأصوات الصادرة عن غرفة لينورا ليلة أمس، فأقرر أن أتحرى الأمر. أسرع خارجة من غرفتي، وأستخدم سلم الخدم إلى المطبخ. من هناك، أتحرك عبر غرفة الطعام في طريقي إلى الشرفة. بمجرد أن أخطو خارجًا، ينسحق شيء ما تحت قدمَي.

لوح إردوازي سقط حديثًا من سطح المنزل.

على الأقل هذا لغز من ألغاز الأصوات قد حُلَّ.

تناثرت دستة ألواح أخرى في الشرفة، كثير منها مهشم إلى قطع صغيرة، وقلة منها ما زالت سليمة بمعجزة ما. أخطو عليها وحولها في طريقي إلى سياج الشرفة. ثمة نسيم مثلج يهب من المحيط في نفثات دؤوبة برائحة الماء المالح. أغلق عينَي وأستند إلى السياج، مستمتعة برعشة البرودة. شعور جميل بعد قضاء كل هذا الوقت داخل حدود هوبز إند الخانقة. لا تعرف لينورا ما يفوتها.

تمتد الشرفة بطول القصر كله، وتنتهي على الجانبين بأربع درجات قصيرة. تهبط الدرجات التي على اليسار إلى باحة حجرية تحيط بحمَّام سباحة فارغ. أما التي على اليمين فتؤدي إلى امتداد من العشب. على الجانب الآخر منه يستقر كوخ حجري من طابق واحد شديد الأناقة والترتيب كأنه خارج من كتاب قصص. يتوهج ضوء دافئ من نافذة إلى جوار الباب المقوس.

يومض ضوء من نافذة أخرى فوقي وخلفي، في المنزل نفسه. يلقي مستطيلًا مائلًا من الإنارة عبر الشرفة. في تلك البقعة من الضوء، تلتمع حلقة من المعدن وسط شظايا الإردواز المكسور.

ألتقطها وأمسكها في الضوء. في البداية، أعتقد أنها قد تكون قصاصة ورقة مطوية على شكل خاتم مستطيل. لكنها أسمك بكثير من قصاصة ورق. وأكثر صلابة أيضًا. تتطلب بعض القوة لثنيها أكثر. ينحني الطرفان أحدهما نحو الآخر، ويميل أحدهما أكثر من الآخر، ليجعلني أستنتج أنه خطاف من نوع ما إما انكسر وإما سقط منفصلًا. ربما هو ما سبب سقوط الألواح من السطح.

ألتفت إلى النافذة المضاءة لأتفحص السطح الذي يعلوها بطابق واحد. أشد عنقي، وأحاول أن أرى أين تكون بالنسبة إلى غرفتي. يبدو أنها بعدها بغرفتين. على الجانب الآخر من غرفة لينورا.

مدام بيكر.

آخذ بضع خطوات إلى الوراء، وأميل بزاوية لتتسنى لي رؤية أفضل داخل الغرفة.

أستطيع أن أتبين ثنيات الستائر، ولمحة من ورق جدران بنقوش زهور أرجوانية، وظلًّا ممتدًا بعرض السقف.

لكن شيئًا آخر يسترعي انتباهي.

إلى يمين النافذة المضاءة، في غرفة لينورا.

هناك، وعلى خلفية النافذة المظلمة، ظلٌّ رمادي.

أشهق وأنا أشاهد الظل يتجاوز النافذة ويختفي. لا أستطيع أن أتبين ماهيته. الغرفة مظلمة والحركة سريعة جدًّا. كل ما أعرفه أنني متأكدة أن أحدًا ما يسير في غرفة نوم لينورا.

أستمر في الحركة إلى الوراء، وعيناي ثابتتان على النافذة، على أمل أن أرى لمحة أخرى من ذلك الشخص أيًّا كان. ينصب تركيزي على غرفة لينورا، إلى درجة أنني أسهو عن ألواح الإردواز في الشرفة. أتعثر في أحدها وأسقط إلى الوراء على السياج، الذي يصطدم بأسفل ظهري ويفقدني التوازن.

تطير الحلقة المعدنية من أصابعي بينما أتهاوى بشدة.

ذراعاي تضربان الهواء.

وقلبي يرتجف.

يميل رأسي وكتفاي وراء السياج، هناك فوق الأمواج المتصادمة بعيدًا بالأسفل. للحظة، تبدو الهوة ورائي كأنها ترفع أذرعها، وتحاول أن تشدني من فوق الحافة إلى أعماقها.

أتمكن من دفع جسمي إلى الجانب، وأنقلب على جانبي إلى أن ينضغط بطني على السياج وأنا أحدق مباشرة إلى جانب المنحدر بالأسفل. تحته بخمسين قدمًا يلوح الأطلنطي، وأمواجه تتحطم على الشاطئ عند سفح المنحدر. ثمة شريط ضيق من الرمال المرصعة بالحجارة يستقر بين المنحدر والماء، يتوهج بالبياض في نور القمر. كنت لأجده جميلًا لولا أن حركة واحدة خاطئة كانت ستبعث بي إليه محطمة.

على يميني، أسمع حفيف أقدام على العشب المبلل بالندى. يشق صوت كارتر الظلام:

- ماري؟

ألتفت لأراه بالفعل في منتصف الطريق عبر العشب يقترب. يتوقف عندما يدرك أنها أنا.

- آسف.

ويسكت مرتبكًا، كأنه حرفيًّا رأى شبحًا.

- هل أنتِ بخير؟

- أعتقد ذلك.

أزفر وأنا ما زلت مقطوعة الأنفاس من هلاكي الوشيك.

يعاود كارتر الاقتراب، يصل إلى نهاية امتداد العشب ويقفز الدرجات إلى الشرفة.

- اعتقدت لثانية وأنا هناك أنكِ ستسقطين من فوق السياج.

- وأنا كذلك.

أبتعد عن السياج بساقين خائرتين. إنه الشعور نفسه الذي انتابني عندما صدمني الميل في الطابق الثاني من هوبز إند. يبدو هذا منطقيًّا بالنظر إلى الكيفية التي تميل بها الشرفة على الأرجح أيضًا نحو البحر. تجعلني الفكرة آخذ خطوة أخرى متأرجحة إلى الوراء.

يندفع كارتر إلى جانبي ليسندني.

- دعينا نُجلسكِ خمس دقائق.

- أنا بخير. حقًّا.

- لا تبدين بخير.

بدلًا من قيادتي إلى المنزل من جديد، يرشدني كارتر إلى الدرجات وعبر العشب إلى الكوخ الحجري. يسكب بابه المفتوح ضوءًا ذهبيًّا على النجيل.

- هل تعيش هنا؟

- نعم في الحقيقة. ليس بالكثير، لكنه منزل.

- لماذا لا تقيم في المنزل الرئيسي؟

- لأنني حارس الأرض وهذا كوخ حارس الأرض. إلى جانب أنه ألطف من ذلك المنزل القديم المعووج. مريح.

عندما يُدخلني إلى الكوخ، أرى ما يعنيه. للكوخ، على الرغم من أنه ليس كبيرًا، سحره الذي لا يمكن إنكاره. غرفة واحدة مقسمة إلى مساحتين - مطبخ وغرفة نوم، مع مقصورة حمَّام صغيرة في الركن - وثمة جو ريفي في المكان. تمتد عوارض خشبية مكشوفة في السقف، ونوافذ ألواحها على شكل معينات تواجه المحيط. تضفي المساند على الأريكة والفراش المرتب بعناية لمحات من الألوان، بينما تزين الجدران نقوش زاهية لطيور البحر المحلية.

يُجلسني كارتر إلى طاولة طعام من كتلة خشب تتسع لاثنين بالكاد. يواجه مقعدي تلفزيون صغير أبيض وأسود على نضد الطبخ، يذيع الجولة الأولى من بطولة دوري البيسبول الأمريكية. أوريولز في مواجهة فيليز. يخفض كارتر الصوت قبل أن يفتح خزانة جدار قريبة.

يقول:

- أفتح التلفزيون ليكون هناك صوت في الخلفية. سأهتم بالدوري عندما يكون فريق ريد نوكس فيه. وهو ما لن يحدث أبدًا.

يتناول من الخزانة كأسين مضلعتين، يصب فيهما القليل من الويسكي. يضع كأسًا على الطاولة أمامي، ويمسك بالثانية بينما يستند إلى النضد.

- اشربي. سيهدئ أعصابك.

- لا أعتقد أن مدام بيكر ستقبل هذا.

- ربما ابتلعت مدام بيكر الآن ثلاث كؤوس من نبيذ شاردونيه وتستعد للرابعة.

- أوه!

أحدق مندهشة إلى كأسي. لم أكن لأصنف مدام بيكر قَطُّ بوصفها شخصًا مدمنًا على الشراب. تبدو شديدة... الجدية. يجعلني هذا أتساءل إن كانت هكذا قبل الوصول إلى هوبز إند أم دفعها المكان ببطء إلى الشراب.

- لم أكن أعرف.

- بالتأكيد لم تكوني تعرفين. لقد وصلتِ إلى هنا توًّا. لكن امنحي المكان وقتًا كافيًا وستعرفين كل أسرارنا.

أسمح لنفسي برشفة صغيرة من الويسكي. كارتر على حق. دفئه الكهرماني يهدئني على الفور.

- هل يوجد أي شيء آخر ينبغي أن أعرفه عن مدام بيكر؟

يترك كارتر النضد ويقترب من الطاولة، ويلف المقعد الآخر حتى يتمكن من الجلوس عليه مقلوبًا وذراعاه تضمان ظهر المقعد. داخل الكوخ وفي النور، ألاحظ أشياء فيه فاتتني قبل ذلك. مثل الشق الصغير في ذقنه الذي يكاد يختفي تحت لحيته. أو الرائحة التي تفوح منه وتكشف أنه استحم قريبًا. أريج الصابون والشامبو المتصاعد من بشرته.

يقول:

- مثل؟

- اسمها الأول، على سبيل البدء.

- غلبتني. لا فكرة لديَّ. ماذا تقترحين؟

- مورتيشيا، أو كرويلا[1].

يغص حلق كارتر وهو يرشف من كأسه وينخر ضاحكًا.

- ربما يعرف آرشي، بما أنه قضى هنا الفترة نفسها التي قضتها.

أقول:

- هل تعتقد أنهما مرتبطان؟

---

(١) مورتيشيا: اسم شخصية الأم في عائلة آدمز الشهيرة التي ظهرت في كثير من أفلام الرسوم المتحركة والروائية، وهي ترتدي دائمًا ثيابًا سوداء ولها بشرة شاحبة، واسمها به جناس مع كلمة مورتيشان التي تعني «الحانوتي»، أما كرويلا فهي شخصية خيالية أخرى ظهرت في كثير من أفلام الرسوم المتحركة والروائية لامرأة شريرة شعرها نصفه أبيض ونصفه أسود تخطف الجِراء الصغيرة لتصنع من جلودها معاطف لها، واسمها كرويلا دي فيل به جناس مع عبارة تعني «قاسية وشيطانة». (المترجم).

- أشك في ذلك. مما أراه، هما لا يكادان يتحدثان أحدهما إلى الآخر.
- إذن لماذا تعتقد أنهما ظلا هنا طوال هذه الفترة؟ أخبرني آرشي بأنه ظل هنا قرابة الستين عامًا، ومدام بيكر رحلت لكنها في النهاية عادت. أظن أن كليهما كانا قادرين على الحصول على وظيفة في أي مكان.
- أعتقد أن الموقف أعقد من ذلك. لقد عرفا لينورا من قبل حوادث القتل. والحقيقة أنها كانت لتغدو عاجزة لولاهما. أعتقد أنهما يعرفان ذلك، وربما يفسر ذلك لماذا ظلا هنا طوال هذا الوقت.
- ومنذ متى أنت هنا؟
- آه، أنتِ الآن مهتمة بأسراري أنا.
يقولها كارتر بابتسامة يمكن اعتبارها مغازلة، لكن الأرجح أنها من باب الأدب. لم يغازلني أحد منذ زمن بعيد. بالتأكيد لم يفعلها كيني. تجاوز المغازلة ومضى نحو الهدف مباشرة. وللأسف، سار الأمر بنجاح.
- قلتَ إنني سأكتشفها في النهاية.
أقولها محاوِلة أنا نفسي أن أرد بمغازلة ضعيفة بعض الشيء. وألقي بذنب هذه المحاولة على الويسكي.
- يمكنك أيضًا أن تخبرني الآن.
- سري هو أنني لست حارس أرض. على الأقل لم أكن إلى أن استلمت هذه الوظيفة.
- وماذا كنت؟
- كنت ساقيًا في حانة.
يرفع كارتر كأسه ويأخذ رشفة منها.
- يبدو كأن عمرًا مر على هذا، على الرغم من أن هذا كان منذ سنة واحدة فقط. واحد من زبائني كان حارس الأرض السابق هنا. عندما تقاعد، اقترح أن أحل محله. بل وزكّاني بكلمة طيبة.
- هذا يبدو أقرب إلى قفزة كبيرة، من ساقٍ في حانة إلى حارس أرض.

- أوه، كانت كذلك. ظني أنه اعتقد أنني جدير بالثقة، وهي سمة ضرورية لمكان مثل هوبز إند. وافقت مدام بيكر، وهأنذا الآن.

يتعالى هدير مكتوم من التلفزيون. على الشاشة الصغيرة، يركض لاعب من فريق فيليز حول القواعد الأربع في الملعب بعد أن ضرب الكرة بقوة وطارت خارج الملعب مسجلًا نقطة لفريقه. يمد كارتر يده نحو التلفزيون ويطفئه.

أقول:

- وهل يعجبك المكان حقًّا؟

يفرد كارتر ذراعيه على اتساعهما ويقول:

- صار لديَّ مكاني الخاص، وهو يطل على المحيط. لا يستطيع كثير من الناس قول ذلك. بالتأكيد الوظيفة كبيرة بعض الشيء عليَّ أنا فقط، لكن أقولها مرة أخرى: لا يستقبل هوبز إند زوَّارًا أكثر مما يجب، ومن ثَمَّ لست مضطرًّا إلى إثارة إعجاب أحد. ما الذي لا يعجبني في هذا؟

- إمميم، حقيقة أن ثلاثة أشخاص قُتلوا هنا. وأنه ما زالت هناك بقع دم على البساط.

- أرى أنكِ قمتِ بجولة المقتلة.

أقول وأنا أومئ برأسي:

- اصطحبتني جيسي في جولة ليلة الأمس.

- من فضلك لا تخبريني الآن بأنك تفكرين في الهروب مثلما فعلت ماري.

- إلى أي حد تعرفها؟

- بما يكفي لاعتقاد أنك هي.

أُطرق ناظرة إلى زيي، الذي ارتدته ماري من قبل. مسألة أن مقاسه ناسبني تعني أننا تقريبًا في الحجم والطول أنفسهما. لا عجب أن كارتر أخطأ وظن أنني هي في الظلام.

- لا بد أنه كان من الغريب الاعتقاد بأنها عادت فجأة.

- ليس أغرب من الطريقة التي رحلت بها. بلا إشعار أو إنذار. ذات يوم، اختفت ماري ببساطة. كانت مفاجأة. ظننت أنها كانت سعيدة هنا.

- قالت جيسي أيضًا إنها فوجئت.
- كانت هي وماري مقربتين إلى حدٍّ كبير. على الناحية الأخرى، أنا في حالي. لا تفهميني بشكل خاطئ. كنت أنا وماري صديقين. لكن في الحقيقة لم أرَها كثيرًا. أنا أعيش هنا. وكانت هي تقيم في المنزل، تقضي أغلب وقتها مع لينورا. لذلك لم نكن نتسكع معًا على وجه الدقة. أغلب الوقت كنا نثرثر في الشرفة في الأمسيات. كل مرة كنت ألمح فيها زيها الرسمي، كنت أخرج وألقي التحية.
- هل تعتقد أن للينورا علاقة برحيلها. أن ماري، لا أعرف، خافت منها على نحو ما؟
- يبدو أنكِ تعتقدين أن لينورا مذنبة.
أحدق داخل كأسي، متأملة انعكاس صورتي وهي تتذبذب فوق الشراب الكهرماني. صورة لائقة، لأنني أشعر بالتذبذب عن نفسي. تحول رأيي في لينورا كثيرًا في اليومين الماضيين، إلى درجة أنني لم أعد أعرف ماهية شعوري.
- يبدو كأنك تعتقد أنها ليست كذلك. إذن من تعتقد أنه فعلها؟ ونستون هوب أم الرسَّام؟
- لا أحد منهما. أعتقد أنه كان ريكاردو مايهيو.
أرفع ناظري عن الويسكي متحيرة وأقول:
- من؟
- حارس الأرض وقتها. كان هو وزوجته يعيشان في هذا الكوخ عندما وقعت حوادث القتل. لم تكن زوجته هنا. كانت تعمل خادمة في المطبخ، ومُنحت إجازة ليلتها مع بقية الخدم. ذهبت إلى البلدة وشاهدت فيلمًا. لكن ريكاردو ظل في المكان.
- هل عرفت الشرطة ذلك؟
- نعم. وقتها في ١٩٢٩ كان من المشكوك فيه بشدة أن يكون كل أفراد طاقم العمل في المنزل غادروه تلك الليلة.

- وكيف تعرف أنت هذا؟
- من سلفي في العمل. كنت أصب الشراب، وهو يحكي لي القصص عن هذا المكان. وهو سبب آخر لقبولي هذه الوظيفة. بعد سماع الكثير عن هوبز إند، أردت أن أعاينه بنفسي.
- إذن حارس الأرض ذاك...
يتدخل كارتر مذكرًا إياي:
- ريكاردو.
أومئ برأسي وأتابع:
- صحيح. ريكاردو. ظل باقيًا ليلتها وفعل... ماذا؟
- لا أحد يعرف.
- ألم تستجوبه الشرطة بعد حوادث القتل؟
- لم تستطِع. اختفى ريكاردو مايهيو. بعد تلك الليلة، لم يرَه أحد قَطُّ.
يرمقني كارتر من خلف كأسه، منتظرًا رد فعلي. تأتي استجابتي بما يليق: يسقط فكي في دهشة.
- وزوجته...
- برنيس.
يرج الاسم ذاكرتي. ذكرتها لينورا ذكرًا عابرًا. كانت برنيس خادمة المطبخ التي تمنت لها عيد ميلاد سعيدًا في فتور.
- ألم ترَه مرة أخرى هي أيضًا؟
- نعم.
- ولم تكن لديها أي فكرة عن المكان الذي ذهب إليه أو ماذا حدث له؟
- لا. لكنها ما زالت في الجوار. أغلب الناس يقولون إنها لم تغادر البلدة قَطُّ لأنها تنتظر عودة زوجها. الأرجح أن المرأة المسكينة ليس لها مكان آخر كي تذهب إليه.
- إذن أنت تعتقد أن ريكاردو مايهيو قتل بقية آل هوب ثم هرب؟

- هذا ظني. إن لم تقتلهم لينورا، فهذا هو الشيء الوحيد المنطقي.
- لكن لماذا قد يريد حارس الأرض أن يقتل ونستون هوب وأسرته؟
- لا أعرف. ولماذا قد تفعلها لينورا؟

نقطة وجيهة. نقطة ما زلت أحاول فهمها أنا نفسي. لكن كارتر لم يقضِ اليوم كله مساعدًا إياها في الكتابة على الآلة. لم يقرأ عن قميص النوم الدامي. أو إلقاء لينورا للسكين في المحيط. أو مغادرة الشرفة للإتيان بحبل أظن أنه أُحكم خناقه لاحقًا حول عنق أختها.

وعلى الرغم من أنني أريد أن أخبره بكل هذه الأشياء، فإنني لا أفعل. يبدو من الخطأ أن أذكر أي شيء إلى أن أعرف القصة كلها. ساعتها فقط سأبوح بما لديَّ من تفاصيل. أعتقد أن هذا ما تريده لينورا في النهاية؛ أن أكون الصوت الذي لا تملكه. حتى إن كان ما سأقوله هو اعترافها الذي تأجل طويلًا.

- لو كنت على حق - وتحت «لو» هذه ألف خط - فهو ما زال شيئًا غير منطقي. لماذا لم تقُل لينورا أي شيء؟ لو قتل ريكاردو والديها وأختها، لماذا لم تقُل ذلك للشرطة؟

أو لي، فيما يتعلق بذلك. حتى الآن، لم تكتب مرة واحدة اسم ريكاردو مايهيو. لو اعتقدت أنه فعلها، لماذا لم يكن ذلك أول شيء تكتبه؟ وبدلًا من ذلك، بدأت عندما انتهى كل شيء، على حد تعبيرها.

يقول كارتر:

- ربما لم تعرف.

لكن لينورا عرفت بالطبع أن والديها ماتا. أخبرتني بذلك. ماتا وكان قميص نومها ملوثًا بالدماء وألقت السكين من فوق سياج الشرفة على الرغم من معرفتها أنها كانت الدليل على جريمتين وحشيتين. لماذا قد تفعل هذا إن لم تكن هي التي استخدمتها؟

أنهي شرابي، وأفكاري تجلجل مثل الثلج في كأسي الفارغة الآن. وفي تلك الفوضى الذهنية البهلوانية، تتشكل نظرية جديدة. نظرية لا أستطيع مشاركتها مع كارتر.

ليس بعد.

أنهض فجأة وأقول:

- يجب أن أذهب. شكرًا على الشراب.

يراقبني كارتر في حيرة وأنا ألوح له بتحية وداع سريعة، وأغادر الكوخ، وأعبر العشب الرطب. في الشرفة، أحترس من الألواح تحت قدمَي، وأتحرك بعيدًا عن السياج. فقط عندما أكون تحت نافذة لينورا أجازف بإلقاء نظرة إلى الأعلى. على الرغم من أن غرفتها ما زالت مظلمة ولا شيء يظهر عند النافذة، لا أستطيع التوقف عن التفكير في لينورا وهي راقدة داخلها، مستيقظة تمامًا وتكرر في ذهنها سطرًا واحدًا من الأغنية التي عرفتها منذ مدرستي الابتدائية.

«لم تكن أنا»، هكذا أقسمت

ربما هذا الجزء من الأغنية صحيح.

لكني أشك في وجود مزيد في القصة أكثر مما تبوح به لينورا، وقتها والآن.

داخل المنزل، أصعد بسرعة سلم الخدم. في الطابق الثاني، أبدأ في التمايل، وقد زاد الويسكي ميل المنزل سوءًا. وبدلًا من كأس واحدة، أشعر كأنني تناولت أربعًا، وهو ما يفسر السبب في اندفاعي الوقح داخل غرفة لينورا.

أضيء المصباح على الطاولة المجاورة للفراش، فتصحو لينورا مفزوعة.

أو ربما تتظاهر فقط بأنها فزعت. لا أستطيع تكذيب شعوري بأنها كانت مستيقظة بالفعل، وأنها كانت تعلم أنني قادمة. قبل أن ترى أنني كنت من اقتحم الغرفة، لم تتحرك يدها اليسرى بأي شكل لتضغط زر الاستدعاء. ثم تلوح تلك النظرة الفضولية في عينيها. بينما تحتفظ بقية وجهها بتقلص مصدوم متسائل، تومض عيناها بالرضا.

أقول:

- أريدكِ أن تحكي لي عن ريكاردو مايهيو.

قضيت عشر دقائق أبكي في قاعة الرقص قبل أن أجري عبر المنزل، باحثة عن آرشي. يعرف ماذا يقول ليجعلني أفضل حالًا. لطالما فعل ذلك. لكن آرشي نأى بنفسه كثيرًا في الفترة الأخيرة وصار نادر الظهور. لم ألمحه اليوم إلا في أثناء مروري في المطبخ قبل العشاء، وحتى عندئذ لم أجرؤ على قول أي شيء له. كان ممنوعًا عليَّ أنا وأختي أن نتصادق مع طاقم العمل والعكس صحيح، لكن هذا لم يمنعني أنا وآرشي من أن نصبح صديقين مقربين.

بعدما عجزت عن العثور على آرشي، وجدت نفسي في الشرفة بالخارج. وعلى الرغم من أننا كنا في الربيع فعليًا، فإن قبضة الشتاء ظلت محكمة، وجعلت هواء الليل قارس البرودة. لكني لم أهتم بذلك. كنت سعيدة فقط بالوجود في أي مكان غير داخل هذا المنزل الفظيع الشنيع.

صعدت فوق السياج. شيء آخر قيل لي ألا أفعله لكني فعلته على أي حال، غالبًا لأن السياج منخفض جدًا. لو لم يرد أبي أن أصعده، لكان ينبغي له أن يجعله أعلى. جلست هناك، متوازنة بصعوبة، وحدقت إلى الأسفل في الماء. تلألأ ضياء القمر على أمواج المحيط وتوهجت رؤوس الزبد في الليل. كان المنظر جميلًا جدًا، إلى درجة أنني فكرت لحظة في القفز من فوق السياج والاندماج فيه.

بدا بديلًا أفضل من الحياة في هوبز إند.

كنت يافعة ومتفجرة بالاشتياق. إلى الحب. إلى المغامرة. إلى الحياة. لكن لا شيء من ذلك ينتظرني هنا، في مكان عالجت أمي نفسها فيه بالتحول إلى مذهولة مخدًرة، وخانها أبي فيه علانية مع الخادمات، وتظاهرت أختي بأن كل شيء على ما يرام. أهكذا سأقضي بقية حياتي؟

لو كان هذا هو الوضع، لفضًلت إنهاءه الآن. ويا لها من نهاية مناسبة، أن أجعل يوم مولدي يوم مماتي أيضًا.

قبل أن أتمكن من الاستمتاع بالفكرة أكثر من ذلك، تناهى صوت من خلفي:

- احذري. إذا سقطت ولاقيت حتفك، فلن تكون لهذا المكان قيمة تستحق النظر إليها.

التفت بسرعة، وكدت أفقد توازني في هذه الحركة. تأرجحت على السياج لحظة، وانتابني الذعر فجأة من أنني على وشك السقوط. قبل ثانية واحدة، كنت أفكر في إنهاء كل شيء. والآن لم أعد أريد شيئًا إلا أن أعيش — حتى لو فقط لتوبيخ رفيقي المجهول على تجسسه عليَّ.

بعد أن تمالكت نفسي، قفزت من فوق السياج. في الوقت نفسه، برز مصدر الصوت من الظلال الممتدة على جانب المنزل. عرفت من يكون لأنني سمعت برنيس تذكره في المطبخ وتنصت على الخادمات وهن يتحدثن عن مقدار وسامته.

وكان وسيمًا بالفعل. يرتدي فقط سروال العمل وفانلة قطنية، وله هيئة رجولية بدائية. قوي ووحشي قليلًا. بدلًا من أن يرجل شعره إلى الوراء ويدهنه بدهن الشعر كما كان يفعل أغلب الرجال وقتها، تركه ينمو حرًا وبريًا. رفع خصلة شعر من فوق عينيه وحدق إليَّ بطريقة لا يمكن وصفها إلا بأنها ذئبية. تلاعبت ابتسامة على شفتيه، كأنه يعرف كل فكرة شريرة خطرت على بالي قبلها ذلك اليوم.

قال:

- لم تكوني لتقفزي حقًا، أليس كذلك؟

نظرت إليه، على الرغم من أنني كنت أحاول ألا أفعل ذلك. لم أرد أن أحدق إليه، لأنني كنت أعرف أن هذا سيجعله يعتقد أنني أعتبره جديرًا بالتحديق إليه، وهو ما كان صحيحًا إلى حد بالغ. لكن ملاحظته أجبرتني على مواجهته مباشرة. على الرغم من أنها كانت ملاحظة صحيحة تمامًا، فإنها أيضًا مفعمة بعدم اللياقة.

- لست بحاجة إلى تبرير ما أفعل. خصوصًا لشخص مثلك.

- أنت على حق. ليس عليك ذلك. لكنني أشعر بالفضول لمعرفة السبب في أن يجازف شخص يحيا حياتك بتسلق ذلك السياج.

عدت بناظري إلى المحيط، رافضة أن أنظر إليه لحظة أخرى.

- أنت لا تعرف شيئًا عن حياتي.

- كلي آذان مصغية.

انضم إليَّ عند السياج، مركزًا انتباهه عليَّ، كأنه لا يطيق انتظارًا كي يسمع ما يجب أن أقول.

- قولي لي ما المشكلة.

- كل شيء.

أطلق صفيرًا منخفضًا.

- يبدو هذا خطيرًا جدًا.

- هل تُسليك مشكلاتي؟

- على الإطلاق يا آنسة هوب. لكن بالتأكيد ليس كل شيء فظيعًا.

- هذا المنزل كذلك، فظيع تمامًا.

استدار في وقفته وتطلع إلى المنزل المتلألئ خلفنا وقال:

- يبدو لطيفًا جدًا بالنسبة إليَّ.

- ليس كذلك، في إمكاني أن أؤكد لك. صراحة، كنت لأقتل أي شخص كي أغادر هذا المكان.

اقترب مني حتى صرنا على بُعد بضع بوصات فقط. اقترب بشدة إلى درجة

أنني شعرت بالحرارة الصادرة من بشرته، والتي منحتني بدورها شعورًا لذيذًا بالقشعريرة.

- نحن لم نتعارف بشكل لائق...

قالها ومد يده:

- أنا ريكي.

١٥

ريكي

تنقر لينورا الاسم بقوة شديدة، إلى درجة أن الحروف تنحفر في الورقة كأنها مكتوبة بمكواة الوسم. تتطلع إليَّ الآن محدقة، متحدية ومهتاجة. تبدو عيناها، المضيقتان مثل شخصية شريرة في فيلم رسوم متحركة، كأنهما تتساءلان إن كنت راضية الآن.

لست راضية، على الرغم من الفصل الذي دقت حروف كلماته في منتصف الليل والأسئلة التي دقت إجاباتها بيدها قبل أن تبدأ الكتابة. أول سؤال طرحته بعد أن اقتحمت غرفتها كان:

- هل كنت تعرفينه يا لينورا؟

أجابت بدقتَي التأكيد على غطاء الفراش.

- هل تعرفين ما جرى له؟

دقة واحدة هذه المرة. لا.

- هل فعلها ريكاردو؟

كان كارتر محقًّا. لو لم تكن هي الجانية، فهذا هو التفسير المنطقي الوحيد. كان ريكاردو موجودًا تلك الليلة. ثم اختفى - الأرجح بعد قتل ونستون وإيڤانجلين هوب. وأعتقد أن لينورا إما عرفت ذلك وإما شكت فيه.

أشاحت لينورا بعينيها عني، وحدقت عبر الغرفة إلى الآلة الكاتبة. صرت أعرف تلك النظرة جيدًا من قبل بما يكفي لأن أمشي إلى المكتب، وأضع ورقة جديدة في الآلة الكاتبة، وأحملها إلى الفراش. ثم بدأت لينورا تنقر، ودوي ضربات المفاتيح عالٍ بما يكفي كي تتردد أصداؤه في هدأة الليل بغرفة نومها.

لا استطيع أن أخبرك بعد

- لِمَ لا؟

لأنني يجب أن أفعل ذلك بالترتيب

كررت سؤالي:

- لِمَ؟

أومأت برأسها، مشيرة إليَّ كي أضرب على شريط العودة في الآلة الكاتبة.

حتى تفهمي ما حدث

إيماءة ثانية.

وكيف

إيماءة ثالثة.

ولماذا

قلت في أمل:

- أو يمكنكِ فقط أن تكتبي من فعلها الآن وتساعديني على الفهم لاحقًا.

تلاعبت لمحة من ابتسامة على شفتَي لينورا. أدركت أنها تستمتع بذلك. كشف قصتها بالتشويق قطعة بعد قطعة. إبقائي على الحافة دائمًا.

وضعت يدها مفرودة على المفاتيح. في العادة تلك إشارة إلى انتهاء فصل. في هذه الحالة، كانت تعني أنها تريد ورقة جديدة. أطعتها، وأحضرت بضع ورقات من المكتب، وأدخلت واحدة في الآلة الكاتبة.

فصل جديد على وشك أن يبدأ.

قضيت أنا ولينورا الساعتين التاليتين في الكتابة. مع مرور الوقت – ومجيء منتصف الليل وانقضائه – بدأت حالة الغرفة تتغير تدريجيًّا. صارت أبرد. ليس

فجأة، بل ببطء. زحفت البرودة بالطريقة نفسها التي يتسلل بها الشتاء بعد خريف رائع. قبل أن تبدأ لينورا كتابة الصفحة الثالثة، كنت أرتجف من البرد.

الأسوأ من البرد كان الشعور الذي انتابني في منتصف مسار كتابتها بأننا لسنا وحدنا، على الرغم من أنه لا يوجد غيرنا في الغرفة. أعرف ذلك لأنني بدأت أتفحص المكان من حين إلى حين، وألقي نظرة على الباب المغلق والأركان الكابية، حيث لا يستطيع الضوء الصادر عن مصباح الطاولة المجاورة للفراش أن يصل.

لم يكن هناك أحد غيرنا.

نحن فقط.

لكنني لم أستطِع أن أتخلص من الإحساس بأن شخصًا آخر في الجوار، يراقبنا. حتى ولينورا تكتب عن لقائها بغريب وسيم في الشرفة، انجرفت أفكاري إلى ما أخبرتني به جيسي في جولة المقتلة.

أن ماري زعمت رؤيتها لشبح ڤرجينيا هوب هائمًا في الطابق الثاني.

أنها خافت من هذا المكان.

أن هذا كان السبب في هروبها.

هوبز إند ليس منزلًا عاديًّا. ثمة عتمة هنا. أستطيع الشعور بها. وشعرت بها ماري.

على الرغم من أن جيسي قالت ذلك لتحبِّك مزحتها في قاعة الرقص، فإنني سألت نفسي إن كان وراءها بعض الحقيقة. في خبرتي، أغلب الأكاذيب تحتوي على بذرة حقيقة ما على الأقل.

لأنني شعرت بالعتمة أيضًا.

ولم ترقني قيد أنملة.

صفعت لينورا يدي مرة أخرى، لتجتذبني من أفكاري وتشير أيضًا إلى أنني يجب أن أضغط على مفتاح التحويل. فعلتها وقلت:

- هل تحسين بذلك؟ كأن شخصًا آخر هنا؟

دقت لا، وعادت إلى النقر بينما استمررت في الشعور بنظرات عينين غير مرئيتين تراقباننا والبرودة الزاحفة التي صارت أقوى وأشد إلى أن انطبعت الكلمة الأخيرة على الصفحة.

ريكي.

تغدو الغرفة أدفأ في اللحظة التي تنقر فيها لينورا الكلمة. تتلاشى القشعريرة التي شعرت بها في لحظة، وكذلك الشعور بأن شخصًا آخر موجود هنا، يختبئ ويراقب. الشخص الوحيد الذي يراقب الآن هو لينورا، التي تستمر في التحديق إليَّ، متسائلة من دون كلمات إن كان ما كتبته الآن كافيًا.

- حاليًّا، نعم.

أقولها وأنا أعيد الآلة الكاتبة إلى المكتب، والورقة في العربة ترفرف وأنا أتحرك.

ما زلت لا أعرف نصف ما حدث قبل أو خلال أو بعد مقتل والديها، لكن لا يجب على لينورا أن تكتب كل شيء الليلة. ما كتبته كان باهرًا بما يكفي لي كي أستنتج عدة حقائق أساسية.

مثلًا، أعتقد الآن أنني أعرف لماذا تخلصت لينورا من سلاح الجريمة. وهو السبب نفسه في أنها أخبرت الشرطة بالقليل جدًّا تلك الليلة.

كانت تحاول أن تحمي أحدهم.

يبدو السبب وراء فعلها ذلك واضحًا أيضًا.

قبل ثمانية أشهر من حوادث القتل، وقعت لينورا في حب ريكاردو مايهيو.

١٦

أصحو على صرخة محشورة في حلقي. أبتلع ريقي بصعوبة، وأبتلعها قبل أن تنطلق في غرفة النوم المظلمة. ثم أجلس في فراشي وأهز جسدي قليلًا، محاوِلة أن أنفض عني هول كابوس آخر استنفر صرختي القريبة.

أمي مرة أخرى.

واقفة إلى جوار جسدي النائم.

تحشو فمي بالأقراص إلى أن أبدأ في الاختناق.

كان الكابوس شديد الوضوح إلى درجة أنني أدفع سبابتي في فمي، متحسسة أثر الأقراص التي لم يكن من الممكن وجودها هناك.

عندئذ أسمعه.

صرير.

من النوع نفسه الذي سمعته ليلة الأمس، صادر من المكان نفسه.

غرفة لينورا.

صوت صرير آخر يجذبني من الفراش. كل أفكار الكابوس الذي رأيته توًّا تتبخر وأنا أخطو على أطراف أصابعي إلى الباب بين غرفتينا. أنا الآن مهتمة بشيء واحد فقط: اكتشاف ماهية الشيء اللعين الذي يصدر هذه الأصوات.

أقف عند الباب، وأطرق ناظرة إلى قدمَي. الشريط الرفيع من ضوء القمر القادم من تحت الباب يمتد على الأرض، على بُعد بوصة من أصابع قدمَي.

ينضم إليه ظلٌّ.

يحجب ضوء القمر بينما يمر إلى الجانب الآخر من الباب.

أشهق، وألوي مقبض الباب، وأفتح الباب بسرعة.

لا يوجد شخص آخر في غرفة لينورا. هي فقط، ممددة على ظهرها وتغط في نومها.

أتذكر الظل الرمادي الذي رأيته عند نافذتها قبل ذلك، والذي نسيته على الفور في خضم الأحداث التي تلت ذلك. سقوطي الوشيك من فوق سياج الشرفة. المحادثة الطويلة مع كارتر. جلسة الكتابة الأطول مع لينورا. لكنني موقنة بأن شخصًا ما كان يتحرك داخل هذه الغرفة، عندئذ والآن.

أقترب من الفراش وأجثو إلى جانب لينورا، أتأكد أنها نائمة حقًّا ولا تتظاهر بذلك مثلما شككت فيها عندما اقتحمت الغرفة قبل ساعات. ألوح بيدي أمام وجهها، فلا يندُّ عنها أي رد فعل. بالتحديد ولا رجفة تشير إلى إدراكها أنني أفعل ذلك. بعدها ألمس رسغها الأيسر لأتفحص نبضها. بطيء، ثابت.

أهمس على أي حال:

- لينورا، هل كان ذلك أنتِ؟

لا تجيبني بالطبع. لا تستطيع. مثلما لا تستطيع أن تمشي. حتى لو كان في استطاعتها، لينورا في الحادية والسبعين من عمرها. مستحيل أن تكون بالسرعة الكافية للقفز في الفراش بمجرد أن أفتح الباب. لن يستطيع شخص في نصف عمرها أن يفعل ذلك.

بما أنها لم تكن لينورا ولا يوجد شخص آخر في الغرفة، أعرف أنني ينبغي أن ألقي اللوم على خيالي. تأخر الوقت، وأنا مرهقة، ولعل المنزل يتلاعب بعقلي. لكن هذه الأصوات كانت حقيقية. وكذلك كان الظل عند الباب وعند النافذة.

لم أتخيل كل ذلك.

سمعتها ورأيتها وأعرف أنه لا بد من وجود سبب منطقي لها.

كل شيء سيتبين معناه في الصباح.

ذلك شيء آخر اعتادت أمي أن تخبرني به، في زمن مضى عندما كنت أجاهد كي أتعامل مع كل آلام وضغوط المراهقة. اذهبي إلى الفراش. احصلي على نوم ليلي هانئ. كل شيء سيتبين معناه في الصباح. وعادة، كانت على صواب. حتى عندما لم يكن يتبين معنى كل الأشياء تمامًا، غالبًا كنت أشعر بتحسن في الصباح.

لكن هذه المرة، النصيحة فاشلة تمامًا.

لا شيء سيتبين معناه عندما أصحو بعد عدة ساعات مع شروق الشمس التي توخز شبكية عينَي وقد انزلقت المرتبة عدة بوصات إلى الأسفل مقارنة بالوضع الذي كانت عليه عندما ذهبت للنوم. يحاوطني الإرهاق وأنا أنزل من الفراش وأبدأ روتيني الصباحي.

الاستحمام في حوض مائل.

غسل أسناني في حوض مائل.

ارتداء زي رسمي يخص امرأة فرَّت من هذا المكان.

قبل النزول إلى الطابق الأرضي، أطل على لينورا، متوقفة عند الباب قبل فتحه فجأة. مثل عاشق مرتاب. أو أب متشكك. أحاول القبض عليها متلبسة. بمَ؟ لا أعرف. باستثناء النقر على الآلة الكاتبة، هي غالبًا تراقب فقط، وهو ما تفعله الآن، وهي تلقي إليَّ نظرة ساخرة متسائلة.

أول شيء أفعله فحص المكتب.

الآلة الكاتبة في المكان الذي وضعتها به تمامًا خلال الليل.

لكن الورقة التي كانت في العربة، تستقر إلى جوارها، مقلوبة على وجهها، كأن أحدًا كان يقرأها.

لكن على عكس الأمس، أنا متأكدة أنني تركت الورقة في الآلة الكاتبة. أتذكر رؤية الورقة ترفرف وأنا أحمل الآلة الكاتبة عائدة بها إلى المكتب.

ألتفت إلى لينورا:

- شخص ما كان هنا خلال الليل. أنا على حق، أليس كذلك؟

تمنحني إيماءة أخرى من تلك الإيماءات الغامضة التي ما زلت أتعلم تأويلها. وهذه المرة، أعرف مرة أخرى أنها تعني إحضار الآلة الكاتبة إلى الفراش. بعد أن أفعل ذلك، أضع يدها على المفاتيح وأتركها تجيب.

لم تنامي جيدًا

لديَّ مشكلة في تمييز نبرتها. من دون وجود علامات ترقيم، تبدو أشبه بجملة خبرية، تعني أن لينورا تعرف أنني لم أنَم جيدًا. لكن مع علامة استفهام - مفقودة لأنها تتطلب مني أن أضغط على مفتاح التحويل - تصبح أكثر براءة. تساؤل ربما أثارته الدوائر السوداء حولي عينَي.

تحدق لينورا إليَّ، منتظرة إجابة. تعبيرها - المترقب والحائر - ينبئني بأن جملتها كانت سؤالًا.

أقول:

- صحيح.

تبدأ تحريك يدها عبر لوحة المفاتيح مرة أخرى، وأخيرًا تكتب كلمة مألوفة.

هول

هذه المرة، يمكنني تحديد أنه سؤال من حاجبَي لينورا اللذين تقوسا في فضول. أومئ برأسي وأبتسم.

- لكن حتى قبل ذلك، لم أستطِع النوم.

مزيد من النقر.

الريح

ومزيد من النقر أيضًا.

تصدر اصواتًا غريبة

آخذ خطوة إلى الوراء وأرنو إلى لينورا.

- كيف تعرفين أنني سمعت أصواتًا؟

لأنها صنعتها.

تندفع الفكرة في مخي مثل مثقاب. مفاجئة، مثيرة للأعصاب، وغير مرغوب فيها.

وسخيفة أيضًا.

لا، كان شخصًا آخر.

ولينورا تكذب عليَّ.

ربما ليس للمرة الأولى.

يخطر لي أن كثيرًا مما كتبته حتى الآن إن لم يكن كذبة فهو على الأقل ليٌّ لعنق الحقيقة. تشكيل للقصة بطريقة تلائم مصلحتها. فعلت ذلك أنا نفسي في الحديث مع مدام بيكر عند وصولي. كان في إمكاني قول إن أمي هي من تناولت جرعة زائدة من الأقراص. لكنني قلت إنها مجرد مريضة. ليست كذبة بالضبط، لكنها أيضًا ليست الحقيقة الكاملة. ليست الحقيقة بفارق كبير. أشك في أن لينورا تفعل الشيء نفسه.

وقد تعبت من ذلك.

- أعرف أن أحدًا كان هنا ليلة الأمس. والآن قولي لي من كان الفاعل أو لا مزيد من الكتابة. وبالتأكيد لا مزيد من حكي قصتك.

تتفحصني لينورا، محاوِلة أن تحدد إن كنت أخدعها. أتمنى لك التوفيق في هذا. أنا حتى لا أعرف مقدار جديتي في الأمر. على الرغم من أنني أشك في كوني متلهفة على سماع القصة كاملة قدر تلهفها على كتابتها، فأنا أيضًا مترددة. مرة أخرى، قد لا تكون الحقيقة الكاملة. وإذا كانت هذه هي الحال، قد لا أرغب في معرفتها.

من الواضح أنني أبدو أكثر حزمًا مما أشعر، لأن لينورا تبدأ في النقر من جديد.

شخص ما كان هنا

أتمتع بلحظة من إثبات البراءة. كنت أعرف أن خيالي لم يكن هو السبب!

- لكن ليست الليلة الماضية فقط، صحيح؟ والليلة السابقة كذلك.

ليالٍ كثيرة

أقول منتفضة من الفزع:

- إذن من يكون؟ من كان في غرفتك؟

تتفحصني لينورا مرة أخرى وهي ما زالت مترددة. ثم تعاود النقر في تمنُّع واضح. يستغرق الأمر منها دقيقة كاملة كي تضغط سبعة أحرف. عندما تنتهي، أنتزع الورقة من الآلة الكاتبة. ثمة اسم واحد يسم الورقة البيضاء بحبر أسود كالليل.

ڤرجينيا

١٧

تتعالى موسيقى الانتظار الخلفية ناعقة من هاتف المطبخ وأنا أنتظر أن يرفع مستر جرلين السماعة. مضت خمس دقائق منذ أن أحالني إلى وضع الانتظار. وقت طويل بما يكفي لأن يحل محل أداء مثير للغثيان لإحدى أغاني الثنائي كابتن وتينيل أداء أسوأ لأغنية «أنت لا تأتي لي بالزهور». أنتظر والسماعة على أذني، وأنا أتطلع في أرجاء المطبخ الخالي آملة ألا يدخل أحد وأنا هنا. لا أريد أن أوضح لماذا تركت لينورا وحدها في كرسيها المتحرك بينما أجري مكالمة هاتفية. وبشكل خاص لا أريد الحديث عن سبب المكالمة. سيكون الحديث عنه مع مستر جرلين صعبًا بما فيه الكفاية.

عندما يدخل على الخط، ويقطع موسيقى الخلفية بنعمة من الله، يبدو متوترًا. أظن أنه تذكر ذلك الصباح عندما وجدت أمي ميتة، وكانت تلك آخر مرة تلقى فيها مكالمة عاجلة مني.

يقول:

- هل هناك مشكلة؟

- لا. حسنًا، نعم.

آخذ شهيقًا، وأحبس النفس في صدري، ثم أزفر.

- أتصل لأطلب مهمة جديدة.

- لقد أعطيتكِ مهمة جديدة للتو.

- أود مهمة مختلفة، من فضلك.

أقولها مع تأكيد مهذب على عبارة «من فضلك».

- لم تمضِ إلا بضعة أيام يا كيت.

- أعرف ذلك، أنا فقط...

ينحبس صوتي. لا أعرف ماذا أقول. إنني خائفة؟ لست خائفة. إن الخوف يتضمن اليقين. أنت تعرف ما تخاف. أنا على النقيض. غير موقنة ومتوترة. ومن يستطيع أن يلومني؟ أنا في منزل مائل قُتل فيه ثلاثة أشخاص. هناك بقع دماء على الدرج الكبير وقاعة رقص تأرجحت فيها فتاة ميتة معلقة على ثريا. فتاة ميتة تتجول، على ما يبدو، في غرفة نوم مريضتي ليلًا.

لا أومن بالأشباح.

ولا أعتقد أبدًا أن ما سمعته كان شبح ڤرجينيا هوب.

لكن هناك شيئًا خطأً في هوبز إند. هذا واضح. ولعله أخاف ماري إلى حد دفعها إلى الرحيل في منتصف الليل من دون أن تأخذ أي شيء معها. لا أريد أن أبقى وأنتظر لأرى إن كنت سأصل في النهاية إلى تلك الدرجة اليائسة. أفضل أن أرحل الآن، في وضح النهار، وآخذ كل متعلقاتي معي.

أخيرًا أقول:

- لا يعجبني المكان هنا. قلت لك إنني لست مرتاحة للعمل في هذا المنزل.

- وأنا أخبرتكِ بأنه لا يوجد خيار.

- لكنْ هناك مقدمو رعاية آخرون متاحون. رأيت أسماءهم على لوحة المهام. ألا تستطيع أن ترسل أحدهم إلى هنا وتضعني في مكان آخر؟ لا يجب أن يكون هذا على الفور. أستطيع الانتظار أسبوعًا أو اثنين إلى أن تتاح مهمة أخرى.

ذلك الجزء الأخير فيه مبالغة بعض الشيء. قد لا أملك ما يكفيني من المال بضعة أسابيع. لكن لا يجب أن يعرف مستر جرلين ذلك. يجب عليه فقط أن يضعني في مكان آخر، وهو الشيء الذي لا يبدو ميالًا إلى فعله.

يقول مستر جرلين متنهدًا:
- اتفقنا على هذا يا كيت. أنا أحدد...
- المهام ومقدمو الرعاية يلتزمون بها. نعم، أعرف ذلك. كنت آمل فقط أن تفكر في القيام باستثناء لمرة واحدة.
- لا أستطيع.
يقولها مستر جرلين من دون أن يمنحها لحظة واحدة من التفكير ويتابع:
- مرة أخرى، من حقك أن تتركي مهمتك. لكن إذا فعلتِ ذلك، فهذا يعني أنكِ تتركين العمل معي إلى الأبد. لقد منحتكِ بالفعل استثناءً لمرة واحدة. أغلب الوكالات الأخرى كانت لتفصلك منذ ستة أشهر. اقبليها أو اتركيها.
لا خيار لديَّ إلا قبولها. نعم، أستطيع أن أترك المهمة فورًا أو أفعل مثل ماري وأرحل في منتصف الليل، لكن الشخص الوحيد الذي سأُوذيه بهذا هو نفسي. أكاد لا أملك أي مال أو أي فرص مستقبلية في العمل. لست متأكدة حتى إن كان لديَّ منزل أعود إليه. ترك العمل سيجعل هذه المشكلات أسوأ.
باختصار، أنا عالقة في هوبز إند.
- مفهوم.
أقولها بسرعة حتى لا يتمكن مستر جرلين من تبين أنني على حافة البكاء.
- آسفة على إزعاجك.
أغلق الخط مستسلمة لقدري، وأتطلع حولي في المطبخ الضخم الخالي داخل المنزل الضخم الخالي.
كيف جئت إلى هنا بحق الجحيم؟
أفكر في كل السبل التي كانت حياتي ستسير على نحو مختلف بها، ومتى سار كل شيء في الاتجاه الخطأ. أكان هذا عندما مرضت أمي؟ أم كان قبل ذلك؟ عندما فُصلت من مكتب السكرتارية وقررت أن أصبح مقدمة رعاية، مثلًا؟ أم عندما شعرت بالسأم من الدراسة وأدركت أنني لن أتقدم فيها أبدًا إلى مرحلة

كبيرة وقررت ألا أحاول؟ ربما تهيأت لهذا السبيل منذ أول مرة سمعت فيها الأغنية عن لينورا.

في السابعة عشرة، لينورا هوب...

ثمة كعكة توت محلاة باقية من فطوري، تستقر في السلة على النضد. أتناولها وآخذ قضمة وأنا أتحرك عبر غرفة الطعام وأخرج إلى الشرفة. في الخارج الجو بارد نسبيًّا، لكنه مشرق - الطقس المثالي لتصفية ذهني. هذا ضروري بعد مكالمتي مع مستر جرلين. تجتمع الشمس والريح مع الهواء المالح لتهدئ خاطري، وتجعلني أبدأ التفكير بشكل عقلاني من جديد.

الآن بما أنني عالقة هنا بوضوح، يجب أن أركز على الطريقة التي أُخرج بها نفسي من هذه الورطة.

والإجابة واضحة: أن أقوم بعملي.

أقبض راتبي، أدخر ما يكفي للابتعاد عن هنا قدر الإمكان، والبدء من جديد.

يعني هذا أيضًا أنني يجب أن أنفذ تهديدي للينورا إذا لم تخبرني بمن كان في غرفتها.

لا مزيد من الكتابة على الآلة.

لا مزيد من القصص.

أقول لنفسي ربما تكون كلها أكاذيب على أي حال. إذا كانت لينورا لا تستطيع أن تكون صادقة معي بشأن من يتجول في غرفتها، فهي بالتأكيد لن تخبرني بالحقيقة حول الليلة التي قُتلت فيها أسرتها. كل هذا يجعلني أحس بأنني مخدوعة، إن لم أكن غبية، لأنني وثقت أصلًا بأنها قد تكون صادقة.

أقرر أن الشيء التالي الذي يجب فعله هو تحديد من كان يسبب الأصوات في غرفة لينورا. لا بد أن هناك تفسيرًا منطقيًّا لها. الأمر نفسه بالنسبة إلى الظل الذي انفلت وراء الباب والظل الذي رأيته عند النافذة.

بما أن آرشي ومدام بيكر، وحتى لينورا، أشاروا إلى أن الريح هي المتهمة على الأرجح، وهم يعرفون هوبز إند أفضل مني، فبالمثل قد يكون الظل عند النافذة

خدعة بصرية تسبب فيها انعكاس نور القمر على الزجاج. أما عن الظل عند الباب، فربما تسببت فيه السُّحب المارقة أمام القمر لتحجب نوره مؤقتًا. ولعل طائرة أو طائرًا كبيرًا فعلا الشيء نفسه. وبالنظر إلى الوضع البائس للمنزل، من الأرجح حتى أن يكون السبب مصراع نافذة متفككًا أو ماسورة صرف مكسورة.

أستدير في وقفتي وأواجه ظهر المنزل، حيث تطل عليَّ طوابقه الثلاثة الهائلة. أستند إلى السياج حريصة على ألا أفقد توازني، وأتفحص الواجهة الخارجية. لا يبدو أي شيء في غير مكانه حول نوافذ لينورا. بالتأكيد لا يوجد مصراع يتأرجح في النسيم أو ماسورة صرف مائلة تبرز من السطح.

لكن يوجد كثير من الطيور. تدور النوارس مدوِّمة في الهواء قبل أن تغطس في الماء وقد أغوتها سرطانات الرمل التي كشفها الجَزر. أدور حول نفسي وأطرق ناظرة إلى شريط الرمال بين الماء وسفح المنحدر. تتكسر أمواج ناعمة في هدوء على الشاطئ، دافعة بالمياه المزبدة حول الصخور البارزة من الرمال.

أميل إلى الأمام وأمعن في النظر، مدركة أنني مخطئة.

ليست هذه صخورًا بارزة من الرمال المبتلة.

إنها شيء آخر.

يد.

قدم.

رأس.

وتحت الرمال احدودبت الجثة المتصلة بها.

وقبل حتى أن أبدأ بالصراخ، أعلم بيقين مخيف أنني أنظر إلى جثمان ماري ميلتون.

١٨

أنا في غرفة التشمس، على الرغم من أنه لا شمس هناك. في الخارج، السماء مصطبغة بغيوم سوداء تكاثفت بعد وقت قليل من عثوري على جثة ماري. تجعل كل شيء رماديًّا وثقيلًا، كأن العاصفة المتجمعة تضغط على المنزل محاوِلة أن تجتاحه في طريقها. وينضم إليَّ في هذا الجو الكئيب آخر شخص أريد رؤيته.

المحقق ڤيك.

يجلس على الأريكة الصغيرة المغبرة نفسها التي شغلتها مدام بيكر يوم وصولي، يبدو مشعثًا وغير سعيد بوجوده هنا. أو بوجوده معي. شعور متبادل. أتوتر في حضوره. رد فعل متأصل. والنتيجة صدام مشاعر - إنكار وحزن وقلق عميق من أن المحقق ڤيك أتى لا ليسألني عن ماري بل ليقبض عليَّ أخيرًا.

يقول:

- حسنًا يا كيت. أنا بالتأكيد مندهش لرؤيتك.

أجذب حاشية زيي الرسمي، محاولة أن أشده بوصة أو نحو ذلك على نحو أقرب إلى ركبتَي. أشعر بالبرد، بفضل الرعشة التي أمسكت بي منذ اللحظة التي أدركت فيها أنني أنظر إلى جثة ماري ميلتون. إنها صدمة، أعرف ذلك، فاقمتها حقيقة أنني أتحدث إلى الرجل الذي أراد إلقائي في السجن.

أقول:

- مندهش من وجودي في هوبز إند؟ أم مندهش من أنه ما زال مسموحًا لي بالعمل بعد أن اتهمتني بالقتل؟

يتنهد المحقق ويقول:

- لا يجب أن يكون هذا مثيرًا للخصام يا كيت. أنا فقط أحاول أن أتبين ما حدث.

- لم يبدُ أنك مهتم للغاية بهذا آخر مرة تحدثنا فيها.

- سأفوت هذا. أنتِ مضغوطة وهذا مفهوم.

أنا كذلك حقًّا. أنا حتى خائفة أن أرمش خشية أن تظهر صورة جثة ماري بارزة من الرمال على شاشة جفوني. ويزيد من سوء الأمر إدراك أنني لمحت جثتها ليلة الأمس، بعد أن كدت أسقط من فوق سياج الشرفة.

نظرت إلى الأسفل ورأيت أشياء سوداء في الرمال ظننتها صخورًا لكني أعرف الآن أنها كانت ماري. ولا أستطيع التوقف عن التفكير في كم المدة التي قضتها هناك، وكيف كان بمقدوري - لو وعيت بما كنت أنظر إليه - أن أوفر عليها بضع ساعات أخرى من المذلة على الأقل. هذه المعرفة بأنني لم أتمكن من ذلك تصيبني بحزن شديد حتى إنني ألتقط أنفاسي بالكاد.

لكنني أرفض أن أدع المحقق ڤيك يرى أيًّا من ذلك. سأخرج عدْوًا من هذه الغرفة ولن أعود أبدًا قبل أن يحدث هذا.

أقول:

- فقط اطرح عليَّ أسئلتك.

- ما وظيفتكِ هنا في هوبز إند؟

على الرغم من أن زيي وتاريخي ينبغي أن يبوحا بها، فإنني أعطيه الإجابة:

- أنا مقدمة رعاية.

- ومن الذي تقدمين له الرعاية؟

أتردد، غير راغبة في إخباره لأنني أعرف أي نوع من ردود الأفعال ستستثيره

إجابتي. لعله سيبتسم ابتسامة متكلفة ساخرة. بل لعل المحقق ڤيك سيلقي نكتة عن ملاءمة أن تعتني قاتلة بقاتلة.

أخيرًا أقول:

- لينورا هوب.

إحقاقًا للحق، لم يبتسم السيد المحقق. لكنني ألاحظ ارتفاع حاجبيه قليلًا، بما يشير إلى دهشته.

- منذ متى وأنت تعتنين بها؟

- هذا هو يومي الثالث.

يرتفع حاجبا السيد المحقق مرة أخرى، أعلى هذه المرة، بينما يقول:

- أسبوع أول في العمل حافل بالأحداث.

هذا أقل وصف ممكن، في ضوء كل ما مررت به من أشياء منذ وصولي إلى هوبز إند.

- أنتِ أول من رأى الجثة، صحيح؟

أومئ برأسي إيماءة سريعة، محاوِلة مرة أخرى ألا أتخيل ماري التي تغطى أغلب جسدها بالرمال التي تراكمت عليها لأكثر من أسبوع. لعلها كانت ستُدفن بالكامل في غضون بضعة أسابيع أخرى. وربما أقل. أعرف أنه من الجيد العثور عليها قبل فوات الأوان، على الرغم من أنني أتمنى من كل قلبي لو لم أكن من عثرت عليها.

يقول المحقق ڤيك:

- احكي لي كيف حدث ذلك.

أحكي له بسرعة كيف كنت في الشرفة، أراقب النوارس، وأنظر من فوق حافة المنحدر، ثم رأيت ماري.

- لماذا كنتِ هناك في المقام الأول؟

يبدو أشبه بسؤال مفخخ، على الرغم من أنني أعرف أنه ليس كذلك. لكن الإجابة عنه بصراحة تعني الحديث عن أصوات غريبة وظلال تتحرك

حول غرفة لينورا. ومن المستحيل أن أمضي إلى ذلك الحد. أعطيه ردًّا ليس كاذبًا تمامًا:

- فقط لاستنشاق بعض الهواء النقي.

أرنو خارج النوافذ التي تواجه المحيط. في الخارج شرطيان يجوبان الشرفة في تراخٍ. أحدهما يذرعها جيئة وذهابًا، بعينين مصوبتين إلى الأرض. أما الآخر فينظر باستمرار من فوق السياج إلى الماء بالأسفل، على الرغم من أن جثة ماري رُفعت منذ أكثر من ساعتين. بسبب انحدار المنحدر، احتاجت الشرطة إلى مركب للوصول إليها. ثم اجتاح جيش صغير من الضباط ذلك الشاطئ الضيق واستخرجوا جثة ماري من الرمال قبل أن يغطيها المد من جديد.

- عمَّ يبحثون؟

- عن أي شيء قد يعطينا فكرة عما حدث.

- لكن ماري سقطت، أليس كذلك؟

أظل ناظرة إلى سياج الشرفة، مفكرة في كيف كدت أسقط من فوقه ليلة الأمس. يظل الهلع الخالص لتلك اللحظة حيًّا في ذاكرتي. الدهشة أولًا، ثم فقد السيطرة، ثم الخوف الخالص. أتخيل الشيء نفسه يحدث لماري. عثرة. انزلاق. سقوط طويل مريع. يجعلني هذا أجفل. تلك الفتاة المسكينة، المسكينة.

- إنه واحد من عدة احتمالات.

يقولها المحقق ڤيك بطريقة غير جازمة بما يجعلها تبدو كأنه لم يفكر إلا في احتمال واحد.

أتأمل وجهه، عديم التعبير حتى إنه قد يكون قناعًا. لقد رأيت تلك النظرة في عينيه من قبل. وأعرف أنها تعني أنه حسم أمره بالفعل.

أقول:

- أنت تعتقد أنها قفزت.

يبدو أكثر منطقية من السقوط، على الرغم من نجاتي القريبة منه. تبدو الشرفة، بسياجها المنخفض وقربها من حافة المنحدر، مصممة خصيصًا

للانتحار. من السهل جدًّا على أحدهم أن يتسلق السياج ويقفز تلك القفزة الأخيرة.

في ظل الظروف العادية، كنت سأفكر مرة أخرى في ماري ميلتون المسكينة، شاعرة بالحزن والأسف على امرأة دفعتها شياطينها الشخصية إلى إنهاء حياتها. لكنني الآن لا أستطيع التركيز إلا على أمي، امرأة أخرى دُفعت إلى الانتحار، وكيف رفض المحقق ڤيك أن يصدق أنها فعلت ذلك وحدها.

يرد عليَّ بالنبرة نفسها المثيرة للجنون:

- لا أريد أن أفترض أي افتراضات هذه المرة.
- لكنك لم تجد بأسًا في افتراضها عني.

وجدت تلك الافتراضات في النهاية طريقها إلى الجريدة المحلية، وتسببت في إيقافي عن العمل ستة أشهر، وكادت تلقي بي في السجن. جعلت أصدقائي القلائل يختفون، وأبي نفسه يظن فيَّ أسوأ الظنون. يجيش الغضب بداخلي، بسرعة شديدة ويستحيل حممًا بركانية، حتى أشعر بأنني على وشك الاندفاع من فوق الأريكة الصغيرة وعبور الغرفة كي أهجم على المحقق ڤيك. لا يبقيني في مكاني إلا ضبط النفس. أجلس عاقدة ذراعَي بإحكام، غير قادرة على النظر في عينيه. أخشى أن يثير النظر إليه حفيظتي مرة أخرى، وألا أتمكن من السيطرة عليها مرة أخرى.

شاعرًا بغضبي، يحاول المحقق ڤيك تهدئتي بقوله:

- هذا أكبر من مجرد افتراض، حسنًا؟ وُجدت رسالة في جيب ثوب الآنسة ميلتون الرسمي تشير إلى نيتها في قتل نفسها.

لا أسأله ماذا تقول. أولًا لأن هذا ليس من شأني، وثانيًا لأنني انشغلت تمامًا بالتساؤل حول كم كانت حياتي لتختلف الآن لو تركت أمي وراءها رسالة انتحار. أظن أنها كانت ستختلف كثيرًا، نظرًا إلى الكيفية التي يبدو بها أن أي رسالة هي كل ما يحتاج إليه المحقق ڤيك.

يقول:

- هل لديكِ فكرة عن أي سبب يجعل ماري ميلتون ترغب في قتل نفسها؟
- لا أعرف. لم أقابلها قَطُّ. رحلت قبل أن أصل إلى هنا.

أجفل وأنا أقولها. رحلت لها عدة معانٍ. منها ماتت، ومنها غابت، ومنها أيضًا غادرت المكان، على الرغم من أنه تبين أن ماري لم تغادره قَطُّ. كانت هنا طوال الوقت.

يجرب المحقق ڤيك تكتيكًا مختلفًا:

- هل تعتقدين أن العمل في هوبز إند أعجبها؟
- مما أخبرني به الآخرون، أعتقد أنه أعجبها.
- هل يعجبكِ العمل هنا؟

أخذني السؤال على حين غِرة. أتململ على الأريكة الصغيرة وأقول:

- أنا وصلت إلى هنا للتو.
- هذا لا يجيب عن السؤال. وهو سؤال بسيط. إما يعجبك العمل هنا وإما لا.
- يعجبني المكان هنا.

أقولها وأنا أبتسم ابتسامة مشدودة حتى لا يبدو الكذب الكامن في الجملة. لكن يتبين أنها غير ضرورية تمامًا.

- هذا ليس ما أخبرتِ به رب عملك.
- متى تكلمت مع مستر جرلين؟
- منذ خمس عشرة دقيقة. قبل أن أتحدث أنا وأنتِ، أردت أن أتأكد أنك بالفعل كيت ماكدير نفسها التي فكرت فيها. عندما تحدثت مع مستر جرلين، أخبرني بأنك أيضًا اتصلتِ به منذ وقت قصير.

يعاودني غضبي. قبل حتى أن يخطو خطوة في هذه الغرفة، عرف المحقق ڤيك أنني أعمل في هوبز إند، ومنذ متى وأنا هنا، وماذا تستلزم وظيفتي. يعرف أيضًا أنني طلبت من مستر جرلين مهمة جديدة قبل دقائق فقط من العثور على جثة ماري ميلتون. هذا الاستجواب بأكمله يبدو أشبه بفخ لإثبات عدم جدارتي بالثقة. فخ انسقت إليه تمامًا.

قد أفلت منه أيضًا، إن استطعت. لكن يجب أن أضع ماري في حسباني. على الرغم من أنني لم أعرفها من قبل، بدا أن كل من في هوبز إند أعجبوا بها. هذا وحده كافٍ ليجعلني أستمر في مواجهة المحقق ڤيك. ثم هناك حقيقة أن ماري كانت مقدمة رعاية زميلة. كانت مهتمة وراعية. وأدين لها بمحاولة المساعدة في فهم نهايتها التي أتت قبل الأوان. لكن كل هذا لا يعني أنني بحاجة إلى التساهل مع المحقق ڤيك.

- هل ستسألني عن شيء لا تعرفه بالفعل؟

- لا أعرف فقط لماذا كذبتِ عليَّ بشأن إعجابكِ بالعمل هنا.

- لأنني أريد المحافظة على عملي.

- على الرغم من ذلك، كما يقول مستر جرلين، طلبتِ مهمة جديدة؟

- أحتاج إلى الحفاظ على عملي.

أقولها وأنا أكز على أسناني بشدة إلى درجة أن فكي آلمني.

- هذا هو خياري الوحيد. والفضل لك.

ينفتح فم المحقق ڤيك كأنه يريد أن يقول شيئًا، لكنه يشعر بأنه لا يستطيع. في ذلك الغياب للكلمات، ليس بوسعي إلا أن أتساءل ترى ماذا كان يريد أن يقول. لا يبدو من المحتمل أن يكون اعتذارًا.

أخيرًا يقول:

- أخبرتِ مستر جرلين بأنك لست مرتاحة هنا. لماذا؟

- قُتل ثلاثة أشخاص هنا أيها المحقق. هل تشعر بالراحة لوجودك هنا؟

- نعم. لكن مرة أخرى، أنا معتاد على مسارح الجريمة. هل تعتقدين أن ماري لم تكن مرتاحة هنا؟

- في الحقيقة لا أعرف.

- لديكِ وظيفتها نفسها. بالتأكيد يمكنك أن تقدمي رؤية ما حول طبيعة العناية بلينورا هوب. كيف هي بوصفها مريضة؟

- لا بأس.

يقول المحقق ڤيك ضاغطًا:

- أي مشكلات؟

- فقط الآلام المتنامية المعتادة التي تحدث مع كل مريض.

إلى جانب سمعة لينورا المشينة، والأصوات في الليل، والحقيقة التي ما زالت غريبة في أنها زعمت أن أختها الميتة تتجول في غرفتها. لكن هذه مسائل من الأفضل تركها من دون أن نأتي على ذكرها. لطالما بحث المحقق ڤيك عن سبب كي لا يصدقني. ليست فكرة جيدة أن ألقي إليه بضعة أسباب أخرى، حتى لو جعله هذا يبدو محبطًا. أعتقد أن إجابتي هي ما توقع أن يسمعه بالضبط.

- لستِ مهتمة بأن لينورا هوب قد تكون هي الشخص الذي ارتكب جرائم القتل الثلاث تلك التي ذكرتِها؟

- لست قلقة من أنها ستقتلني، إذا كان هذا ما تسأل عنه.

يمط المحقق شفتيه. حركة ظريفة بشكل مدهش في وجه كساه التقدم في السن بالتجاعيد. يقول:

- لم يكن هذا سؤالي، لكن بما أنكِ أثرتِ المسألة، هل تعتقدين أن ماري كانت قلقة من ذلك؟

- ربما، لكني أشك في ذلك. لينورا لا ضرر منها.

أقولها مرددة ما أخبرني به كارتر يوم وصولي.

- هل تعتقدين أن ماري واجهت أي مشكلات مع لينورا؟ أو، في هذا الإطار، مع أي جانب آخر من جوانب العيش والعمل هنا؟

لقد تساءلت عن ذلك أنا نفسي، خصوصًا عندما فكرت في أن ماري رحلت فجأة في منتصف الليل. على الرغم من أن معرفتي الآن صارت أفضل، فإن هذا السؤال ظل يلح عليَّ. هل ثمة شيء يتعلق بهوبز إند - تاريخه، غرائبه، أصواته غير المعروفة هويتها - دفع ماري إلى القفز من الشرفة؟ أم تراه كان تاريخ وغرائب الشخص الذي كانت ترعاه؟ لا أستطيع إلا أن أفكر في شخص واحد قد يكون قادرًا على تقديم رؤية ما.

أقول:

- لست واثقة، لكنني أعرف شخصًا يعرف.

- من؟

أخيرًا، أتمكن من تقديم إجابة للمحقق فيك أعلم أنه لا يتوقعها:

- لينورا هوب.

١٩

أقود الطريق، مرشدة المحقق ڤيك في صعودنا الدرج الكبير.

أقول بطريقة جافة ونحن نصعد:

- احترس من بقع الدم.

أنحرف من حولها. يخطو المحقق ڤيك فوقها مباشرة، من دون أن يوسع ما بين ساقيه. يا لها من خيبة أمل! كنت آمل أن يأتي رد فعله مشابهًا لما فعلته عندما لاحظتها في المرة الأولى.

لكنني أحصل على رد فعل مُرضٍ على قمة الدرج. عندما يخطو المحقق على البسطة، يمد يده نحو الجدار على الفور ويقول:

- يا إلهي!

- المنزل مائل.

أقولها له كأنني هنا منذ سنوات وليس مجرد أيام.

- هل هذا آمن؟

- ربما لا.

- يا إلهي! لم تكن الحال هكذا آخر مرة لي هنا.

أتوقف في منتصف الرواق.

- ماذا تعني؟

- كنت أعمل هنا.

يبعد المحقق ڤيك يده عن الجدار، ثم يرجع عن قراره، ويعيدها مرة أخرى على ورق الجدران الأزرق.

- لمدة صيف واحد فقط، بالإضافة إلى عطلات نهاية الأسبوع في ربيع وخريف ذلك العام. كان السيد هوب يُشغِّل صبية من البلدة عندما يزدحم العمل في المنزل.

- متى كان هذا؟

- عام ١٩٢٩. أتذكر ذلك بسبب حوادث القتل.

- إذن أنت تعرف لينورا؟

- من بعيد فقط.

أعاود السير في الرواق من جديد، وأتحدث من فوق كتفي مع المحقق ڤيك الذي ما زال مترنحًا:

- ألهذا أصبحت محققًا؟

- لأنني قضيت صيفًا أعمل في مكان جرت فيه جريمة قتل ثلاثية؟

يقهقه المحقق ڤيك كما لو كان يجد الفكرة سخيفة.

- أستطيع أن أؤكد لكِ أن الأمر كان أكبر من ذلك. عمل المحقق نداء. إن العثور على الأشخاص الذين يفعلون أشياء شريرة وجعلهم يدفعون الثمن شيء يجري في دمائنا.

على الرغم من أنني أمشي أمامه، فإنني أعلم أن المحقق يرشقني بالخناجر. أستطيع أن أحس بنظرته تحرق مؤخرة عنقي. لا شك أنه يعتقد أنني شخص فعل شيئًا شريرًا وتمكن من الهرب.

مؤقتًا.

أنعطف يسارًا إلى داخل غرفة لينورا، حيث تجلس في كرسيها المتحرك، جهاز الووكمان في حجرها وسماعتَي الأذن على رأسها. يفزعها وصولي المفاجئ مع

رجل غريب. ترتعش يدها اليسرى على البطانية المفرودة فوق حجرها وتتسع عيناها الخضراوان.

لقد قضت أغلب اليوم مع آرشي أو مدام بيكر بينما كنت أنتظر في غرفة التشمس بالطابق الأرضي. وعلى الرغم من أنني لست واثقة من منهما أخبر لينورا بما حدث لماري، فمن الواضح أنها تعرف. بمجرد أن تخبو المفاجأة، تلتمع عيناها بالأسى.

في الخارج، كانت سحب العاصفة قد ازدادت دُكنة ووعيدًا، وغمرت غرفة النوم في ظلمة خانقة وتليق بالموقف في الوقت نفسه.

أقول لها وأنا أقترب من جانبها:

- لينورا، هذا هو المحقق ڤيك. يود أن يطرح عليكِ بعض الأسئلة عن ماري. هل هذا مناسب؟

تحدق لينورا إليه متشككة. تبدو مترددة بشدة إلى درجة أنني أتوقع أن تأتي استجابتها رافضة. أندهش عندما تدق مرتين على حجرها بعد بضع ثوانٍ أخرى من التأمل.

أشرح للمحقق ڤيك:

- دقتان يعني نعم، دقة واحدة يعني لا.

يومئ المحقق برأسه ويقترب من لينورا كما اقتربت منها أول مرة: برهبة مذهولة. من الطريقة التي كان يتكلم بها في غرفة التشمس، أشك في أن المحقق يعتقد أن لينورا مذنبة تمامًا. لكنه يركع إلى جوار كرسيها المتحرك على ساقين مهتزتين بسبب الأرضية المائلة ويقول:

- أهلًا لينورا. أنا آسف بشأن ماري. سمعت أنكما كنتما مقربتين.

بدلًا من أن تدق إجابتها، تومئ برأسها إيماءة بطيئة حزينة.

- إذن كنتِ تحبينها؟

تعود لينورا إلى الدق، دقتان سريعتان.

- وماري أحبتك؟

دقتان أخريان.

- كيف كانت بوصفها ممرضة؟

يهز المحقق ڤيك رأسه ويقول:

- آسف. لا طريقة لديكِ للإجابة عن ذلك.

- ثمة طريقة.

وأوجه كلامي إلى لينورا:

- هل تشعرين بالرغبة في كتابة إجاباتك على الآلة؟

وقبل أن تدق ردها، أدفع لينورا بكرسيها إلى المكتب وأُدخل ورقة جديدة في الآلة الكاتبة. أضع يدها اليسرى على المفاتيح وألتفت إلى المحقق ڤيك:

- لا تستطيع الكتابة على الآلة بسرعة شديدة، لذا حاول أن تسألها عن أشياء لا تتطلب إلا إجابات قصيرة.

- آه، أكيد.

يفرك المحقق يديه معًا مترددًا. في إمكاني فقط الظن بأن هذه هي المرة الأولى التي يستجوب فيها أحدًا عن طريق الآلة الكاتبة.

- لينورا، متى كانت آخر مرة رأيتِ فيها ماري؟

ترمش لينورا متحيرة.

أقول لها وأنا أحثها برفق:

- يريدكِ أن تكتبي إجابتك.

بدلًا من الدق على الآلة، تحدق لينورا إليها كأنها لم ترَ واحدة من قبل. ترفع يدها، وتحوم بها مترددة فوق المفاتيح قبل أن تنزلها مرة أخرى. تضرب قوة الهبوط مفتاحًا بشدة كافية لطبع حرف واحد واهٍ على الصفحة البيضاء.

هـ

أسألها:

- هل تحتاجين إلى مساعدتي؟

يغلي المحقق ڤيك بنفاد الصبر ويقول:

- هل توجد مشكلة؟

- لا أعرف.

أنظر إلى لينورا. وجهها الذي يكون في العادة معبرًا جدًّا، اتخذ هيئة خاوية محبطة. يخطر لي أن هذا أكثر مما تحتمل. موت ماري. حضور المحقق. كل أسئلته. أركع إلى جوارها، وأضع يدي على يدها وأقول:

- هل أنتِ أكثر انزعاجًا بسبب ماري من أن تستطيعي الكتابة؟

تحت كفي، تلوي لينورا يدها لتصنع قبضة تدق بها لوحة المفاتيح مرة واحدة.

- إذن لماذا لا تكتبين؟

يسألها المحقق ڤيك:

- هل تعرفين كيف تكتبين على الآلة؟

مرة أخرى، تدق لينورا مرة واحدة.

في الخارج، تضرب هبة ريح المنزل، لترجف الغرفة كلها، ونحن أيضًا فيها. تصفع قطرات المطر النوافذ بينما تعوي الريح.

لقد وصلت العاصفة.

ومعها تأتي رجفة أخرى. رجفة لا يشعر بها غيري. رعشة داخلية جلبها إدراك واحد.

لينورا تتظاهر.

يركع المحقق ڤيك عند الجانب الآخر من كرسيها المتحرك. يصوب نحوي نظرة منزعجة ويسأل لينورا:

- فقط كي نكون واضحين، هل تكذب الآنسة ماكدير بشأن قدرتكِ على الكتابة؟

هذه المرة، ترفع لينورا يدها وتدق على الآلة الكاتبة مرتين.

يسقط قلبي في جوفي وأقول:

- تستطيع. أقسم على ذلك.

أنظر إلى لينورا نظرة يائسة، كأنها تستطيع أن تؤكد ما قلته للتو بأي طريقة

أخرى غير الضغط فعليًا على واحد من حروف الآلة الكاتبة. لكنها لا تستطيع. ولن تفعل. لأسباب لا أفهمها.

بلغت العاصفة ذروتها الآن. ينسكب الماء على ألواح زجاج النوافذ، ملقيًا أشكالًا متماوجة على أرضية غرفة النوم. أراقبها غاضبة من لينورا التي جعلتني أبدو كاذبة، متسائلة لماذا تفعل ذلك، ومحاولة أن أفكر في طريقة ما تثبت أنني على حق. وعندئذ تخطر لي الفكرة. أقول:

- لقد كتبنا هذا الصباح. قبل أن أعثر على ماري. الورقة هنا على المكتب.

أفتِّش المكتب عن الورقة التي أعرف أنها كانت في الآلة الكاتبة عندما نزلت إلى الطابق الأرضي لأتصل بمستر جرلين. بل إنني أتذكر الكلمات التي كُتبت عليها - لينورا تخبرني بأن أختها الميتة كانت في الغرفة.

لكن الورقة ليست على المكتب.

ولا يبدو أنها موجودة في أي مكان.

- كانت هنا تمامًا.

أقولها وأنا أتفحص سطح مكتب لا يضم إلا آلة كاتبة ومصباحًا.

يقول المحقق ڤيك، ربما محاولًا أن يكون معاونًا لكن الجملة بدلًا من ذلك تخرج منه سمجة:

- لم تكن هناك ورقة في الآلة الكاتبة، هل أنتِ متأكدة أنك لم تتخيلي ذلك؟

- أنا متأكدة.

أبدأ في فتح أدراج المكتب، باحثة عن الورقة التي حملت اسم ڤرجينيا. ليست موجودة في أيٍّ منها. ولا على الأرضية. أنظر إلى لينورا وأقول:

- تعرفين أنها كانت موجودة.

تبقى يدها اليسرى فوق مفاتيح الآلة الكاتبة، بلا حراك وبلا فائدة كما يبدو.

- قولي له إنني لا أكذب يا لينورا.

أقولها وصوتي ينزلق بشكل خطير مقتربًا من التوسل الصريح:

- أرجوكِ.

ينهض المحقق ڤيك، ويمسك برسغي، ويسحبني إلى الرواق حانقًا.

- أهذه لعبة بالنسبة إليك يا كيت؟ لأنني لم أصدق كلمة مما قلتِه عن أمك، قررتِ أن تتلاعبي بي؟

- أنا لا أتلاعب بك. لينورا تعرف كيف تكتب على الآلة. قضينا أمس كله نفعل ذلك. كانت تخبرني بما حدث ليلة مقتل عائلتها. أعتقد أنها تخطط إما للاعتراف وإما لإخباري بمن فعلها حقًّا.

- هذا جنون يا كيت. المرأة يمكنها بالكاد أن تجلس معتدلة. هل تتوقعين مني حقًّا أن أصدق أن لينورا هوب تكتب قصة حياتها اللعينة؟

- لكنها الحقيقة!

يقول المحقق ڤيك وهو يقطر سخرية:

- طبعًا، فلنساير ذلك. لكن لماذا الآن؟ بعد كل هذه السنين، لماذا قررت أن تخبرك، من بين جميع الناس، بما جرى تلك الليلة؟

- لا أعرف. لكنها أخبرتني بأشياء.

تتعثر الكلمات خارجة في اندفاعة مجنونة، وقد بلغ مني اليأس مبلغه كي أجعل المحقق ڤيك يصدقني في أمر ما.

- عن الشهور السابقة على حوادث القتل. عن عائلتها. عن أختها. قالت إن شبح أختها كان في غرفتها.

- أنتِ لا تصدقين هذا، صحيح؟

- لا.

أقولها لأنني لا أصدق. ليس حقًّا. ليس بعد، على أي حال.

- لكنني أعتقد أن هذا المكان به شيء خطأ. إنه... ليس سليمًا.

يتقهقر المحقق ڤيك خطوة ويحدق إليَّ، ويتحول غضبه إلى شيء آخر. يبدو أشبه بالشفقة.

يقول بينما يسحب بطاقة عمل من جيبه ويضعها في يدي وهو يضغط بها على كفي:

- انتهينا من الكلام يا كيت. اتصلي بي إذا شعرتِ في أي وقت بالرغبة في قول الحقيقة.

ينطلق قاطعًا الرواق إلى الدرج الكبير. أعود إلى غرفة لينورا. رؤيتها عند المكتب، وهي الآن في وضع استعداد تام للكتابة على الآلة، تجعلني أخالف إحدى القواعد الأساسية للعاملين في وكالة جرلين لمقدمي الرعاية الصحية المنزلية: ممنوع السباب في وجه المرضى.

- عمَّ كان كل ذلك الكذب العاهر؟

تومئ لينورا لي كي أقترب منها، وهي تنضح بصبر يليق بقديسة. ثم تنقر كلمتين.

أنا آسفة

- ينبغي أن تكوني آسفة. جعلتني أبدو أشبه بكاذبة خالصة أمام المحقق.

كنت مضطرة

- لماذا؟

لا بد أن يكون سرًا

- معرفتكِ كيف تكتبين على الآلة يجب أن تكون سرًّا؟ ممن؟

الجميع

كان من الجيد أن أعرف ذلك قبل أن أدعو المحقق ڤيك إلى الصعود إلى غرفتها. والآن بعد أن عرفت - والآن بعد أن دمرت تمامًا أي فرصة لي معه كي يصدق أي شيء يصدر مني - أشعر بضرورة أن أطرح عليها الأسئلة نفسها التي أعتقد أنه كان سيطرحها عليها.

- هل أخبرتكِ ماري بأنها سترحل؟

تدق لينورا مرة واحدة على لوحة المفاتيح.

- آخر مرة رأيتها فيها، كيف كانت تتصرف؟

تبدأ لينورا في النقر، تتوقف كي تفكر قليلًا، ثم تعاود الكتابة من جديد. والناتج كلمة عبارة عن هجين عجيب.

غريصبية

أتفحص الكلمة، التي تمثل خلاصة دقيقة جدًّا لحالتي الحالية.

- أيهما تكون؟ غريبة أم عصبية؟

تكتب لينورا.

الاثنتان

- هل كانت تتصرف بهذا الشكل لفترة؟

تدق لينورا لوحة المفاتيح مرتين. نعم.

- هل ذكرت ماري سماعها أصواتًا غريبة في الليل؟

تدق على لوحة المفاتيح دقتين أخريين. نعم أخرى.

تخطر على بالي ذكرى ما قالته جيسي لي في أولى لياليَّ هنا.

أعتقد أنها كانت خائفة. هوبز إند ليس منزلًا عاديًّا. ثمة عتمة هنا. أستطيع الشعور بها. وشعرت بها ماري.

على الرغم من أن جيسي أكدت لي أنها كانت مزحة، فإنني الآن أبدأ في الاعتقاد بأنها لم تكن. ليس تمامًا.

أقول:

- هل تعلمين إن اكتشفت ماري ماذا كانت هذه الأصوات؟

بدلًا من الدق، تكتب لينورا إجابتها.

لا

- وهذا ما جعلها غريبة وعصبية؟

تدق لينورا كلمة أخرى.

وخائفة

يضطرب قلبي في صدري. إذن الأمر صحيح. ربما علمت جيسي به لأن ماري أخبرتها أو ربما ارتابت فقط بطريقة لا واعية في أن شيئًا ما خطأ. في كلتا الحالتين، لن تتغير حقيقة أن شيئًا ما في هوبز إند أخاف ماري ميلتون.

- ممَّ كانت خائفة يا لينورا؟

أراقب يد لينورا وهي تنزلق على لوحة المفاتيح بطريقة مشابهة للمؤشر على لوح ويجا الخاص بجيسي. ستة مفاتيح وضغطة على شريط المسافة بينها، أرى الإجابة التي كنت أتوقعها طوال الوقت.

من أختي

عرفت أختي أنني واقعة في الحب. بمقدور الأخوات أن يعرفن هذه الأشياء. حتى هؤلاء اللاتي لا يتوافقن أبدًا، وهي بالتأكيد الحال بالنسبة إلينا نحن الاثنتين.

سألتني في إحدى هذه المناسبات النادرة التي وجدنا أنفسنا خلالها في الغرفة نفسها في الوقت نفسه:

- من يكون؟

في العادة كنا نتمكن من الابتعاد إحدانا عن الأخرى. لكن تلك الليلة اختارت كلتانا أن تشغل نفسها بالقراءة في المكتبة.

- لا أعرف من تشيرين إليه.

أجبتها وأنا جالسة بالقرب من المدفأة، أقرأ إحدى روايات أمي الرومانسية التي كنت أجدها عادة غير جديرة بي. أردت أن أكتب أدبًا جادًّا وفي العادة كنت أقرأ ذلك فقط. لكنني بدأت أحس بإحساس مختلف بمجرد وقوعي في حب ريكي.

وكان حبًّا.

حب من أول نظرة، لو استخدمنا الكليشيه المعروف. لكنه في حالتي كان صحيحًا. عرفت لحظة رؤيتي لريكي أنني أعشقه. كان من المستحيل ألا أشعر

بذلك الشعور. ليس فقط لأنه كان أوسم رجل رأيته في حياتي، لكن لأنه فهمني كما لم يفهمني أحد غيره. استطعت أن أميز ذلك من الطريقة التي نظر إليَّ بها. لم يرَ ابنة رجل ثري مدللة، تقنع بالغزل وتخطر متعثرة في الفساتين الجميلة. رأى شابة ذكية لديها آمال وأحلام وطموح.

رأى الشخص الذي أردت أنا نفسي أن أكونه.

قال لي تلك الليلة الأولى، بعد أن قضينا ساعة نتكلم في الشرفة:

- أنت مختلفة بشدة عن بقية عائلتك.

- أتمنى أن أكون مختلفة بشكل جيد.

- بشكل رائع.

تركته يقبلني عندئذ. أول قبلة لي. كانت اعظم مما حلمت أنها يمكن أن تكون. عندما لامست شفتاه شفتي، بدا كأن وجودي بأكمله يتفجر مثل ألعاب نارية، ساطعة ومتلألئة وشديدة السخونة.

تراجعت مبتعدة عنه، مقطوعة الأنفاس وقد تورد وجهي. اعتقدت للحظة أنه سيغمى عليَّ. ملت إلى سياج الشرفة دائخة. لعلِّي كنت سأسقط من فوقه لو لم يمسك بي ريكي بين ذراعيه ويهمس:

- متى أستطيع أن أراك مرة أخرى؟

همست له بدوري:

- ليلة الغد، هنا.

كأنني جولييت وهو روميو، نتلاقى عند شرفتي.

مر أسبوعان بعد ذلك، التقينا فيهما كل ليلة. كنا نلتقي في الشرفة وننطلق إلى مكان ما حيث لا يستطيع أحد العثور علينا. عندما كنا معًا، كان العالم يتلاشى، ويتحول كل شيء إلى نعيم خالص. وعندما كنا نفترق، كان هو كل ما أفكر فيه، وأحلم به، وأهتم به.

تبادلنا القبلات مرة أخرى ليلة لقائنا الثانية، من دون قيود هذه المرة. كنا بالقرب من الكوخ، مختفيين في ظله تقريبًا، يحكي أحدنا للآخر أحلامه وخيباته.

أخبرت ريكي عن رغبتي في الهروب إلى باريس، والعيش مثل البوهيميين، وتجربة كل شيء والكتابة عنه بعد ذلك.

أخبرني ريكي كيف جاء إلى العمل هنا بعد أن خاض أوقاتًا قاسية وواجه حظًّا عاثرًا. قال:

- أسرتي فقيرة «دقة».

مستخدمًا تعبيرًا عاميًّا صدمني، وفي الوقت نفسه أطربتني فجاجته.

- ماتت أمي عندما ولدتني. وأبي سكير حقير كان يضربني بدلًا من أن يعمل. عرفت بسرعة أن الدراسة بلا جدوى. المال يهزم المعرفة في كل مرة. وبما أنني ماهر في استخدام يدي، جئت إلى هنا.

تنهد وتطلع إلى السماء وقال:

- يمكنني أن أقول لك إنني أريد أكثر من ذلك. شيء محطم ألا تعيشي الحياة التي من المفترض أن تعيشيها. هذا يسحق الواحد منا تحت ثقله.

حاولت أن أخفف ذلك الثقل بالطريقة الوحيدة التي كنت أعرفها؛ بالسماح لريكي بأن يلف ذراعيه المفتولتين حول خصري، ويشدني إليه، ويقبلني بقدر ما يريد من شغف.

كنا ما زلنا نتبادل القبلات عندما سمعت حفيف خطوات في العشب. كانت برنيس، عائدة إلى الكوخ بعد أن انتهت من واجباتها في المطبخ. انفلت مبتعدة عنه وهربت قبل أن تمسك بنا. لكن تلك النجاة التي حدثت بأعجوبة لم تغير أي شيء. كنت أعرف أن ما أفعله أنا وريكي خطأ. لكني لم أبالِ. اشتقت إلى الألعاب النارية التي تطلقها قبلته. كنت بحاجة إليها.

ازددنا جرأة مع كل لقاء. قبلات ولمسات واستكشاف. في الليلة الثالثة، عندما وضع ريكي يده عليَّ، تركتها لتبقى هناك. في الليلة الرابعة... سأوفر عليك التفاصيل الفاضحة، لكن الأمر تطور على ذلك النحو إلى أن سمحت لريكي، بعد أسبوع واحد بالضبط من ليلة لقائنا، بفض بكارتي.

عندما انتهى الأمر، رقدت بين ذراعيه وهمست له:

- أحبك.

ابتسم ريكي ابتسامة عريضة وقال:

- أحبك أيضًا.

في تلك اللحظة، صرت امرأة. وأظن أن ذلك كان هو التغيير الذي رأته أختي فيَّ تلك الليلة في المكتبة.

قالت:

- أنت مهووسة على نحو واضح بشخص ما، وأعرف من يكون.

تطلعت إليها من وراء كتابي، وقد شللت من القلق. هل رأتنا برنيس؟ هل عرفت؟ هل هي الآن تخبر الآخرين؟

- ماذا سمعت؟

- لا شيء. لكن من الواضح أنك واقعة في حب ارشيبالد.

جاهدت كي لا أضحك بينما الارتياح يغمرني. ثمة اشياء كثيرة منعتني أنا وآرشي من أن نكون معًا، أولها حقيقة أنه بدا لي أقرب إلى أخ أكثر مما كانت عليه أختي. قلت:

- إنه ليس آرشي.

- لا تخبريني بأنك ما زلت تحملين عاطفة تجاه بيتر. هذا شيء لا أمل فيه. ليس مهتمًا بك.

- ولا بك.

- سيغير رأيه. أنا موقنة من هذا. ثم سنتزوج ونقضي بقية أيامنا هنا.

- في هوبز إند؟

فردت أختي ذراعيها على اتساعهما، كأنها تحاول أن تضم المنزل نفسه، وقالت:

- بالطبع. لن أغادر هذا المكان أبدًا.

- لكن هناك عالمًا كاملًا في الخارج لم تريه بعد. أنا، مثلًا، أنوي أن أستكشف منه قدر استطاعتي.

- مع فتاك السري؟

وابتسمت أختي لي، ابتسامة رأيتها كثيرًا إلى درجة أنها نادرًا ما أوضحت مقدار الشر الذي يمكن أن تكون عليه. لم تحتوِ ابتسامتها على فكاهة أو دفء. كانت باردة وماكرة مثل صاحبتها.

- ينبغي لك فقط أن تخبريني من يكون الآن. أنت تعلمين أنني سأعرف في لحظة ما.

في النهاية، كانت على حق.

عرفت في النهاية، وسرعان ما تلت ذلك الكارثة.

على الأقل نالت أمنيتها أيضًا. بعد كل هذه السنين، ما زالت هنا، تتجول في الأروقة. ولن ترحل أبدًا.

ما دام هوبز إند لا يزال قائمًا، فستبقى أختي.

٢٠

يدهشني الطابق الثالث في هوبز إند. على الرغم من أن كل شيء يبدو مطابقًا، باستثناء قمة الدرج الكبير في الوسط، فإنه يبدو مختلفًا تمامًا. هنا، ميل المنزل أوضح. شيء مرئي وليس محسوسًا فقط. النظر إلى الرواق من أعلى سلم الخدم يشبه أن تكون في قلب سفينة مائلة إلى جنبها.

لا عجب أن يختار كارتر الإقامة في الكوخ. لا أعرف كيف تستطيع جيسي أن تعيش هنا هي وآرشي. أنطلق سائرة في الرواق، مشوشة الذهن قليلًا. تصرُّ ألواح الأرضية تحت قدمَي بينما يأتي من فوقي صوت المطر المدرار وهو يرتطم بالسطح. إلى الأمام ثمة باب مفتوح يفيض بالنور والموسيقى.

أظنها غرفة جيسي.

أشك في أن آرشي يستمع إلى أغاني فرقة توكينج هيدز.

تثبت صحة حدسي عندما أطل برأسي داخل الغرفة وأراها جالسة متربعة الساقين على الأرضية، تصنف كومة من الصور الفورية. أقول:

- مرحبًا، كيف حالك؟

سؤال بلا معنى. من الواضح لكل ذي عينين أن جيسي ليست على ما يرام. ترفع ناظريها عن الصور، كاشفة عن خطوط في مكياجها خلفتها دموع ذرفتها منذ قليل. تقول:

- خراء.

أدخل الغرفة، مندهشة من قدر اختلافها عن غرفتي. على الرغم من تطابقهما في الشكل والحجم تقريبًا، جعلت جيسي من غرفتها شيئًا خاصًّا بها حقًّا. الجدران مغطاة بملصقات الفرق الموسيقية، بعضها مألوف لديَّ، وأغلبها لم أسمع به من قبل. أُلقي وشاح حريري على واحدة من قبعات الأباجورات، ليمنح الغرفة وهجًا أحمر خافتًا يذكرني بزر استدعاء لينورا. بالقرب من الباب، السقف في ارتفاع عادي. لكن على الجانب الآخر من الغرفة، يميل بشكل بالغ نحو النوافذ الناتئة من الجدار إلى الخارج، إحداها مفتوحة يدخل منها صوت المطر المنهمر ليمثل صحبة مناسبة لدموع جيسي.

تقول وهي ترفع إحدى الصور:

- لا أستطيع تصديق أن ماري رحلت.

أنضم إليها على الأرضية وآخذ الصورة من يدها. تُظهرها هي وماري في الشرفة، خلفهما سحب كثيفة عالقة في السماء والريح تُطيِّر شعريهما. إنها أول مرة أرى فيها ماري - ما كان مدفونًا أغلبه تحت الرمال عند سفح المنحدر لا يُؤخذ في الحسبان - ويصدمني كم كانت شابة. ما زالت في العشرينيات من عمرها، كما يبدو. وتبدو مألوفة جدًّا لي إلى حدٍّ يعتصر قلبي. ابتسامة مشرقة، قصة شعر معقولة، قرطان ذهبيان كمسمارين صغيرين في أذنيها، لأن أي شيء فيه مبالغة أكبر سيخالف طبيعة الوظيفة. مقدمة رعاية بكل معنى الكلمة. بمقدوري أن أفهم لماذا بدا أن الجميع يحبونها. أعتقد أنني كنت لأحبها أيضًا.

تقول جيسي:

- كنت متأكدة أنها لا يمكن أن ترحل على ذلك النحو. لن ترحل من دون أن تودعني أو تخبرني إلى أين ستذهب.

- لماذا اعتقدتِ أنها رحلت أصلًا؟

- لأن هذا ما أخبرتنا به مدام بيكر.

- ولماذا اعتقدت هي هذا؟

- أظن لأنه هكذا بدا الأمر. كان ينبغي ألا أصدق ذلك. لم يكن الرحيل بهذه الطريقة من شيم ماري. ولا الانتحار. لا يهمني ما يقوله ذلك المحقق. ماري لم تقتل نفسها.

- أحيانًا يفعل الناس أشياء لا تتوقعينها.

أقولها وأنا أفكر في أمي والطريقة التي أنهت بها المسألة. بلا وداع. بلا رسالة. بلا ختام. أفتقدها، لكنني أيضًا غاضبة منها لتركها إياي وأبي وحدنا نلملم ما انكسر. وهو الشيء الذي تبين أننا لا نستطيع أن نفعله.

- ربما كان هناك شيء خطأ لم يعرف أحد به.

- مثل ماذا؟

مثل أن يعذبها شبح ڤرجينيا هوب، بادئ ذي بدء. لكني لا أريد أن أطرق هذا الباب الآن. ينبغي أن أتعامل مع الموضوع بهدوء. هذا إذا كان ذلك الشيء ممكنًا.

- كيف تصرفت ماري آخر مرة رأيتها فيها؟

تنشج جيسي وتمسح خديها بظهر كفها، محولة خطوط الكحل على وجهها إلى لطخات جانبية.

- تبدين أشبه بذلك المحقق.

- ماذا أخبرته؟

- أن ماري بدت بخير.

تلتقط جيسي صورة أخرى وتحدق إليها وهي تضيف باقتضاب وهدوء:

- على الرغم من أن هذا لم يكن صحيحًا تمامًا.

- هل بدا أن هناك مشكلة؟

تومئ برأسها، وتلقي الصورة على الأرضية، ثم تلتقط واحدة أخرى، وتريها لي. إنها ماري في رواق الطابق الثاني، وبياض زيها - ربما يكون الزي الذي أرتديه الآن - نقيض تام لمحيطها الداكن.

- لماذا لم تخبري المحقق؟

تقول جيسي وهي تهز كتفيها:

- لا أعرف. أظن أنني كنت أحاول حماية ماري.

دافع أفهمه جيدًا. حتى بعد موتها، كنت أشعر بالحاجة إلى حماية أمي. لهذا، في البداية، طرحت فكرة أنها لم تكن لديها فكرة عن عدد الأقراص التي تتناولها. أن جرعتها الزائدة كانت حادثة عارضة، على الرغم من أن الجميع كانوا يعرفون أنها ليست كذلك. أدرك أخيرًا أنني بدلًا من حمايتها، كنت أتشبث بفكرة أنها لم تكن لتتركني أنا وأبي بالطريقة التي تركتنا بها. ليس عن اختيار.

- أفضل طريقة لمساعدة ماري الآن هي اكتشاف ما حدث بالضبط.

- سقطت. هذا هو التفسير الوحيد.

لقد سمعت هذه النبرة من أبي قبل ذلك. تلك الثقة المترددة.

مايقولونه ليس صحيحًا يا كيت كات.

- ربما لا. خصوصًا إذا كانت ماري تتصرف بشكل غريب أو عصبي.

أقولها مستخدمة عن عمد الكلمتين اللتين أدغمتهما لينورا في كلمة واحدة.

تتجاوزني نظرة جيسي إلى الجدار محدقة إلى ملصق لفرقة يورتيميكس يبادلها ثنائي الفرقة فيه التحديق بدورهما، وتقول:

- لماذا أنتِ مهتمة إلى هذا الحد بما حدث؟ أنتِ حتى لم تعرفي ماري.

لا، لم أعرفها. لكنني من وجدتها. أنا من أطرقت ناظرة، ورأيت جسدها الميت، وصرخت صرخة عالية تردد صداها منعكسًا من ظهر المنزل. أنا التي أخشى الآن أنني سأرى جثتها المغطاة بالرمال في كوابيسي الليلة.

لكن هذا ليس مصدر قلقي الوحيد. قلقي الأساسي - القلق الذي قد يمنعني من النوم أصلًا - هو أن ما حدث لماري يمكن أن يحدث لي، تصوُّر يتسم في الوقت نفسه بجنون شك كامل وعقلانية تامة. لدينا الوظيفة نفسها، وغرفة النوم نفسها، وحتى الزي نفسه. إذا كان شيء ما يتعلق بهذه الوظيفة أدى إلى موت ماري، فأود فعلًا أن أتجنب مصيرًا مشابهًا.

- هل ذكرت ماري سماعها أصواتًا غريبة في الليل؟ صادرة عن غرفة لينورا؟ أو رؤية أشياء؟

تقول جيسي:

- لا. هل حدث ذلك لكِ؟

لا أجيبها، وهي إجابة في حد ذاتها. أحيانًا عدم قول «لا» يعني نعم.

- تلك الليلة، أخبرتني بأن ماري كانت خائفة من هذا المكان.

- كنت أمزح.

- هكذا قلتِ...

وأسكت قليلًا.

- لكنني أعتقد أنه قد تكون في جملتك بعض الحقيقة.

على الرغم من أن جيسي تبدأ في الرد بهزة من رأسها، فإن رأسها سرعان ما يغير الاتجاه، منحرفًا إلى أعلى في إيماءة مترددة. تزيد الطين بلة بقولها:

- ربما. لم أعد أعرف.

- هل قالت ماري بصراحة إنها خائفة؟

- نعم، لكن بدا الأمر في الحقيقة أشبه بمزحة. كنت أنا وهي نتمازح حولها طوال الوقت. أشياء غبية مثل: «رأيت ڤرجينيا في الرواق للتو. تبلغك السلام». أشياء غبية كهذه للترويح عن النفس. يعلم الله أن هذا المكان يحتاج إلى ذلك. لكن بعد ذلك توقفت ماري عن المزاح.

أميل إليها بفضول وأسألها:

- متى كان هذا؟

- منذ بضعة أسابيع. كنت ألقي أي مزحة عن ڤرجينيا أو ونستون هوب فتهز ماري رأسها وتبدو كأنها تود أن تقول: «لا تقولي أشياء مثل هذه». أصبحت جادة فعلًا في كل شيء. كأنها كانت خائفة فعليًّا.

- من ڤرجينيا؟

أقولها وأنا أفكر في الأشياء التي كتبتها لينورا. أن ڤرجينيا كانت في غرفتها، وأن ماري كانت خائفة منها.

- ربما؟

تعاود جيسي الانتباه إلى الصور على الأرضية. كلها مكشوفة، دستة صور لماري تفردها جيسي حولها كأنها قارئة أوراق تاروت.

- أعلم أنني أجعل الأمر يبدو كأن ماري كانت فتاة خوَّافة غريبة. لكنها لم تكن. لا أعتقد أنها كانت تؤمن بالأشباح. لكن...

أقول بإلحاح:

- لكن ماذا؟

- بدا كأن شيئًا ما يروعها. لا أعرف ما هو. ربما رأت فعلًا شبح ڤرجينيا هوب. أو ربما هي فقط لم ترد أن تمزح بشأنه أكثر من ذلك. ربما لأنها كانت تقضي الكثير من الوقت مع لينورا.

- هذا جزء من طبيعة العمل. الرعاية المستمرة.

- لكني أتكلم عن الكثير من الوقت فعلًا. ربما ظنت أن المزاح قلة احترام أو شيء من هذا القبيل.

- هل ذكرت ماري شخصًا يُدعى ريكاردو مايهيو؟

تلوي جيسي وجهها وتقول:

- من؟

- كان يعمل هنا. أخبرني كارتر عنه.

- لم أسمع قَطُّ بهذا الشخص. وإذا كانت ماري قد عرفت من يكون، فهي لم تخبرني قَطُّ. ولا أعرف لماذا لم تفعل. أخبرتني بكل شيء آخر عن هذا المكان. ربما كانت تعرف عن حوادث قتل عائلة هوب أكثر من أي إنسان ما عدا لينورا.

تلفت انتباهي صورة معينة في كومة الصور. التُقطت في غرفة لينورا، وتُظهر لينورا وماري عند المكتب. لينورا في كرسيها المتحرك، منحنية على الآلة الكاتبة. ماري خلفها، مائلة إليها بشدة. منظر مألوف بشدة إلى درجة أنه يُشعرني بوخزة.

ألتقطها وأريها لجيسي:

- متى التُقطت هذه؟

- منذ أسبوعين أو ثلاثة.

تلتقط جيسي الصورة من أصابعي وتضعها في الترتيب مع الأخريات.

- كانتا تكتبان على الآلة دائمًا.

- هل تعرفين ماذا كانتا تكتبان؟

- لم تخبرني ماري قَطُّ.

تقولها جيسي وهي تنهض وتعبر الغرفة إلى خزانتها حيث تلقي بالصور داخل الدرج العلوي.

- في البداية اعتقدت أنه نوع من العلاج الطبيعي. أعني العمل على مهارات لينورا الحركية. لكنهما كانتا هناك طوال الوقت. أحيانًا حتى بعد أن يكون من المفترض أن تأوي لينورا إلى الفراش.

تتحرك إلى جهاز تسجيل يستقر على الخزانة بجوار نسخة بغلاف مقوى من رواية دانتيل على كعبها ملصق مكتبة. تُخرج شريط كاسيت من التسجيل وتناوله لي قائلة:

- هذا من أجل لينورا. الجزء الأول من الكتاب الجديد. عساه يبعد ذهنها عن كل شيء.

- أشكرك.

أضع الشريط في جيبي وأتوجه نحو الباب. قبل المغادرة، ألتفت إلى جيسي وأقول:

- هل عرف أي شخص آخر بأمر الكتابة على الآلة؟

- لا أعتقد ذلك. أعرف فقط لأنني دخلت عليهما فجأة ذات ليلة. اعتقدت أنها ستكون صورة لطيفة، لذا وقفت في مدخل الغرفة والتقطتها قبل أن تدركا أنني موجودة. فزعت ماري من ذلك نوعًا ما. وجعلتني أقسم ألا أخبر أحدًا. ربما لم يكن ينبغي حتى أن أخبرك.

لكني سعيدة لأنها أخبرتني.

لأنني أعرف الآن لماذا كانت ماري تعرف الكثير عن عائلة هوب وعما جرى تلك الليلة.

لقد أخبرتها لينورا.

أرى تلك النظرة التي ترمقينني بها. أنا أكثر ملاحظة مما يعتقد الناس. وفي هذه اللحظة أستطيع أن أقول إنك تعتقدين أنه لن يروق لك إلى أين سيؤدي كل هذا.

لن يروق لك.

لكنني وعدت بأن أخبرك بكل شيء، وهذا ما أقدمه لك. أعمق أسراري وأكثرها سوادًا. أشياء لم أخبر بها أحدًا من قبل.

أنت فقط يا ماري.

أنت فقط.

٢١

تستقر أصابع يد لينورا اليسرى على الآلة الكاتبة، ساكنة على غير العادة. في الظروف العادية، كانت ستنزلق من مفتاح إلى مفتاح، ببطء لكن بثقة تضيف الكلمات إلى الورقة البيضاء التي أدخلتها في عربة الآلة.

لكن الظروف الحالية يمكن وصفها بأي شيء إلا أنها عادية.

خيم الحزن والحداد على المنزل الآن بعد أن غادر رجال الشرطة. المكان هادئ والمزاج كئيب. رحلت واحدة من سكان هوبز إند، وعلى الرغم من أنني لم أعرف ماري ميلتون قَطُّ، فإنني أشعر بخسارتها مع ذلك. كنا متشابهتين في نواحٍ عديدة. أكثر مما كان بمقدوري أن أتخيل.

لذلك أخذت لينورا إلى الآلة الكاتبة بعد العشاء بدلًا من مساعدتها في أداء تمارين تنشيط دورتها الدموية. مخالفة أعلم أن مدام بيكر لم تكن لتقبلها. أقف بجوار لينورا، أحتضن نفسي على الرغم من السترة الصوفية الرمادية الملقاة على زيي الرسمي. على الرغم من أن العاصفة مرت، فإنها تركت خلفها برودة رطبة تتسرب عبر النوافذ، مانحة غرفتها ذلك الهواء الراجف الذي يليق بسفينة أشباح.

بعد ضبط كل شيء، أرى كيف استقرت على المكتب إلى جوار الآلة الكاتبة تلك الورقة التي كتبتها لينورا من قبل. تلفت انتباهي كلمتان.

من أختي

- لماذا كذبتِ عليَّ بشأن خوف ماري من أختك؟

تتطلع لينورا إليَّ، والقلق يومض في عينيها الخضراوين. ثم تكتب.

لم تكن كذبة

- أختك ميتة يا لينورا.

أقولها وأنا أحبِّك سترتي الصوفية حول جسدي.

- ولا وجود للأشباح. لذلك سيكون عليكِ أن تجدي حيلة أفضل من هذه كي تخفي حقيقة أنكِ وماري قضيتما الكثير من الوقت تكتبان على الآلة.

لا تستطيع لينورا أن تخفي دهشتها. تحاول، لكن وجهها المعبر يفضحها. ثمة انحراف في شفتيها ورفة في عينها اليمنى، كأنها تعمل جاهدة كي تمنعها من الاتساع.

- كنتِ تخبرينها بقصتك، أليس كذلك؟

تدق لينورا مرتين على الآلة الكاتبة. ومعهما تأتي وخزة من خيبة الأمل بأنني لم أكن الشخص الوحيد الذي وثقت به بما يكفي لإخباره بالحكاية. ظننت أنني مميزة، وأن هناك سببًا معينًا وراء اختيار لينورا لي. والآن لا أعرف لماذا تفعل هذا.

- لماذا لم تخبريني؟ أو تخبري المحقق فيك؟

تنقر لينورا المفاتيح ببطء.

كان لا بد أن يبقى سرًا

- من قرر ذلك؟ أنتِ أم ماري؟

ماري

- ولمن كانت فكرة البدء في كتابة قصتك؟

وبدلًا من الإشارة إليَّ كي أضرب شريط العودة، تكتب لينورا اسم ماري مرة ثانية، لتلتضمه بالاسم الأول.

ماريماري

لست مندهشة، باعتبار أن جيسي أخبرتني بأن ماري كانت مهووسة بمذبحة عائلة هوب. قالت إن هذا قد يكون السبب في قبول ماري لمهمة العناية

بلينورا. إذا كان هذا صحيحًا، فمن المنطقي أن ترغب في سماع نسخة لينورا من الحكاية.

- لهذا اشترت الآلة الكاتبة، أليس كذلك؟ أرادتك أن تكتبي كل شيء من أجلها.

تستتبع هذا دقتان أخريان من لينورا.

- هل أردتِ ذلك؟

تفكر لينورا في الأمر لحظة، ويتخذ وجهها ذلك التعبير المتأمل الذي صرت أعرفه جيدًا. عندما تكتب، تكون استجابتها من التشويش بقدر ما أتخيل أن أفكارها عليه. دليل آخر على أن ما كتبته معي كُتب كله من قبل. بمعنى أنه مسودة ثانية.

ليس في البداية لم أرغب في الحديث عما حدث لأن الذكريات تجعلني حزينة لكنني أحببت فكرة الكتابة مرة أخرى لذا قلت لها نعم

- لكَم من الوقت ظللتما تعملان على ذلك؟

أسابيع

على الرغم من أنني واثقة من معرفة الإجابة، أسألها:

- إذن ما كتبتِهِ معي، كتبته أيضًا معها؟

تدق لينورا مرتين قبل أن تكتب معلومة إضافية.

وأكثر

- أكثر إلى أي حد؟ عنك وعن ريكي؟

تستمر لينورا في النقر. خمسة مفاتيح تضغطها ببطء وإمعان، لتوضح أهمية ردها.

كل شيء

- متى انتهيت من إخبارها؟

لا تحتاج لينورا إلى التفكير في السؤال.

الليلة التي رحلت فيها

يهوي قلبي في جوفي. عرفت ماري كل شيء عن ليلة القتل - بما في ذلك من فعلها، وكيف فعلها، ولماذا فعلها. وفي اليوم الذي عرفت فيه كل ذلك...

قفزت.

هذا ما ينبغي أن أعتقد، بما أن هذا ما قال المحقق ڤيك إنه حدث. لكنني أحس أنه خطأ. كأنه كذبة. بدلًا من ذلك، تتردد كلمة أخرى في عقلي.

ماتت.

تلك هي الحقيقة القاسية.

ولا يمكن أن تكون مصادفة.

- هل أخبرتكِ ماري يومًا لماذا يجب أن يكون الأمر سرًّا؟

تكتب لينورا بدلًا من الدقات.

نعم

ثم تضيف كلمتين أخريين إلى السطر.

كانت خائفة

ألقي نظرة أخرى على الورقة إلى جوار الآلة الكاتبة، التي كتبت عليها لينورا الإجابة نفسها لسؤال مختلف. وبينما أفعل ذلك، تخطر لي فكرة. شيء كان ينبغي لي أن أضعه في حسباني قبل ذلك، لكنني على الأرجح كنت أكثر خوفًا أنا نفسي من التأمل فيه. لكن الآن، لا مفر منه.

- لينورا، هل اعتقدت حقًّا أن ماري رحلت؟

أتفحص وجهها؛ مفتاح كل مشاعرها. حتى المشاعر التي تحاول إخفاءها. لكن هذه المرة لا تحاول حتى أن تداري ما تشعر به. يغيم الحزن على ملامحها وهي تدق مرة واحدة على الآلة الكاتبة.

لا.

- اعتقدتِ أنها قفزت؟

دقة واحدة أخرى. دقة ترفع نبض قلبي درجة.

- هل...؟

وأبتلع ريقي. لا يستطيع فمي، الذي جف فجأة من الخوف، أن ينطق الكلمة.

- هل تعتقدين أن ما جرى لماري كان بسبب ما أخبرتِها به؟

دقتان من لينورا تؤكدان أسوأ مخاوفي.

هي تعتقد أن ماري قُتلت.

في دوامة هذا الإدراك المريع تدور فكرة أخرى أصغر. فكرة استدعتها نظرة سريعة أخرى على الورقة بجوار الآلة الكاتبة.

- ماذا فعلت ماري بالأوراق التي كتبتماها؟

ترد لينورا بنظرة حائرة.

- هي ساعدتكِ على كتابة القصة كاملة.

أتذكر الأوراق التي كتبتها أنا وهي، والمستقرة الآن مع زجاجات أقراص دواء لينورا في الصندوق المعدني المغلق أسفل فراشي. لو كتبت ماري ولينورا طوال أسابيع، لماذا لم أرَ أي دليل على ذلك؟ كل الأوراق داخل أدراج المكتب بيضاء خاوية، ولم أرَ أثرًا لأوراق مطبوعة في أي مكان آخر في غرفة لينورا أو غرفتي.

- لا بد أنها كانت رزمة سميكة. ماذا فعلت ماري بها؟

رد لينورا - **أخفتها** - لا يساعدني.

- أتعرفين أين؟

هذه المرة، يقدم ردها وضوحًا أكبر بعض الشيء.

في غرفتها

يسري شعور سيئ في عمودي الفقري. ما كانت من قبل غرفة ماري صارت غرفتي الآن، والحقيقة وراء حوادث القتل كانت مخبأة هناك طوال هذا الوقت.

الحقيقة التي لعلها قتلت ماري.

تمضي بقية المساء في بطء معذب. أحمم لينورا وأُلبسها ثيابها وأضعها في الفراش، وأنا أقول لنفسي طوال الوقت إننا ربما نكون مخطئين. ربما قفزت ماري بالفعل. ربما كانت بداخلها آبار يأس لم يَعُد بمقدورها أن تتحكم فيها. ربما هذا فصل حزين آخر في قصة هوبز إند المأساوية من أولها إلى آخرها.

أو ربما قُتلت لأنها عرفت تلك القصة.

بعد ترك لينورا مع زر الاستدعاء، أذهب إلى غرفتي وأُجري بحثًا شاملًا. بما أن كل متعلقات ماري هنا، فمن المنطقي أن أي شيء كتبته هي ولينورا ما زال هنا أيضًا. أين؟ لا فكرة لديَّ. لكنني مصممة على الاكتشاف.

أبدأ بخزانة الأدراج، مزيحة ثياب ماري حتى يفرغ كل درج فيها. بل أفحص ما وراء الخزانة وتحتها. لا يوجد شيء.

بعد ذلك الفراش، سواء تحته أو بين المرتبة والصندوق الزنبركي. الشيء الوحيد المثير للاهتمام هو صندوقي المعدني. أفتحه بالمفتاح الذي وضعته في طاولة الفراش وأراجع محتوياته. رزمة من الأوراق المطبوعة على الآلة، وست زجاجات من أقراص الدواء.

بعد ذلك، أجري مسحًا لرف الكتب، معتقدة أن الأوراق يمكن دسها وسط كل الكتب التي تركتها ماري وراءها، وأتفحص الحمَّام بحثًا عن أي أماكن إخفاء محتملة. وكلاهما لا يؤديان إلى شيء.

آخر مكان أفتِّشه هو خزانة المقصورة، بما أنني أجريت فيها تفتيشًا كاملًا ليلة وصولي. على الرغم من ذلك، أبحث في حقيبة ماري الطبية، وأفتِّش جيوب معطفها، وأتفقد الصندوق الموجود على الأرضية الذي كان يحوي الكتب لكنه الآن لا يحوي شيئًا.

أنهض، وأمسح مقدمة زيي، وأحدق إلى بقعة الأرضية النظيفة إلى جوار الصندوق. على عكس زيي، تخلو هذه البقعة من التراب، كأن شيئًا ما استقر هناك حتى وقت قريب جدًّا. لاحظتها في ليلتي الأولى هنا، لكنني لم أولِها اهتمامًا كبيرًا. لكن الآن، لا أستطيع إلا أن أتساءل ماذا كان موجودًا هنا، ومتى أزيل.

ألقي نظرة عن قرب. البقعة الخالية من الغبار مستطيلة، وهو ما يشير إلى صندوق آخر لولا الزوايا المستديرة.

هذا يعني أنه كان شيئًا آخر.

مثل حقيبة ملابس.

ماري كانت مقدمة رعاية. وكانت تعرف الشروط. صندوق وحقيبة ملابس هما كل ما نحتاج إليه.

يتعالى منسوب الأدرينالين في دمي حتى أكاد أسمع طنينه وأنا آتي بحقيبة ملابسي وأحملها إلى خزانة المقصورة. بأنفاس متوترة أضعها على البقعة النظيفة. ومثل زي الممرضة: لا تنطبق تمامًا، لكنها قريبة بما يكفي.

عندما أرفع الحقيبة من الخزانة، ألاحظ شيئًا يرفع مستوى الأدرينالين لديَّ من الطنين إلى الهدير.

في كل طرف من المقبض حلقة معدنية تربطه بالحقيبة نفسها.

كل حلقة في الشكل والحجم أنفسهما تقريبًا لقطعة المعدن الملوية التي وجدتها في الشرفة.

كل شيء يمضي مائلًا، كأن هوبز إند أخيرًا يميل منقلبًا بلا هوادة في المحيط. لكنني أنا وحدي المصدومة بإدراك أن ماري أخذت حقيبة ملابس معها عندما رحلت.

داخل تلك الحقيبة ربما كانت الحقيقة المكتوبة عن لينورا والليلة التي ماتت فيها عائلتها.

والآن، رحلت الحقيبة، مثل ماري.

أسير مترنحة عبر الرواق، وأهبط سلم الخدم. ألاحظ أن الشق في بئر السلم اتسع أكثر. يمتد الآن بارتفاع الجدار كله، ويتفرع منه شق ثانٍ أصغر. وتشكَّل شق ثالث في الجدار المقابل. بهذا المعدل، ستكتسي بئر السلم كلها قريبًا بشبكة من خيوط هذه الشقوق. أرتجف عندما أتخيل عناكب وذبابًا وخيوطًا لزجة من بيوت العناكب تلتصق بي.

في المطبخ، أتوجه إلى الهاتف مباشرة وأدير الرقم المطبوع على بطاقة المحقق ڤيك التي أعطاها لي. يرن الهاتف ست مرات قبل أن يجيب بكلمة «ألو؟» خاملة.

- معك كيت ماكدير.

- كيت.

ثمة خشخشة بينما يراجع المحقق، بلا ريب، المنبه على الطاولة المجاورة لفراشه. أفعل الأمر نفسه مع ساعة الجدار في المطبخ. قبل منتصف الليل تمامًا.

- هل تعرفين كم الساعة الآن؟

أقول بصوت فظ يوضح أنني لا أبالي:

- نعم. لكنني اعتقدت أنك تود أن تعرف أن ماري ميلتون لم تقفز.

بعد لحظة صمت مرتبكة يقول المحقق فيك:

- ماذا تعتقدين أنه حدث لها؟

أصمت قليلًا، محاولة أن أستجمع أفكاري. لا أستطيع أن أصدق أنني أفكر في ذلك، ناهيك بأن أقوله. لكنني أقول، والكلمات تخرج متعثرة باستعجال غير قسري:

- دُفعت بيد شخص ما.

٢٢

يقول المحقق ڤيك:

- عندي سؤال أنا واثق بأنني سأندم عليه، لكن لماذا تعتقدين أن ماري ميلتون دُفعت؟

- كانت هناك حقيبة ملابس في غرفتها.

- ثم؟

- اختفت الآن.

- ثم ؟

- أخذتها ماري معها.

يتنهد المحقق ڤيك:

- لديكِ دقيقة واحدة بالضبط كي توضحي.

لا أضيع ثانية واحدة في محاولة إقناعه بتصديق ما لا يمكن تصديقه. هذه مهمة صعبة بالنسبة إلى شخص شكَّاك إلى هذا الحد. لكنني أبذل قصارى جهدي، وأحكي له عن البقعة الخالية من التراب في الخزانة، وكيف أعتقد أنها أثر لحقيبة ملابس نُقلت من غرفة النوم في وقت قريب، ولماذا أشك في أن ماري تركت المنزل بها ليلة موتها.

- إذا كانت تنوي أن تقتل نفسها، لماذا تأخذ حقيبة ملابسها معها؟

يقول المحقق فِيك:

- لا فكرة لديَّ.

- لأنها لم تكن تخطط للرحيل. هذا هو السبب في أن كل شيء غيرها كانت تملكه ما زال هنا. كانت ماري تنوي العودة.

- أظن أن لديكِ أيضًا نظرية ما عما كان داخل هذه الحقيبة المزعومة.

- الحقيقة حول حوادث القتل التي جرت لعائلة هوب.

الصرير المفاجئ لزنبركات الفراش ينبئني بأن المحقق اعتدل للتو في جلسته. أخيرًا استحوذت على انتباهه كاملًا. أقول:

- أعتقد أن ماري جاءت هنا بنية اكتشاف ما حدث حقًّا تلك الليلة. وقد نجحت. لأن لينورا أخبرتها.

- دعيني أخمن. كتبتها على الآلة الكاتبة.

- نعم.

- كيت، نحن بالفعل...

أقاطعه غير مستعدة لمنحه فرصة أخرى لوصفي بالكاذبة:

- أعلم أنك تظن أنني أختلق هذا، لكن لينورا تستطيع أن تكتب على الآلة. لديَّ رزمة كاملة من الأوراق أستطيع أن أريها لك. كلها كتبتها لينورا على الآلة. وإذا كنت لا تصدقني، فإن هناك دليلًا فوتوغرافيًّا. لدى جيسي صورة لماري ولينورا وهما تكتبان على الآلة معًا. كانتا تفعلان ذلك سرًّا. بمساعدة ماري، كتبت لينورا عن كل ما حدث ليلة مقتل عائلتها. عندما انتهتا من ذلك، أعتقد أن ماري كانت تخطط لإعلان الحقيقة. أخذت ما كتبته لينورا، ووضعته في حقيبتها، وغادرت. لكن شخصًا ما في هوبز إند عرف ما خططت له ومنعها قبل أن تتمكن من فعل ذلك.

- بدفعها كي تلاقي حتفها؟

- نعم.

- ولماذا يفعل أحد ذلك؟

- لأنه لم يرغب في أن تنكشف الحقيقة.

يسود الصمت من طرف المحقق ڤيك. إما أنه يفكر فيما قلته، وإما أنه على وشك إغلاق الخط. يتبين أنه الخيار الأول، على الرغم من أن الثاني ما زال خيارًا كما يبدو من نبرة صوته:

- هذا كله يبدو غريبًا يا كيت.

- أنا لا أكذب.

- لم أقل إنكِ تكذبين. أعتقد أنكِ تعتقدين بشدة أن هذا ما حدث.

- لكنك لا تعتقد هذا.

ينبض الألم في صدغَي. صداع وشيك، لا شك أنه نتاج لقلة النوم ووفرة الإحباط.

- أي جزء لا تصدقه؟

يرد المحقق ڤيك:

- كل شيء. أولًا، هل تعرفين كم من الصعب دفع شخص من فوق سياج؟

- ليس هذا السياج.

أقولها متذكرة كيف ارتطم بأسفل ظهري، وأفقد توازني إلى حد شعوري بالخوف من أنني على وشك السقوط من فوقه.

- إنه قصير.

- لوحظ ذلك بالفعل. لكنكِ قلت أيضًا إن ماري وضعت كل ما كتبته هي ولينورا داخل هذه الحقيبة. إلى أين تعتقدين أنها كانت ستأخذها؟

- إليك، على الأرجح.

هذا تخمين مجنون مستند إلى حدسي فقط. لقد أخبرتها لينورا بكل شيء عن أشهر جريمة في البلدة. عن نفسي لم أفكر قَطُّ فيما سأفعله عندما تنتهي لينورا من إخباري بما حدث. لكن دخيلتي تنبئني بأنني كنت سآخذها إلى الشرطة.

- كانت في حوزة ماري حقيقة ما حدث تلك الليلة.

- وهذه أول فجوة من الفجوات الكثيرة في نظريتك تلك. كان توقيت وفاة ماري نحو الساعة الثانية صباحًا. هل تعتقدين حقًّا أنها كانت ذاهبة إلى الشرطة في تلك الساعة؟

أنظر إلى نافذة المطبخ. في الخارج، يوجد من نور القمر ما يكفي فقط لتبين السياج الممتد بطول الشرفة. أتخيل ماري هناك، مغمورة بوهج مماثل، تنقلب من فوق السياج وتختفي عن الأنظار.

- كيف تعرف متى ماتت؟

- لأنه كان وقت الجَزر. اختفت ماري ليلة الاثنين. وكان الجزر ذلك اليوم بعد الثانية صباحًا بقليل. لو كان هناك أي ماء، لانجرف جسدها داخل البحر. بدلًا من ذلك، ارتطمت ماري بالشاطئ المكشوف وماتت من الصدمة. وعندما أتى المد، كانت قد اندفنت في الرمال.

أرى صورة أخرى لماري. صورة لا أحتاج إلى تخيُّلها لأنني رأيتها. جثتها مغطاة تقريبًا بالرمال وزبد البحر. أغلق عينَي وألتفت بعيدًا عن نافذة المطبخ. أقول:

- لكن هناك حقيبة ملابس مفقودة من متعلقاتها.

- من المحتمل ذلك جدًّا. لكن مر أسبوع ما بين موت ماري ووصولك. خلال ذلك الوقت، كان من الممكن أن يأخذها أي شخص من الغرفة. لماذا أنتِ متيقنة هكذا من أن ماري أخذتها معها؟

- وجدت قطعة منها في الشرفة.

- حقًّا؟

تتغير نبرة المحقق فيك من الرفض إلى الاهتمام في جزء من الثانية. أسمح لنفسي بابتسامة، على الرغم من أنه لا يستطيع أن يراها. تبدو ابتسامة مستحقة. لحظة انتصار صغيرة.

- خطاف معدني يربط المقبض بالحقيبة. كان ملويًّا وملقى على الأرض، وهو ما يجعلني أعتقد أن المقبض انكسر عندما خطف أحدهم الحقيبة من ماري.

يقول المحقق ڤيك:

- وصلنا الآن إلى نقطة يمكننا الانطلاق منها. أما زال لديكِ؟

تخبو ابتسامتي وأنا أقول:

- ضاع مني.

لا يسألني المحقق ڤيك كيف، ولا أتطوع أنا بكشف المعلومة. إخباره بأنني أسقطته عندما كدت أقع من الشرفة لن يزيده إلا اقتناعًا بأن ما حدث لماري لم يكن قتلًا. وألا يتشكك في نفسه بأي شكل. يقول:

- كنت أعرف ذلك. أردت أن أمنحك ميزة افتراض حسن النية. أردت ذلك حقًّا. لكن من فضلك، كُفِّي عن هذا الهراء.

- ليس هراءً.

- أعرف ما تحاولين فعله يا كيت. إنه الشيء نفسه الذي حاولتِ فعله بعد ظهر اليوم. أنتِ تأخذين ما حدث لماري - وهي واقعة خطيرة جدًّا ومأساوية جدًّا - وتلوينه بطريقة ما كي تخففي شعورك بالذنب.

- شعوري أنا\بالذنب؟ ما زلت تعتقد أنني أختلق كل هذا؟

يتابع المحقق ڤيك حديثه كأنني لم أقل شيئًا على الإطلاق:

- أنا لا ألومك. لا أعتقد حتى أنك واعية بما تفعلينه. لكن ما يحدث واضح. انتحرت أمك. ومقدار الدور الذي لعبته في ذلك ما زال محل جدل.

- ليس محل جدل. كانت حادثة.

- لذلك تستمرين في محاولة إقناعي.

أريد أن أصرخ.

وأبكي.

وأنتزع الهاتف من الجدار وأهشمه على أرضية المطبخ. نظرًا إلى عمر الهاتف وغضبي، أظن أنني قادرة على ذلك. لكن المنطق السليم يسيطر عليَّ أكثر من الإحباط. لو بدوت في حالة هستيرية، سيقتنع المحقق ڤيك أنني كذلك. ومن الواضح أن هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع إقناعه به.

أقول:

- أنا أخبرك بأنني أعتقد أن امرأة قُتلت. ألا ينبغي لك أن تأخذ هذا بجدية؟ ألا ينبغي لك على الأقل أن تتحرى حول هذا؟

يتنهد المحقق فيك ويقول:

- لقد أجريت تحرياتي. وبعد الحديث معك ومع كل من في المنزل غيرك، استنتاجي أن ماري ميلتون انتحرت.

- كيف يمكنك أن تكون موقنًا هكذا؟

- تبين النتائج الأولية لفحص الطبيب الشرعي أن إصاباتها متفقة مع السقوط من ذلك الارتفاع. لا توجد أي جروح دفاعًا عن النفس، والتي كان من المحتمل وجودها لو هوجمت بالطريقة التي تشيرين إليها. جعلت الضباط يفتشون الأرض والشاطئ وحتى الشرفة. لم يجدوا شيئًا يشير إلى وجود حقيبة ملابس أو شجار أو قتل. في الواقع، لم يجدوا شيئًا على الإطلاق.

- لا يعني هذا عدم حدوثه.

- مع الأسف. لست الشخص الذي اعتقدت أنني إياه.

أقبض على السماعة بإحكام مذهولة وأقول:

- ماذا؟

- رسالة انتحار ماري. هذا ما قالته: «مع الأسف. لست الشخص الذي اعتقدت أنني إياه». وُجدت مطوية بشكل سليم في جيب زيها الرسمي. تعرضت الورقة لضرر شديد من الماء، لكنها ما زالت مقروءة. والآن، أعطيني سببًا واحدًا كي لا أغلق الخط الآن.

أقول بدافع من اليأس أكثر من أي شيء آخر:

- لم تقتل لينورا عائلتها.

بالتأكيد لا أملك أي خطة. لكنني آمل أن يُبقي إلقاء قنبلة مثل هذه المحقق فيك منصتًا.

- على الأقل، لا أعتقد أنها فعلتها. نحن لم نصل بعد إلى ذلك الحد.

- نحن؟

- أنا ولينورا. أخبرتك بأننا نكتب قصتها، مثلما فعلت مع ماري. لكن كان يوجد عامل هنا. ريكاردو مايهيو.

- أعرف ذلك. كنت أعمل هناك، أتذكرين؟

- هل كنت تعلم أيضًا أن لينورا وقعت في حبه؟ وأنه من المحتمل أن يكون هو من قتل والديها وأختها؟ أنا واثقة تمامًا بأن لينورا عرفت أنه فعلها وغطت عليه. وأعتقد الآن أنها تريد أن تبرئ ساحتها، ربما على أمل أن يُقبض عليه، على الرغم من أنه اختفى ليلة القتل.

عندما أعطي المحقق ڤيك فرصة للحديث في النهاية، يتذبذب صوته بين الاهتمام والحذر:

- هل أنتِ واثقة بذلك؟

- لديك سبيل للوصول إلى تقرير الشرطة في تلك الليلة. طالعه وانظر. سترى أيضًا أن هناك مجموعة كبيرة كاملة من الأسئلة غير المجاب عنها في تلك الليلة. حصلت ماري على تلك الإجابات. وهي الآن ميتة. هذه ليست مصادفة. ومن المؤكد كالجحيم أن هذا ليس انتحارًا.

أغلق الخط قبل أن يتمكن المحقق ڤيك من نبش فجوة أخرى في نظريتي، وإخباري بأنني مخطئة، وبعد ذلك تقديم دليل آخر لإثبات ذلك بغطرسة. أعلم أنني في سبيلي للوصول إلى شيء ما هنا.

وهذا يرعبني.

لأن لينورا تخبرني أيضًا بقصتها، من الممكن أن أكون أنا التالية.

لكن ذلك ليس الجزء الأكثر رعبًا في كل هذا. الجزء المرعب حقًّا والأكثر هولًا من قصص ستيڤن كينج أن ماري لم تُقتل بيد غريب عابر. بطريقة ملتوية، كان هذا ليجعلني أكثر ارتياحًا. لكن من دفعها من الشرفة كان يعرف ما هي مقبلة عليه.

كان يعرفها.

وهو ما يعني أنه من المحتمل أن يكون شخصًا في هوبز إند.

باستثنائي أنا ولينورا، يوجد أربعة أشخاص فقط يتوافقون مع ذلك الوصف: مدام بيكر، وآرشي، وكارتر، وجيسي.

أما لماذا قد يشعر أحدهم بالحاجة إلى قتل ماري بسبب شيء كتبته لينورا، فهذا شيء يتجاوز قدراتي. أمد يدي نحو الهاتف مرة أخرى، متحرقة للاتصال بالمحقق ڤيك مرة أخرى. يجب أن يسمع هذا، حتى لو كان من المشكوك فيه أن يصدقني.

هو لم يصدقني بعد.

في أي شيء.

أشرع في إدارة رقمه عندما أسمع صوتًا ورائي. وقع أقدام. تتحرك من غرفة الطعام المظلمة إلى داخل المطبخ. ألتفت لأرى كارتر واقفًا في المدخل. يقول رافعًا يديه ببراءة:

- لم أقصد أن أفزعك.

لكنه أفزعني. يدق قلبي بصوت عالٍ حتى أظن أنه يستطيع أن يسمعه. ويزيد من عنف الدق هذه الحقيقة: كارتر واحد من الأشخاص الأربعة الذين يمكن أن يكون أحدهم قد دفع ماري من الشرفة.

يترنح قليلًا بينما يخطو بكامل جسده إلى داخل المطبخ. كان يشرب. حقيقة يعترف بها في نبرة اعتذارية:

- كان يومًا بشعًا.

تظل يدي متجمدة على الهاتف وأنا أقول:

- حقًّا كان.

- كنت في الشرفة بالخارج وسمعت أحدًا يتكلم في الهاتف. فكرت في أن أدخل وأتحرى الأمر.

- وهل سمعت الكثير من الحديث؟

- بعضه.

- بعضه أم كله؟

- أغلبه. وأفهم لماذا أنتِ قلقة الآن. يجدر بك ذلك. لكن ليس مني. كنت أعرف ما كانت تفعله ماري.

- أخبرني إذن.

- كانت تحاول مساعدتي.

يعبر كارتر المطبخ، مقتربًا أكثر. يقترب بما يكفي كي أشم رائحة الويسكي في أنفاسه وهو يقول:

- وأعتقد أن موتها كان غلطتي.

- أمامك دقيقة واحدة بالضبط كي تخبرني بما تعنيه بذلك.

أقولها وأنا واعية تمامًا أنني أبدو مثل المحقق ڤيك بالضبط.

- ليس هنا.

أبقى مكاني وأقول:

- بل هنا.

لن أخرج من هنا مع قاتل، إن كانت هذه حقيقة كارتر. على الرغم من أن كلماته تجعل الأمر يبدو كأنه على وشك الاعتراف، فإن لغة جسده تقول العكس. بانحنائه وترنحه، يبدو غير قادر على الإيذاء. لكن المظاهر من الممكن أن تكون خادعة.

- ثمة شيء يجب أن تريه. ولا أستطيع أن أريكِ إياه هنا. لذا سيكون عليكِ فقط أن تثقي بي لمدة خمس دقائق.

- قلتَ إن ماري كانت تساعدك؟

- نعم كانت تساعدني. والآن أريد أن أساعدها باكتشاف ما حدث بالفعل. لأنها لم تقفز. أعرف ذلك، وفي ضوء تلك المكالمة الهاتفية التي أجريتِها توًّا، أنتِ تعرفين ذلك أيضًا.

تصديقه لي هو السبب الوحيد كي أتبع كارتر إلى كوخه. وحتى مع ذلك، أجعله يسير أمامي متقدمًا بعدة خطوات، ويداه ظاهرتان بحيث أستطيع أن أراهما. بمجرد دخولنا الكوخ، أبقى بالقرب من الباب في حالة احتياجي إلى الهروب منه. لكن تحركات كارتر من الممكن وصفها بأي شيء إلا أنها منذرة بالخطر.

بعد رفع زجاجة الويسكي شبه الفارغة من فوق الطاولة، يصب لنفسه فنجانًا من القهوة السادة كي يفيق.

- هل تريدين بعضها؟
- القهوة أم الويسكي؟
- اختاري ما يناسبك.
- أفضل أن أرى ما كنت بحاجة إلى أن تريني إياه بشدة هكذا.
- خلال دقيقة.

يجلس كارتر إلى طاولته التي تكفي شخصين بالكاد، ويرشف من قهوته ثم يقول:

- أحتاج أولًا إلى الاعتراف بشيء. لقد كذبت بشأن السبب في تقدمي للعمل هنا.

أقطع نصف خطوة نحو الباب وأنا أقول:

- إذا كنت تريدني أن أثق بك، فهذه هي الطريقة الخطأ لفعل ذلك.
- هي كذلك بالفعل. لكن من المهم أن تعرفي ذلك. والآن، هل تذكرين ذلك الزبون المنتظم الذي أخبرتك بشأنه؟ الرجل الذي كان يعمل هنا واقترح أن أحل محله؟
- أذكره، وأظن أن له اسمًا.

يرد كارتر:

- أنتوني. على الرغم من أن الجميع كانوا يدعونه توني. حسنًا، لقد فعل توني ما هو أكثر من اقتراح العمل هنا. لقد أصر على ذلك.
- لماذا؟
- عمل هنا لعقود. وكان يعرف كل الزوايا والشقوق. ذات يوم، كان يفتش في الحجرات التي تعلو الجراج. كان بعض الخدم يعيشون هناك.
- اعتقدت أنهم كانوا يعيشون في المنزل أو في هذا الكوخ.
- في أوج ازدهاره، كان هوبز إند يعج بالخدم. كان هناك ميكانيكي مهمته

الوحيدة أن يعتني بمجموعة ونستون هوب من سيارات الباكارد. كان يمتلك خمسًا منها. أخبرني آرشي بأن مدام بيكر اضطرت إلى بيعها عبر السنين كي تساعد على دفع نفقات صيانة هذا المكان.

من الغريب التفكير في أن هوبز إند كان عامرًا بالناس يومًا ما. امتلأت كل الحجرات، بما في ذلك تلك التي تعلو الجراج. قرية صغيرة على منحدر تعصف به الريح، كلها هنا لخدمة عائلة واحدة ثرية بشكل غريب.

يقول كارتر بعد رشفة أخرى من القهوة:

- بعد حوادث القتل، استُخدمت الحجرات أعلى الجراج للتخزين. صناديق بها أشياء من العشرينيات، بل وقبل ذلك. كان الوقت شتاءً، ولم يكن هناك كثير من العمل في الأرض، لذا قرر توني أن يفعل شيئًا مفيدًا ويتخلص مما يوجد في تلك الصناديق أيًّا كان. أغلبها كانت خردة. ملابس أكلتها العثة، أطباق مشروخة، أشياء تخص أناسًا عملوا هنا قبل زمن بعيد وقتها. في الأساس، كل الأشياء التي تركوها خلفهم عندما أُخلي هذا المكان.

ينهض كارتر منسحبًا إلى مساحة النوم في الكوخ ويجذب ظرفًا من مخبئه تحت حشيته. وعندما يجلبه إلى الطاولة، أنضم إليه عندها، وقد غلب الفضول حذري.

- في أحد هذه الصناديق، وجد توني هذا.

يُخرج شيئًا مسطحًا من الظرف ويدفعه نحوي، مقلوبًا. من شكله ولونه البني الغامق، أستطيع أن أحدس بأنه صورة فوتوغرافية. صورة قديمة، كما يتبين من التاريخ المخطوط على ظهرها.

سبتمبر ١٩٢٩

ألتقطها، وأرى أنها صورة للينورا في صباها. لم تَعُد لديَّ مشكلة الآن في التعرف عليها. وحتى لو كانت لديَّ مشكلة، تكشفها الأريكة التي تجلس عليها لينورا وورق الجدران خلفها. إنها غرفة نومها لا ريب. إعادة خلق فوتوغرافي للبورتريه في الرواق.

الاختلافات الوحيدة بين الاثنتين هي الفستان - الفستان الذي ترتديه لينورا

في الصورة من القطن الخفيف وليس من الساتان - ووضعيتها. اختفت الوضعية المدروسة في اللوحة. وبدلًا منها، تميل لينورا إلى ظهر الأريكة بطريقة أبعد ما تكون عن الأناقة والإتيكيت، وتستقر يداها على بطنها المستدير.

تصيبني الصدمة بالخدر. أقول:

- لا، مستحيل!

لكن الصورة لا تكذب.

قبل شهر من مذبحة عائلتها، كانت لينورا هوب حبلى.

كانت حادثة يا ماري.

أو حماقة.

أو الأحرى كان لها نصيب من كلتيهما.

كنت أنا وريكي أكثر تعلقاً أحدنا بالآخر -- ونعم، كنا مفعمين بالشهوة -- من التفكير في العواقب. ناهيك بأنني لم أكن أعرف بها أصلاً. لم يخطر على بال أحد أن يعلمني دروسًا بسيطة عن الجنس. والقليل الذي كنت أعرفه عن الجنس التقطته من التسجيلات التي كانت أختي تحب الاستماع إليها. أغنيات الشقاوة والرومانسية التي جعلت كل شيء يبدو أشبه بمتعة لا ضرر منها.

وقد كانت متعة هائلة. منحني ريكي المتعة بطرائق لم أعتقد أنها ممكنة. عندما يجعلك شخص ما تحسين ذلك الإحساس الرائع، من الصعب الانتباه لمسألة أن كل هذا قد ينقلب شرًا.

حين أعود بالذكرى إلى وقتها، أظن أنه كان من المحتم أن أحبل. تبين ذلك على الفور، على الرغم من معرفتي المحدودة. ما بين الغثيان الصباحي، وشهيتي التي لا تشبع للأكل، وانقطاع طمثي؛ عرفت من دون شك أنني حامل. ما لم أعرفه هو ماذا أفعل حيال ذلك.

انتظرت أسابيع قبل إخبار ريكي، خوفًا من أن يكون رد فعله على الخبر سيئًا.

كنت قد قرأت كتبًا كثيرة فيها نساء في وضعي عوملن بطريقة بائسة من قِبل الرجال الذين أوصلوهن إلى ذلك الوضع. خفت أن أكون مثل تلك الشخصيات المحكوم عليها بالهلاك. خفت ألا يصدقني ريكي، والأسوأ من ذلك أن يهرب ويتركني وحيدة تمامًا في مأزقي بالغ السوء. لدهشتي وارتياحي، كان مبتهجًا.

سألته بعد أن أخبرته:

- إذن أنت سعيد بهذا؟

- سأكون أبًا. أنا في غاية السعادة!

لكن كلينا كان يعرف أننا في وضع شائك، لأسباب كثيرة جدًا. أخبرني ريكي بأنه بحاجة إلى الوقت كي يخطط، وأنني بحاجة إلى الوقت أيضًا.

هكذا صارت فرحتنا غير المتوقعة سرّنا الأكبر. سر كان من السهل عليَّ بشكل مدهش أن أحتفظ به. أولًا، لم يكن أحد مهتمًا بي كثيرًا، لذا مضى الأمر من دون أن يلاحظ أحد تقريبًا عندما بدأ وزني يزداد. نعم، سمعت أصوات تذمر من خادمة أمي عندما طلبت منها أن توسع ملابسي بوصة أو اثنتين. وبالطبع لاحظتُ الخادمات الصغيرات يكتمن ضحكاتهن الساخرة عندما كنت أطلب طبقًا ثانيًا في العشاء. لم أبالِ بأن الجميع اعتقدوا أنني فقط صرت سمينة. كان معنى ذلك أن أحدًا لم يشك في الحقيقة.

كانت تلك الأشهر الخمسة أو نحو ذلك من أسعد الأشهر التي عشتها. لأول مرة في حياتي، لم أحس بالوحدة. صار لديَّ دائمًا أحد معي -- رفيق دائم هنا في بطني.

شعرت بفخر كبير -- على الرغم من أنه كان سري -- لمعرفتي بأنني على وشك تقديم حياة أخرى إلى هذا العالم. اختفت الفتاة التي فكرت في القفز من الشرفة يوم عيد ميلادها. جعلتني فكرة إنجاب طفل وتربيته مع ريكي أتطلع بأمل نحو المستقبل.

ذات مساء في أوائل سبتمبر، جعلت ريكي يصعد خلسة إلى غرفتي لنناقش ذلك المستقبل. كان يوم ثلاثاء، وكان المنزل شبه خالٍ. منحت مدام بيكر إجازة

تلك الليلة مع بقية الخدم، وهو ما كان معتادًا كل أسبوعين أو ثلاثة يوم الثلاثاء، وخرجت أختي مع صديقات لها. خرج أبي أيضًا، متوجهًا إلى بوسطن في مهمة عمل طارئة. كانت بورصة لندن للأسهم قد تحطمت، وكانت هناك مخاوف متنامية من حدوث الأمر نفسه هنا.

وبما أنني كنت أعرف أن أمي لن تترك غرفتها -- أو أفيونها -- شعرت بالثقة في إمكانية أن أجعل ريكي يصعد إلى الطابق الثاني ونتشارك الفراش مثل زوجين عاديين.

مارسنا الحب تلك الليلة. برقة في البداية، خوفًا على الطفل الذي ينمو في رحمي. لكن سرعان ما غلبت الشهوة، كما كانت تفعل دائمًا، وتعامل معي ريكي بطريقة لم أعرف قَطُّ أنني أريدها أو أحتاج إليها.

بعد ذلك، عندما رقدنا راضيين معًا، تصورت أن حياتنا ستكون مثل تلك الليلة تمامًا. فقط أنا وريكي والرضيع، معًا في كوخ صغير في مكان ما بعيد عن هوبز إند.

قال ريكي وهو يضمني بين ذراعيه:

- ليت الأمور كانت مختلفة ولسنا مضطرين إلى التسلل على هذا النحو. ليتني كنت رجلًا أفضل.

نظرت إليه قلقة وقلت:

- ماذا تقصد؟ أنت رائع.

قال ريكي وهو يزفر معارضًا:

- إطلاقًا. أنت تستحقين أفضل مما يجب أن أقدم. أنت -- وطفلنا -- تستحقان رجلًا يستطيع العناية بكما كما يجب. أنا أدخر منذ شهور ولم أجمع شيئًا يذكر.

حاول أن ينزلق من الفراش، لكنني تشبثت به، مانعة إياه من الرحيل:

- أنت قلق من المال! لا تقلق. عائلتي لديها الكثير منه.

- أرفض أن آخذ مليمًا من والدك.

لم أكن أتحدث عن والدي، الذي كنت قد بدأت أرتاب في امتلاكه الكثير من

المال كما يزعم. مؤخرًا، وبينما كنت أمر بجوار مكتبه، سمعت مكالمة هاتفية حامية بينه وبين الرجل الذي كان يدير أموال شركته.

كان يصيح في الهاتف:

- ماذا تقصد بأن المال لم يعد موجودًا؟ ماذا جرى له؟

كنت أشير إليَّ أنا وأختي، اللتين كان مقدرًا لنا أن نرث الثروة الطائلة التي تركها جدانا. لم يثقا ولم يحبا والدي، وعندما ماتا، لم يتركا شيئًا لابنتهما الوحيدة خوفًا من تبديده. وبدلًا من ذلك، قسم مالهما بيني وبين أختي ووضع في وديعة لم يكن في إمكان أيٍّ منا الحصول عليها إلا عندما نتم الثامنة عشرة.

قلت:

- أنا أتحدث عن مالي. حسنًا، ما سيكون ملكي قريبًا.

لم أكن حتى واثقة بذلك. كان السبب الرئيسي وراء عدم إخباري لعائلتي حتى الآن بأنني حامل هو الخوف من أن يتبرأوا مني بمجرد اكتشافهم الأمر. بدا ذلك مسار الفعل الأكثر احتمالًا، نظرًا إلى وضع ريكي ومكانته. هذا بالإضافة إلى حقيقة أنني حملت من دون زواج وهي مدعاة لخيبة الأمل والغضب والعقاب. لولا المال، لما اهتممت بتبرئهم مني. كنت أكره هوبز إند ولم أعد راغبة في البقاء به أكثر من ذلك. كان ذلك الكوخ المتواضع لدى ريكي وطفلنا هما كل ما أحتاج إليه.

بدا ريكي مصدومًا من فكرة امتلاك مال لم يكتسبه بعرق جبينه:

- أي رجل أكون إذا تركتك تدفعين ثمن حياتنا؟

- الرجل الذي أحب.

تحرر أخيرًا من عناقي ومد يديه نحو بنطاله وقال:

- هل تستطيعين أن تحبي رجلًا بلا كرامة؟ لأن هذا ما ستكون عليه حالي. أنا لست رجلًا يستحق الإحسان.

راقبت ريكي، وأنا أشعر بالألم، وهو يرتدي بنطاله ويبدأ في مغادرة الغرفة، واضعًا يديه في جيبيه الفارغين.

- لم أقصد أن أزعجك.

- حسنًا، فعلتها.

- إذن انسَ مالي. سنجد حلًا، حتى لو كان الوضع صعبًا أحيانًا.

توقف ريكي عن سيره محدقًا إليَّ:

- صعب؟ أنت لا تعرفين معنى هذه الكلمة. هل عملت يومًا واحدًا في حياتك؟

قلت معترفة:

- لم أحتج إلى ذلك قَطُّ.

- وهذه مشكلتك. أنت وعائلتك تجلسون طوال اليوم وتتركون بقيتنا لنقوم بالعمل الحقيقي. لو انقلب الوضع، لراهنت أن أحدًا منكم لن يبقى يومًا واحدًا.

لم أره من قبل غاضبًا، وكان رد الفعل الوحيد الذي قمت به أن بدأت في البكاء. حاولت أن أمنع الدموع، لكنها سقطت على أي حال، وسالت على وجنتَي.

رقت نبرة ريكي بمجرد أن رآها. جذبني إليه وقال:

- كفى الآن. لا حاجة بك إلى ذلك. سأفكر في شيء ما. سيتطلب فقط مزيدًا من الوقت. لا تقلقي من شيء.

لأن ريكي أخبرني ألا أقلق، فلم أقلق.

خطأ يا ماري.

لأنه كان هناك الكثير مما يستدعي القلق.

لكن لا تعتقدي لحظة واحدة أن هذه مجرد حكاية صبية استغلها رجل قاسي القلب ونبذها. هي أكبر من ذلك. كل شخص تقريبًا في هوبز إند لعب دورًا فيما حدث -- وأغلبهم دفع الثمن غاليًا مقابل ذلك.

ومن ضمنهم أنا.

أنا بالذات.

٢٣

تظل الصورة على الطاولة، ولينورا ترنو ناظرة منها، بدرجات من اللون البني الغامق. مرت دقائق منذ أن رأيتها لأول مرة، لكنني أبقى مذهولة.

كانت لينورا حبلى.

وعلى الرغم من أنها لم تبُح بهذا بعد، فأنا واثقة تمامًا بأن ريكاردو مايهيو كان هو الأب. ما لا أستطيع فهمه هو علاقة هذا بماري. أو بكارتر في الأصل.

- لماذا أصر صديقك توني على أن تعمل هنا؟ بسبب هذه الصورة؟

يومئ كارتر برأسه. كان قد أفاق في الدقائق القليلة الماضية، على الأرجح بسبب مزيج القهوة والاعتراف. على الرغم من أن ما يعترف به أبعد ما يكون عما توقعت.

- بدأت العمل هنا لأنني كنت في حاجة إلى أن أعرف.

- تعرف ماذا؟

- إن كنت حفيد لينورا هوب.

- ما زلت لا أفهم.

- في صبيحة الكريسماس عام ١٩٢٩، تُرك رضيع على الباب الأمامي للكنيسة الأسقفية في البلدة. كان الرضيع متجمدًا، حيًّا بالكاد. ولأنه كان يوم الكريسماس، وصل القس الذي وجده إلى الكنيسة قبل الوقت المعتاد.

لو وصل بعد بضع دقائق فقط، لمات الطفل. لذلك وصفتها الكنيسة بمعجزة من معجزات الكريسماس.

- ذلك الرضيع، كان...

لا يستطيع كارتر، مثلي، التوقف عن النظر إلى صورة لينورا، لكنه يكمل جملتي:

- أبي، نعم. تبناه زوجان شابان في الكنيسة لم يكن في مقدورهما الإنجاب. جداي. لم يحاول أبي قَطُّ أن يكتشف من كان والداه الأصليان، غالبًا لأنه لم تكن لديه فكرة عن المكان الذي يبدأ البحث فيه. إلى جانب أنه هُجر حرفيًّا. لماذا تكلف نفسك عناء محاولة العثور على شخص لم يردك؟ لذلك ظل جداي الأصليان لغزًا. إلى أن وجد توني هذه الصورة.

- ولماذا اعتقد أن لينورا هي جدتك؟

يقول كارتر وهو ينقر على الصورة:

- بسبب التاريخ. كم شهرًا من الحمل تبدو عليه في الصورة بالنسبة إليك؟

أرنو إلى الصورة مرة أخرى وأقول:

- ستة؟

- هذا ما اعتقدته أيضًا. وهو ما يعني أن شهرها التاسع كان...

- قرب الكريسماس.

- بالضبط.

لا يفصِّل كارتر في الكلام، ولا يحتاج إلى ذلك. بما أنه لا يوجد ابن حي للينورا في هوبز إند - ولا حتى ذِكر له - أظن أن الطفل إما مات خلال ولادته وإما تُرِك للتبني.

- وأنت تعتقد أن ريكاردو مايهيو هو الأب...

- هذا ما اعتقدته ماري.

يقولها كارتر مؤكدًا ما أعرفه بالفعل: أن لينورا أخبرت ماري بكل شيء. وأن ماري شاركت بعض ذلك على الأقل مع كارتر.

يرفع فنجان قهوته ويفرغه قبل أن يقول:

- وهو شيء منطقي أيضًا. في الواقع، هذا هو السبب الوحيد الذي أستطيع أن أتبينه كي يقتل ريكاردو بقية أسرة لينورا. كان رجلًا متزوجًا اكتُشفت علاقته العاطفية بابنة ونستون هوب الكبرى. إما أنهم لم يوافقوا وقتلهم بدافع الضغينة، وإما أنهم طلبوا منه أن يتزوج لينورا وقتلهم ليهرب.

أضيف:

- وهذا هو السبب في أنه أبقى على لينورا. كانت حاملًا بطفله.

وأظن أن هذا هو السبب في قيام لينورا بالتغطية عليه طوال هذا الوقت.

يقول كارتر:

- على أي حال، هذا هو السبب في تقدمي للعمل هنا. هذا شيء غبي، لكنني اعتقدت أنني لو رأيت لينورا - لو تقابلنا وجهًا لوجه - لعرفت.

- ليس غبيًّا على الإطلاق...

أقولها وأنا أفكر في دافعي المجنون للتحديق إلى عينَي لينورا، على أمل أن يمنحني هذا تبصرًا صغيرًا بحياتي نفسها.

- أظن أن رؤيتك لها لم تكن ذات عون كبير.

- إلى حدٍّ ما. لا يوجد أي تشابه بحسب ما رأيت. لكن هذا لا يعني أيضًا أننا لسنا قريبين.

أجلس أخيرًا على المقعد المقابل وراء الطاولة. إما أنني أثق بكارتر إلى حد البقاء في متناول ذراعه وإما أن خبر حمل لينورا جعلني ألقي بكل الحذر إلى الريح. لست واثقة أيهما الأصح.

- هل فكرت في سؤال مدام بيكر؟

- نعم، لمدة ثانيتين تقريبًا! لكنها لا تبدو سعيدة بالحديث عن الماضي. ولا آرشي كذلك.

هو محق في ذلك. على الرغم من أن كليهما كان هنا عام ١٩٢٩، فإنه لا يبدو أن أيًّا منهما من ذلك النوع المستعد لمناقشة أي شيء يتعلق بذلك الوقت.

- إذن ذهبت إلى ماري بدلًا من ذلك.

- فقط عندما علمت بما تفعله هي ولينورا. الكتابة على الآلة وكل هذه الأشياء.

يصمت كارتر هنيهة كافية لجعلي أعتقد أنه ينتظر مني الاعتراف بأنني أفعل الشيء نفسه مع لينورا. أتركه مستمرًّا في الانتظار. لعلِّي أثق به، لكن ليس هذا الحد.

- عندما أدركت أن كلينا يعمل من أجل الهدف نفسه، جعلتها تتورط في الأمر.

أفهم الآن لماذا يظن كارتر أن موت ماري غلطته. يعتقد أنها علمت أكثر مما يجب. مثلما تعلم لينورا. ما زال بمقدوري سماع ردها عندما سألتها إن كانت تعتقد أن ماري ماتت بسبب ما قيل لها. تلكما الدقتان المريعتان.

يقول كارتر:

- توجد سبل لمعرفة إن كان أحدهم يمت بصلة قرابة لك. اختبارات الدم. يستخدمونها طوال الوقت الآن لحسم قضايا الأبوة. اعتقدت، حسنًا، إذا كان بمقدورهم أن يفعلوا ذلك، فلا يوجد سبب للاعتقاد بأنهم لا يستطيعون معرفة إن كان أحدهم جدي.

- وهنا ظهرت ماري.

يومئ كارتر برأسه قبل أن يكمل لي بقية التفاصيل. اتصل بمعمل يستطيع إجراء الاختبارات. كل ما كان بحاجة إليه عينتا دم - واحدة منه وواحدة من لينورا. منذ أسبوعين، ذهب إلى المعمل وسُحبت منه عينة دم لتحليلها.

- أقنعت ماري أن تساعدني في الباقي. وافقت أن تسحب عينة من دم لينورا من أجلي كي آخذها إلى المعمل. بعد ذلك، كل ما كان علينا فعله هو الانتظار لرؤية إن توافق التحليلان. كان من المفترض أن يحدث هذا في الليلة التي...

لا يستطيع كارتر إكمال بقية الجملة.

الليلة التي ماتت فيها ماري.

يكمل حديثه:

- أخبرتني بأنها حصلت على عينة لينورا قبل أن تضعها في الفراش. نويت

أن أخزنها في الثلاجة هنا وآخذها إلى المعمل في الصباح قبل أي شيء. بعد ذلك عندما بدا أنها غادرت هوبز إند تمامًا، بدأت أقلق من أن يكون طلبي هو ما جعلها ترحل. كأنني طلبت منها أكثر مما يجب أو وضعتها في موقف حرج.

طبعًا فعل ذلك. هذا طلب كبير من مقدمة رعاية - بل ومن ممرضة مسجلة مثل ماري. لكنها مضت في أداء هذا الطلب. الكدمة التي وجدتها في ساعد لينورا هي بالضبط من النوعية التي تظهر بعد سحب الدم، خصوصًا من مريضة عجوز تتناول مضاد التجلط الموصوف لها.

يعني هذا أيضًا أن حقيبة ماري كانت تضم ما هو أكثر من كتابات لينورا. ربما كانت بها أيضًا عينة من دمها، وهي الفكرة التي تجعل شعور كارتر أسوأ بعد أن أشاركه إياها.

- إذن كانت غلطتي فعلًا.

- لستَ الشخص الذي دفع ماري.

أقولها في إشارة واضحة إلى أن كارتر نال ثقتي كاملة.

- لا، لكنني وضعتها في موقف خطر.

- موقف لم تكن تعرف أنه خطر.

ينظر كارتر داخل فنجان قهوته الفارغ، كأنه يتوق إلى ملئه بمزيد من الويسكي.

- لكن كان ينبغي لي أن أعرف. طلبت من ماري مساعدتي في إثبات أنني أمت بصلة قرابة للينورا هوب. بعض الناس قد يقتلون لمنع ذلك من الحدوث.

- لماذا؟

- لأنني لو كنت حفيد لينورا حقًّا، قد أرث كل شيء عندما تموت. هوبز إند. المنزل والأرض وأي أموال قد تتركها.

- من سيرثها الآن؟ هل تعرف إن كانت لينورا قد كتبت وصيتها؟

- لا. لكن لو فعلتها، أظن أن كل شيء سيُقسَّم بين الشخصين اللذين عرفاها لأطول وقت.

مدام بيكر وآرشي. آخر مرة جلست فيها أنا وكارتر في هذا المكان تحديدًا، تساءلت جهرًا لماذا بقي الاثنان. والآن أعتقد أنني أعرف السبب - سيحصلان على هوبز إند عندما تموت. أقول:

- إذن أحدهما قتل ماري. أو ربما فعلها الاثنان.

يرتعش طرف فم كارتر، كأنه يريد أن يقول شيئًا لكنه يعرف أنه لا يجب أن يقوله.

- ماذا تخفي عني؟

- يوجد سبب آخر لاعتقادي بأنها غلطتي.

يسكت كارتر قليلًا، وهو ما زال مترددًا.

- تركت البوابة مفتوحة.

- متى؟

- يوم الاثنين ذاك. وجدتها مفتوحة ذلك الصباح. أظن أنها علقت ولم تنغلق بعد أن غادر الشخص الذي يسلم البقالة. بما أنني افترضت أنني سأغادر المكان في الصباح متوجهًا إلى المعمل، لم أكلف نفسي عناء دفعها لغلقها.

- إذن ليلة وفاة ماري كانت البوابة الأمامية مفتوحة طوال الوقت؟

يقول كارتر متنهدًا:

- نعم.

- أي شخص كان من الممكن أن يدخل.

أفقد توازني. لحظة من الدوار عندما أدرك أن قائمة المشتبه فيهم، التي ضاقت منذ قليل إلى اثنين فقط، قد اتسعت الآن لتشمل، حسنًا، الجميع. فقط عندما تمر هذه اللحظة أتمكن من قول:

- من غيركما كان يعرف ما تفعله أنت وماري؟

- توني. طلبت منه ألا يخبر أحدًا، لكن هذا لا يضمن أنه لم يفعل.

- هل تعلم إن كانت ماري قد أخبرت أحدًا؟

أقولها وأنا أفكر بالتحديد في جيسي التي تبدو جاهلة بكل شيء على الرغم من كونها الأقرب إلى ماري. إلا إذا كان هذا كله تمثيلًا. وهي المسألة التي يجعلني مجرد التفكير فيها أشعر بالذنب والبارانويا في الوقت نفسه.

يقول كارتر:

- لست متأكدًا.

- ماذا عن المحقق ڤيك؟ هل أخبرته بأيٍّ من هذا؟

- تقريبًا...

يقولها كارتر قبل أن يمد يده أخيرًا نحو زجاجة الويسكي التي كان يريد جذبها طوال الدقائق الخمس الماضية. يفرغ ما تبقى في فنجانه ويمده إليَّ، مقدمًا الرشفة الأولى من الويسكي المشوب بالقهوة داخله.

- لم أرد أن أبدو مجنونًا.

- تلك كانت مهمتي على ما يبدو.

أتناول الفنجان وآخذ رشفة وأكشر. طعمها فظيع لكنها تؤدي الواجب.

- لهذا أعتقد أنه من الصواب حاليًّا أن نبقى هادئين. حتى لو أخبرناه، أشك أنه سيصدقنا. خصوصًا أنا.

- إذن ماذا علينا أن نفعل؟

سؤال وجيه جدًّا. سؤال أحار في إجابته. الطريقة الأرجح كي نجعل المحقق ڤيك يصدقنا أن نقدم له دليلًا على صدقنا. عندئذ سيكون من المستحيل بالنسبة إليه أن يتجاهلنا. حاليًّا، الشيء الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو الاتجاه إلى المصدر مباشرة.

أقول لكارتر:

- نسأل لينورا، ونجعلها...

تقاطعني ضجة من الخارج.

صوت هائل يصم الآذان ويمزق السكون. صوت يهز الكوخ وكل شيء فيه، بما في ذلك أنا وكارتر. نتشبث بالطاولة المجلجلة بينما يستمر الصوت والرجَّة

ثانية، وثانيتين، وثلاث ثوانٍ. عندما ينتهي الأمر، يكون فنجان قهوة كارتر مهشمًا على الأرض وأنا مهشمة ذهنيًا بالطريقة نفسها. أقول:

- أكان هذا زلزالًا؟

يفلت كارتر الطاولة ويقول:

- أنا... أتعتقدين هذا؟

ننهض على سيقان مرتعشة ونشق طريقنا خارجًا لنتحرى الأمر. في الشرفة، مدام بيكر وجيسي وآرشي فعلوا الشيء نفسه. ندرك نحن الخمسة جميعًا على الفور ما حدث: انكسر جزء من المنحدر بين الشرفة والكوخ، تاركًا نصف دائرة مسننة تبدو كأن أحدهم قضم قضمة من رقعة النجيل.

أخطو أنا وكارتر بضع خطوات حذرة نحوها، وكلانا يختبر الأرض بقدميه، خوفًا من انهيار رقعة النجيل كلها تحت أقدامنا. وهو احتمال وارد بشدة. نتوقف عندما نتمكن من النظر من فوق الحافة. بعيدًا في الأسفل، تستقر قطع كبيرة من التربة الساقطة محاطة بأمواج مزبدة.

يقول كارتر:

- أفٍّ! هذا ليس جيدًا.

٢٤

لليوم الثاني على التوالي، أفوِّت تمارين لينورا وآخذها إلى الآلة الكاتبة مباشرة. على الرغم من أنني أعلم أن هذا يمثل تقصيرًا في أداء الواجب، فإنني لا أطيق صبرًا.

في أي ليلة عادية - ولا يعني هذا أن أي ليلة من ليالي هوبز إند من الممكن وصفها بالعادية - كنت لأهز لينورا حتى أوقظها بعد مغادرة كوخ كارتر، وأحمل الآلة الكاتبة إلى الفراش، وأسألها عن حقيقة الطفل. لكن الليلة السابقة لم تكن عادية على نحو خاص.

بعد الانهيار الجزئي للمنحدر خارج الكوخ، قرر كارتر بحكمة أن ينتقل إلى داخل المنزل الكبير، إلى أن يتمكنوا من تقدير حجم التلف. لا يعني هذا أن المكان هنا أأمن بأي حال من الأحوال. في أثناء مساعدة كارتر على حمل بعض متعلقاته إلى غرفة نوم فارغة في الطابق الثالث، لمحت شقًّا جديدًا في سلم الخدم وبلاطة مكسورة في أرضية المطبخ. كلها نُذُر سيئة.

اقتربت جيسي مني بينما كنت أتفحص جدران السلم وهمست:

- ماذا كنتِ تفعلين أنت وكارتر؟

- نتكلم فقط.

غمزت بعينها وقالت:

- أكيد. فعلًا. تمامًا.

- كنا نتكلم.

- هل اكتشفت أي شيء آخر عن ماري؟

توقفت عند البسطة وتفحصتها. في قميص نومها الوردي ومن دون زينتها وحليها، بدت غريبة تمامًا. وهو ما كانت عليه فعليًّا.

- لا.

قلتها قبل أن أتابع ما أفعل.

أردت أن أثق بجيسي. حقًّا أردت ذلك. من بين كل الموجودين في هوبز إند، بدت الأقل احتمالًا في أن يكون لديها سبب يجعلها راغبة في موت ماري والأكثر احتمالًا لأن تكون حليفة لي. لكن منذ أن استبعدت بالفعل كارتر مشتبهًا فيه، لم أستطِع المجازفة باستبعاد أي شخص آخر. حتى جيسي. على الرغم من أنني في العادة لست شخصًا شكاكًا، فإنني يجب أن أكون هكذا في هذه الحالة. شككت في أن ماري كانت مرتابة أيضًا، وانظروا ماذا جرى لها.

لا بد أن كارتر كان يفكر في الأمر نفسه عندما أتى إلى بابي وهو في طريقه إلى غرفته المؤقتة في الطابق الثالث. قال وهو يكاد يهمس:

- هل ستكونين بخير؟

- نعم.

هكذا أجبته، على الرغم من أنني كنت أعرف ما كان يسأل عنه في الحقيقة. باستثناء السيناريو الممكن لكن غير المحتمل بأن شخصًا من البلدة تسلل عبر البوابة المفتوحة وقتل ماري، كان شخص ما تحت هذا السطح قاتلًا.

- سأكون بخير.

ولم أكن بخير.

انتهت بي الحال إلى قضاء أغلب الليل مستيقظة تمامًا، وأنا أفكر في لينورا وكارتر، وفكرة أن ماري ماتت بسبب أنها عرفت أكثر مما يجب بشأنهما. قادني هذا إلى التساؤل إن كنت أعرف الآن أكثر مما يجب. والإجابة التي خرجت

بها - وهي نعم مدوية - أثارت مزيدًا من الأسئلة. إلى أي حد أنا في خطر؟ هل أنهض وأرحل في منتصف الليل مثلما اعتقد الجميع أن ماري فعلت؟

مع رنين أفكار مثل تلك في رأسي، كانت مسألة أنني تمكنت من السقوط نائمة أصلًا أشبه بمعجزة صغيرة. عندما استيقظت على شروق الشمس وهو يوخز عينَي وقد انزلقت المرتبة درجة أدنى على هيكل الفراش، أدركت أنني لم أسمع أي أصوات غامضة صادرة من غرفة لينورا. إما أنني نمت ولم أسمعها، وإما أن أيًّا كان من - ما؟ - يسببها قرر أن يأخذ الليلة إجازة.

أكتم التثاؤب الآن وأنا أضع لينورا في وضعية الكتابة على الآلة. عندما تستعد، أركع إلى جوارها وأقول:

- لينورا، أعتقد أننا يجب أن نتكلم عن الرضيع.

تتظاهر بأنها غير مندهشة من معرفتي.

لكنها مندهشة.

وجهها المعبر مثل نجمات الأفلام الصامتة لا يستطيع أن يخفي هذه الصدمة. وينطبق هذا بالأخص على عينيها، اللتين تتسعان ويخبو لمعانهما قليلًا في الوقت نفسه. إجابة غير منطوقة لأكبر أسئلتي: هل من الممكن أن يكون كارتر مخطئًا بشأن حمل لينورا؟ نعم، تلك الصورة لها في عام ١٩٢٩ مقنعة جدًّا، لكنها لا تؤكد أي شيء.

أقول:

- أعلم أنكِ كنت حبلى. وكانت ماري تعلم أيضًا، صحيح؟

ترتفع يد لينورا اليسرى وتسقط مرتين على الآلة الكاتبة. تلك نعم.

- ماذا جرى للطفل؟

تطلق لينورا تنهيدة طويلة حزينة. ثم تكتب كلمة واحدة - **رحل** - قبل أن تترك يدها لتنزلق من فوق الآلة الكاتبة.

- رحل؟

من الغريب أن تحتوي كلمة بهذا القصر على كل هذه الاحتمالات العديدة.

ربما مرت لينورا بحادثة إجهاض. أو وُلد الطفل ميتًا. أو غادر هذا العالم بعد قليل من دخوله له. أو لُفَّ في صرة وتُرك على الدرجات الأمامية لكنيسة في صبيحة الكريسماس. من الممكن أيضًا لهذه الكلمة الواحدة - رحل - أن تعني شيئًا أسعد. أن الطفل وُلد، وكبر، وترك هوبز إند، ولديه الآن أسرة خاصة به. على الرغم من أنني، بالنظر إلى رد فعل لينورا، فلا أعتقد أن هذا ما حدث.

أقول:

- هل مات الطفل؟

لا تبدي لينورا أي مؤشر على أنها تريد أن تكتب أكثر من ذلك. تستقر يداها في حِجرها، اليسرى السليمة فوق اليمنى العاطلة، وتحدق إليهما كأنها لم تسمعني.

أقول مُلِحة:

- من كان الأب؟ أكان ريكي؟

لا شيء يصدر عن لينورا. لا تمييز للسؤال، ولا تمييز لي شخصيًّا. من دون أن تنطق كلمة، أوضحت رسالتها: هي لا تريد الحديث عن ذلك.

لا أستطيع أن ألومها. كانت حبلى. ورحل الطفل الآن. ربما تعتقد أنه لا يوجد شيء آخر ليقال.

لكنْ هناك شيء.

ولينورا أخبرت به شخصًا آخر واحدًا على الأقل - ماري.

وفي ضوء ما حدث لها، ينبغي أن أكون ممتنة للينورا على رفضها الآن أن تخبرني. ربما يكون هذا سببًا آخر لصمتها. لا تريد أن تضعني في خطر أكبر مما قد أكون فيه بالفعل.

أفكر مرة أخرى في الرحيل. لن يستغرق الأمر إلا دقائق كي أحزم حقيبة ملابسي وصندوقي، وأحمل حقيبتي الطبية، وأرحل عن هوبز إند من دون أن أنظر ورائي. لكني لا أستطيع أن أحمل نفسي على فعل ذلك. على الرغم من أنه لم يُحكَ لي كل شيء، فإن ما أعرفه بالفعل كافٍ لإبقائي هنا. يجب أن أعرف البقية.

حوادث قتل عائلة هوب. حمل لينورا. وفاة ماري. كلها مربوطة معًا بعقدة

معقدة من الأسرار والأكاذيب والآثام الحاضرة والماضية. أنا على ثقة من أنني لو حللتها، فستنكشف الحقيقة. عن كارتر وماري، نعم، لكن الأهم عن لينورا. هي أكثر شخص أحتاج إلى فهمه.

لذا أبقى، تاركة الصباح ينقضي ببطء وفي صمت. مع أي مريضة أخرى، كنت لأشغل نفسي بأعمال منزلية خفيفة أو بطهو الغداء أو حتى بمجرد مشاهدة التلفزيون معها. كل هذه الخيارات غير متاحة بالنسبة إليَّ في هوبز إند. لذا أمرر الوقت في قراءة رواية رومانسية للكاتبة دانيال ستيل على الأريكة، بينما تجلس لينورا في كرسيها المتحرك وتحدق خارج النافذة.

يُذكرني هذا بأيام أمي الأخيرة، عندما كانت أضعف وأكثر تألمًا من أن تُنقل إلى الأريكة في غرفة المعيشة. عالقتين في غرفة بلا تلفزيون وضوضائه المريحة في الخلفية، أصبح الصمت شديد الكثافة حتى صار غير محتمل تقريبًا.

اليوم ليس بهذا السوء تمامًا، لكنه من السوء بحيث يجعلني أُقدِّر اللحظات القليلة من الصوت والنشاط. إحضار الغداء. وإطعام لينورا. وحتى مساعدتها في الحمَّام لأنه شيء من الممكن فعله غير الجلوس هنا والتفكير. وبينما أؤدي هذه المهام مصحوبة بثرثرة لا تنتهي من جانبي، لا ترد لينورا بأي شيء.

لا دقات.

وبالتأكيد بلا نقر على الآلة.

لقد أصبحت الشخص الذي اعتقدت أنها عليه عندما وصلت أول مرة. صامتة، ساكنة، عديمة الوجود تقريبًا. يجعلني هذا أتساءل إن كانت هذه حالها مع كل الممرضات قبل أن تدخل عليها ماري حاملة الآلة الكاتبة. لو كانت الحال هكذا، هل تشعر لينورا بالندم لأنها ورطتها. هل تشعر نحوي بالشعور نفسه، وقررت أن الأمور ستكون على هذا النحو الذي هي عليه الآن؟

وهو قرارها بالفعل. بمقدور أمسية عند الآلة الكاتبة أن تنهي كل هذا. لكننا نقضي هذا النهار الطويل الكئيب في صمت لا يُحتمل. أنهي كتابي. لينورا تحدق خارج النافذة. يخبو النهار مستحيلًا إلى غسق يُظلم بدوره مستحيلًا إلى ليل.

أخيرًا يصل آرشي حاملًا العشاء على صينية. سلمون وبطاطا حلوة مشوية من أجلي، ومهروسة من أجل لينورا. على جانب الصينية لفائف محشوة ساخنة جدًّا من أجلي، ولبن مخفوق بالشوكولاتة من أجل لينورا.

يوضح آرشي:

- فكرت في أن الآنسة هوب يمكنها أن تشرب شيئًا يرفع روحها المعنوية. كانت تحبه وهي صبية.

إيماءة شديدة الذوق تحمل مراعاة كبيرة للمشاعر، حتى إن الأمر يستغرق ثانية قبل أن أتذكر أنه من الممكن أن يكون قد قتل ماري. لا يهم إن كان آرشي يبدو وديعًا كدمية دب محشوة. كان هنا عندما قُتلت عائلة هوب عام ١٩٢٩، وكان هنا عندما هوت ماري من فوق المنحدر.

لكن ذلك يجعله أيضًا مصدرًا مثاليًّا للمعلومات عن تلكما الليلتين. التحدي هو اكتشاف إن كان آرشي صديقًا أم عدوًّا، مشتبهًا فيه أم مصدرًا موثوقًا محتملًا. أقرر في هذه اللحظة أنه من الأفضل التعامل معه باعتباره كل ما سبق.

أقول وأنا أتناول الطعام من يديه:

- لم تكن هناك ضرورة لأن تتجشم كل هذا العناء.

ولأنني لم أثبِّت صينية وجبات لينورا في كرسيها المتحرك بعد، أضع الطعام على الخوان إلى جوار كرتها الثلجية وجهاز التسجيل الذي أعطته لي جيسي بالأمس.

يقول آرشي:

- لا عناء ولا مشكلة. إلى جانب أنني أردت أن أطمئن على أحوال الآنسة هوب.

أنظر إلى لينورا، التي تتصرف كأنه لا أحد منا في الغرفة معها.

- ليست على ما يرام.

- أعتقد أن هذا ينطبق علينا جميعًا. مسكينة ماري. لو كنت أعرف أنها تتألم إلى هذا الحد، لحاولت مساعدتها بأي شكل. وبعد ذلك ينهار المنحدر هكذا. إنها أوقات غير سعيدة في هوبز إند.

تُرى هل كان هناك يومًا ما أي وقت سعيد هنا؟ مما كتبته لينورا، فهمت أن المكان ملعون منذ البداية.

- منذ بضعة أيام، أخبرتني بأنك ولينورا كنتما مقربين.

- صحيح، وكنا كذلك.

- إلى أي حد كنتما مقربين؟

- كنا صديقين حميمين، كما أظن. على الرغم من أن هذا كان بسبب القرب أكثر من أي شيء آخر. كنا في السن نفسها تقريبًا في مكان لم يكن فيه ذلك شائعًا.

- وماذا عن ڤرجينيا؟ هل كنتما مقربين أيضًا؟

- لا. لا أستطيع أن أقول إننا كنا كذلك.

رده، المريح بصدقه السريع، يجعلني أقرر أن أتابع الحوار. قد تكون هذه مجازفة - وقد أندم عليها في النهاية - لكن إذا كان آرشي حاليًّا في مزاج ثرثرة، فلن أوقفه.

وأعرف أن لينورا تنصت، على الرغم من أنها تتظاهر بالعكس. أتناول جهاز الووكمان، وأضع فيه آخر شريط مسجل عليه كتاب قرأته جيسي، وأضع سماعتَي الرأس على أذنَي لينورا. أودع الووكمان نفسه بين يدها اليمنى المشلولة وجانب الكرسي المتحرك حتى لا ينزلق ويسقط. أوضح للينورا:

- كتاب جديد من جيسي. هل تودين الاستماع إليه بينما أتحدث إلى آرشي؟ بعد ذلك سنتناول العشاء.

أعرف أنها لن ترد، لذا أضغط زر التشغيل، وألتفت من جديد إلى آرشي الذي يقول:

- ما الذي يجب أن نتحدث عنه غير ذلك؟

أتردد، محاوِلة أن أفكر في أفضل طريقة لصياغة سؤالي. وبعد الخلاص إلى أنه لا توجد طريقة جيدة لطرحه، ألقيه فجأة:

- هل أنجبت لينورا طفلًا؟

- طفلًا؟

يحدق آرشي إليَّ، متحيرًا، كأنني سألت للتو إن كان للينورا رأسان أو وحيد قرن أليف.

- من أين خطرت لكِ تلك الفكرة؟

- أشارت لينورا إلى ذلك إشارة عابرة.

أقولها وأنا أومئ برأسي نحو الآلة الكاتبة على المكتب. أتصور أنه لا بأس من إعطاء آرشي مؤشرًا على أن لينورا تستطيع استخدامها. لعله يعرف بالفعل.

- ماذا كنتما تفعلان بذلك الشيء؟

- فقط تتعرف إحدانا على الأخرى بشكل أفضل.

أقولها مقدمة الحقيقة في أبسط أشكالها.

- أحب أن أتعرف على الناس الذين أقدم لهم الرعاية.

يرمقني آرشي متشككًا.

- وهي التي أخبرتكِ بأنها أنجبت طفلًا؟

- ألمحت إلى ذلك.

- لا بد أنكِ أسأت فهمها.

- إذن لم تكن لينورا حبلى قَطُّ؟

- قَطُّ.

وإذ انتهى من الحديث بوضوح، يلتفت آرشي كي يغادر. أطرح سؤالًا أخيرًا على هيكله المنسحب، على أمل أنني إذا لم أحصل على إجابة صادقة، فعلى الأقل أنال رد فعل غير واعٍ.

- عندما كنتما مقربين، هل ذكرت في أي وقت اسم ريكاردو مايهيو؟

يتوقف هيكل آرشي العملاق عند الباب، ويقول:

- لا.

- كان يعمل هنا.

- أعلم ذلك. لكن الآنسة هوب لم تذكره قَطُّ. تلك هي إجابتي عن سؤالك.

يشرع في التحرك مرة أخرى، ويسير متصلبًا داخل الرواق. عندئذ فقط يواجهني مرة أخرى، ونظرته الصلبة بمنزلة تحذير صامت. يقول:

- لو كنت مكانك، لما قضيت وقتًا أكثر مما يجب في النقر على هذه الآلة مع الآنسة هوب. الماضي في الماضي. لن يفيد أحدًا البدء في نبشه.

- رفس الجنين بطنك للتو.

- لا لم يرفسه.

- رفسه، أقسم على ذلك.

قالها آرشي ويده ما زالت تضغط على بطني المنفوخ.

أزيحها وأقول:

- أعتقد أنني كنت لأعرف.

كانت ليلة ثلاثاء أخرى مع ذهاب بقية طاقم المنزل وتفرق عائلتي. كان آرشي في الغالب يقضي ليالي تلك الإجازات في غرفتي، حيث كنا نضحك ونتكلم ونحلم بالمستقبل. كان هذا طقسًا مارسناه تقريبًا منذ أن التحق بالعمل لأول مرة في هوبز إند.

لكن مع حلول سبتمبر ذاك، صار هذا الطقس نادرًا. في الشهور القليلة الماضية، قضيت أنا وآرشي وقتًا قليلًا معًا. لقد ازداد نأيًا، وقلقت من أن يكون كل هذا بسببي وليس بسببه. لقد أهملته بشكل فادح منذ التقيت ريكي، لذا كان قراري أن أخبره بحملي محاولة إدماجه مرة أخرى في حياتي.

كان سعيدًا من أجلي، لكنه كان قلقًا أيضًا. عندما أخبرته بخططي للمستقبل، تظاهر بأنه راضٍ، لكن خطوط القلق ظلت تتماوج على جبينه. قال:

- هل أنت واثقة بأنك تريدين أن تفعلي هذا؟ مع شخص مثله؟

- ولماذا لا أكون واثقة؟

مال آرشي نحوي على الأريكة، وتلامست كتفانا:

- أنت تعرفين لماذا تمامًا.

- إنه موقف شائك، لكن لدينا خطة.

لم تكن لدينا خطة بعد، لكنني لم أستطع أن أخبر آرشي بذلك. عرفت أن هذا سيجعله فقط أكثر قلقًا. لقد رأى نفسه دائمًا ملاكي الحارس. حتى عندما كنا أصغر سنًّا وكان مجرد طريد مُنح وظيفة في المطبخ بدافع الشفقة. أعتقد أن هذا هو ما جذب أحدنا إلى الآخر. كنا روحين وحيدتين في حاجة إلى شخص يهتم بهما.

قال آرشي:

- ليتك أخبرتني بأنك مغرمة به.

- لماذا؟

- لأنني كنت سأحاول منعك.

- توقف عن التظاهر بأنني الوحيدة العالقة في موقف شائك. أعرف ما كنت بصدده.

قال آرشي:

- الوضع ليس نفسه.

في الحقيقة لم يكن. الموقف الوحيد الأكثر فضائحية من موقفي كان وضع آرشي. قلت:

- عرفت ما كنت أورط نفسي فيه عندما قابلته.

قلتها بينما لم تكن لديَّ في الحقيقة أي فكرة عن مقدار العمق الذي سأقع به في حب ريكي وكيف سيحدث هذا بسرعة.

- هذا شيء، والحمل بطفل شيء آخر.

مد آرشي يده نحو الكاميرا التي اشتراها للتو. رفاهية كنت أعرف أنه لا يطيقها بسهولة. تطلب شراؤها شهورًا من الادخار.

- أعرف شخصًا يستطيع المساعدة، إذا قررت أنك لا تريدينه. طبيب.

- من أخبرك بهذا؟

- إحدى الخادمات. ذهبت إليه عندما حبلت. لم تستطع الاحتفاظ به لأن الأب...

توقف آرشي عن إكمال الجملة، كان ألطف من أن ينطق الحقيقة التي يعرفها كلانا. قلت:

- كان أبي. أعرف.

سمعت برنيس تتكلم عن ذلك في المطبخ ذات صباح عندما ظنت أن أحدًا من آل هوب أصحاب السمو والعزة ليس في الجوار. هذا ما كانت تدعونا به. آل هوب أصحاب السمو والعزة، تقولها دائمًا مع نخرة هازئة. ذكرت أن إحدى الخادمات الجديدات انتُهكت على يد أبي، وأجبرت على التخلص من الجنين وبعد ذلك طردت من هوبز إند.

كان ذلك في العام الماضي، وبناء على الوضع الفاضح الذي رأيته فيه يوم عيد ميلادي، لم يتعلم أبي الدرس. على الرغم من أن أحدًا لم يقل هذا، فإنني عرفت أنه كان أحد الأسباب وراء بقاء أمي في فراشها. نادرًا ما كانت تتحدث مع أبي، ناهيك بأن يرى أحدهما الآخر.

حزنت لرؤيتهما بائسين معًا. لكن أختي تظاهرت بأنه لا توجد مشكلة. عرفت أنه تظاهر لأنه كان من المستحيل التغافل عن التوتر المشدود مثل سلك اللغم بامتداد المنزل كله.

قلت:

- لن ينتهي بي الأمر مثل والدي. سأعمل على ضمان ذلك. أحبه يا آرشي. أحبه حقًا.

- حسنًا، ليتك لم تحبيه.

لم تجرحني كلمات آرشي. عرفت أنه لم يقلها كي تكون قاسية. كان هذا أسلوبه ببساطة. كانت لديه روح رقيقة ويقول الأشياء كما يراها، على عكس الآخرين جميعًا في هوبز إند.

قلت:

- لو كانت الأمور مختلفة، أنت تعرف أنني كنت لأختارك أنت.

- أعرف، لكنها مختلفة. معي ومعه. أشخاص مثلنا وأشخاص مثلك أنت وأختك — ليس مقدرًا لنا أن نختلط. لن يسمح المجتمع بذلك. كلما أطلت أمد استمرار هذا الأمر، كان الوضع أسوأ عندما ينتهي حتمًا.

اعتدلت في جلستي وقلت بعناد:

- لن ينتهي.

رفع آرشي يديه مستسلمًا وقال:

- أصدقك. لكن أيًّا كان ما سيحدث، خيرًا ام شرًّا، اعلمي أنني سأكون معك طوال الوقت.

- أشكرك.

رفع كاميرته، وندت مني تنهيدة. آخر ما كنت أريده في تلك اللحظة أن تلتقط لي صورة. على الرغم من أن ريكي كان يخبرني بأنني جميلة كل مرة يراني فيها، لم أشعر بأنني جميلة. في الشهر السادس من حملي، شعرت بأنني منتفخة البطن وقلقة. لم أستطع حتى أن أتمكن من اتخاذ وضعية ملائمة كي يلتقط آرشي الصورة، على الرغم من أنه لم يبد مباليًا.

- ممتاز.

قالها عندما احتضنت بطني المنفوخ.

طقطق غالق الكاميرا، وانضم آرشي إليَّ على الأريكة. أسندت رأسي إلى كتفه، كما فعلت مائة مرة في السنوات القليلة الماضية. كان ضخمًا، وشديد الصلابة. عرفت أنه سيكون دائمًا موجودًا من أجلي، مهما يكن.

أضاف آرشي فجأة:

- فقط لتوضيح الأمر، إذا آذاك هو — أو أي شخص -- أو جعلك غير سعيدة، فلن أتردد في قتله.

٢٥

بعد دقيقة من مغادرة آرشي، يدخل كارتر غرفة لينورا ليطمئن علينا. يبدو منهكًا، ولا أجد كلمة أفضل، من قلة النوم. أقول:

- أظن أن الطابق الثالث لم يكن رحيمًا بك.

يجيبني وهو يتثاءب:

- كيف يستطيع أي واحد منكم تحمُّل البقاء هنا؟ طوال الليل شعرت كأنني أنام في فراش قطعوا له ساقين بالمنشار.

- هو الآن أأمن من الكوخ. كيف يبدو المرج؟

يقول كارتر:

- كأن به حفرة كبيرة.

- هل حدث شيء مثل هذا من قبل؟

يهز رأسه ويقول:

- لم يحدث طوال وجودي هنا.

أتابع استجوابي:

- إذن لماذا يحدث الآن؟

- هذا سؤال وجيه جدًّا. سؤال لا أستطيع الإجابة عنه. بالإضافة إلى ذلك، أنا أكثر قلقًا حيال مسألة إن كان سيحدث مرة أخرى.

أنظر نحو النافذة المحاطة بالليل، ممتنة لأنني لا أستطيع أن أرى حافة الشرفة وأمواج المحيط وهي تتهاوى نحو سفح المنحدر بعيدًا بالأسفل. لكنني ما زلت أتساءل إن كان المنزل قد تزحزح أكثر بعد الليلة الماضية، وكم من الوقت يستطيع أن يصمد قبل أن يسقط بالكامل.

بينما أنظر إلى النافذة، يثبت كارتر نظرته على لينورا:

- هل عرفتِ أي شيء جديد؟

أتحقق من أنها ما زالت تستمع إلى كتابها في الووكمان قبل أن أجذبه إلى داخل غرفتي وأقول:

- أكدت أنها كانت حبلى.

- ماذا حدث للطفل؟

- لا أعرف. توقفت عن الكتابة بعد ذلك. أوضحت بما لا يدع مجالًا للشك أنها لا تريد الحديث عن الموضوع.

- هل تعتقدين أن الطفل وُلد؟

يقولها كارتر متجنبًا ما يريد حقًّا أن يسأله: هل أعتقد أن الطفل كان والده؟

أتفحص ملامحه، محاوِلة أن أكتشف حتى أبسط تشابه بينه وبين لينورا. لا يوجد شيء. خصوصًا في الأعين. عينا كارتر مشعتان بلون بندقي، بعيدتان كل البعد عن أخضر لينورا المذهل. لكنني لا أستطيع استبعاد ذلك الاحتمال أيضًا. لا نعلم كيف كان يبدو ريكاردو مايهيو، باستثناء وصف لينورا له بأنه وسيم على نحو لا يُصدق. بالقطع حمل كارتر تلك الجزئية وأوفاها.

- لا أعرف. كل ما أخبرتني به أن الطفل رحل، وهو ما قد يعني أي شيء. بل إنني سألت آرشي...

- هل تثقين به؟

- لا، لأنه كذب. أخبرني بأن لينورا لم تحبل قَطُّ.

- ربما لم يعرف.

- الأرجح أنه لا يريد أن يعرف أي شخص آخر. بمن في ذلك ماري.

يجفل كارتر، ويمكنني الجزم بأنه يتصور الشيء نفسه الذي أتصوره. ماري في الشرفة، وحقيبة السفر في يدها، وآرشي يندفع نحوها، وهو ضِعف حجمها. يقول بصوت هادئ:

- لم يكن ينبغي لكِ أن تسأليه عن ذلك. أنا قلق الآن من أنه يعتقد أنكِ تعرفين أكثر مما يجب.

وأنا أيضًا. لكن لسبب مختلف عن سبب كارتر. سببي خوف مجرد من أنه لا شيء مما نفعله سيغير الأمور. كما قال آرشي: الماضي في الماضي. لن يفيد أحدًا البدء في نبشه. هل أضر أكثر مما أنفع بإجبار لينورا على الحديث عن الطفل الذي لم يَعُد معها والليلة التي قُتلت فيها عائلتها؟ هل ستكون أسرة ماري وأصدقاؤها أفضل حالًا لو علموا أن سبب موتها القتل بدلًا من الانتحار؟ ربما كان المحقق ڤيك محقًّا بشأن وجود دافع خفي لديَّ وراء القيام بكل هذا. أنني لست مهتمة بلينورا أو ماري أو حتى كارتر.

أنا مهتمة بي.

وماذا سيحدث إذا لم أستطِع إثبات أي شيء؟

أقول:

- هو لا يعتقد ذلك. لأنني لا أعرف شيئًا. ليست لدينا إلا افتراضات، وليست حقائق.

- إذن ماذا نفعل الآن؟

- لا أعرف. ربما سترغب لينورا بعد قليل في البدء في الكتابة من جديد.

أتحرك عبر الباب المشترك عائدة إلى غرفة لينورا، مدركة أنها ليست بالفكرة الجيدة أن يراني شخص آخر أتحدث مع كارتر في غرفتي. ما زلت أتذكر الطريقة التي تكلمت بها جيسي ليلة الأمس. مليئة بالغمز واللمز. كأنها مرتابة، أو غيور. من يعلم كيف سيكون رد فعل آرشي أو مدام بيكر، لا سمح الله، إذا شاهدانا معًا هكذا.

يتوجه كارتر نحو الردهة، متوقفًا عند مدخل الباب ليلقي نظرة أخرى على لينورا، متحققًا من أي تشابه لا وجود له. ويقول:

- أعلميني إن فعلت. وكوني حريصة. أنا الآن لا أثق بأحد غيرك.

بعد أن غادر، كانت قد مضت خمس عشرة دقيقة على موعد العشاء. وهو ما سيجعلنا نتأخر بالمثل على تمارين لينورا المسائية وحمَّامها ووقت نومها. أعود إلى غرفتي والصندوق المعدني المغلق تحت الفراش، وأتأكد من كمية الأقراص المضبوطة التي أحتاج إلى خلطها بعشائها. ما زالت الأوراق التي كتبتها أنا ولينورا تحت الزجاجات. تُرى هل سيضاف مزيد إلى الرزمة؟ وهل سيجعل هذا الأمور أفضل أم أسوأ؟

أعود إلى لينورا. أبدأ في التجهيز للعشاء. هي كما تركتها بالضبط: الكرسي المتحرك، النافذة، السماعتان على أذنيها، الشيء الوحيد الذي تغير هو الووكمان.

لم يَعُد الشريط بداخله يدور.

عندما أرفع السماعتين عن أذنَي لينورا، لا تخرج منهما أي كلمة.

أسأل لينورا:

- هل انطفأ؟

تدق بيدها اليسرى مرتين على مسند الكرسي المتحرك، حيث كانت منذ أن شغَّلت الووكمان. بينما يستقر الووكمان حيث تركته بالضبط بين يدها اليمنى وجانب الكرسي المتحرك. حتى لو حركت لينورا يدها اليسرى في لحظة ما، من المستحيل أن تتمكن من الوصول عبر حِجرها وإطفاء الووكمان من دون أن تتغير وضعيته.

- كيف توقَّف؟

تنظر إليَّ لينورا نظرة خاوية هي بديلها عن هز كتفيها.

ألتقط الووكمان وأتفحصه. أول ما يخطر على بالي أنه انطفأ أوتوماتيكيًّا عندما انتهى الوجه الأول من الشريط. معتقدة أن الشريط في حاجة إلى أن يُقلب، أُخرجه من الووكمان. يوجد الكثير من شريط الصوت حول البكرتين، ما يعني أن نصفه فقط قد اشتغل.

بما أن الشيء الوحيد الآخر الذي قد يتسبب في إيقاف التشغيل هو نفاد

البطاريات، أعيد الشريط مرة أخرى داخل الووكمان وأضغط زر التشغيل. ينبثق صوت جيسي، مكتومًا لكن جليًّا، من السماعتين في يدَي.

أضغط زر الإيقاف بقوة، وعقلي يدور أسرع من البكرتين داخل الووكمان قبل لحظة فقط. بما أن الشريط لم ينتهِ، والبطاريات ما زالت تعمل، ولينورا لم تستعمل يدها اليسرى؛ لا أستطيع أن أفكر إلا في طريقة واحدة أخرى لإيقاف تشغيل الووكمان.

لينورا أطفأته بنفسها.

بيدٍ لا تستطيع استخدامها.

٢٦

العاشرة مساءً، لينورا في الفراش، وأنا في غرفتي المجاورة لها أحدق إلى ووكمان ربما أطفأته، وربما لا، مستخدمة يدًا ربما تستطيع استخدامها، وربما لا. بعد ساعة من التفكير الموسوس حول الأمر، ما زلت غير متأكدة.

شيء وحيد أنا متأكدة منه هو أنه من المستحيل تقريبًا أن ينطفئ الووكمان عرضًا من دون أن تستخدم لينورا يدها اليمنى. أعرف هذا لأنني جربت. دفعته، صفعته، بل خبطته في جانب مقعد عدة مرات، مختبرة المسألة كي أرى إن كانت كافية للضغط على زر الإيقاف. ولم تكن. لم يكن في مقدور لينورا أن تفعل شيئًا بيدها اليسرى ليجعل الووكمان ينطفئ بشكل ما إذا ارتطم بيدها اليمنى.

أراقب الآن البكرتين داخل الووكمان تدوران، منتظرة أن أرى إن كانتا ستتوقفان وحدهما لأي سبب غير الذي أفكر فيه. التواء في الشريط. عيب في أسلاك الووكمان نفسه. مجرد حادث بالمصادفة لم يحدث من قبل ولن يحدث مرة أخرى. لكن كل شيء يعمل كما يجب تمامًا، حتى وأنا مستمرة في الضغط على الأزرار.

إيقاف، إعادة، تشغيل، إيقاف، إعادة، تشغيل.

تؤدي أفكاري رقصة متقطعة شبيهة.

إيقاف.

أطفأت لينورا الووكمان. أنا مقتنعة بذلك الآن. لكن كيف؟

إعادة.

لأنه من المحتمل أنها قادرة على أكثر مما تبدي. لقد فكرت في هذا من قبل، عندما أدركت أن الورقة في الآلة الكاتبة قد أُزيلت.

تشغيل.

إذا كان هذا صحيحًا، فهو يعني أن لينورا كانت تتظاهر طوال هذا الوقت.

إيقاف.

لكني لا أستطيع التفكير في سبب واحد وراء فعلها ذلك. إن يوم لينورا ممتلئ بالمذلات. ضرورة وجود شخص يطعمها، ويحممها، ويزيل حفاضتها المتسخة، ويمسح تحتها لينظفها قبل أن يضع حفاضة جديدة. لا أحد سيُخضع نفسه بإرادته لذلك.

إعادة.

لكن ماذا عن تلك الورقة التي أُخذت من الآلة الكاتبة؟ ووقع الأقدام الذي أسمعه باستمرار داخل غرفتها؟ والظل عند النافذة وعند الباب؟ شخص ما وراء هذه الأشياء، وأنا لا أصدق أنه شبح ڤرجينيا هوب.

تشغيل.

وهو ما يعني أن المصدر المنطقي الوحيد هو لينورا، التي كانت تكذب عليَّ. ربما في كل شيء.

إيقاف.

ليس بالضرورة. ربما لا تملك لينورا السيطرة على ما يستطيع وما لا يستطيع جسدها أن يفعله. يحدث هذا أحيانًا لدى مرضى الشلل. من الممكن أن تحدث تشنجات عضلية مفاجئة كأنها صدمة كهربائية في أجهزتهم، لتحرك العضلات من دون إرادتهم، تمامًا مثلما حدث عندما فحصت ردود أفعالها في ليلتي الأولى هنا. الآن ذاك شيء يمكن أن يكون قد تسبب في إغلاق الووكمان.

ما زالت إصبعي على زر الإيقاف عندما أسمع ضجة.

صوت مكتوم ثقيل.

لينورا، هكذا أفكر عندما أسمعه مرة أخرى. إنها تتحرك في الغرفة. مرة أخرى.

أهرع عبر الباب المشترك إلى داخل غرفة لينورا. في الداخل، الجو ساكن وصامت كأنه في مقبرة. في الخارج، ترتطم الأمواج برفق عند سفح المنحدر. تبدو لينورا نائمة. عيناها مغلقتان، وهي ممددة على ظهرها، والبطانية مسحوبة إلى ذقنها. أخطو على أطراف أصابعي إلى جانبها، وأنصت لصوت أنفاسها المنتظمة.

كل شيء على ما يرام.

باستثناء مزيد من الضجيج. وقع أقدام هذه المرة، مكتوم على البساط في الرواق. أتجه إلى باب غرفة نوم لينورا، وأفتحه قليلًا، وأرى مدام بيكر تمر. ظلٌّ في رداء أبيض يمسك بـ...

هل تلك بندقية؟

ينال سؤالي الأخرس إجابة فورية عندما تتوقف مدام بيكر وتلتفت نصف التفاتة في اتجاهي. تستقر بين ذراعيها بندقية، ماسورتها المزدوجة مسنودة إلى كتفها اليمنى.

تقول:

- هم في الخارج.

- من؟

- المراسلون الصحفيون. كانوا يتسكعون عند البوابة طوال اليوم. إما هم وإما صبية من البلدة قفزوا من فوق السور ويجوسون الآن في الأرض.

عندما تنطلق مدام بيكر مسرعة نحو سلم الخدم، أتبعها وأنا غير واثقة من الذي في خطر أكبر: نحن أم المتعدون. إذا كانوا صبية على شاكلة هؤلاء الذين كنت أذهب معهم إلى المدرسة، فهم في الأغلب غير مؤذين. بينما مدام بيكر مسلحة.

من المطبخ، ننتقل إلى داخل الرواق، حيث ألمح حركة عبر النوافذ في الواجهة الأمامية.

يمر ظل هيكل أسود.

ثم ثانٍ.

وثالث.

في البهو، تفتح مدام بيكر الباب الأمامي بحدة وتخطو خارجًا، وتقود ماسورة البندقية الهجوم. الليل مشوب بالضباب، والغشاوة تلتف ببطء فوق المرج. في الغبشة، يمرق هيكلان أسودان آخران، ليبلغ مجموع المتعدين الظاهرين خمسة. كلهم يحملون كشافات يدوية، تقطع أشعتها الضباب الكثيف مثل أشعة الليزر.

تصيح مدام بيكر فيهم:

- سترحلون الآن حالًا إذا كنتم تعرفون مصلحتكم!

يتفرق المتعدون في كل الاتجاهات، وخطواتهم تسحق العشب المبلل بالندى وكشافاتهم اليدوية تهتز في هلع. بمجرد أن يكونوا على مسافة آمنة من المنزل، يتوقف أحدهم ويتلفت، على خلفية من نور القمر الغارق في الضباب. يصيح:

- إنها لينورا!

ثم يهتف:

- القاتلة!

يحسم هذا الأمر. هم بالتأكيد ليسوا مراسلين صحفيين.

ينضم إليه واحد آخر صائحًا:

- القاتلة!

قبل أن يبدأ الآخرون أيضًا في الهتاف. تدوي أصواتهم في الليل، ويتردد صداها عبر الضباب:

- القاتلة! القاتلة!

المتعدي الذي بدأ الهتاف - زعيم العصابة على ما يبدو - يستمر في الصياح بها بعد أن يتوقف الآخرون، مضيفًا كلمة واحدة أخرى إلى السباب:

- القاتلة العاهرة!

أجفل عندما أسمعها.

كأنه صاح بها في وجهي.

عني.

أندفع متجاوزة مدام بيكر إلى الليل البارد كالثلج، من دون أن أفكر فيما أفعله ولماذا أفعله. كل ما أستطيع التركيز عليه هو الإمساك بالعفريت الفاجر الذي قالها، وهزه من كتفيه، والتأكد من معرفته بأنني بريئة.

يبدأ الهيكل الأسود في الجري عندما يراني قادمة، وحذاؤه الرياضي ينزلق على العشب المبلل بالندى. يمنحني هذا تلك الثانية الإضافية التي أحتاج إليها كي ألحق به قبل أن يتمكن من الفرار. أندفع إلى الأمام، وأقبض عليه من ياقة قميصه، وأجذبه. تنزلق قدماه تحته، ويسقط على الأرض مثل جوال من القمح. يطير الكشاف اليدوي من يده ويتدحرج على العشب، وضوؤه يتذبذب. في ذلك الوهج المتقطع، أقفز فوقه، لدهشته ولدهشتي أكثر منه.

لكن مفاجأة أخرى تنتظر كلينا.

وهو يتلوى في العشب تحتي، يتطلع المتعدي إليَّ ويقول:

- كيت؟

مهما كان مصدومًا، فدهشتي مضاعفة.

إنه كيني.

يقول:

- ماذا تفعلين هنا؟

ألتقط أنفاسي وأنزلق من فوقه ساقطة على العشب.

- أعمل هنا. ما الذي تفعله أنت هنا؟

يقول كيني وهو يعتدل جالسًا:

- أحظى فقط بالقليل من المرح مع الفتيان.

- ألستَ أكبر قليلًا من هذا الهراء يا كيني؟

يبتسم الآن بالطريقة نفسها التي كان يبتسم بها كلما التقيته عند الباب الخلفي ويقول:

- بلى، لكن لا يبدو أن الأمر يؤذي أحدًا.

كان سيشدو بلحن آخر لو أطلقت مدام بيكر الرصاص على واحد منهم، وهو ما أعتقد أنها كانت لتفعله. بالتأكيد لدى امرأة مثلها إصبع متلهفة على ضغط الزناد.

- أتعملين بالفعل هنا؟ في هوبليس إند؟

أتنهد. هكذا يُسمُّون المكان الآن.

- نعم.

- من مريضتك؟

- من تعتقد؟

يرمش كيني بعينيه ويقول:

- مستحيل! كيف تبدو؟

- ليست قاتلة عاهرة.

يخفض كيني عينيه ويقول:

- نعم، آسف بشأن ذلك. لم أقصد أي شيء. هذا فقط ما يقوله الجميع عنها.

- هم مخطئون.

- إذن كيف تبدو حقًّا؟

- هادئة.

هكذا أرد ردًّا يقول كل شيء، وفي الوقت نفسه لا يكشف أي شيء.

أرنو إلى ممر السيارات الطويل الممتد إلى البوابة الأمامية، حيث تجمَّع بقية أصدقاء كيني. على الأقل البوابة مغلقة تمامًا الليلة. لكن هذا لا يهم. واحد من «صبيان» كيني يرفع الآخرين فوق السور الحجري. وفي الأعلى، يمد آخر يده لمساعدته في الرفع. بالبوابة أو من دونها، ثبت أن أي شخص حرفيًّا يستطيع أن يدخل المنزل ويقتل ماري.

يصيح واحد من أصدقاء كيني فيه من فوق السور:

- كيني، هل أنت قادم؟

يهتف كيني بدوره:

- بعد قليل!

أقول له عندما يختفي أصدقاؤه وراء السور:

- هل تفعلون هذا كثيرًا يا شباب؟

- لم نفعلها منذ المدرسة الثانوية.

يعني منذ سنتين فقط في حالته.

- كان بعضنا يشرب وقررنا أن نأتي لنرى إن كان ما يقوله الجميع صحيحًا. كما تعلمين، عن ممرضتها الميتة.

- ماذا عنها؟

أعتدل أكثر في جلستي، وأنا أشعر بفضول حقيقي تجاه ما يعتقده الناس في البلدة عن موت ماري. حتى الآن، الرأي الخارجي الوحيد الذي اطلعت عليه هو رأي المحقق ڤيك.

- ماذا يقولون؟

- إن لينورا هوب قتلتها.

بالتأكيد يقولون هذا. كان ينبغي لي أن أعرف أنه لا يجدر بي أن أهتم بما يقوله أبناء بلدتي.

- هذا مستحيل.

- لماذا؟

- هناك سبب وراء عدم رؤية لينورا طوال عقود.

أنهض وأنفض تنورة زي الممرضة الرسمي، الذي ابتل الآن من العشب. ثم أمد يدي وأساعد كيني على النهوض.

- لا تستطيع المشي. أو الكلام. أو حتى تحريك أي شيء إلا يدها اليسرى. لا ضرر منها.

- كيف تعلمين؟

- لأنني مقدمة الرعاية لها. قضيت معها وقتًا أكثر مما قضيته معك.

- أعرف أنكِ تعتقدين أنني غبي.

يقولها كيني من دون لمحة من غضب. بدلًا من ذلك، ثمة استسلام رقيق في

صوته يجعلني أعيد التفكير في علاقتنا، إن كان يمكن تسميتها علاقة. صراحة لم أعتقد أنه يهتم بما أعتقده. والآن لست بهذه الثقة.

أقول:

- لا أعتقد هذا.

يمنحني ابتسامة حزينة ويقول:

- لا بأس. أنا غبي. في كثير من الأشياء. لكنني أعتقد أن هذا يساعدني أحيانًا على رؤية أشياء يفرط أشخاص أذكى مثلك في التفكير فيها.

- مثلي أنا؟

أقولها شاعرة بالإطراء لأنه يعتبرني ذكية، وفي الوقت نفسه بالإهانة لأنه يعتقد أنني أفرط في التفكير في أشياء.

- ما أقصده أن الحقائق أحيانًا تكون مزعجة. طبعًا أنتِ مقدمة الرعاية للينورا هوب، وتعتقدين أنها لا تستطيع أن تؤذي أحدًا.

- لأنها لا تستطيع.

- ما زلت تفرطين في التفكير. هناك في كل شخص أكثر مما تراه الأعين. أنت، وأنا، وحتى لينورا هوب. انظري إلينا. زمان عندما قررنا أول مرة أن...

- نتضاجع.

أقولها، لأنها كل ما كانت عليه المسألة.

- صحيح، وقتها، عرفت ما حدث لوالدتك وما كان يقوله الجميع عنك. لكنني لم أنفق أي وقت في التفكير فيه. عرفت فقط في دخيلتي أنكِ شخص طيب.

أحس بغصة في حلقي. لم يقل أحد ذلك عني لوقت طويل. وأن يصدر هذا عن كيني، من بين جميع الناس، يجعلني فقط أفهم كم آذاني صمت أبي. هو الذي كان ينبغي أن يخبرني بهذا. وليس الشخص الذي بدأت النوم معه فقط لأنني كنت متعطشة للاتصال الإنساني.

أقول له:

- أشكرك.

يرد كيني وهو يهز كتفيه:

- العفو. لكن على الجانب الآخر، أحيانًا تخبرك دخيلتك بشيء آخر. لذلك وعلى الرغم من أن لينورا تبدو كأنها لا تستطيع أن تفعل الكثير، ربما - مثلك - يوجد أكثر مما تراه الأعين.

بالتأكيد يوجد في كيني أكثر مما توقعت. فيما مضى، عندما كنا نمارس الجنس بعد الظهر من دون قيود، لم تكن لديَّ أي فكرة عن وجود هذا النوع من الحكمة داخله. لكن قبل أن أتمكن من منحه تقديرًا أكبر مما يجب، يمسك خصري، ويجذبني إليه، ويقبلني بطريقة خرقاء.

أدفعه بعيدًا عني، قلقة من أن تكون مدام بيكر ما زالت تراقب من الباب الأمامي.

- لن يحدث هذا يا كيني.

- اعتقدت أنني من الممكن أن أجرب.

يقولها وهو يبتسم تلك الابتسامة الهائجة التي رأيتها عشرات المرات منذ شهر مايو.

- ينبغي أن أرحل على أي حال. خذي حذرك يا كيت. إذا غيرتِ رأيك في أي لحظة، فستعرفين أين تجدينني.

يغمز لي كيني غمزة لعوبًا قبل أن يعدو إلى السور في نهاية المرج ويعتليه من دون مجهود. ثم يلتفت ويحييني بطريقة مبتذلة ويقفز من فوق السور مختفيًا عن الأنظار.

أستدير عائدة، وأنا أتأمل هوبز إند كله. من منظوري في المرج، يبدو هائلًا، منيعًا. من السهل نسيان ذلك عندما تكون في الداخل، تجتاز سلالمه المبقعة بالدماء وأروقته المائلة. لينورا على الشاكلة نفسها. أتذكر الخوف الذي شعرت به عندما خطوت داخل غرفتها لأول مرة. كانت سمعتها تسبقها. والآن بعد أن عرفتها، هذه السمعة إن لم تكن خبت فهي على الأقل صارت ألطف بسبب الألفة.

ولم تَعُد هكذا، بفضل كيني.

تخبرني دخيلتي الآن بأنني كنت مخطئة عندما اعتقدت في البداية أن هناك أربعة أشخاص فقط في هوبز إند يستطيعون دفع ماري من فوق الشرفة. يوجد شخص آخر.

مشتبه فيه خامس، غير محتمل بشدة.

لكنه الآن مشتبه فيه على أي حال.

لينورا.

٢٧

عندما أعود إلى المنزل، أجد مدام بيكر ما زالت في البهو وجيسي على الدرج الكبير، واقفة في غفلة منها على بقع الدم في البساط. تتسع عيناها لمرأى البندقية في يدَي مدام بيكر. تقول:

- ماذا يجري؟

ترد عليها مدام بيكر وهي تقطع الصالة نحو المطبخ:

- متعدون.

أقول:

- توليت أمرهم.

تطلق جيسي تنهيدة ارتياح وتقول:

- ماذا كانوا يريدون؟

- لا شيء. فقط بعض الصغار يلهون في الجوار.

على الرغم من أنه، في حالة كيني، لم يَعُد صغيرًا. وتحذيره ما زال يتردد في أفكاري. نعم، لينورا هي من كتبت قصتها، لكنها ربما ندمت على إخبار ماري بكل هذا. أو كانت لديها أفكار أخرى. أو لم تعتقد أن ماري ستخبر أي شخص آخر وأحست بالحاجة إلى التصرف عندما أدركت أن تلك هي الخطة. أفكر حتى في الكدمة على ذراع لينورا، التي التأمت الآن تمامًا. أيمكن أن تكون ماري قد

سحبت عينة الدم ضد إرادتها؟ ألهذا سحبتها من ذراع لينورا اليسرى السليمة بدلًا من يمناها العاطلة؟ وهكذا لم يكن هناك سبيل أمام لينورا لمقاومة اقتراب الإبرة؟

تتعارض هذه الفكرة مع فرضية أن لينورا، من بين كل الناس، هي من قتلت ماري. أيمكنها أن تدفع أحدًا إذا كانت لا تستعمل إلا ذراعًا واحدة؟ وإذا كان هذا ما حدث، فكيف أمكنها أن تفعلها وهي لا تستطيع حتى أن تمشي؟

الإجابة، بالطبع، أنها تتظاهر فقط بأنها لا تستطيع.

لقد مررت بما يحول بيني وبين الرفض الصريح لفكرة أن لينورا تدَّعي هذا. أولًا موضوع الووكمان وعدم احتمالية أن يُطفأ وحده. ثم تلك الأصوات الصادرة عن غرفة لينورا كل ليلة تقريبًا. أصوات صرير ووقع أقدام وحفيف ملابس. ناهيك بالظل العابر وراء الباب المشترك والشبح الرمادي الذي رأيته عند النافذة. إلى أن أعرف ما تسبب في بعض، إن لم يكن كل، هذه الأشياء؛ لا بد أن تبقى لينورا مشتبهًا فيها.

في الطابق العلوي، أتلصص على غرفتها. على الرغم من الضجة في الخارج، فإن لينورا ما زالت نائمة. أو على الأقل تتظاهر بذلك.

تمامًا مثلما قد تتظاهر بأنها غير قادرة إلا على تحريك يدها اليسرى فقط.

لعلها قادرة على ما هو أكثر بكثير.

مثل الكلام.

والمشي.

والدفع.

الطريقة الوحيدة لاكتشاف الحقيقة هي الإمساك بها متلبسة بالفعل. هذا إذا كانت تفعله حقًّا. فربما هناك شخص آخر يصدر الأصوات والحركة في غرفتها كل ليلة. وفي هذه الحالة، أريد أن أعرف من يكون، ولماذا.

أعبر غرفة لينورا وأدخل غرفتي عبر الباب المشترك. وبدلًا من غلقه، أُبقي الباب مفتوحًا قليلًا وأسنده بكومة من الكتب ذات الأغلفة الورقية من رف الكتب. أُغير زي العمل، وأزحف إلى الفراش، وألتقط كتابًا أخذته بشكل عشوائي من

الرف. رواية تحفظات للكاتبة جوديث كرانتز. إلى جوارها ترموس ملأته بما تبقى من قهوة هذا الصباح. باردة ومُرَّة، وهو ما أحتاج إليه بالضبط. إذا سار أحد في غرفة لينورا الليلة، أخطط أن أكون مستيقظة لأراقبه.

أموضع نفسي في زاوية مائلة قليلًا على الفراش، لأضمن أن يظل الباب المفتوح في مجال نظري طوال الوقت. ثم أتهيأ لليلة بلا نوم. متزودة بقهوة سيئة وكتاب لا بأس به، أبقى مستيقظة لساعات.

ما يكفي لإنهاء مائة صفحة من كتاب جوديث كرانتز.

ما يكفي بعد ذلك لعدِّ الأمواج التي تتكسر على سفح المنحدر.

ما يكفي للتوقف بعد إحصاء مائتين منها.

وما يكفي لأرى أمي تدخل الغرفة من خلال الباب المشترك.

تسير في صمت إلى طرف فراشي، وهي تتمايل على ساقين هزيلتين من المرض. أسنانها تتكتك، يبدو صوتها أشبه بضربات مفاتيح آلة كاتبة. ترفع ذراعًا برزت عظامها وتشير إليَّ بينما يسقط فكها السفلي مفتوحًا.

ثم تصرخ.

أهب معتدلة في فراشي، وعيناي ما زالتا مغلقتين وأذناي ما زالتا تدويان برنين الصراخ الذي أطلقته أمي في الكابوس. ليس صراخًا، بل طنينًا. طنين عالٍ ثابت إلى درجة أنني أستمر في سماعه على الرغم من أنني مستيقظة الآن.

أفتح عينَي على غرفة نوم متوهجة بضوء أحمر وطنين منبه لينورا على الطاولة المجاورة للفراش. أنظر إلى الباب المشترك.

مغلق.

أقفز من الفراش، وأفتحه بعنف، وأندفع إلى داخل غرفة لينورا. هي مستيقظة في الفراش وزر الاستدعاء مسحوق تحت كف يدها اليسرى. فمها يتدلى مفتوحًا، مطلقًا أنينًا مغرغرًا يعكس ذعرًا خالصًا. عيناها مفتوحتان على اتساعهما وهي تحدق إلى شيء على الجانب الآخر من الغرفة.

الآلة الكاتبة.

ورقة جديدة تستقر في العربة، ممتلئة بجملة واحدة مكتوبة مرة بعد مرة بعد مرة.

الغلطة غلطتك

الغلطة غلطتك

الغلطة غلطتك

الغلطة غلطتك

الغلطة غلطتك

الغلطة غلطتك

أنتزع الورقة من الآلة الكاتبة وأجري إلى لينورا.

- دعيني أخمن. أختك؟

تدق لينورا بيدها مرتين.

٢٨

أرفع الورقة حتى يتمكن الجميع من رؤية المكتوب عليها وأقول:

- من منكم فعل ذلك؟ أعرف أنه شخص موجود في هذا المنزل.

كلنا محشورون في غرفة نوم لينورا. كل شخص يعيش ويعمل في هوبز إند. كارتر وجيسي يتشاركان الأريكة. آرشي يجلس على حافة فراش لينورا. ومدام بيكر واقفة في المدخل، معقودة الذراعين ونظارتها على عينيها حتى تستطيع الحصول على رؤية أفضل لما لعلها تعتقد أنه انهيار عقلي.

أستحق تقديرًا أكبر من ذلك. لو كنت حقًّا مصابة بالهستيريا، لما انتظرت إلى ما بعد الفطور كي أطلب من الجميع الاجتماع في غرفة لينورا. كنت لأفعلها في الرابعة صباحًا بعد أن وجدت الورقة مباشرة.

تقول مدام بيكر:

- من فعلها بحسب قول الآنسة هوب؟

- أختها.

تتسع عينا مدام بيكر خلف إطار نظارتها الشبيه بعينَي القطة. يسعل آرشي، ربما في محاولة لكتم ضحكة. يبدو كارتر وجيسي قلقين.

أو متوترين.

أو كليهما.

أما بالنسبة إلى لينورا، فهي تجلس ببساطة قرب النافذة في كرسيها المتحرك، مراقبة ما يحدث بانبهار شديد. من ابتسامة الموناليزا على وجهها، أعتقد أنها تستمتع بالأمر. لعلها لم تحظَ بكل هذا العدد من الزائرين طوال عقود.

تقول مدام بيكر:

- هذا مستحيل.

- أعلم هذا. وهو ما يعني أن أحدكم تسلل إلى داخل هذه الغرفة وفعلها.

- ولماذا يفعل أحدنا هذا؟

يأتي هذا السؤال من جيسي، التي تسأله وهي تلوي واحدة من الأساور الكثيرة حول رسغها.

- لا أعلم.

أقولها وأنا في الحقيقة أعتقد أنني أعلم. أيًّا كان من فعل هذا فالأرجح أنه يحاول إخافة لينورا لمنعها من إخباري بكل ما أخبرت به ماري.

لأن كاتب الجملة الغامض هو أيضًا الشخص الذي قتلها.

هذه الفكرة نفسها تحبس أنفاسي.

أنا في غرفة واحدة مع قاتل.

لا يهم إن كانت البوابة مفتوحة في الليلة التي قُتلت فيها ماري أو أنه من السهل القفز على السور كما أثبت كيني وأصدقاؤه. الورقة المكتوبة في يدي تجعلني مقتنعة بأن هذا عمل جرى من الداخل.

أُنقِّل بصري من شخص إلى شخص، وأتفحص تعبيرات وجوههم ولغة أجسادهم، باحثة عن علامات كاشفة. تدوير جيسي لإسورتها، على سبيل المثال، قد يكون علامة توتر. الأمر نفسه ينطبق على نظارة مدام بيكر التي أخفضتها، لكنني واثقة بأنها سترفعها إلى وجهها مرة أخرى قبل الكلام. أما عن آرشي، فمن الصعب قراءته. هادئ وساكن تمامًا. باستثناء ذلك السعال الوحيد، لم يفعل أي شيء يجذب الانتباه له. ربما تلك علامته الكاشفة.

تقول مدام بيكر وهي تضع نظارتها على عينيها من جديد مثلما تنبأت تمامًا:

- لديَّ سؤال. كيف تمكنت الآنسة هوب من إخبارك بأنها تعتقد أن أختها فعلتها؟

- دقت بيدها نعم.

- إذن هل سألتِها بالتحديد إن كانت أختها؟

أخيرًا يقول آرشي معلقًا:

- هذا شيء غريب.

تقول مدام بيكر:

- فعلًا. لا أستطيع إلا أن أظن بأنكِ فعلتها لأنك ذكرت كل أسمائنا للآنسة هوب وقيل لك لا.

أقول:

- هذا الجزء غير مهم. المهم أنها قالت إنها ڤرجينيا. وهو ما نعرف جميعًا أنه ليس صحيحًا.

تقول جيسي:

- ولماذا تعتقد هي ذلك؟

في الحقيقة، لا أعرف. أفضل حدس لديَّ أن الحديث عن الماضي يجعل لينورا تحلم به. تلك الكوابيس الاستثنائية التي يمكث أثرها. وعندما تستيقظ، تعتقد أنها حقيقية. فقط للحظة. وأن أختها ما زالت معها.

لكن قول ذلك سيكشف كل شيء. فكرة مغرية. إخبارهم بكل شيء ورؤية ما سيحدث. أقر بأنني كنت أساعد لينورا على كتابة قصتها، وأن ماري فعلت الشيء نفسه، وأن هذا هو السبب في اعتقادي بأن أحدهم دفعها من الشرفة. لكنني لا أفعل ذلك لأنه سيكشف أيضًا أسرار كارتر. وهو الشيء الذي تخبرني عيناه الزائغتان العصبيتان بأنه لن يروقه.

تقول مدام بيكر مجيبة بدلًا مني:

- إنها سلطة التأثير. شيء ما في لغة جسد كيت أو الطريقة التي نطقت بها أسماءنا أوحى إلى الآنسة هوب أنها ليست الإجابة التي تريدها. لكن

الطريقة التي نطقت بها اسم أخت الآنسة هوب أفلحت. كانت الآنسة هوب تحاول فقط أن ترضيها.

وإذ لا أعرف كيف أرد، أبدأ في تسوية تنورة زي العمل. علامتي الكاشفة. وأقول:

- إلامَ تشيرين؟

تقول مدام بيكر:

- إلى أنكِ الفاعلة يا عزيزتي.

- ولماذا أكتب هذا؟

- جذبًا للانتباه؟

تقولها جيسي على سبيل الاقتراح وهي تلقي نظرة سريعة نحو كارتر ربما لم تردني أن ألاحظها.

أحدجها بنظرة غاضبة وأقول:

- لست بحاجة إلى لفت انتباه أحد.

تميل مدام بيكر برأسها محدقة إليَّ، وعيناها الزرقاوان توخزانني مثل أشعة الشمس في الشروق، وتقول:

- إذن لماذا نحن جميعًا هنا؟ أنتِ من طلبت قدومنا جميعًا إلى هنا كي ترينا الكلمات المكتوبة على تلك الورقة وتخبرينا بأن الآنسة هوب تزعم أن أختها هي الفاعلة. لماذا تكبدتِ كل هذا العناء؟

- لأنني أريد أن يتوقف من فعلها أيًا كان، رجاءً. ويتوقف عن التسلل إلى غرفة الآنسة هوب في الليل.

يتصلب جسد مدام بيكر وتقول:

- أهناك من يفعل ذلك؟

- نعم.

- ولماذا لم تخبريني؟

- أخبرتك. في الصباح التالي لليلتي الأولى هنا. أخبرتك بأنني سمعت وقع

أقدام في غرفة نوم الآنسة لينورا وقلتِ إنها الريح فقط. لكنني سمعتها مرة أخرى في الليلة التالية. ورأيت أحدًا عند تلك النافذة. وشاهدت ظلًّا يمر عند الباب بين غرفتينا. لم تكن تلك الريح. لذلك إما أنه كان واحدًا منكم وإما كانت لينورا.

أحدق إلى مدام بيكر، متحدية إياها أن توبخني لعدم قولي «الآنسة هوب». لكنها لا تفعلها. وبدلًا من ذلك تقول:

- أخبريني على الفور إن حدث هذا مرة أخرى.

ثم تغادر الغرفة، لتنهي هكذا هذا الاجتماع المنزلي الميلودرامي والعقيم في النهاية.

آرشي هو أول من يتبعها في الخروج. ثم كارتر، الذي يمنحني نظرة تقول «يجب أن نتكلم فيما بعد» قبل أن ينفلت خارجًا من الباب. لكن جيسي تمكث. تقول وهي ما زالت على الأريكة:

- آسفة على قولي ذلك. لا أعتقد حقًّا أنك فعلتها لجذب الانتباه.

- آه، شكرًا.

تنهض وتقترب مني وتلمس ذراعي:

- ما أقصده أنني لا أعتقد أنكِ فعلتها أصلًا.

ألمح لينورا بطرفَي عينَي تتظاهر بأنها لا تولي اهتمامًا لكل كلمة. وقبل أن تتمكن جيسي من قول أي شيء آخر، أجذبها إلى غرفتي وأغلق الباب المشترك خلفنا.

أسألها:

- هل فعلتها؟ هل كتبتها وجعلت لينورا تخبرني بأن أختها من فعلتها؟

تنفلت جيسي بعيدًا عني نحو رف الكتب وتقول:

- مستحيل. كيف أمكنكِ حتى أن تفكري في شيء كهذا؟

لأنها فعلت هذا من قبل. في قاعة الرقص. بلوح ويجا. كأننا نلعب لعبة مفتاح اللغز اللعينة.

- إذا كان هذا نوعًا من المقالب، فأنا...

تقاطعني جيسي:

- قلت لكِ ليس أنا. كيف لك أن تعلمي أنها لم تكن لينورا؟ تستطيع الكتابة على الآلة، صحيح؟

- ليس هكذا...

ألقي نظرة على الورقة في يدي، المليئة بحروف كبيرة وعلامات ترقيم صحيحة.

- وليس من دون مساعدة.

- ربما بمقدورها أن تفعل أكثر مما تعتقدين.

قال كيني الشيء نفسه ليلة الأمس. وفكرت في ذلك أنا نفسي قبل ذاك، وأنا أعبث بالووكمان كي أرى إن كان في الإمكان أن ينغلق من تلقاء نفسه.

- هل ماري...

لا أدري كيف أصيغ هذا السؤال من دون أن أبدو مجنونة. هل قالت إن لينورا أقوى مما تبدو عليه؟ هل اعتقدت أن لينورا تتظاهر بهذا كله؟

- هل قالت ماري إنها تعتقد أنه من المحتمل أن تتعافى لينورا؟

- بأي شكل؟

أفكر: تسير، تدفع، تقتل.

أقول:

- بأي شكل. ذهنيًّا. بدنيًّا.

تقول جيسي:

- أن تتعلم المشي من جديد مثلًا؟ لا. لم تقل ذلك قَطُّ.

- لكنه من المحتمل، أليس كذلك؟

تستند جيسي إلى رف الكتب، ويداها خلف ظهرها، وتقول:

- كنت أتحدث فقط عن الكتابة على الآلة. لم أقصد أن تعتقدي بأن لينورا تتحرك في الأرجاء من دون أن تخبر أحدًا. بالتأكيد سمعنا كلنا قصصًا عن

أشخاص يفيقون فجأة من غيبوبة أو أشخاص مشلولين يتمكنون بمعجزة ما من السير مجددًا. لذلك أظن أنه من الممكن أن يحدث. لكن ربما ليس لشخص في سن لينورا. لا تستطيعين أن تعلمي كلبًا عجوزًا حيلًا جديدة. شيء من هذا القبيل.

- لكن ماذا لو لم تكن هذه حالة كلب عجوز يتعلم حيلة جديدة؟ ماذا لو عرف هذه الحيلة بالتحديد منذ أن كان صغيرًا؟

- أتعتقدين أن لينورا تتظاهر بذلك؟ لماذا تفعل ذلك؟

لا أملك إجابة إلا أن لينورا يبدو كأنها تستمتع بالاحتفاظ بالأسرار. فعلت ذلك طوال عقود، ولم تخبر مخلوقًا قَطُّ بما كانت تعرفه عن مذبحة عائلة هوب إلى أن جاءت ماري. والآن، على الرغم من كل المنطق والعقل، لا أستطيع أن أتخلص من الشعور بأنها بمجرد أن كشفت سرها الأكبر لماري، قررت لينورا أن تسترده.

لو كان هذا شيئًا ممكنًا.

- أنا قلقة عليكِ نوعًا ما يا كيت. أنت تتصرفين مثل ماري.

- بأي شكل؟

- إممم، بكل الأشكال.

كنت لأقلق عليَّ أيضًا لو لم أكن أعرف ما يجب أن أفعل. أن شخصًا ما يتجول في غرفة لينورا. أنها كذبت عليَّ مرارًا حول من يكون. أنها أطفأت الووكمان باستخدام يد يعتقد الجميع أنها لا تستطيع أن تستخدمها.

أقول:

- أنا بخير.

على الرغم من أنني لست كذلك.

عندما تغادر جيسي، زاعمة أنها يجب أن تمسح التراب عن الجرار في المكتبة بالطابق الأرضي - علامة مؤكدة على أنها تريد أن تبتعد عني إلى أقصى حدٍّ - فإن شخصًا بخير لن ينقل لينورا من كرسيها المتحرك إلى الفراش.

شخص بخير لن يفحص ساقَي لينورا بعدها وذراعها اليمنى، باحثًا عن علامات قوة غير مستغلَّة، متلمسًا عضلات منقبضة من انعدام الاستخدام.

شخص بخير لن يدغدغ أيضًا كف لينورا، باحثًا عن رعشة أو رجفة أو بصيص حركة.

أفعل كل هذه الأشياء بينما تراقبني لينورا من الفراش، بحذر أكثر مما يبدو بارتياب. أعتقد أنها تعرف ما أنا بصدده. إذا كانت قادرة على المقاومة، فهي لا تبدي أي أمارة على ذلك. ذراعها اليمنى المرتخية من السهل فردها على المرتبة، بكف مفتوحة وأصابع مفرودة. عندما تتنهد، كأنها مرت بهذا من قبل، أتساءل إن كانت ماري جربت فعل ذلك أيضًا.

ترى هل أفلحت تجربتها؟

هل أحست لينورا ساعتها بضرورة أن تعمل على اختفائها؟

بوضع هذا في الحسبان، فإن الخطوة المنطقية التالية ستكون تجريب مضاد الدغدغة - أي إحداث الألم، وهو الحري باستخراج رد فعل. سيكون هذا سهلًا للغاية أيضًا. ما عليَّ إلا تناول حقنة وإبرة من حقيبة ماري الطبية، وغرسها في يد لينورا اليمنى، وترقب الإجفال.

أطرد الفكرة من ذهني. فهي تتعارض مع كل ما تدربت على فعله. قد لا أثق بلينورا الآن - ولعلِّي أبعد ما يمكن عن أن أكون بخير - لكني ما زلت مقدمة رعاية.

لذا أتجه إلى المكتب، وأتناول الورقة التي وجدتها في الآلة الكاتبة، وأقرأ الاتهام الممتد من أعلى الصفحة إلى أدناها. أنا متعبة بشدة إلى حد أن تبدأ الكلمات في التشوش، وتعيد الحروف ترتيب نفسها أمام عينَي.

الغلطة غلطتك

الغلطة غلطة كيت

ما يقولونه ليس صحيحًا يا كيت كات

أكور الورقة، وآخذها إلى الفراش، وأسقطها في كف لينورا اليمنى المفتوحة. أملي أن تتغلب ردود أفعالها المنعكسة عندما تضرب كرة الورق كفها، بالطريقة نفسها التي نمسك بها شيئًا ما من دون تفكير. يحدث هذا فقط. في لحظة ما، تتغلب الغريزة.

ليس في هذه الحالة. تتقافز الورقة المكورة مرتدة من كف لينورا وتسقط على البلاط.

ألتقطها وأجرب مرة ثانية.

ثم مرة ثالثة.

ثم ألقيها عبر الغرفة، حيث ترتد من النافذة قبل أن تتدحرج إلى ركن من الغرفة.

أحتاج إلى شيء أثقل. شيء ستحس به لينورا حقًّا عندما يستقر في كفها.

أرمق الباب المفتوح بين غرفتينا والكتب التي سندته من قبل ليظل مفتوحًا، لكنها أزيحت عن الطريق عندما جذبه أحدهم (ڤرجينيا؟ لينورا؟) ليغلقه. أتناول كتابًا - رواية أشخاص عاديون لجوديث جيست - وأمسكه بحيث يكون كعبه إلى الأسفل على بُعد بوصات من كف لينورا.

أتركه يسقط. مكتبة سُر مَن قرأ

يقف الكتاب منتصبًا للحظة قبل أن ينقلب على جانبه فوق إبهام وسبابة لينورا.

لا شيء على الرغم من ذلك.

لأنه، كما أدرك، ليس من المهم الإمساك به. الكتاب، مثل كرة الورق، من الممكن الاستغناء عنه. كلاهما لا يعني شيئًا لها. إذا كانت لينورا تتظاهر بكل هذا، فلن تكشف الحقيقة من دون سبب وجيه. من أجل دفعها إلى تحريك يدها اليمنى - إذا كانت تستطيع تحريكها - أحتاج إلى تقديم حافز أكبر من كرة ورق وكتاب مثني الحواف.

أتفحص الغرفة، مقيِّمة محتوياتها وصارفة النظر عنها بالترتيب. فرشاة شعر؟ أتفه من التفاهة. مرآة محمولة؟ أثقل مما يجب. الووكمان؟ مرشح قوي. لكنه أيضًا قابل للاستبدال.

تستقر نظرتي على كرة الثلج التي تضم برج إيفل على الخوان. باريس النمطية تحت الزجاج.

ها نحن أولاء ندخل في صلب الموضوع.

هدية للينورا من والديها اللذين ماتا منذ زمن بعيد، لها قيمة عاطفية كبيرة. من المحتمل أيضًا أن تساوي كثيرًا من المال. هي تحفة قديمة من جانب، وأشك أن شخصين مثل ونستون وإيڤانجلين هوب سيتوجهان إلى كرة ثلج رخيصة عند اختيار واحدة لابنتهما.

ألتقطها، مقتنعة أن لينورا لن تدعها أبدًا وإطلاقًا تسقط من قبضة يدها. تحرك الرحلة من الخوان إلى الفراش بعضًا من القصاصات الذهبية المستقرة في قاع الكرة التي جف ماؤها. تلتمع وتدور وأنا أحملها مقلوبة فوق كف لينورا.

تشرئب لينورا، الممددة على ظهرها، لترى ما أنا فاعلة. عندما تلمح القصاصات الذهبية داخل كرة الثلج، تبدو عليها نظرة مذعورة. تتوهج عيناها ببريق حاد، ويرتفع خوار من مؤخرة حلقها.

أتجاهل ذلك، ممسكة كرة الثلج بثبات، في انتظار اللحظة المناسبة كي أسقطها. أقول لنفسي إنني لا أفعل شيئًا خطأً. أن لينورا تستطيع الإمساك بها إذا كانت ترغب في ذلك حقًّا. أن سبب توترها البالغ ذاك أنها تعلم أنني على وشك النيل منها.

تحدق كلتانا إلى كرة الثلج، ونشاهد القصاصات الذهبية تستقر في منحنى القبة المقلوبة. عندما تسقط آخر قصاصة، أفلت الكرة.

ترتطم كرة الثلج بكف لينورا.

أحبس أنفاسي، وأنا أراقب وأنتظر.

أن تلتف أصابعها حولها.

أن تثبت أنها تستطيع أن تستخدم يدها اليمنى.

أنتظر اللحظة التي سيتأكد فيها على الأقل واحد من شكوكي.

لكن كرة الثلج تنقلب من يدها وتتدحرج عبر المرتبة.

ثم ترتطم بالبلاط وتتهشم.

الصوت الصادر من وراء باب غرفة أمي المغلق لم يكن يحتمل الشك.

زجاج يتكسر.

شهقت أختي عندما سمعته. وأنا جفلت فقط، كأن ما ألقته أمي للتو عبر الغرفة كان موجهًا إليَّ مباشرة وليس إلى أبي.

سمعته يقول متذمرًا:

- بحق المسيح يا إيفي، ألم تكتفي من التدمير؟

- في إمكاني أن أسألك السؤال نفسه.

كان صوت أمي عاليًا وواضحًا من وراء الباب. علامة على أنها كانت غاضبة حقًّا وصدقًا. في العادة، كانت صبغة الأفيون تبقي صوتها خنوعًا ومضطربًا. أسعدني أن أسمعها وهي تبدو كأنها استعادت ذاتها القديمة، حتى وأنا أعلم أن هذا نتاج لأسوأ شجار بين والدي منذ سنين.

قال أبي:

- لا شيء دمر. كل شيء بخير. الشركة تمر فقط بفترة صعبة. لذلك من المهم للغاية الآن أن يكون لدينا المال لإبقائها تعمل.

أطلقت أمي نخرة ساخرة:

- تقصد مال بنتينا.

- ينبغي أن يكون مالنا.

قالت أمي:

- على جثتي.

استفز هذا أبي كي يرد:

- لا تغريني.

قالت أمي:

- كان لدى والدي سبب وجيه كي ينشئا تلك الوديعة. لو أمكنك الوصول إلى ذلك المال، لأنفقته كله في سنة ولما كان لدى لينورا وفرجينيا شيء.

- لن يكون لديهما شيء فعلًا لو أفلست الشركة وحجزوا على هذا المنزل.

تبادلت أنا وأختي نظرات قلقة. لم تكن لدينا أي فكرة عن أن الأمور بلغت هذا الحد من السوء، على الرغم من أننا شككنا في ذلك. نادرًا ما كان والداي يتكلمان، ناهيك بأن يتشاجرا، لذلك عندما ترددت أصداء جدلهما في الرواق، جريت أنا وهي إلى الباب لنتنصت. عرفنا أن أمرًا جللًا هو السبب في ذلك.

قالت أمي:

- ستكونان بخير لو حدث هذا فعلًا.

- وماذا عني؟ ألن تهتمي إذا خسرت كل شيء؟

قالت أمي:

- لقد خسرت كل شيء بالفعل. لماذا لا تخسر أنت؟ أم أنت أكثر قلقًا بشأن عاهرتك الصغيرة؟ أظن أنني ينبغي أن أقول: العاهرات، بما أنه كان هناك الكثيرات طوال السنين.

- لا تمثلي دور البريئة معي يا حبيبتي.

رد أبي بكلمات كطلقات الرصاص، باصقًا كلمة المحبة التي كان يستخدمها معي بغلٍ مكشوف.

- كلانا يعرف الحقيقة.

جاء رد أمي هادئًا جدًّا إلى درجة أنني وأختي اضطررنا إلى ضغط أذنينا على

الباب كي نسمعه. حتى مع ذلك تمكنا بالكاد من تمييز الجملة التي خرجت أقرب إلى الهمس:

- لا أعرف عما تتحدث.

قال أبي:

- بل تعرفين. أعرف لماذا تزوجتِني. مثلما أعرف تمامًا أن لينورا ليست ابنتي.

شهقت. خرجت شهقتي مدوية حتى إنني أيقنت أن والدي سمعاها من وراء الباب. وكانت أختي على الدرجة نفسها من اليقين أيضًا لأنها وضعت يدها على فمي وجذبتني بخفة عبر الرواق إلى أول غرفة مفتوحة. شدتني إلى الداخل في اللحظة نفسها التي انفتح فيها باب غرفة نوم أمي. اختبأنا في تلك الغرفة المظلمة، وقلبي يدق عاليًا ورأسي مشوش من الصدمة، بينما أبي ينظر في الرواق يمينًا ويسارًا.

قال بصوت شديد الصرامة حتى إنه جمد الدم في عروقي:

- يا بنات، هل كنتما تتنصتان؟

أبقت أختي يدها على فمي عندما مر أبي بالباب المفتوح، على بُعد بضع بوصات منا. كنت قد بدأت في البكاء عندئذ، وتساقطت دموعي على أصابعها.

- هل أنتما هنا يا حبيبتي ويا محبوبتي؟

عندما توقف بجوار الباب تمامًا، أيقنت أنه على وشك القفز داخل الغرفة، والإمساك بنا من عنقينا، وجرنا خارج الغرفة. لكن لدهشتي التامة، تابع السير عبر الرواق وإلى الدرج الكبير. عندما خبا وقع قدميه حتى ساد الصمت، خرجت أنا وأختي أخيرًا وهرعنا إلى غرفة نومي. في الداخل، ألقيت نفسي على الفراش وبدأت في البكاء التام والصريح.

وقفت أختي قرب الجدار، معقودة الذراعين، من دون مزاج لمواساتي. أنا واثقة بأن هذا لم يخطر على بالها قَطُّ.

قالت:

- هل تعتقدين أن هذا صحيح؟ أننا قد نخسر هوبز إند؟

- أهذا ما يهمك؟ حتى بعد ما قاله أبي؟

هزت أختي كتفيها وقالت:

- آه، تقصدين ذلك الكلام. وقعت أمي في حب واحد من خدم والديها وحبلت. تخلى عنها وكان عليها أن تتزوج أبي لتجنب الفضيحة. اعتقدت أنك تعلمين.

هززت رأسي. لم تكن لديَّ أي فكرة.

على الرغم من أنني، حين أتأمل الأمر الآن، أعتقد أنه كان ينبغي أن أعرف. أنا وأختي لا يوجد بيننا إلا شبه بسيط. كان أنفانا مختلفين. وكذلك شعرنا وأعيننا. كنا نبدو أقل شبهًا بأختين وأقرب إلى بنتي عم، وهو ما كان يظنه الغرباء في أكثر من مناسبة.

- حسنًا، ها أنت ذي تعرفين الآن.

ثم سكتت أختي هنيهة بينما ارتسمت ابتسامة قاسية على شفتيها قبل أن تكمل:

- بصراحة، ينبغي أن يريحك هذا الأمر. تعرفين الآن من أين أتيت بما تحملين من صفات، وأنك لست العاهرة الوحيدة في العائلة.

ثم خرجت متبخترة من الغرفة، تاركة إياي وحدي مع شعور أجوف في دخيلتي بأنها تعرف أمري أنا وريكي.

وما هي إلا مسألة وقت قبل أن تخبر الجميع.

كان الخيار الوحيد أمامي أن أسبقها وأخبر على الأقل شخصًا آخر غير آرشي. كان أفضل شخص في ذهني هو أمي. ستتقبل الخبر بشكل أفضل بكثير من أبي، من ناحية. ومن ناحية أخرى ستتفهم باعتبار أنها مرت بالورطة نفسها.

بعد أن عزمت أمري، ذهبت إلى نهاية الرواق ودخلت غرفتها. كانت أمي مستيقظة بالكاد، على الرغم من أننا ما زلنا في وقت العصر. تلصص نور الشمس من بين الستائر المسدلة عند النوافذ، محاولًا أن يدخل بالطريقة نفسها التي ينساب بها الماء عبر شق.

همهمت من فراشها:

- أهذه أنت يا حبيبتي؟

وقفت عند طرف الفراش، محاولة أن أجد الكلمات المناسبة كي أقولها. لكن كان هناك الكثير مما يجب أن يقال -- والكثير من الأسئلة التي يجب أن تطرح -- حتى إنني اندفعت ببساطة قائلة:

- هل هذا صحيح؟ ما قاله أبي؟

ارتفعت تنهيدة من تحت الأغطية التي دفنت أمي نفسها تحتها.

- نعم يا حبيبتي.

- إذن أنت لا تحبينه؟

قالت أمي:

- لا.

- هل أحببته أصلًا؟

- لم أحبه قَطُّ.

بدت أمي حالمة ونائية. كأنها تتحدث وهي نائمة.

- قَطُّ ونهائيًا. وكان يعرف ذلك أيضًا. كان يعرف ذلك ودفع إلى الرجل الذي أحببته كي يهرب ولا يراني مرة أخرى. عندما حدث ذلك، وقعت في الفخ. لم يكن لديَّ خيار إلا الزواج به.

تحول صوت أمي إلى همهمة:

- لا خيار على الإطلاق.

صارت الهمهمة همسًا:

- آسفة يا حبيبتي.

خبا الهمس ليغدو لهاثًا.

وبعد ذلك... لا شيء.

- أمي؟

اندفعت إلى جوارها، وأمسكت بكتفيها وهززتها بقوة. انتفضت من الحركة، وارتطمت يدها اليمنى بالمرتبة، لتنفلت منها زجاجة صبغة الأفيون التي كانت تمسكها.

كانت فارغة تمامًا.

لقد ابتلعتها كلها، الأرجح أنها فعلتها قبل أن أدخل غرفتها مباشرة.

صرخت:

- أمي؟

وأنا أهزها بعنف أشد، محاولة أن أردها إلى الوعي. لكن لم تكن هناك جدوى. وبينما أمي راقدة هناك بلا حراك، تدحرجت زجاجة صبغة الأفيون على المرتبة وارتطمت بالبلاط وتهشمت.

٢٩

تمنحني لينورا نسختها من المعاملة الصامتة، التي تتضمن رفض الدق بأي استجابة حتى على أبسط الأسئلة. على الرغم من ذلك، أحاول، مستمرة في سؤالها ماذا تود أن تفعل هذا المساء.

- هل تودين أن تجربي الكتابة على الآلة؟

لا ترتفع يد لينورا اليسرى عن الفراش.

- في إمكانكِ الاستماع إلى جزء آخر من الكتاب الذي سجلته جيسي من أجلك. أتودين ذلك؟

مرة أخرى، لا شيء.

أقول:

- أو في إمكاني القراءة لكِ، قد لا يكون هذا ممتعًا لأيٍّ منا.

على الأقل تأتي هذه المزحة برد فعل. يفتر طرفا فم لينورا عن نصف ابتسامة. لكنها تخبو بالسرعة نفسها التي تشكلت بها، ويعود وجهها إلى وضعه الحجري بلا تعبير.

- أنا آسفة.

أقولها للمرة الخامسة على الأقل ذلك اليوم.

- أعني ذلك. وسوف آتي بكرة ثلج أخرى شبيهة. أقسم على ذلك.

كلتانا تعلم أنني لا أستطيع. لقد منحها إياها والدا لينورا المقتولان، منذ أكثر من خمسين عامًا. وأنا الشريرة الشكاكة التي كسرتها. لا عجب أنها غاضبة مني. أنا غاضبة من نفسي.

لأنني فكرت في احتمال أنها تتظاهر بحالتها. ولأنني مصابة ببارانويا شديدة إلى درجة أنني اعتقدت أن امرأة شبه مشلولة تمامًا يمكنها أن تقتل ماري. وللسماح لتلك البارانويا بتدمير ما لعله آخر ممتلكاتها الثمينة بالنسبة إليها. والآن كل ما أستطيع فعله هو الاستمرار في توسل العفو منها. حتى إنني أجثو على ركبتَي، وأركع وسط قصاصات الورق المذهبة التي بقيت على الأرض. لا أستطيع أن أخلص عقلي من الهيئة التي تفطر القلوب والتي بدت لينورا عليها وأنا أحاول إنقاذ ما بقي من كرة الثلج. كان هذا مستحيلًا. لم تَعُد الكرة نفسها إلا شظايا، ولم يبقَ إلا القليل جدًّا من المنظر الباريسي داخلها. حتى برج إيفل دُمر، وانقسم إلى نصفين. كل ما بقي هو القاعدة. منصة ذهبية صغيرة مبتورة. لم يكن لديَّ خيار إلا كنس القطع المهشمة وإلقاؤها في سلة المهملات، بينما تسيل دمعة واحدة من عين لينورا.

- أرجوكِ، أرجوكِ سامحيني.

قلتها وقتها وأقولها الآن مرة أخرى.

أخيرًا، ترد لينورا.

دقة واحدة على المرتبة.

لا.

- ماذا أستطيع أن أفعل لأعوضك؟ أي شيء تريدينه، سأفعله.

تنقل لينورا نظرتها إلى الآلة الكاتبة في الناحية الأخرى من الغرفة. تريد أن تكتب الآن. أنهض بسرعة وأضع ورقة جديدة في العربة. أُحضر الآلة الكاتبة إلى الفراش، وأضع يد لينورا اليسرى فوق المفاتيح.

تضغط ستة مفاتيح.

الخارج

أحدق إلى الكلمة مندهشة.

- تريدين الذهاب إلى الخارج؟

تدق مرتين على الآلة الكاتبة.

- لكن هذا ضد القواعد.

تنقر لينورا كلمة أخرى.

إذن

حتى من دون علامات ترقيم، أستطيع أن أجزم أنها تعنيها كسؤال.

- لكنكِ لا تريدين الذهاب إلى الخارج.

تكتب لينورا:

أريد

وتضيف:

أفتقده

- إذن لم تخبري مدام بيكر قَطُّ ألا تأخذكِ إلى الخارج؟

تكور لينورا يدها في قبضة قبل أن تهوي بعُقلات أصابعها على الآلة الكاتبة، لترفع مجموعة من المفاتيح تجلجل معًا، من دون أن يضرب أيٌّ منها الورقة. ولم تكن بحاجة إلى ذلك. أفهمها تمامًا.

لا.

لكن لا بد أن هناك سببًا وجيهًا وراء عدم رغبة مدام بيكر في خروجها. أستطيع أن أفكر في ثلاثة أسباب على الأقل بداية: الجو، وحالة لينورا الصحية الضعيفة، والعناء الخالص لإنزال امرأة مقيدة بكرسي متحرك على السلالم.

أقول:

- هل أنتِ واثقة بأنها فكرة جيدة؟

تدق لينورا مجيبة بنعم. لا عجب في ذلك.

- لن تكون مدام بيكر سعيدة عندما تراني أحاول فعل هذا.

لا يمكن أن تعرف

تبيَّن الأمر – هذه فكرة سيئة بالقطع. سأواجه مشكلة إذا أمسكت بنا مدام بيكر. وهو ما سيحدث. لا سبيل إليَّ كي أستطيع إنزال لينورا إلى الطابق الأول ومنه إلى الخارج من دون أن يلاحظ أحد. وأنا لست واثقة من استطاعتي حتى أن أفعل هذا أصلًا. ليس وحدي. وعندما يُقبض عليَّ، سأُطرد بالتأكيد، وهو ما سيؤدي إلى أن يفصلني مستر جرلين. أذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وقد انقبضت معدتي لمجرد التفكير في اضطراري إلى العودة إلى منزل أبي، محبوسة في دائرة مفرغة من الوحدة والصمت.

أقول للينورا:

– لا أستطيع. أنا آسفة. هذا خطر بالغ.

تكتب على الآلة فيما أستمر أنا في ذرع الغرفة. تنقر جملة كاملة بأقصى ما تسمح لها يدها الوحيدة العاملة من سرعة.

سأخبرك بما حدث للطفل

تمنحني لينورا نظرة راضية عن نفسها. تعلم أنه عرض لا أستطيع مقاومته. عرض يجعلني أتساءل إن كانت هذه خطتها طوال الوقت. ليس أن أكسر كرة الثلج وأشعر بالذنب إلى هذا الحد وأعدها بأي شيء. لا أحد يستطيع أن يخطط لهذا. لكن منحي فقط ما يكفي من تفاصيل حول ليلة القتل لجعلي أرغب في المزيد؟ رفض الكتابة في اللحظة التي ذكرت فيها الطفل؟ من المحتمل تمامًا أن لينورا فعلت كل هذا عن عمد، منتظرة اللحظة المثالية كي تستغلني لأعطيها ما تريد.

البادئ أظلم.

أقول:

– سيجب عليكِ أيضًا أن تخبريني ببقية قصتك. إن فعلنا هذا، فسيكون عليك أن تخبريني بكل ما أخبرتِ به ماري. كما وعدتِ.

لا تكتب لينورا ولا تدق ردًّا، ربما لأنها لا تعرف ماذا سيكون بعد. ينقطع صمتها بطرقة سريعة على الباب يتبعها صوت يقول:

– كيت؟ هل أنتِ في الداخل؟

مدام بيكر.

اذكر اسم الشيطان، سيحضر!

- ثانية واحدة.

أهتف قبل أن أعيد الآلة الكاتبة بسرعة إلى المكتب. في طريقي إلى الباب، أحاول أن أركل بعض القصاصات الذهبية الباقية تحت فراش لينورا. محاولة عقيمة للتغطية على ما فعلت. نظرة واحدة على كرة الثلج المهشمة في سلة مهملات الغرفة يمكن أن تخبر مدام بيكر بكل شيء.

أفتح الباب، مستعدة لمحاضرة عن أن الوقت تجاوز موعد نوم لينورا، وهو ما يجب الالتزام به بصرامة. لكن بدلًا من ذلك، تقول مدام بيكر فقط:

- شخص ما هنا يود رؤيتك.

ينتفض جسدي من الدهشة.

- من؟

- لم يقل.

هكذا ترد مدام بيكر، وهو ما أفسره بأنها تقصد أنها لم تسأل لأنها لا تبالي.

- هو منتظر خارج البوابة الأمامية.

- سأخرج لأراه بمجرد أن أودع الآنسة هوب في الفراش. لقد سهرنا كثيرًا هذا المساء.

تمسح مدام بيكر الغرفة بعينيها، متشممة فعليًّا مثل كلب بوليسي يبحث عن علامات فقدان شيء ما. لو رأت القصاصات اللامعة على البلاط أو الزجاج المكسور في سلة المهملات، فهي لا تُظهر أمارة على ذلك.

- من فضلك أخبري ضيفك أن يأتي في ساعة مناسبة في المرة المقبلة.

تقولها، وتنتظر إلى أن تخرج من الباب كي تضيف تلك العبارة الدالة:

- أو لا يأتي على الإطلاق.

بسرعة أغير ثياب لينورا إلى ثياب نومها وأرتب رقدتها تحت الأغطية. وبينما أضع زر الاستدعاء في يدها اليسرى، أهمس لها:

- سنتكلم أكثر عندما أعود.

ثم أطفئ الأنوار، وأتناول سترة ثقيلة من غرفتي، وأندفع إلى الطابق الأرضي.

في الخارج، الليل بارد لكنه صحو، والنجوم تلمع ساطعة على خلفية من سماء مخملية سوداء. أسير في منتصف ممر السيارات، متسائلة ليس فقط عمن ينتظرني عند نهايته بل لماذا هو هنا. أملي أن يكون المحقق ڤيك، يجتذبني بعيدًا عن الآخرين في المنزل ليعترف أخيرًا بأنه يصدقني. وخوفي أن يكون كيني، يتصيد نظرة مختلسة على لينورا هوب لليلة الثانية على التوالي.

لكنني أخطئ في الافتراضين.

ينتهي الأمر بأبي واقفًا على الجانب الآخر من البوابة، قابضًا على القضبان مثل سجين في زنزانة. ينظر إليَّ مندهشًا وأنا أقترب، كأنني من يقوم بزيارة مفاجئة. يقول:

- ما هذا الزي؟

أتجاهل السؤال.

- ماذا تفعل هنا؟

- أتيت لآخذك إلى المنزل.

وصفه له بذلك يجعلني أرفع حدقتَي وأديرهما في عينَي. ذلك المنزل لم أشعر بأنه منزلي طوال ستة أشهر.

- من أخبرك بأنني هنا؟

- كيني. وريتش ڤيك. ونصف البلدة اللعينة. هل اعتقدتِ أنني لن أعرف أنك تقدمين الرعاية للينورا هوب؟

كنت أعرف أنه سيعرف. في النهاية. لكن بالحكم على رد فعله الآن، كنت محقة بعدم إبلاغه عندما رحلت. ألقي عليه نظرة باردة عبر قضبان البوابة وأقول:

- ولماذا تهتم؟

- لأن كل شخص يعلم أنكِ تعملين من أجل تلك المرأة سيعتقد أن ما قالته الشرطة صحيح. سرعان ما سيعتقد الجميع أنكِ مذنبة.

- وماذا تعتقد أنت يا أبي؟

أقولها والألم يحز صوتي كأنه نصل مطواة.

- ما حدث لأمك كان حادثًا.

يقولها بسرعة. بالطريقة التي يستعملها الناس عندما لا يريدونك أن تلاحظ أنهم يكذبون. لكن أبي فاشل في ذلك. لا ينظر حتى إليَّ وهو يفعل هذا.

- ليتك تصدق هذا فعلًا.

يضيق صدري إذ يفيض الأسى وخيبة الأمل داخله، منبثقين من قلبي، منسكبين على أضلعي. ستكون عيناي هما التاليتين إذا لم أغادر فورًا. أتقهقر مبتعدة عن البوابة وأبدأ في التحرك عبر ممر السيارات. أرفض أن أدع أبي يرى بكائي عليه. أقول:

- وداعًا يا أبي. سأراك عندما أزورك.

- أنا قلق من وجودكِ هنا. ريتش ڤيك أخبرني بأنك من وجدت الفتاة الميتة.

- نعم.

أقولها متناسية كيف تسكن ماري كل ساعة في صحوي. أنا واثقة بأنها كانت لتسكن أحلامي أيضًا، لو أفسحت أمي مجالًا لها.

يضيف أبي:

- أخبرني أيضًا بأنك تعتقدين أنها قُتلت.

- هكذا يعتقد الجميع، بحسب قول كيني. الجميع باستثناء صديقك المحقق.

- إذن هذا صحيح؟ ذلك ما تعتقدينه حقًّا؟

يعود أبي إلى القبض على قضبان البوابة، محدقًا إليَّ عبرها بتعبير ثلثه قلق وثلثاه عدم تصديق. يريدني أن أقول لا. ربما كي أوفر عليه عناء أن يبدو مغفلًا عندما ينتشر الحديث عن ذلك حتمًا في البلدة مثل الأنفلونزا. على عكسه، لا أملك الطاقة للكذب.

- نعم. هذا ما أعتقده.

- هذا أدعى لإبعادكِ عن هذا المكان.

بل هذا أدعى بشدة لأن أبقى. بما أن محقق الشرطة الوحيد في البلدة لا يصدق أن ماري قُتلت، تقع على عاتقي مهمة إثبات أن هذا ما جرى لها. واكتشاف من فعلها. ولأن كل هذا يبدو متوقفًا على ماضي لينورا - ومقدار ما عرفته ماري منه - لا أستطيع الرحيل إلى أن أعرف الحقيقة.

ألتفت نحو هوبز إند وأقول:

- عُد إلى المنزل يا أبي.

- انتظري يا كيت.

لا أنتظر. أكمل سيري في الممر، مدركة تمامًا أن أبي ما زال يراقبني، على أمل أن أدور على عقبي، وأفتح البوابة، وأتبعه عائدين إلى منزل لم أعُد أعرفه. أبقي نظرتي ثابتة على أضواء هوبز إند. هو أيضًا ليس منزلي. لكنني لا أستطيع أن أنفض الإحساس بأن مستقبلي كامن داخل هذا المكان الذي ضربته المأساة مرتين.

في ليلتين متفرقتين.

تفصل بينهما عقود.

لكنهما مرتبطتان بامرأة واحدة أنا واثقة تمامًا بأنها تملك كل الإجابات، لكنها لن تكشفها إلا بعد أن تنال ما تريد.

بعد عودتي إلى المنزل، أتوجه رأسًا إلى غرفة لينورا. ما زالت مستيقظة، وعيناها اللامعتان موجهتان إلى السقف.

أقول:

- هل عقدنا اتفاقًا؟

تدق مرتين على زر الاستدعاء.

قُضي الأمر.

ستخرج لينورا.

وثمن اصطحابها إلى الخارج هو الحقيقة.

٣٠

تأتي فرصة التسلل بلينورا خارجًا بعد يومين، عندما يغادر كل من في هوبز إند المكان لحضور جنازة ماري ميلتون.

على الرغم من أن المزاج العام كئيب، فإن الطقس على خلاف ذلك تمامًا. يوم خريفي رائع، ربما آخر يوم في هذا الفصل. تفيض الشمس على السماء، وتلقي بأشعة تسحب اللذعة من برودة أكتوبر. السماء الخالية من الغيوم شديدة الزرقة حتى إنها تُذكرني بالياقوت. الأطلنطي هادئ، ولمرة واحدة تقرر الريح أن تقضي اليوم إجازة.

لا يعني هذا أن الطقس يهم. حتى لو هب إعصار، كنت سأصطحب لينورا إلى الخارج عندما تتهيأ الفرصة. طوال اليومين الماضيين، استمرت في حالة عدم الاستجابة أغلب الوقت، فلا تدق إجاباتها إلا عند الضرورة. والنتيجة أيام طويلة من الصمت المتوتر والملل بلا انقطاع.

لم أخبر أحدًا غيري بخطتي. ولا حتى لينورا. شعرت بميل إلى إخبار كارتر، لكنني اخترت ألا أخبره فقط كي أكون في الجانب الآمن. آخر ما أريده أن أجازف باكتشاف مدام بيكر للأمر ووضعها حدًّا له.

أراقبهم من أعلى الدرج الكبير وهم يتجمعون استعدادًا للرحيل؛ آرشي وكارتر في بدلتين سوداوين، وجيسي تخالف المألوف مرتدية فستانًا أبيض ملفوفًا، ومدام

بيكر ترتدي ما ترتديه في العادة، بالإضافة إلى قبعة عريضة الحواف ونظارة على شكل عينَي القطة. بمجرد ذهابهم، أندفع إلى غرفة لينورا.

تفزع عندما أبدأ في دفع كرسيها المتحرك نحو الباب. ترتفع يدها اليسرى عن مسند الذراع، مرفرفة مثل جناح طائر مذعور. تتطلع إليَّ، وعلى وجهها علامة استفهام كبيرة.

أقول قبل أن أدفعها خارج غرفتها:

- ستنالين أمنيتك. لكن بعدها يجب أن تلتزمي بجانبك من الصفقة، تمام؟

تدق بسعادة مرتين على المسند.

- ممتاز، هيَّا بنا.

أدفع الكرسي المتحرك خارج الغرفة. عندما نلج الرواق، تطلق لينورا زفير رهبة. يبدو أشبه بزفير ارتياح من واحدة كانت تحبس أنفاسها منذ زمن طويل بعيد. تتسع عيناها ونحن نقطع الرواق، محاولة أن تستوعب كل شيء مرة واحدة في الوقت نفسه. البساط، ورق الجدران، كل باب نمر به. ترى منذ متى لم تغادر غرفتها؟ شهور؟ سنين؟ عقود؟

ولأن سلم الخدم ضيق جدًّا بالنسبة إلى الكرسي المتحرك، لا أملك خيارًا إلا استخدام الدرج الكبير. فكرتي الأولى أن أرفع لينورا على كتفي وأنزل بها السلالم وأخرج بها من الباب. فكرة جيدة نظريًّا، ربما، لكنها صعبة عمليًّا. أعرف حدودي. حتى لو كان في استطاعتي أن أحملها وأنزل الدرج الكبير كله، فحملها في الصعود سيكون أصعب مرتين. خياري الوحيد أن أنزل بالكرسي المتحرك ببطء وأنا أميله لأسنده كل درجة وآمل في الأفضل.

أقول محذرة:

- تماسكي. توشك الرحلة على دخول المنطقة الوعرة.

أميل الكرسي المتحرك، وأتلو صلاة قصيرة، وأجذبه ببطء لينزل الدرجة الأولى. ترج الصدمة لينورا بشدة إلى درجة تثير قلقي من أنها على وشك السقوط.

- هل نستمر؟

تفك لينورا قبضة يدها اليسرى المتشبثة بمسند الذراع وترد بدقتين متعجلتين.

الدرجات القليلة التالية على الدرجة نفسها من الصعوبة، لكنني سرعان ما أجد إيقاعي الصحيح. المفارقة أن المضي بسرعة أفضل من النزول ببطء. بدلًا من التوقف والنزول المزعج درجة درجة، أنزل بالكرسي المتحرك إلى البسطة في جذبة واحدة مستمرة. ترتج لينورا مثل سلطانية جيلي طوال الوقت، لكنها على الأقل لا تبدو كأنها على وشك السقوط من فوق الكرسي. أفعلها مرة أخرى في النزول من البسطة إلى الطابق الأرضي، ويستقر الكرسي على البلاط بصوت ارتطام راجف.

أسأل لينورا:

- هل أنتِ بخير؟

تتطلع إليَّ بفرحة عارمة. عيناها الخضراوان ترقصان، وحمرة السرور تلون وجنتيها. لو كان بمقدورها أن تضحك، لظننت أنها كانت لتقهقه ملء شِدقيها الآن.

نتجه نحو غرفة الطعام، ونقوم بلفة سريعة حول المائدة الضخمة هناك ونمر بالمدفأة التي تساويها ضخامة قبل أن نتوجه إلى الأبواب الفرنسية. أفتحها على اتساعها وأتأكد من وجود طريق خالٍ للكرسي المتحرك.

لقد سقط مزيد من ألواح الإردواز من السطح في اليومين الماضيين. وابل حقيقي منها. كل يوم تكنسها جيسي وكارتر، فقط ليظهر مزيد منها أمامهما في الصباح. الشرفة اليوم نظيفة منها، الأمر الذي يسمح لي برؤية شقوق جديدة متقاطعة في سطحها الرخامي. هذه ليست علامة جيدة. لكنها أيضًا ليست سيئة بالدرجة التي تمنعني من تحقيق أمنية لينورا الوحيدة.

أعود إلى الكرسي المتحرك. قبل أن نخرج إلى الشرفة، تمد لينورا يدها اليسرى لي. أمسك بها، وأحس بتدافع نبضها تحت جلدها.

ثم أقودها إلى الخارج.

تضربنا الريح ونور الشمس وهواء البحر جميعها في وقت واحد. تشهق لينورا من البهجة. آخذها إلى حافة الشرفة، وأتوقف فقط عندما تلمس ركبتاها

السياج. تغلق عينيها وتميل بوجهها نحو السماء مستمتعة بالشمس. تتخلل الريح شعرها، وتتطاير الخصلات الشيباء في النسيم. رؤيتها بكل هذه النشوة من شيء بسيط هو وجودها في الخارج تجعلني أشعر بالحزن، لأنها لا تستطيع أن تستمتع بهذا بشكل منتظم، وفي الوقت نفسه أحس بالغضب من مدام بيكر لأنها تحبسها في المنزل.

أقف بجوار لينورا، مستندة إلى السياج، مراقبة الأمواج البعيدة بالأسفل. على الرغم من أنها جميلة بالتأكيد، فإنها لا تختلف كثيرًا عن المنظر الذي تراه من نافذة غرفة نومها. وبما أن مغامرتنا تتضمن مخاطرة كبيرة بالفعل - ولأنها قد لا تحدث مرة أخرى - أريدها أن تمر بشيء مختلف. شيء مميز.

- لينورا، متى كانت آخر مرة تمددتِ فيها على العشب وتطلعتِ إلى السحاب؟

أعرف الإجابة، حتى إذا لم يكن بمقدور لينورا أن تقدمها. طوال عقود.

أدفع الكرسي المتحرك إلى نهاية الشرفة، وأُنزله على السلالم إلى المرج، وأوقفه فوق العشب حريصة على البقاء بعيدًا عن حافة المنحدر الجديدة المتهدمة. ثم أرفع لينورا من كرسيها وأُنزلها حتى تصير متمددة على ظهرها، في مواجهة السماء. أتمدد إلى جوارها، ونحدق معًا إلى الزرقة اللانهائية فوقنا.

نبقى على هذه الحال وقتًا طويلًا. ربما ساعة. ربما أكثر. لست واثقة لأنني غفوت بعد أن هدهدتني الريح والأمواج ونور الشمس. لم تكن الليالي في هوبز إند بهذه الراحة. تظل تطاردني كوابيس أمي وأظل أسمع الأصوات الصادرة من غرفة لينورا التي تنتهي بها الحال، بعد أن أنهض من الفراش حتمًا لأطمئن، إلى لا شيء. أصحو كل صباح مرهقة، أرمش في ضوء الشروق القاسي، وأجد المرتبة منزلقة أدنى قليلًا من الصباح السابق.

لكنني الآن أصحو على الشمس وهي أعلى في السماء ولينورا إلى جانبي، تأخذ أنفاسًا عميقة راضية.

أقول:

- حان الوقت للحديث عن الطفل.

تتوقف أنفاس لينورا. علامة على أنها لا تريد. لكن يجب عليها. على الرغم من أنني لا أريد أن أفسد نزهتها المميزة، فإنها يجب أن تلتزم بجانبها من الاتفاق. عندما تطلق زفيرها أقول:

- هل وُلد الطفل؟

أعتدل في جلستي، مراقبة يدها اليسرى وهي تدق مرتين على الأرض.

- ولد أم بنت؟

أقولها على الرغم من أنني أعرف أن لينورا لا تستطيع الإجابة بالدق. أعيد صياغة السؤال:

- هل كان بنتًا؟

دقة واحدة.

- إذن كان ولدًا.

تومئ لينورا برأسها هذه المرة، ويعبر وميض ابتسامة وجهها. سرعان ما يخبو عندما أقول:

- ماذا حدث له؟ هل مات؟

دقة واحدة.

- هل تخليتِ عنه؟

دقة واحدة.

يغوص قلبي. لا أريد أن أطرح السؤال التالي. لكنني أقول بعد وقفة:

- هل أُخذ منكِ بعيدًا؟

تتريث لينورا أيضًا، منتظرة ما يقرب من ثلاثين ثانية قبل أن تدق الأرض مرة، مرتين.

- هل تعرفين ما حدث له بعد ذلك؟

بعد وقفة أخرى طويلة، لا أتلقى إلا دقة واحدة من لينورا.

- أنا آسفة جدًّا.

أقولها وأنا أغلق عينَي لأمنع دموعًا تكونت فجأة. لا أستطيع تخيُّل أن أكون

في تلك السن الصغيرة، أحبل، وألد، ثم يؤخذ الطفل مني. هذا يتجاوز القسوة. إنه شيء رهيب.

أفتح عينَي لأرى أن تعبير لينورا لم يتغير. قناع مصمت يواجه السماء، يخفي الألم العميق الذي كان حاضرًا بالتأكيد بعد كل هذه السنين. إذا تبين أن كارتر حفيدها بالفعل، فربما يخف بعض من ذلك الألم. أتمنى ذلك.

- قبل أن تموت، هل سحبت ماري دمًا من ذراعك؟

تدق لينورا مرتين، لتؤكد شكي حول سبب الكدمة على ذراعها اليسرى.

- هل أخبرتكِ بالسبب؟

دقة واحدة.

- لكنها كانت تعرف بأمر الطفل، أليس كذلك؟ أنتِ أخبرتها؟

دقتان.

- مثلما أخبرتها أيضًا بمن قتل والديك وأختك.

دقتان أخريان، أبطأ هذه المرة.

- ثمة سبب وراء عدم إخبارك إياي حتى الآن.

أقولها لأنه لا بد من وجود سبب. لم تكتب أي شيء طوال ما يقرب من ثلاثة أيام. كان بمقدورها أن تكشف كل شيء في غضون ذلك الوقت. اللعنة! كان بمقدورها أن تفعل ذلك في ليلتي الأولى هنا. كل ما يتطلبه الأمر جملة واحدة.

- هل ستخبرينني أصلًا؟

تتردد لينورا، وتحوم يدها اليسرى فوق الأرض، كأنها غير واثقة من الإجابة. أشعر بشعورها نفسه. أنا أيضًا أحوم. أنا أيضًا غير واثقة. بقدر ما أحتاج إلى معرفة الحقيقة، أدرك أيضًا الخطورة التي قد تضعني فيها. إذا أخبرتني لينورا في النهاية واكتشف شخص آخر الأمر، فقد ينتهي بي الأمر إلى مصير يشبه مصير ماري.

أحدق عبر العشب إلى حافة المنحدر. لا يوجد سياج هناك. مجرد سقطة مباشرة صارخة إلى المحيط. لينورا واعية بذلك أيضًا، على الرغم من أنها لا

تستطيع أن ترى من موضع رقادها. لا سبيل إلى تجنُّب حضورها. تجذبنا هذه الحافة، تتحدانا أن نقترب أكثر، ونطل من فوقها، ونجرب المصير.

يخطر لي أن هذا ما كنت أفعله منذ اللحظة التي وصلت فيها إلى هوبز إند. الاقتراب من حافة المحظور. النظر إلى أشياء لا ينبغي لي أن أراها، نبش أشياء لا ينبغي نبشها. وكل هذا بسبب أمل مضلل بأن إثبات براءة لينورا قد يجعلني بطريقة ما أبدو بريئة أنا كذلك.

أخيرًا تدق يدها اليسرى على الأرض.

مرة واحدة فقط.

لا.

رؤيتها تبعث شرارة الغضب في جسدي.

- لكنك وعدتِ.

تجفل لينورا، كأنها تندم على ذلك. لا أبالي. عقدنا اتفاقًا. أصطحبها إلى الخارج - وهي مهمة ليست باليسيرة - وتخبرني في النهاية بكل شيء. سأجعلها تلتزم باتفاقها وحق اللعنة!

- يجب أن تلتزمي بجانبكِ من الاتفاق.

تدق لينورا الأرض دقة واحدة عنيدة.

- نعم، والآن.

أقف بينما تدق لينورا بقبضتها العشب في ثبات، موضحة موقفها بجلاء. لا، لا، لا. أتجاهل ذلك، حتى وأنا أتفهم كل الأسباب الواضحة وراء عدم رغبتها في إخباري.

ماري.

حقيبتها المفقودة.

جثتها المدفونة في الرمال.

الاختلاف الكبير بين موقف ماري وموقفي أنها غادرت حاملة قصة لينورا بينما الآخرون هنا، معتقدة على نحو خطأ أن ستار الليل سيبقيها في أمان. لكن

الآن، في وضح النهار، لا يوجد أحد غيرنا في هوبز إند. ليس إلاي ولينورا وفرصة للانتهاء مما بدأناه.

أنا مستعدة لتجريب المصير مرة واحدة أخيرة.

وسوف تكون لينورا شريكة التجربة سواء أرادت ذلك أم لا.

أجري عائدة إلى المنزل، وأصعد سلم الخدم درجتين في كل قفزة، وأندفع إلى داخل غرفة لينورا. على المكتب، أجذب ورقة جديدة وأضعها في عربة الآلة الكاتبة. ولأن لينورا قد تستخدم أكثر من ورقة، آخذ رزمة كاملة، وأضع الورق فوق الآلة الكاتبة قبل أن أرفعها من فوق المكتب.

حمل الآلة الكاتبة والنزول بها على السلم أصعب من نقلها إلى فراش لينورا. تضع المسافة الكبيرة مزيدًا من الضغط على ذراعَي، وتبدو الآلة الكاتبة أثقل مع كل خطوة. ولإبقاء الورق الفارغ فوقها ومنعه من الانزلاق، أنحني إلى الأمام وأستخدم ذقني كثقالة ورق. عند سلم الخدم أدرك أنني لا أستطيع رؤية موطئ قدمي. أنزل كل درجة ببطء، منتقلة في عماء من درجة إلى درجة. عند نقطة ما أزل وأرتطم بالجدار المشقوق، لتنفلت قطعة كبيرة من الجير وتسقط على السلم. أسحقها في طريقي إلى أسفل.

بعد الانتهاء من السلم، أجر قدمَي عبر المطبخ، والآلة الكاتبة تغدو أثقل فأثقل. أحس كأن ذراعَي مصنوعتان من الجيلي. وكذلك ساقاي. في غرفة الطعام، أطلق تنهيدة ارتياح عندما أدرك أنني لم أغلق قَطُّ الأبواب الفرنسية في طريقي إلى الداخل. هذا على الأقل شيء لن أحتاج إلى التعامل معه. أحمل الآلة الكاتبة إلى الشرفة متعبة ولاهثة.

لينورا موجودة.

ليس على العشب، حيث تركتها، بل في الشرفة نفسها، تجلس على كرسيها المتحرك وتحدق إلى البحر.

- كيف تمكنتِ...

يخونني صوتي عندما أراهم.

مدام بيكر وآرشي، كارتر وجيسي. كلهم واقفون في جانب الشرفة، وتعبيراتهم متنوعة بتنوُّع شخصياتهم. كارتر قلق. جيسي تبدو مندهشة بعض الشيء. وجه آرشي مصمت. أما مدام بيكر؟ غاضبة.

فشل ذريع. أُنزل الآلة الكاتبة. تنفلت الأوراق البيضاء ويحملها النسيم. أشاهدها تدور وتنزلق عبر الشرفة قبل أن تبدأ الطيران.

فوق السياج.

بعيدًا عن المنحدر.

إلى المياه المتلاطمة بعيدًا بالأسفل.

كانت أمي لتموت لو لم أدخل غرفتها، تلك حقيقة أوضحها الدكتور والدن؛ طبيب العائلة. ما لم يكن واضحًا إن كانت قد شربت صبغة الأفيون كلها بالمصادفة أم عن عمد. أقسم الجميع إنه كان حادثًا عارضًا. أما أنا فافترضت أن أمي انتوت أن تنهي حياتها. ظلت صامتة عن الحديث حول هذه المسألة، لتزيد الأمر غموضًا.

استمر الدكتور والدن، إما عن جهل وإما عن طمع، في توفير صبغة الأفيون، بحجة أن قطعه عن أمي مرة واحدة سيسبب ضررًا أكبر من نفعه. أوصى بفطامها من المادة ببطء.

ونتيجة لذلك، لم يتغير شيء. عادت الحياة في هوبز إند بسرعة إلى الشكل الذي كانت عليه دائمًا. ظلت أمي تذوي في غرفتها، وأبي يرحل كثيرًا في رحلات عمل، وتظاهرت أختي بأن لا شيء خطأ عن طريق ملء أجندتها الاجتماعية.

الشيء الوحيد الذي تغير هو أنا. بنهاية سبتمبر، كان حملي يتضح أكثر فأكثر. كانت مسألة تمكني من إخفائه كل هذا الوقت معجزة صغيرة لم تتحقق إلا من خلال المكر من جانبي، والغفلة من جانب الآخرين جميعًا.

لكن الوقت كان ينفد. وعرفت أنه سرعان ما سيصبح من المستحيل إخفاؤه. لكن إلى أن يأتي ذلك اليوم، كنت عازمة على إبقاء الأمر سرًا عن عائلتي.

لكن كان هناك ما هو أكثر مما يمكنني أن أفعله وحدي. أصبح الطعام، مثلًا، مشكلة. كنت نهمة طوال النهار والليل، واكتسبت زيادة في الوزن ملحوظة على نحو أكبر من أن يفوت حتى على انتباه أبي الضعيف. وضع لي نظام حمية غذائية صارمًا لا يناسب امرأة على أي حال، فما بالك بامرأة تأكل من أجل اثنين. احتجت إلى شخص آخر إلى جانب آرشي كي يهرب وجبات كافية لي.

الأمر نفسه انطبق على الثياب. استمرت خادمة أمي في توسيع ملابسي، مستاءة من كل طلب لتعديل قطعة ثياب أخرى. احتجت إلى ثياب جديدة مصممة لإخفاء حملي بشكل أفضل، وهو ما لم أكن أستطيع أن أفعله متسللة إلى الخارج لأشتري بنفسي. كان لا بد لشخص آخر أن يفعل هذا من أجلي.

ثم كانت هناك مسألة صحتي. لم أر طبيبًا منذ ان اصبحت حبلى. قضيت ليالي راقدة مستيقظة أفكر قلقة في كيف انني لا اعرف إن كانت هناك مشكلة ما لدى الجنين. لكنني لم أجرؤ على مخاطبة الدكتور والدن كي يفحصني. احتجت إلى أن أرى طبيبًا جديدًا، غريبًا، طبيبًا سيظل صامتًا بشأن حالتي.

لو تشاركت أنا وهي رابطة طبيعية، لتوجهت إلى أختي طلبًا للمساعدة. لقد كرهت دومًا أننا لسنا مقربتين، وافترضت دومًا أنها غلطتي وليست غلطتها. في الحقيقة، لم تكن هذه غلطة أحد. كنا فقط مختلفتين. كانت هناك فجوة في شخصيتينا أوسع من أن نعبرها. كنت مثل أمي؛ أحس دائمًا بشكل مفرط، وأريد بشكل مفرط، وأحتاج بشكل مفرط. أما أختي، مثل أبي، فكانت لديها رغبات واحتياجات أيضًا، لكنها كانت متعًا سطحية. سيارات وثياب وقبول مجتمعي من أشخاص متغطرسين مثلهما. لم يحملا أي مشاعر إلا الطموح.

من دون أخت أعتمد عليها، طلبت المساعدة من عضوة في طاقم الخدمة. امرأة كتوم. امرأة تعرف كيف تحفظ سرًا.

الشخص الوحيد الذي فكرت فيه هو آخر من تتوقعين.

عشيقة أبي.

هكذا وجدت نفسي واقفة في القاعة الجنوبية في آخر يوم من سبتمبر. كان

أبي قد عاد من بوسطن في اليوم السابق، وبدا أكثر تعبًا من أي مرة رأيته فيها من قبل. كان مزاجه سيئًا على العشاء وهو يستمتع مع أختي بوجبة كاملة بينما أتناول من دون شهية سلطة مصممة «لاستعادة قوامي البناتي» بحسب كلماته.

بعد العشاء، انسحب إلى غرفة التشمس. بعد بضع دقائق، تبعته متسللة نحو نهاية الرواق. تعالت الأصوات من خلف باب غرفة التشمس المغلق. ضحكة أبي المكتومة الخفيضة وجلجلة عالية النبرة لضحكة امرأة. ضحكة ليست ضحكة أمي. حتى لو بدت مثلها تمامًا، وهو ما لم تكن عليه الحال، كنت أعرف أنها ليست أمي لأنها الآن في غرفتها بالطابق العلوي، على الأرجح تتناول جرعة أخرى من زجاجة صبغة الأفيون.

تسللت عبر الرواق، الذي استحال معتمًا في غبشة المساء. ميزت بالكاد البورتريهات وأنا أمر. كان هذا أفضل. لم تكن لديَّ أي رغبة في رؤيتها.

أب. أم. ابنتان مطيعتان.

كل هذا كذب.

عندما وصلت إلى غرفة التشمس، حبست أنفاسي، خوفًا من أن يكشف زفير واحد صغير وجودي. وقفت خارج الباب، منصتة لأنين أبي ولهاثه، مشمئزة من احتياجاته الحيوانية. لم يخطر على بالي ساعتها أنها الأصوات نفسها التي يصدرها ريكي عندما نكون معًا. فقط في وقت لاحق أدركت أن كل الرجال سواء. لا يهم إن كانوا أثرياء أم فقراء، بدينين أم نحيلين، كهولًا أم شبابًا. احتياجاتهم أساسية للغاية إلى حد مثير للضحك.

بمجرد أن انتهى التأوه الشهواني، هرعت مبتعدة إلى المكتبة، متظاهرة بقراءة كتاب في حالة أطل أبي وهو يمر. لم يفعل بالطبع. مر ببساطة وهو يوسع خطاه، متخمًا، في طريقه إلى جزء آخر من المنزل.

فقط عندما سمعت عشيقته تغادر غرفة التشمس قفزت من مقعدي وجريت إلى الباب، مستعدة لاعتراض طريقها.

توقعت أن أرى فتاة مثل سالي؛ الخادمة الجديدة الشهوانية، أو حتى برنيس

مايهيو الجافية الساخرة. لكن المرأة التي خرجت من غرفة التشمس وهي تسوي تنورتها كانت آخر امرأة أتوقع أن تنخرط في علاقة مع أبي.

تجمدت من الصدمة، ولم أستطع إلا أن أقف في منتصف الرواق وأحدق إليها. حدقت إليَّ هي أيضًا بدورها، مندهشة.

قلت:

- أنتِ؟

- نعم، أنا.

هكذا ردت الآنسة بيكر وهي تنفخ في ضجر.

٣١

ضاعت الآلة الكاتبة.

انتزعتها مدام بيكر من ذراعَي بمجرد أن طارت آخر ورقة منفلتة. في البداية، ظننت بغباء أنها تحاول مساعدتي. أو على الأقل تأخذ الآلة من يدَي وهي توبخني على إخراج لينورا من المنزل. لكنها لم تقل شيئًا وهي تحملها عبر الشرفة، والورقة الوحيدة في العربة ترفرف في النسيم.

ثم رفعت الآلة الكاتبة فوق السياج، وهي تنخر وتلهث، وتركتها تسقط.

شهقت عندما غابت عن النظر. وأطلقت جيسي صرخة مرتاعة. وحتى لينورا ندَّ عنها رد فعل، فمدت يدها اليسرى إلى أبعد ما استطاعت، كأن هذا وحده قد يعكس مسار سقوط الآلة الكاتبة.

فركت مدام بيكر يديها معًا، راضية عن نفسها، ومضت تحث خطاها نحو الأبواب الفرنسية. كل ما قالته وهي تمر بجواري:

- أعيدي الآنسة هوب إلى الطابق العلوي حيث مكانها الأصلي.

ساعدني كارتر على ذلك، حاملًا لينورا بين ذراعيه وصاعدًا بها الدرج الكبير بينما جذبت أنا الكرسي المتحرك صاعدة به درجة درجة وعجلاته تجلجل. في غرفة لينورا، وضعها برفق في الكرسي المتحرك قبل أن يلتفت إليَّ.

- ماذا سيحدث في رأيك؟

قلت:

- أعتقد أنني سأُفصل من العمل.

كانت هذه النتيجة المنطقية الوحيدة. لكن لن تكون مدام بيكر هي من ستفعل ذلك. ستدع هذا لمستر جرلين، الذي أوقن أنه سيكون في قمة السعادة لطردي من الوكالة.

قال كارتر:

- اللعنة! أنا آسف جدًّا يا كيت. هذه غلطتي.

في الحقيقة، هي غلطتي أنا. أعرف القواعد، لكنني خالفتها على أي حال، فقط لأنني أردت إجابات لن أحصل عليها الآن أبدًا بعد أن ضاعت الآلة الكاتبة. وكل ما حصلت عليه مقابل مخالفتي للقواعد معلومة صغيرة ربما تساعد كارتر. الخيط الفضي الوحيد في هذا اليوم الغائم الأسود.

- أنجبت لينورا الطفل.

قلتها بعد أن جذبته إلى غرفتي وأغلقت الباب المشترك حتى لا تستطيع لينورا سماعنا من غرفتها.

- ولد. أكدت ذلك.

- ماذا حدث له؟

- لا تعلم. كل ما استطاعت لينورا إخباري به أنهم أخذوا الولد منها.

تهاوى كارتر على فراشي، محاولًا استيعاب الأمر كله. ليس فقط المعاناة التي مرت بها لينورا أو القسوة الكامنة خلف هذه المعاناة، لكن أيضًا كيف بدت هذه المعلومة مؤيدة لنظريته عن كونه حفيدها.

- إذن قد أكون محقًّا، وقد أكون أنا ولينورا على صلة قرابة.

- إنها احتمالية واضحة.

أنضم إليه على الفراش، وتتلامس كتفانا.

- آسفة لأنني لم أستطِع اكتشاف المزيد.

ابتسم كارتر تلك الابتسامة المعووجة التي صرت مغرمة بها قليلًا طوال الأيام القليلة الماضية.

- لا تكوني سخيفة. لم أكن لأعرف أيًّا من هذا لولاكِ.
- لكن الآن بعد أن عرفت هذا، كن حذرًا. مَن قتل ماري، أيًّا كان، ما زال هنا.
قال كارتر:
- أو في الخارج.
ربما، لكنني أشك في ذلك. صار لديَّ اعتقاد أكبر من أي وقت مضى بأن قاتل ماري شخص موجود في هوبز إند.
خصوصًا تلك المرأة التي ستجعلني أخرج حاملة حقيبتي في أي لحظة.
لكن تلك اللحظة تحولت إلى ساعات، انسابت من بعد الظهر إلى المساء. طوال ذلك الوقت، لم أسمع شيئًا عن طردي. لا عندما أحضر آرشي العشاء لي وللينورا. ولا عندما خلطت أقراصها المطحونة في طعامها أو أديت تمارين تنشيط دورتها الدموية أو حممتها. والآن هأنذا أضع لينورا في فراشها، ملاحظة الطريقة التي تحلق بها نظرتها في اتجاه المكتب. يبدو كبيرًا جدًّا وفارغًا جدًّا من دون الآلة الكاتبة عليه.
الأمر نفسه يمكن قوله عن الخوان، الذي كانت تستقر فوقه كرة الثلج الخاصة بها. الآن لا يوجد إلا الووكمان. وهو على الأرجح الشيء التالي الذي ستخسره لينورا. وهي بالفعل خسرت الكثير.
أقول لها وأنا أضع زر الاستدعاء في يدها اليسرى:
- أنا آسفة يا لينورا. أعرف كم كنتِ تحبين استخدامها. أتمنى لو كان بمقدوري أن أسمع بقية قصتك.
على الرغم من أنه ليس وداعًا رسميًّا، فإنه يبدو كذلك. لأنه من المؤكد أنني سأرحل مع قدوم الصباح - إن لم يكن قبل ذلك. أظن أن السبب الوحيد لبقائي هنا حتى الآن أن مدام بيكر تحاول إقناع مستر جرلين بتكليف مقدمة رعاية أخرى للينورا. مقدمة رعاية، على عكسي، لديها القوة لرفض الوظيفة.
بافتراض أنني لن أراها أبدًا، أربت على يد لينورا وأقول:
- كان من دواعي سروري أنني قدمت لك الرعاية. آمل أن من ستحل محلي أيًّا كانت أن تجعلكِ سعيدة.

أتركها بعد ذلك، منفلتة إلى غرفتي ومغلقة الباب المشترك ورائي. كل ما أحتاج إليه الآن أن أحزم أمتعتي وأنتظر سقوط الفأس الحتمي في الرأس. لا يعني هذا أن أمامي الكثير مما أحزمه. لم أتمكن قَطُّ من وضع أمتعتي مكان أمتعة ماري. الكتب ما زالت في صندوقها. وحقيبتي الممتلئة بالملابس تستقر فوق خزانة الثياب. كل ما تبقى أمامي أن أسحب الصندوق المعدني المغلق من تحت الفراش، وأجمع منتجات العناية الشخصية من الحمَّام، وأغير زيي الرسمي إلى الثياب التي كنت أرتديها عندما وصلت.

أبدأ بالصندوق المعدني. أفتح درج الطاولة المجاورة للفراش، وأُخرج المفتاح. أجثو بعد ذلك على ركبتَي وأسحب الصندوق من تحت الفراش. أفتحه وأرفع الغطاء. في الداخل أقراص لينورا - ولا شيء آخر.

الأوراق التي كتبناها - كلها - اختفت.

أقفز واقفة على قدمَي، وأندفع خارجة من الباب، وأقطع الرواق بخطوات قوية. يهتز سلم الخدم وأنا أهبط غاضبة إلى المطبخ، بحثًا عن مدام بيكر.

أجدها في غرفة الطعام، تجلس وحدها إلى المائدة الضخمة، وأمامها زجاجة نبيذ مفتوحة منذ قليل. الغرفة كابية - لا تضيئها إلا نار صغيرة من المدفأة. ينعكس وهجها المتراقص على نظارة مدام بيكر، الذي يخفي عينيها وهي ترفع كأس نبيذ إلى شفتيها وترشف منها.

- أين هي؟

- سيجب عليكِ أن تكوني أكثر تحديدًا يا عزيزتي.

- الأوراق التي كتبتها أنا ولينورا.

أقولها مغتصبة الكلمات من بين أسناني المطبقة.

- أعرف أنها في حوزتك.

تقول مدام بيكر:

- كانت يا عزيزتي، كانت في حوزتي.

تشير إلى المدفأة، حيث تحيط بضع قطع من ورق محروق بكتلة خشب

وحيدة تحترق بالداخل. على إحداها ألمح كلمة مطبوعة في نصف الطريق لأن يأكلها اللهب. حين أراها أتراجع متعثرة في واحد من مقاعد غرفة الطعام، والذي يسقط بدوره مرتطمًا بالبلاط في قعقعة مكتومة.

أقول:

- ليس لكِ الحق في فعل ذلك. هذه الأوراق تخصني.

- وما كان فيها يخص الآنسة هوب. وهو ما يعني أنها تقع تحت سلطتي.

تأخذ مدام بيكر رشفة أخرى وافية من النبيذ.

- تمامًا مثل الآلة الكاتبة.

أصرخ، والكلمات تتفجر خارجة مني:

- لم تكوني في حاجة إلى تدميرها!

بما أنني على وشك الطرد، لا أرى حاجة إلى التحكم في غضبي.

تومئ مدام بيكر، الأكثر هدوءًا مني بكثير، نحو المقعد المقلوب وتقول:

- اجلسي معي دقيقة يا كيت. أعتقد أن الوقت حان لحديث هادئ.

أظل واقفة، في عصيان آخر لها.

تهز كتفيها وتقول:

- افعلي ما بدا لك. أظن أنكِ تتوقعين أن تُفصلي.

- نعم.

أقولها وأنا أفكر: ما الداعي إلى الكذب الآن؟

- أنتِ حرة في الرحيل، إذا كنتِ راغبة في ذلك. لن يجبرك أحد على البقاء هنا.

- لكنكِ لن تجبريني على الرحيل؟

تقول مدام بيكر:

- لا يا عزيزتي. لكنني أود أن أعرف لمن كانت فكرة اصطحاب الآنسة هوب إلى الخارج؟

- لها.

- اعتقدت ذلك. وبصراحة، هذا لا يدهشني. تستطيع الآنسة هوب أن تكون... مقنعة جدًّا. من المنطقي أنها أقنعتكِ بعصيان أمنياتي الصريحة.
- أمنياتك \أنت؟ وماذا عن أمنيات لينورا؟
- كلتاهما الشيء نفسه.
تضع مدام بيكر كأسها وتدور بطرف إصبعها على حافتها.
- على الرغم من أنه من الواضح أنك لا توافقين على وسائلي.
- لا أوافق.
- حتى لو كانت لمصلحة الآنسة هوب؟
- وهل هي كذلك؟ أنتِ تبقينها سجينة في منزلها. ليس لديها أصدقاء. ولا زوَّار. لا ترى إلا أشخاصًا ينالون ثمن رعايتهم لها. لا تسمحين لها حتى بالخروج، بربك! حتى السجناء - نزلاء السجون حرفيًّا - مسموح لهم بذلك.
- وماذا لو فعلت؟ ماذا تعتقدين أنها ستقابله؟ الكراهية. الأحكام. الشك المستمر. العالم ليس مكانًا طيبًا للنساء المتهمات بالعنف. وأنتِ، من بين كل الناس، ينبغي أن تفهمي هذا. ألا يحكم الناس عليكِ بسبب ما حدث لأمك؟
أجلس أخيرًا، بعد أن صار شعوري بالصدمة أكبر من قدرتي على الوقوف. لا أجلس على المقعد، بل على البلاط إلى جواره. أستقر بالقرب من المدفأة. تلسع الحرارة الصادرة من نارها المطقطقة جلدي. لكن لا شيء يماثل حرارة الخزي الذي يستعر بداخلي.
أقول:
- منذ متى وأنتِ تعرفين؟
- منذ ما قبل وصولك. أحس مستر جرلين أن من واجبه أن يبلغني.
بالطبع فعلها. لا شك لديَّ أنه افترض أيضًا أن هذا سيمحو فرصتي في العمل هنا - أو في أي مكان، في الحقيقة. ما لا أفهمه لماذا لم يفلح سعيه.

- إذا كنتِ تعلمين، لماذا سمحتِ لي بالقدوم إلى هنا؟
- لأنني اعتقدت أنكِ والآنسة هوب ستكونان على وفاق طيب. وكنت محقة. أنتِ تفهمينها. بل أنتِ في الحقيقة تحبينها.

يربكني هذا التعليق، غالبًا لأنني لست متأكدة من ذلك. أحب لينورا أحيانًا. وأحيانًا أخرى، تخيفني. أو تصيبني بخيبة الأمل. أو تملؤني بالشفقة، وهو ما يعيدني عندئذ في دورة كاملة إلى الرغبة في محبتها.

تقول مدام بيكر:

- لا بأس من الاعتراف بذلك؛ تستطيع الآنسة هوب أن تكون فاتنة جدًّا عندما يلائم هذا احتياجاتها. لكن دعيني أوضح أمرًا واحدًا: أنتِ لا شيء بالنسبة إليها. أعرف أنكِ تعتقدين العكس. أنكما تشتركان في رابطة فريدة بالنسبة إلى ممرضاتها. لكن الأمر ليس كذلك. لقد فعلت مثل هذا من قبل، بالعودة إلى الوراء عقودًا من الزمان. هي أذكى مما تبدو، وأنا واثقة بأنك تعرفين. بل إن البعض قد يصفونها بالمكر.

أومئ برأسي، لأن الوصف يوافقها. تستخدم لينورا الصمت والسكون لمصلحتها، فتخفي الكثير، وتكشف القليل. نتيجة لذلك، كل تفصيلة صغيرة تعرفها لا تتركك إلا راغبًا في المزيد.

أريد أن أخبرك بكل شيء

ذلك ما كتبته لينورا في ليلتي الأولى هنا. ومن ساعتها تضورت جوعًا من أجل تلك المعلومة، مستعدة لمخالفة كل القواعد. لا يهم أن أسبوعًا مر وما زالت معرفتي تقارب العدم.

أقول:

- وبمَ تصفينها؟
- متلاعبة.

على الرغم من أن مدام بيكر تتمطق بشفتيها معًا، كأنها تتذوق الكلمة مثلما تتذوق النبيذ في كأسها، فإن نبرتها تكشف عن شعور مختلف.

التقزز.

تكمل مدام بيكر حديثها:

- لن أندهش إن كان هذا ما سبَّب أن تفعل ماري المسكينة ما فعلته. جعلتها الآنسة هوب تشعر بأنها ضرورية. جعلتها تشعر بأنها مميزة. وعندما أدركت ماري أن الحال ليست هكذا، دفعها هذا إلى أن تفعل ما لم يخطر على البال.

يتردد صوت المحقق ڤيك في أفكاري، وهو يتلو رسالة انتحار ماري المزعومة.

«مع الأسف. لست الشخص الذي اعتقدت أنني إياه».

هل أخبر أيضًا مدام بيكر بما قالته؟ وهل تعتقد حقًّا أن ماري قتلت نفسها؟ أحاول أن أقرأ وجهها، باحثة عن علامات بأنها تعتقد ذلك. لكنه وجه لا يمكن قراءته، خصوصًا مع ألسنة اللهب في المدفأة التي ما زالت تتراقص في انعكاس نظارتها.

أقول:

- لماذا تبقين هنا؟

- هذا سؤال وقح بعض الشيء.

- سؤال أود منك أن تجيبي عنه. إذا كنتِ تكرهين لينورا إلى هذا الحد، لماذا لا تزالين هنا؟

- لو كنت أكرهها، لرحلت منذ سنين. ولانهار هذا المكان من دوني.

أفكر في ألواح الإردواز المتساقطة كالمطر من السطح، والشقوق في جدران سلم الخدم، وكتلة العشب التي ترقد الآن في قاع المحيط.

- في حالة أنكِ لا تلاحظين، هو كذلك بالفعل.

ترفع مدام بيكر كأس نبيذها وتفرغها في جوفها ثم تقول:

- كان ليصبح ركامًا بالفعل لولاي. لولا الأشياء التي اضطررت إلى فعلها كي أبقي هذا المكان قائمًا. بيعه قطعة قطعة كي أدفع ثمن إصلاح شيء ما أو آخر. ثقي بي، كان من السهل تمامًا عليَّ أن أرحل. لكن الآنسة هوب تحتاج إليَّ. أبقى هنا من منطلق شعور بالإخلاص.

- لكن الإخلاص لا يبلغ هذا الحد. أنتِ مع ذلك تحصلين على شيء ما من وراء وجودكِ هنا، أليس كذلك؟

- كنت أعرف أنكِ ذكية.

تقولها مدام بيكر وتجعلها تبدو أشبه بعقبة.

- نعم، يقدم لي اتفاقنا بعض الفوائد. توصلت أنا والآنسة هوب إلى اتفاق منذ سنين. إذا استطعت بطريقة ما أن أحافظ على هذا المكان قائمًا، فستورثه لي عندما تموت.

- كله؟

- الأرض. المنزل. كل شيء فيه.

تموت النار بجواري سريعًا، ويخبو وهجها أخيرًا من نظارة مدام بيكر. خلف العدستين، يبدو أن عينيها الزرقاوين تلتقطان ما تبقى من ضوء قليل، وتكتسيان بلمعة متوقدة. أحدق إليهما، قلقة، وأنا أتساءل إن كانت مدركة لمدى قرب انهيار خطتها تلك. كل ما يتطلبه ذلك أن يأتي أحدهم وينازع ذلك الاتفاق. حفيد لينورا على سبيل المثال.

أفكر في ذكر معرفتي بأن لينورا أنجبت طفلًا. لكنني لا أفعل لأنني أشك أن مدام بيكر، مثل آرشي، ستكون صادقة بشأن ذلك. كما أنني لا أرى سببًا كي أجعل نفسي هدفًا.

إن لم أكن هدفًا بالفعل.

لأن كشفها بأنها سترث هوبز إند يجعلني أشك في وجود أسرار ستفعل مدام بيكر أي شيء للحفاظ عليها.

وأنها كانت تملك كل الأسباب في العالم كي تقتل ماري.

صنعت الآنسة بيكر لنا شايًا، وأخذتني عائدة إلى غرفة التشمس من أجل ما أسمته «حديثًا هادئًا». كأن شيئًا لم يتغير فيما يتعلق بدورينا على حدة. كنت التلميذة وهي السيدة المثالية المكلفة بتعليمي كيف أصبح مثلها. غير أنه بدا أنني أرى السخافة في ذلك. في النهاية، عرفت ما كانت تفعله مع أبي في تلك الغرفة نفسها قبل دقائق.

- ماذا نفعل الآن؟

قالتها متعاملة مع الموقف كأن لكلتينا رأيًا في المسألة. ليس لها ذاك. قلت:

- يمكنك البدء بإخباري لماذا... لماذا أبي؟ هل تحبينه؟

تمكنت الآنسة بيكر بالكاد من كتم ضحكتها قبل أن تقول:

- لا يا طفلتي. ما بيننا عمل تبادلي واضح. أمنحه ما يريد، ويكافئني بأمارات تقدير صغيرة.

بعبارة أخرى، المال. لأنه على الرغم من كل حديثها عن السلوكيات واللياقة، فلم تكن الآنسة بيكر إلا عاهرة من طبقة عالية. لا بد أن اشمئزازي منها تجلى في تعبير وجهي، لأنها بادرت بالهجوم:

- لا تجرؤي على الحكم عليَّ أيتها السيدة الشابة. شابة مثلك، مولودة وسط ثروة هائلة، لا تعرف كيف هي الحال بالنسبة إلى بقيتنا. الأشياء التي يجب

أن نفعلها كي نبقى على قيد الحياة. خصوصًا النساء غير المتزوجات مثلي. أنا فقط أنتبه لمستقبلي.

- بأي ثمن؟

- بأعلى ثمن أستطيع نيله.

مالت الآنسة بيكر إلى الوراء في مقعدها، متحدية إياي أن أقول كلمة نقد أخرى.

- أهذا كل ما في الأمر؟ أردت أن تواجهيني؟ تحاولين أن تشعريني بالعار؟

- لا. أردت أن أريك هذا.

وقفت، وجذبت نسيج فستاني بإحكام حول جسدي، واستدرت كي تتمكن الآنسة هوب من رؤية بطني المتنامي بالجنب.

قالت وهي تضع فنجان الشاي على طبقه الصغير:

- يا إلهي!

اهتزت يداها بشدة حتى إن فنجان الشاي جلجل طوال الطريق إلى المائدة على جانبها.

- كم بلغت في الحمل؟

- ستة أشهر.

- والأب؟

- لن أخبرك.

قلتها غير مستعدة للمجازفة بتوريط ريكي في هذا. إذا عرفت الآنسة بيكر، فقد تخبر أبي، الذي سيطرده من العمل بالتأكيد. وساعتها لن يكون هناك أمل في أن أدخر أنا وريكي ما يكفي من المال للشيء الوحيد الذي أردت أن أفعله بمنتهى اللهفة — الهروب.

- هل أرغمك على ذلك؟

يحمر وجهي وأنا أهز رأسي وأطرق ناظرة إلى الأرض، شاعرة بخزي أكبر من أن أواجهها.

- فهمت.

سكتت الآنسة بيكر لتجلو حلقها قبل أن تتابع:

- هل يعرف بأمر... ورطتك؟

- نعم.

- وماذا ينوي أن يفعل؟

- يجعل مني امرأة شريفة.

قلتها فاستثارت من الآنسة هوب ضحكة كئيبة. جفلت لسماعها.

- ما زلت طفلة فعليًا. وأي رجل صالح كان ليكبح جماح نفسه. أو يأخذ احتياطاته على الأقل.

كنت ملدوغة من الطريقة التي تردد بها صدى ضحكتها في غرفة التشمس، فمنحتها نظرة قاسية وقلت:

- وهل يفعل أبي؟

تصلبت الآنسة بيكر في جلستها وقالت:

- ماذا تريدين مني بالضبط؟

- مساعدتك.

ذكرت لها قائمة بكل أشكال المساعدة التي احتجت إليها، من الحصول على ملابس الحمل إلى الوصول إلى كمية مناسبة من الطعام. ويجب أن يحدث هذا لوقت كافٍ كي أخطط أنا وريكي لهروبنا. أنهيت حديثي بإخبارها بأن كل هذا يجب أن يتم سرًا.

قالت الآنسة بيكر:

- هذا ترتيب طويل الأمد. ما الذي يجعلك تعتقدين أنني سأكون راغبة في المساعدة؟

- لأنك إن لم تفعلي، سأخبر أمي بكل شيء.

ارتفعت أطراف فم الآنسة بيكر في ابتسامة قاسية وقالت:

- أمك تعرف بالفعل.

- إذن سأخبر برنيس مايهيو.

قلتها وأنا أعلم تمام العلم أنها أكبر ثرثارة وسط طاقم الخدمة في المنزل.

- عنك وعن أبي وما تفعلانه بينما تعتقدان أن أحدًا لا يشاهدكما. بمجرد أن يذاع ذلك، أتمنى لك حظًا طيبًا في العثور على وظيفة أخرى لتدريس الإتيكيت. سيعرف الجميع أي نوع من السيدات أنت بالضبط.

هبت الآنسة بيكر واقفة، وبدت كأنها تريد أن تصفعني على وجهي، أو تخرج مندفعة كالعاصفة من الغرفة، أو كليهما. شككت في أن السبب الوحيد وراء عدم فعلها أيًا منهما أنها أدركت وقوعها في الفخ.

أخيرًا قالت:

- سأساعدك.

تصافحنا. وعدت بالتدبير لشراء بعض الملابس الجديدة من أجلي في الصباح، وبعد ذلك ترتيب زيارة من طبيب مضمون كتمانه ومؤتمن. أخبرتها بأن آرشي وافق على تجنيب طبق إضافي من الطعام في كل وجبة وإعطائه لها كي تصعد به إلى غرفتي.

قالت الآنسة بيكر:

- من يعرف بهذا أيضًا؟

- آرشي فقط. وأنت الآن.

إحقاقًا للحق، امتنعت الآنسة بيكر عن ذكر أختي أو أمي. كانت قد قضت في هوبز إند ما يكفي من الوقت كي تلاحظ أن أيًا منهما لن تكون ذات عون لي بأي شكل.

عندما افترقنا، شعرت بإحساس جديد بالتفاؤل بأن خطتي قد تفلح فعليًا. بالطبع ستتطلب حيطة، وربما القليل من الحظ. لكن لأول مرة منذ أسابيع رأيت طريقًا يقودني بعيدًا عن هوبز إند، بعيدًا عن عائلتي، إلى مستقبل مشرق سعيد مع ريكي وطفلنا.

الشيء الوحيد الذي لم أضع له حسابًا أنه مهما كنت حذرة، فسيفشل الحظ في أن يكون بجانبي.

وأنني عندما صافحت الآنسة بيكر، كنت في الواقع أعقد صفقة مع الشيطان.

٣٢

أغادر غرفة الطعام بينما تصب مدام بيكر كأسًا أخرى. يتبعني صوت صب النبيذ في كأسها عبر المطبخ، ويحل محله صوت رشفة عالٍ متمطق عندما أصل إلى سلم الخدم. وبينما أصعد إلى الطابق الثاني، أحاول تركيب الصور للطريقة التي لعلها قتلت ماري بها.

أولًا، علمت مدام بيكر أن لينورا تخبر ماري بقصتها. الأرجح أنها كانت تمر عندما سمعت صوت الآلة الكاتبة، وأدركت ما كان يحدث. بل لعلها تسللت في الليل وقرأت ما كتبته لينورا.

ربما علمت مدام بيكر أيضًا بمسعى كارتر لإثبات أنه حفيد لينورا. من الواضح أنها تراقب بحرص كل ما يحدث داخل هوبز إند. لعلها تقضي وقتًا أكبر في المراقبة مما تقضيه في أي شيء آخر. وهو ما يرجح بالمثل أنها اكتشفت خطة ماري وكارتر.

بعد ذلك، وفي الليلة التي غادرت ماري خلالها المنزل بحقيبة ملابسها، ضربت مدام بيكر ضربتها.

أستطيع تصوُّر الأمر بينما أنا مستمرة في صعود السلالم.

ماري تندفع عبر الشرفة بحقيبة ملابس تضم عشرات الصفحات المكتوبة بالآلة الكاتبة وعينة من دم لينورا.

تخرج مدام بيكر من ظل المنزل.

بسرعة.

تنتزع الحقيبة.

تكسر المقبض.

تدفع ماري دفعة واحدة.

ربما لم تكن لدى مدام بيكر نية في قتلها. ربما أرادت فقط أن تُخِل بتوازن ماري ما يكفي من الوقت لإبعاد الحقيبة عنها. لكن الموت كان هو النتيجة الأخيرة. انزلقت ماري من فوق السياج، وهوت إلى حتفها، وظلت هناك أيامًا. ولم يكن لدى مدام بيكر من خيار إلا أن تخبر الجميع بأن ماري رحلت في منتصف الليل.

أعلم أن كثيرًا من هذا مجرد تخمين. مثلما أعلم أن الحقيقة قد تكون مختلفة جدًّا عما توصل إليه خيالي المجنون. بل أعلم أنه من المحتمل ألا تكون لمدام بيكر أي علاقة بموت ماري.

الأشياء الوحيدة التي أنا واثقة منها، حقًّا، أن ماري غادرت هوبز إند وفي يدها حقيبة سفر.

وأن من يملك هذه الحقيبة الآن، أيًّا كان، هو على الأرجح الشخص الذي قتلها.

وأن مدام بيكر هي المتهمة الأوضح.

عند أعلى السلم، أهرول في تهوُّر متجاوزة غرفتي وغرفة لينورا، لأتوقف فقط عندما أصل إلى باب غرفة مدام بيكر. أجرب مقبض الباب، الذي يلتوي في يدي. عندما أتركه، ينفتح الباب برفق مصدرًا صريرًا. على الرغم من معرفتي بأنها مجرد خدعة بسبب ميل المنزل، فإنني لا أستطيع إلا أن أفكر بأنها دعوة إلى الدخول.

أتحقق من الرواق في الاتجاهين إلى أن أتأكد من عدم وجود أحد في الجوار.

ثم أنزلق داخلًا، وأنا ألهث وأصلي.

أغلق الباب خلفي، ثم أتوقف وأجول بناظري في الغرفة. لها نفس شكل وحجم غرفة لينورا، والاختلافات الوحيدة هي غياب باب يؤدي إلى غرفة أخرى

وموقع الحمَّام الداخلي. هو على الجانب الآخر من الغرفة في صورة معكوسة لحمَّام لينورا.

ثمة مصباحان مضاءان في الداخل. شيء مريح. يوفر عليَّ عناء الاضطرار إلى إضاءتهما ثم تذكُّر ضرورة إطفائهما قبل أن أغادر. أحدهما مصباح على الطاولة الجانبية للفراش، يلقي وهجًا على فراش مدام بيكر المرتب على نحو لا شائبة فيه. والثاني مصباح أرضي في الركن، يلقي ضوءًا كافيًا على النصف الآخر من الغرفة. أرى خزانة ثياب، وتسريحة عتيقة ذات مرآة بيضاوية، وخوانًا مشابهًا لذلك الذي في غرفة لينورا. لكن بدلًا من الووكمان فوقه، يحمل هذا الخوان جهاز جرامافون، مكتملًا ببوق على شكل زهرة الزنبق لتكبير صوت الموسيقى.

بسرعة وهدوء أفتح أدراج الخزانة وألقي نظرة داخل الخوان، فلا أعثر على شيء ذي أهمية. هما أصغر من أن يحتويا على حقيبة سفر، وإذا كانت مدام بيكر قد حصلت على الأوراق التي حملتها الحقيبة، أظن أنها عانت المصير نفسه الذي لاقته الأوراق التي كتبتها أنا ولينورا. أما عن عينة دم لينورا التي سحبتها ماري، فمن الأرجح أنه جرى التخلص منها أيضًا.

تحسبًا لأي احتمالات، أجلس إلى التسريحة وأنبش في الأدراج، التي لا تحوي شيئًا إلا حليًّا مجلجلة وأنابيب طلاء شفاه متدحرجة. فوق الطاولة صورة مؤطرة لزوجين شابين أمام برج إيفل. يتساقط الثلج حول الزوجين المتعانقين تحت معطف الرجل. أظن أن المرأة في الصورة هي مدام بيكر، لكنها أصغر خمسين عامًا من المرأة التي تتجرع النبيذ حاليًّا بالأسفل في غرفة الطعام. لهما العينان أنفسهما، والأنف نفسه، والذقن نفسه. وهنا ينتهي التشابه. في الصورة، تزهو بشعر مموج وابتسامة عريضة حقيقية، شيء لم أرَه قَطُّ من مدام بيكر.

الرجل في الصور طويل ووسيم وأكبر منها ربما بعشر سنوات. أظن أنه الخطيب الذي ذكرته مدام بيكر يوم وصولي. الخطيب الذي تسبب موته في عودتها إلى هوبز إند. من الطريقة التي ينظر بها أحدهما إلى الآخر في الصورة، يبدو الاثنان واقعين في الحب بالتأكيد.

أتحرك إلى الجانب الآخر من الغرفة، حيث توجد أماكن الإخفاء الأكثر احتمالًا. تحت الفراش. في الخزانة. تحت الحوض الكبير في الحمَّام، حيث أتابع بحثي الذي لا يثمر عن شيء. أحصل على النتيجة نفسها عندما أفتح بابَي الخزانة. معلق بداخلها صفٌّ من الفساتين السوداء، مع بضعة أزواج من أحذية سوداء أنيقة ببساطة تستقر في صف تحت الفساتين.

محطتي الأخيرة التحقق من المساحة المحيطة بالفراش. على الطاولة الجانبية للفراش صورة أخرى مؤطرة للرجل نفسه مثل الصورة فوق التسريحة. هو وحده في هذه الصورة، ويبدو مفعمًا بالحياة في زي عسكري.

أجثو على يدَي وركبتَي لأتحقق مما تحت الفراش. وبدلًا من حقيبة سفر، أجد عدة صناديق أحذية. أجذب واحدًا منها وأفتحه، محاذرة ألا أترك علامات واضحة على الغطاء المترب. في الداخل مزيد من الصور الفوتوغرافية. أتصفحها لأرى مدام بيكر وهي شابة في مجموعة متنوعة من المواقف. ترتدي ثوبًا من الساتان وترفع كأس شمبانيا نخبًا. تسير في الشارع مع امرأتين أخريين، أذرعهن متشابكة، وأفواههن مفتوحة في منتصف ضحكة. تضطجع عارية على مقعد استرخاء طويل فيما يبدو كأنه استديو فنان، ولم تتغطَّ عورتها إلا بمروحتين من الريش أُحسن وضعهما.

تلك الصور بمنزلة تذكير قوي بأن مدام بيكر كانت لها ذات يوم حياة خارج جدران هوبز إند المائلة. حياة سعيدة، كما يبدو. ترى إلى أي حد تفتقدها؟ إلى أي حد تريد استعادتها؟ وإلى أي حد ستمضي كي يحدث ذلك؟

أعيد الصور داخل الصندوق، وأضع الغطاء موضعه، وأدفع الصندوق إلى مكانه تحت الفراش. يمتلئ الصندوق التالي، بدلًا من الصور، بإيصالات ونسخ من شيكات مسددة. كلها تحمل توقيع لينورا، على الرغم من أنها نتاج عمل مدام بيكر بوضوح.

أتناول حفنة منها وأتصفحها.

فواتير كهرباء. تُدفع شهريًّا، على الرغم من وجود عدة شهور متأخرة، وتحذير في وقت أسبق من هذا العام بأن الخدمة على وشك الانقطاع.

فواتير بقالة وخضراوات. تُدفع بدقة كالساعة كل يوم ثلاثاء عندما تصل شحنة التسليم من السوق في البلدة.

في قاع الصندوق كومة من الشيكات كلها صادرة لدار أوشن ڤيو للمسنين. ألف دولار شهريًّا، ترجع إلى ما يزيد على عشر سنوات على الأقل.

لقد سمعت طبعًا بأوشن ڤيو. هي دار المسنين الوحيدة في البلدة. بل إنني قدمت طلبًا للعمل مساعدة هناك بعد أن أوقفني مستر جرلين عن العمل. قيل لي إن مؤهلاتي أكبر من الوظيفة، وهو ما بدا بطريقة ما مهينًا أكثر مما لو كانوا قد أخبروني بالحقيقة - أنه نظرًا إلى سمعتي فهم يعتقدون أن توظيفي سيكون أشبه بدعوة ذئب إلى حراسة قطيع من الخراف. ما لا أفهمه هو لماذا تدفع مدام بيكر كل هذا المال لدار مسنين بينما لينورا موجودة هنا، تتلقى الرعاية مني، ومن ماري، ومن طابور طويل من ممرضات أخريات.

ما زلت أطالع الشيكات المسددة عندما يسترعي انتباهي صوت في الرواق.

وقع أقدام.

تقطع الردهة.

تكاد تكون عند الباب.

ألقي الغطاء على صندوق الأحذية وأدفعه تحت الفراش من جديد. ثم أقفز ناهضة على قدمَي وأسرع... إلى أين؟

لا يوجد مكان ألجأ إليه. لا أستطيع أن أخرج جريًا من الباب إذا كانت مدام بيكر قادمة، والمكان الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو الحمَّام، وهو المكان الذي على الأرجح ستتوجه إليه أولًا. أسلم بأنني وقعت في الفخ - وهو ما سيجعلني أُفصل هذه المرة بالتأكيد - أبدأ في رفع يدَي استسلامًا.

عندئذ ألمح الخزانة.

من دون تفكير، أندفع كالسهم نحوها، وأفتح بابيها، وأدفع جسدي إلى داخلها. أجلس القرفصاء خلف فساتين سوداء متطابقة، وأجذب بابَي الخزانة لتنغلق في اللحظة نفسها التي ينفتح فيها الباب.

عبر الشق الصغير بين بابَي الخزانة، أرى مدام بيكر تدخل الغرفة. من الطريقة التي تترنح بها أعتقد أنها أنهت سريعًا على زجاجة النبيذ كلها وحدها. تتجه إلى الجرامافون على الخوان وتشغله. بعد قليل تنزل الإبرة على الأسطوانة، وتنطلق الموسيقى في أرجاء الغرفة.

«هيَّا نسئ الأدب».

تغني مدام بيكر بصوت مخمور مع الأغنية، وهي تجأر بصوت كالنعيق كلمات متفرقة:

- وحدنا... رقيب.

يتمايل رأسها متوافقًا مع الموسيقى، وتتماوج يداها في الهواء، ويعلو غناؤها أكثر:

- يستطيع الحصول... رقمنا.

تتهاوى على التسريحة وتجذب الدرج نفسه الذي فتحته أنا قبل دقائق، وتُخرج منه إصبع طلاء للشفاه.

- العالم... نائم... نسئ الأدب!

ترمق انعكاسها في المرآة، وتمرر إصبع الطلاء على شفتها السفلى، لكن يدها غير الثابتة تلطخ بالطلاء جزءًا خارج خط الشفة. تمسحه بإبهامها، فيزداد الوضع سوءًا. يمتد خط قرمزي الآن بطول نصف الطريق إلى وجنتها. تضحك مدام بيكر برفق بينها وبين نفسها، وتميل إلى الأمام محدقة إلى انعكاسها المخمور.

فجأة يسترعي انتباهها شيء ما في المرآة. أستطيع أن أجزم بذلك من الطريقة التي تنحرف بها نظرتها من انعكاسها إلى ما فوق كتفها اليمنى تمامًا.

الخزانة.

تلتفت مدام بيكر بنظرها عن المرآة وتواجهها. من نقطة مراقبتي، يبدو كأنها تنظر إليَّ مباشرة. أحبس أنفاسي، غير قادرة على أن أفعل أي شيء إلا المراقبة.

عندما تضع مدام بيكر إصبع الطلاء على التسريحة.

عندما تعتدل في وقفتها.

عندما تخطو خطوة غير ثابتة نحو الخزانة.

خطوتها الثانية أكثر ثباتًا. والثالثة أكثر فأكثر. كأنها تفيق من سكرتها مع كل خطوة تالية. عندما تكون أمام الخزانة، تختفي منها كل علامات السُّكر. هي الآن النسخة الصارمة المعتادة من مدام بيكر، الرصينة الباردة كالحجر التي تمد يدها.

تلمس بابَي الخزانة.

تتأهب لفتحهما على مصراعيهما.

أنكمش نحو الجدار الداخلي، موقنة أنني بعد ثانية سيُقبض عليَّ، وأُفصل، وأعود إلى منزل فيه أبي الذي يعتقد أنني قتلت أمي. لكن قبل أن تتمكن مدام بيكر من جذب بابَي الخزانة لتفتحها، يعلو فجأة صوت ما على صوت مشغل الأسطوانات.

أنين عالٍ غليظ يحل محل الموسيقى. يتردد الصوت عبر المنزل بأكمله، بادئًا في الطابق الأول وصاعدًا إلى أعلى، مكتسبًا مزيدًا من القوة في صعوده.

أعرف ما هو.

وتعرف مدام بيكر أيضًا، لأن وجهها يكفهر قلقًا.

يتبع الأنين صوت تشقق، وقعقعة، وعدة اهتزازات حادة مفاجئة. يبدو كأن شيئًا ما يتحطم في المنزل. داخل الخزانة، أرتج كجثمان في نعش أسقطوه توًّا. ينفتح أحد البابين، ليكشفني وأنا أرتطم إلى الأمام والخلف وراء فساتين مدام بيكر الطويلة السوداء.

لكنها لم تَعُد هنا لتراني. أراها تفتح باب غرفة النوم بقوة وتطل داخل الرواق، وإحدى يديها المعروقتين متشبثة بالجدار كأنها تستند إليه بينما هوبز إند كله يتراقص في الريح.

ومثلما بدأ كل شيء بسرعة، يتوقف كل شيء.

الضجة.

الحركة.

كل شيء صامت وساكن.

تختفي مدام بيكر في الرواق، منطلقة لتتحرى ما حدث وأين حدث. الآخرون في المنزل يفعلون المثل. أسمع وقع الأقدام بالأعلى وصوت أحدهم يهبط مدمدمًا على سلم الخدم.

أبقى متكومة في ركن من الخزانة، وقلبي يدق بسرعة مائة نبضة في الدقيقة. فوقي ما زالت فساتين مدام بيكر تتأرجح في المشجب. أنتظر إلى أن تثبت قبل أن أزحف خارجة من الخزانة وأهرول إلى غرفة لينورا. هي مستيقظة، بالطبع، وعلى وجهها تعبير مذعور ويدها السليمة متشنجة حول زر الاستدعاء. عبر بابنا المشترك، أسمع طنين المنبه وأرى النور الأحمر يملأ غرفتي. أقول:

- أنا هنا. هل أنتِ بخير؟

تلقي لينورا زر الاستدعاء وتدق مرتين على غطاء الفراش. تنتقل نظرتها بسرعة إلى الركن القصي من الغرفة، حيث يقف أحدهم، والذي لم ألحظه حتى الآن.

آرشي.

جذب الستائر وأخذ يتطلع خارج النافذة نحو الشرفة وهو يقول:

- يبدو أنه هناك بالأسفل.

- ما هو؟

يلتفت آرشي أخيرًا ليواجهني:

- الدمار. يجب أن نذهب لنرى ما حدث.

أعرف بالفعل ما حدث. لقد خطا هوبز إند خطوة أقرب إلى السقوط في المحيط. أقول:

- ماذا تفعل في غرفة لينورا؟

أتبادل النظر أنا وآرشي في شك حذِر. يُذكرني هذا بفيلم شاهدته مع أمي عندما كانت مريضة. لصا منازل فاجأ أحدهما الآخر وهما يحاولان سرقة المنزل نفسه واضطرا إلى اختيار ما بين العمل معًا أو كل على حدة. في النهاية يقرران الثقة أحدهما بالآخر. يتخذ آرشي قرارًا مشابهًا.

- كنت أقول لها تصبحين على خير.

- منذ متى تقول للينورا تصبحين على خير؟
- منذ أن أصيبت الآنسة هوب بالمرض لأول مرة. كل ليلة، أتأكد من المرور عليها والاطمئنان على حالها.

أقول:

- فلنخرج.

ما أقصده حقًّا أنني أريد الحديث حيث لا تستطيع لينورا أن تسمعنا. يومئ آرشي برأسه ويتبعني إلى الرواق، حيث يبدو ميل المنزل أوضح بشكل ملحوظ. بعدما اعتدت عليه أيضًا.

أقول:

- كل ليلة؟ أخبرتني بأنك ولينورا لم تعودا مقربين.
- قلت إن الأمر ليس كما كان. وهذه هي الحقيقة. لقد تطور الأمر على هذا النحو مع السنين. لكن مسألة أنني لا أبين ذلك لا تعني أنني لا أهتم بالآنسة هوب. كلانا في الجانب نفسه يا كيت. كلانا هنا للعناية بها. نحن فقط نقوم بذلك بسبل مختلفة.
- لماذا لم أرَكَ تزورها من قبل؟
- لأنه يمكن القول إنه سرنا الصغير. شيء بقي بيني وبين الآنسة هوب فقط. أنا واثق من أنك تفهمين.

يسكت آرشي، كأنه يريدني الآن أن أشاركه واحدًا من أسراري. أرفض. ترى هل السبب ذلك الفيلم عن لصَّي المنازل اللذين قررا أن يثق أحدهما بالآخر؟ ينتهي الفيلم بخيانة أحدهما للآخر. لن أسمح بحدوث الشيء نفسه معي.

- في أي وقت متأخر تكون زيارتك؟
- عادة بعد ذهاب الآنسة هوب إلى فراشها بقليل وقبل ذهابي إلى النوم بقليل. نهبط سلم الخدم ببطء، وأحذيتنا تسحق قطعًا من الجير سقطت من الجدران.
- هل زرتها من قبل في منتصف الليل؟
- لا. من يستيقظ مبكرًا مثلي لا يستطيع تحمُّل السهر إلى ذلك الوقت المتأخر.

يبدو صادقًا إلى درجة تجعلني أوشك على تصديقه. لكن قبل ذلك بدا آرشي صادقًا أيضًا عندما كذب بشأن معرفته بأمر إنجاب لينورا طفلًا. أظن الآن أن هناك احتمالًا بنسبة خمسة وسبعين في المائة أنه يقول الحقيقة. بهذه الحسبة، أخلص إلى أن آرشي كان هو الظل الرمادي الذي رأيته عند نافذة لينورا في ليلتي الأولى هنا.

لكنني أقل ثقة بشأن كونه مسبب أصوات منتصف الليل في غرفة لينورا.

أو الظل الذي رأيته يمر وراء بابنا المشترك.

أو الرسالة المطبوعة التي نسبتها لينورا إلى ڤرجينيا.

- هل تعرف إن كان هناك أي شخص آخر يتسلل إلى غرفة لينورا في الليل بشكل منتظم؟

- أشك في ذلك.

يقولها آرشي بغموض يهبط بمؤشر الثقة إلى خمسين في المائة.

- أنا واثق بأنه لا شيء.

- وأنا واثقة بأنه شيء ما.

أتوقف في منتصف السلم وأكمل حديثي:

- ما الذي تخفيه عني؟ عندما أخبرتكم جميعًا بأن لينورا قالت إن أختها - أختها الميتة - كانت في غرفتها تكتب على الآلة، لم تبدُ مندهشًا. لِمَ ذلك؟

- لأنه كان شيئًا غريبًا.

- أو ربما لأن شيئًا مثل هذا حدث قبل ذلك طوال السنين.

يحاول آرشي أن يهبط درجة أخرى، لكني أسد طريقه، واقفة بذراعين مفرودتين وكفاي مسندوتان إلى جدران بئر السلم المتشققة.

- هل كانت لينورا تقول الحقيقة؟

ينبغي أن أشعر بمدى سخافتي لمجرد التفكير في ذلك، ناهيك بالنطق به. لكن رد فعل آرشي - رجفة، ثم قناع محكم على ملامحه - ينبئني بأنني أقترب من كشف شيء ما.

يقول وهو يزيل برفق إحدى يدَي من الجدار ويخطو جانبًا بجانبي:

- يوجد الكثير مما لا تعرفينه عن هذا المكان. أشياء من الأفضل لكِ ألا تعرفيها.

- إذن الأمر صحيح. شبح ڤرجينيا يسكن هوبز إند فعلًا؟

يتعمد آرشي ألا ينظر إليَّ وهو مستمر في نزول السلم فيما يقول:

- ليست «يسكن» بالكلمة الصحيحة. لكن، نعم، من الممكن الشعور بحضورها هنا. في هوبز إند، الماضي حاضر دائمًا.

أتبعه إلى أسفل السلم وإلى داخل المطبخ، الذي يبدو غير متضرر تقريبًا. مجرد بضع أوانٍ وأوعية ساقطة وإبريق مكسور على البلاط. في غرفة الطعام، ظهر شرخ كبير أعلى رف المدفأة، يتعرج صاعدًا نحو السقف. الأبواب الفرنسية مفتوحة، سامحة بدخول هواء الليل المنعش والأصوات المكتومة للآخرين جميعهم في الخارج بالفعل.

أخطو أنا وآرشي إلى الشرفة، حيث تتجمع مدام بيكر وجيسي وكارتر جميعًا قرب جانب المنزل. في البداية، لا أفهم السبب.

ثم أراه.

يتناثر على الشرفة مزيد من ألواح الإردواز من السطح بالإضافة إلى كومة من الطوب التي أظنها بقايا مدخنة منهارة. ويمتد عبر هذا كله، على مسافة خمس أقدام من المنزل، خط صدع يمتد من أحد جانبَي الشرفة إلى الآخر.

خطوة واحدة فوق ذلك الخط كفيلة بإسقاط المنحدر والشرفة، وربما هوبز إند كله في البحر.

٣٣

لا يمكن تحديد المدى الكامل للضرر إلا في الصباح، عندما نجتمع كلنا في الشرفة بعد الفجر بقليل. لو زار أي شخص آخر غرفة لينورا خلال الليل، لما سمعته. كنت في غاية التركيز على صوت الأمواج وهي ترتطم بسفح المنحدر، لتقرضه بوصة بوصة. وبينما أنا راقدة في الظلام، منصتة لتلك الممخضة الثابتة، تساءلت كم تبقى لنا قبل أن يسقط المكان كله. بالحكم على حالة الشرفة، لم يبقَ وقت طويل على الإطلاق.

يبدو الدمار أسوأ حتى في نور النهار، عندما تلقي الشمس المشرقة ضوءًا كاملًا على الشرخ الذي يقطع الشرفة. عرضه نحو بوصتين، وعمقه لا يمكن سبر غوره، ويمتد هابطًا السلالم على اليسار بطول الطريق إلى داخل حمَّام السباحة الفارغ. بمحاذاته خط من بلاطات الرخام المكسورة، كثير منها يبرز الآن من الشرفة بزوايا مسننة.

تسترق مدام بيكر النظر إليه من وراء نظارتها، وعيناها متعبتان وحزينتان. تقول:

- هل يوجد أحد يمكننا الاتصال به؟

كارتر، الذي كان متمددًا على بطنه يتفحص الصدع، ينهض واقفًا وينفض التراب عن بنطاله الجينز ويسأل:

- ليفعل ماذا؟

- يصلحه. أو يضع له دعامة. أو شيئًا ما.

يقول كارتر:

- لا إصلاح لهذا. سينهار هذا المنحدر في النهاية. وعندما يحدث ذلك، سينهار معه هوبز إند.

- لن أسمح بحدوث ذلك.

تقولها مدام بيكر، كأن لها قرارًا في تلك المسألة.

- سأذهب لإجراء بعض المكالمات.

تهرع عائدة إلى داخل المنزل، تاركة بقيتنا محدقين في قلق إلى الشرفة المشروخة.

يقول كارتر:

- هي واهمة.

توافقه جيسي:

- تمامًا.

ألتفت إلى آرشي، على أمل أن يكون ميثاق ثقتنا ما زال ساريًا:

- هل تعتقد أن هناك طريقة لإقناعها بمغادرة هذا المكان؟

- مغادرة هوبز إند؟ لن تفعل ذلك أبدًا.

- أنا أكثر قلقًا بشأن لينورا. لو حدث شيء مثل هذا مرة أخرى...

تقول جيسي:

- عندما يحدث مرة أخرى... بربكم يا شباب، أنتم تعرفون أنه سيحدث. وربما المرة المقبلة سيكون أسوأ.

أتنهد، لأنني أتفق معها وأقول:

- عندما يحدث، يستطيع بقيتنا الهروب لو وُجب علينا ذلك. لكن لينورا لا تستطيع.

يعدني آرشي بأنه سيتحدث إلى مدام بيكر حول ذلك، ثم يرجع إلى الداخل لإعداد الفطور. تتبعه جيسي سريعًا، من دون أن تنطق بكلمة وهي تلقي نظرة طويلة مستنكرة على ما تبقى من الشرفة.

أظل أنا وكارتر، مستندين بظهرينا إلى المنزل ونسيم البحر المنعش يلفح وجهينا.
يقول كارتر بخجل لم أرَه منه من قبل:
- لم أعتقد أنني سأراكِ مرة أخرى. أنا سعيد لأنك ما زلت هنا.
تشتد الريح، حاملة معها برودة قارسة تنذر بأن الشتاء قادم في طريقه. أحكم سترتي الصوفية حول جسدي وأنا أتساءل إن كان هوبز إند سيبقى مكانه عندما يصل الشتاء.
- لست واثقة ببقائي. بصراحة، كم تعتقد أن هذا المكان سيبقى قائمًا؟
- ليست لديَّ أي فكرة. قد تكون سنوات. أو شهورًا.
- أو ساعات؟
- نعم، هذا ممكن أيضًا.
- أتوق إلى الأيام التي كنت أعتقد فيها أن أكثر شيء مرعب في هذا المكان حوادث القتل الثلاث التي جرت فيه.
يقول كارتر:
- أربع حوادث قتل.
- صحيح.
أطرق برأسي شاعرة بالخزي من نسياني أمر ماري مؤقتًا وما جرى لها في هذه الشرفة نفسها.
يقول كارتر:
- هل هناك أي شيء جديد بشأن هذا؟ أو بشأن أي شيء؟
أحيطه علمًا بمحادثتي مع مدام بيكر وتفتيشي السري لغرفتها:
- لا توجد حقيبة سفر. لكنني وجدت شيئًا مثيرًا للاهتمام. هل تعرف أي شخص قد يكون مقيمًا في أوشن ڤيو؟
- دار المسنين في البلدة؟
- نعم. وجدت حزمة من الشيكات المسددة، ترجع إلى سنوات مضت. تعطيهم مدام بيكر ألف دولار شهريًا.

يُطلق كارتر صفيرًا خافتًا:

- تبرع خيري؟

- أشك في أن مدام بيكر تستغني عن آلاف الدولارات في العام بينما هوبز إند على هذه الحال.

أتأمل الشرفة المكسورة والحطام المتناثر عبرها. تشبه منطقة حرب. أنا مع الأعمال الخيرية قلبًا وقالبًا، لكن في حالة هوبز إند، ما يحتاج إليه المنزل حرام على الكنيسة.

- لن تهدر هذا المقدار من المال إلا إذا كانت مضطرة إلى ذلك. هي تدفع ثمن بقاء شخص ما في أوشن ڤيو.

يتصلب كارتر إلى جواري، ويقبض على ذراعي ويقول:

- أعتقد أنني أعرف من يكون. أتذكر أن توني ذكر مرة أو مرتين عندما كنت أعمل في الحانة أن شخصين أو ثلاثة ممن كانوا يعملون هنا ما زالوا أحياء. وأحدهم موجود في أوشن ڤيو.

- من؟

- برنيس مايهيو.

نتبادل نظرة مليئة بالدهشة والحيرة. لسبب ما - ولسنوات كثيرة جدًّا - كانت مدام بيكر تدفع تكاليف العيش لزوجة ريكاردو مايهيو.

يقول كارتر:

- لماذا تفعل ذلك؟

- لا أعلم. لكنْ لديَّ إحساس بأن لينورا قد تعلم.

يحك كارتر قفاه مفكرًا:

- أتمنى لكِ حظًّا طيبًا في جعلها تخبرك بأي شيء الآن بعد أن ضاعت الآلة الكاتبة.

فكرت في الأمر نفسه هذا الصباح بعد الاستيقاظ على مرتبة انزلق نصفها من فوق هيكل الفراش. رفعتها إلى مكانها، وأخذت دشًّا في حوض مائل بشكل

مخيف، وارتديت زي ممرضة آخر من ثياب ماري قبل الاطمئنان على لينورا. في لحظة دخولي غرفتها، بحثت بشكل غريزي عن الآلة الكاتبة التي نسيت أنها لم تَعُد موجودة. وبينما كنت أحدق إلى المكتب الخالي، أدركت أن التواصل بيننا قد غدا أصعب بكثير. بعض الأسئلة تتطلب ما هو أكثر من مجرد الدق بنعم أو لا.

- ربما تستطيع الكتابة بيدها اليسرى.

أقولها وأنا أفكر متمنية بصوت عالٍ. حتى لو كانت لينورا عسراء قبل إصابتها بسلسلة الجلطات الدماغية، لا أعتقد أن لديها القوة للإمساك بقلم وخط شيء ما على الورق لأي فترة ممتدة من الزمن. الشيء الوحيد الذي أستطيع التفكير في عمله هو كتابة الأبجدية وجعلها تشير إلى الحروف.

وهي، والحق يقال، ليست بالفكرة السيئة.

وفي الواقع، لا أحتاج حتى إلى بذل كل هذا الجهد.

لقد بذله شخص ما بالفعل من أجلي.

أقول وأنا أتحرك نحو الأبواب الفرنسية:

- فكرت في طريقة حالًا. ليست الكتابة على الآلة، لكنها ستكون بديلًا مناسبًا.

أترك كارتر في الشرفة، وأهرع عبر غرفة الطعام إلى داخل المطبخ. أصعد سلم الخدم بسرعة، أمر ببسطة الطابق الثاني وأتجه إلى الطابق الثالث مباشرة، والذي يبدو أشبه بالسير عبر متاهة في الملاهي. مترنحة كأنني مخمورة، أشق طريقي إلى غرفة جيسي. بابها مفتوح، لذلك أطل داخل الغرفة وأحاول أن أقول بشكل عادي:

- مرحى. كنت أتساءل إن كان بمقدوري أن أستعير منك لوح الويجا.

جيسي، الواقفة عند طرف فراشها، تشير إلى أعلى تسريحتها، حيث يستقر لوح الويجا ومؤشره.

- بمقدوركِ أخذه. سيقلل الأشياء التي يجب أن أحزمها.

ألاحظ أن كل أدراج التسريحة مفتوحة، وثمة حقيبة سفر مستقرة على الفراش أمام جيسي.

- هل سترحلين؟
- نعم.
- إلى أين ستذهبين؟
- لا أعرف، ولا أبالي.

على سبيل التأكيد، تكوِّر جيسي سترة وتحشرها في حقيبة السفر وهي تكمل:

- إلى أبعد مكان عن هنا. لقد سمعتِ كارتر. هذا المكان كله ينهار. حرفيًّا. لن أكون هنا عندما ينهار تمامًا. ولا يجب أن تكوني هنا أيضًا. في الحقيقة، كان ينبغي لي أنا وأنت أن نرحل بعد أن وجدتِ ماري مباشرة.

لا جدال في ذلك. فيما أشاهد جيسي وهي تلقي بمزيد من الثياب داخل الحقيبة، لا أستطيع إلا أن أتخيل كيف كانت ستبدو حياتي الآن لو رحلت ذلك اليوم ولم ألتفت ورائي قَطُّ.

لكني بقيت وموت ماري وحوادث مقتل عائلة هوب تملأ ساعات صحوي. وسأستمر في البقاء، على الرغم من أن الشيء الفطن هو أن أتبع جيسي.

- لا أستطيع أن أتخلى عن لينورا.

أقولها، لتحمل في الوقت نفسه الحقيقة وعذرًا للبقاء.

سأبقى أيضًا لأنني لا أستطيع التخلص من الشعور بأن القصة كاملة عند أطراف أصابعي، بعيدة بالكاد عن متناولي. ذلك الشعور نفسه هو ما يجذبني إلى التسريحة، حيث أتناول لوح الويجا والمؤشر.

- سأستعيره فقط. أنوي إعادته.

أقولها متظاهرة بأن إحدانا سترى الأخرى مرة ثانية بينما كل الاحتمالات تؤكد أن هذا لن يحدث.

تمنحني جيسي عناقًا مفاجئًا، تنهيه بضمة بناتية الطابع وهي تقول:

- اعتني بنفسكِ يا كيت. واعتني بلينورا أيضًا. وعديني أرجوكِ بأنك ستبعدينها عن هذا المكان في أقرب وقت ممكن.

- أعدك.

تقول جيسي:

- أنا جادة. وقلقة بشأنها، وبشأنك.

- أعدك. أقسم على ذلك.

أتأهب لمغادرة الغرفة عندما تقول جيسي:

- انتظري! نسيت شيئًا.

تهرول إلى التسريحة وتناولني شريط كاسيت.

- نهاية الكتاب الذي كنت أقرأه من أجل لينورا. أتمنى أن يعجبها.

- أشكرك. أنا متأكدة من ذلك.

أضع الشريط في جيبي وأترك جيسي تعاود حزم حقيبتها، مدركة أنني ينبغي أن أفعل الشيء نفسه. لكني بدلًا من ذلك أحمل لوح ويجا عبر رواق لا ينبغي السماح لأحد بالسير فيه، في طريقي لأجعل امرأة خرساء تتحدث ليس مع الموتى، لكن مثلهم.

بعد خمس دقائق، تكون صينية الأكل مثبتة في كرسي لينورا المتحرك. عليها يستقر لوح الويجا، والمؤشر موضوع في الوسط تحت يد لينورا اليسرى.

- هل استخدمتِ شيئًا كهذا من قبل؟

ترفع لينورا المؤشر لتدق مرة واحدة على اللوح.

- الأمر سهل.

أضع يدي فوق يدها وأجعل المؤشر ينزلق حول اللوح.

- فقط حركي المؤشر إلى أي حرف تريدينه لتتهجي إجابتك. فهمتِ؟

تعض شفتها السفلى في تركيز، وتدفع لينورا المؤشر إلى كلمة نعم الموجودة في الزاوية اليمنى العليا من اللوح.

- ممتاز. هل أنتِ مستعدة لإجابة سؤال؟

يظل المؤشر حيث كان، وهو ما أفترض أنه رد آخر بنعم.

- إلى أي حد كنتِ تعرفين برنيس مايهيو؟

تدفع لينورا المؤشر إلى صفَّي الحروف المقوسين فوق وسط اللوح. وببطء، تشير به إلى حرف ق.

ثم ل.

ثم ي.

ثم ل مرة أخرى.

ثم ا.

- قليلًا؟

أقولها لأتأكد أن هذا ما تعنيه.

وبدلًا من العودة بالمؤشر إلى كلمة نعم، تدق لينورا به مرتين على اللوح.

- كيف كانت برنيس؟

تدفع لينورا المؤشر مرة أخرى، متهجية كلمة لها معنى، لا حاجة إلى التأكد منه.

بغيضة

- إذن لماذا تمنحها مدام بيكر المال كل شهر؟

أنظر إلى لوح الويجا، حيث يظل المؤشر ساكنًا تحت يد لينورا.

- هل كنتِ تعرفين أنها تفعل ذلك؟

هذه المرة، تتهجى لينورا بالمؤشر إجابتها.

نعم

- منذ متى يجري هذا؟

تحت الحروف، صفٌّ من الأرقام في مركز لوح الويجا، يمتد من الصفر إلى التسعة. تدفع لينورا المؤشر إلى أربعة أرقام، لتشكل سنة دالة.

١٩٢٩

ولأنني لم أكن ماهرة في الحساب قَطُّ، يستغرق الأمر مني دقيقة كي أحسب الرقم كله في رأسي. يحير الناتج الذي أصل إليه عقلي. منذ عام ١٩٢٩، دُفع إلى برنيس مايهيو أكثر من ستمائة ألف دولار.

- لماذا؟

أقولها وأنا أكثر ذهولًا من صياغة السؤال بطريقة أفضل من تلك.

تعود لينورا بالمؤشر إلى الحروف، وقد بلغت الإيقاع نفسه الذي كانت عليه عندما كنا نستخدم الآلة الكاتبة. تقريبًا في الوقت نفسه الذي كانت لتستغرقه كي تكتب على الآلة، تهجت ردها:

لأنها تعرف

ما زلت لا أفهم.

- تعرف ماذا؟

تستمر لينورا في دفع المؤشر.

عن تلك الليلة

أومئ برأسي. لا توجد إلا ليلة واحدة من الممكن أن تشير إليها.

- ماذا عن تلك الليلة؟

تستمر لينورا في تحريك المؤشر، متقافزًا من حرف إلى حرف.

هي

يستمر المؤشر في الانزلاق. هابطًا إلى حرف في منتصف الصف الثاني، ثم صاعدًا إلى الحرف الأول في الصف الأول، ثم عائدًا إلى الصف الثاني، ثم إلى الحرف الثالث في الصف الأول.

كانت

أبقي نظري ثابتًا على لوح الويجا، وأنا أكثر خوفًا من تفويت أي حرف إلى درجة أنني حتى لا أرمش.

هنا

يرتطم قلبي بقفصي الصدري.

كانت برنيس مايهيو موجودة في هوبز إند تلك الليلة.

ليس فقط قبل أو بعد حوادث القتل، بل خلالها.

مع بداية أكتوبر، كنت قد بلغت الحد الذي لم يعد بمقدوري عنده أن أخفي حالتي، حتى بمساعدة آرشي والآنسة بيكر. تغير جسمي إلى درجة أكبر من مجرد إلقاء اللوم على زيادة الوزن. سرعان ما اصبح بمقدور اي شخص ينظر إليَّ معرفة أنني حبلى.

من دون سبيل آخر لإبقاء الأمر سرًا، اقترحت الآنسة بيكر ان احذو حذو أمي وأبقى في الفراش. فعلت هذا رغمًا عني. أي شخص كان يدخل غرفتي ويراني راقدة محاطة بالوسائد ومغطاة ببطانيات وفيرة لم يكن ليعرف انني حبلى.

كانت حجتي في التزام الفراش -- الإرهاق بسبب العصبية الزائدة مستلهمة من أمي أيضًا. صدَّق الجميع تلك الحجة. البنت لأمها. حتى الدكتور والدن المغفل لم تكن هناك مشكلة في إقناعه بأنها الحقيقة. وبدلًا من فحصي، قدم ببساطة زجاجة صبغة أفيون وأخبرني بأن أرشف منها بانتظام لتخفيف حالتي الحساسة. سكبت السائل القذر في الحوض بمجرد أن صرت وحدي. ربما أتصرف مثل أمي، لكنني بالتأكيد لا أنوي أن أصبح مثلها.

بالنسبة إلى فتاة مثلي لا يقر لها قرار، لكنها كانت تخسر كل مرة يجبرنا فيها أبي على لعب تلك اللعبة التي يوصد علينا فيها أبواب الغرف، لم تواجهني للغرابة أي مشكلة في قضاء أغلب الوقت في الفراش. بسرعة شديدة، تعلمت

كيف أرقد ساكنة جدًا، أحيانًا لساعات، بينما يجوب عقلي العالم، ذاهبة أينما أردت، ومتى أردت.

كثيرًا ما كنت أضع يدي على بطني وأهمس للطفل النامي داخله عن كل الأشياء التي خططتها لنا وكل الأماكن التي سنذهب إليها. باريس بالتأكيد، لكن أيضًا إلى أماكن أخرى أكثر مغامرة. أدغال وجبال وجزر استوائية تلتمع حولها المياه مثل الياقوت.

اعتقدت أن هذه ليست أكثر من أحلام يقظة، لكن آرشي الذي جعلته طبيعته المتطلعة يقرأ عن هذه الأشياء قال إنني أمارس التأمل.

سألته في مرة من المرات النادرة التي استطاع فيها التسلل إلى غرفتي:

- ما هذا؟

- انفصال الذهن عن الجسم.

هكذا أجابني، ولم يوضح الأمر أكثر من ذلك.

على الرغم من ذلك، كان لديَّ وقت وفير كي أترك ذهني يتجول. أتى قليل من الناس لرؤيتي. كانت أمي طريحة الفراش هي نفسها، وأبي الغارق في مشكلات العمل التي لا أعرف عنها إلا القليل اعتاد أن يقضي وقتًا أكثر في بوسطن. حتى زيارات آرشي صارت نادرة مع مرور الأسابيع.

الشخصان الوحيدان اللذان كنت أراهما بانتظام هما الآنسة بيكر، التي كانت تحضر لي الوجبات وتحرص على أن آكلها إلى آخر لقمة، وأختي التي بدا أنها تستمتع بمناقشة حياتها الاجتماعية، والتي تتضمن كل الأشياء التي كانت تفعلها، والناس الذين كانت تراهم، والأماكن التي كانت تذهب إليها.

قالت في اليوم السابق على تغير كل شيء، على الرغم من أن أحدًا منا لم يعرف بذلك بعد:

- سأذهب أنا وبيتر إلى نزهة خلوية. أتمنى لو كان بمقدورك الانضمام إلينا.

بالتأكيد لم تكن تعني ذلك. كانت هذه فقط طريقتها للتأكد من معرفتي بأنها تمتلك ذلك الوجود الخالي من الهموم الذي لم يكن بمقدوري إلا أن أتوق

إليه. لم تكن تعرف أنني بخير. كان لديَّ شخص أحبني، وطفله ينمو داخلي، وأسرة سعيدة في مستقبلي.

أو هكذا قلت لنفسي.

لكن الشك تسلل داخلي، ولم يعد بمقدور أي قدر من أحلام اليقظة -- أو التأمل -- إبقاؤه بعيدًا.

الحقيقة أن ريكي لم يطمئن عليَّ ولو مرة واحدة طوال الأسابيع الثلاثة منذ أن اضطررت إلى ادعاء أنني مريضة. كان يعرف أنها حيلة لإخفاء الحمل، لأنني حرصت على إخباره.

يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، كنت أسأل الآنسة بيكر التي عرفت قبل ذلك هوية ريكي، إن كان قد أتى محاولًا أن يراني. ويومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، كانت الإجابة لا.

وكل مرة أسأل كانت الآنسة بيكر تقول:

- أنا واثقة بأنه من الصعب عليه بشدة أن يتسلل هاربًا.

كنت لا أشك في ذلك. لكن ما أزعجني أنه لم يبد حتى كأنه يحاول الاطمئنان عليَّ. أخيرًا نفد صبري، وكذلك يقيني بأن ريكي أحبني حقًا وأراد هذا الطفل مثلما أردته.

مدفوعة من ناحية بتباهي أختي بحياتها الاجتماعية المزدهرة، اخترت تلك الليلة أن أتسلل خارجًا وأراه. كان الشك قد أصبح أكبر من قدرتي على تحمُّله.

عندما وصلت الآنسة بيكر بالعشاء ذلك المساء، توسلت إليها أن تجد ريكي وتخبره بأنني سأقابله في الشرفة منتصف تلك الليلة. كان هذا هو الوقت الوحيد الذي بمقدوري أن أغادر فيه غرفتي من دون أن يراني أحد. وافقت الانسة بيكر مترددة.

عندما دقت الساعة معلنة انتصاف الليل، وبعد أن تأكدت أن الآخرين جميعًا آووا إلى الفراش، تسللت نازلة إلى المطبخ، في طريقي إلى الشرفة. كنت قد قطعت نصف الطريق في المطبخ عندما أدركت أنني لست وحدي.

كانت برنيس هناك أيضًا. على الرغم من أنها تظاهرت بأنها مشغولة بأعمال ليلية متأخرة، فكان من الواضح أنها تنتظرني.

قالت عندما رأت بطني المستدير:

- كنت أعرف ذلك. حسنًا، أنت تفاحة لم تسقط بعيدًا عن الشجرة.

- ماذا تقصدين؟

قلتها وأنا أحاول التظاهر بالغضب بينما كل ما أحسست به كان خوفًا خالصًا.

نخرت برنيس وقالت:

- أنك عاهرة. تمامًا مثل بقية أفراد عائلتك كلهم.

أصابتني صدمة أعجزتني عن الكلام. بالطبع كنت أعرف ما يقوله الخدم عنا من وراء ظهورنا. اعتقدت فقط أنهم يخافون على وظائفهم إلى حد يمنعهم من قوله في وجهي. لكن برنيس لم تكن كذلك، على ما بدا.

- هل تعتقدين حقًّا أنني لا أعرف ما يجري؟ زوجي يتسلل خارجًا في ساعات غريبة، ولا يوليني اهتمامًا تقريبًا، ويبدو كأنه من الأهون عليه أن يموت بدلًا من أن يلمسني. لقد عرفت طوال شهور. ليست هذه بالمرة الأولى التي يحدث فيها ذلك.

حدجتني بنظرتها كأن كل شيء فيَّ يثير اشمئزازها. قلت:

- وما الذي تنوين فعله حيال ذلك؟

أنا واثقة بأن ذلك السؤال بدا أشبه بتحدٍّ لبرنيس على الرغم من أنه لم يكن. كنت أشعر بفضول رهيب -- لن أقول إنني كنت مرعوبة -- من حركتها التالية. قالت:

- أنوي أن أكون غنية. سأظل صامتة وأشيح بوجهي إذا دفعت أنت وعائلتك الثمن.

بقيت ساكنة تمامًا، مذهولة.

- كم؟

- خمسون ألف دولار ستكون كافية.

قالتها قبل أن تضيف تهديدًا كنت موقنة أنها ستقوم به:

- حاليًا. لديك حتى ليلة الغد للتفكير في الأمر.

على الفور، أحسست بالهلع.

الغد.

لم يكن هذا بالوقت الكثير. ولا بالكافي حتى لتخطيط هروبنا. لكن الهروب كان هو الخيار الوحيد. لم يكن لديَّ شك في ذلك.

اندفعت خارجة من المطبخ وأنا أعدو إلى الشرفة، حيث كان ريكي منتظرًا في الظلام. أسكته قبل أن ينطق بكلمة، شاعرة بالقلق من أن تكون برنيس قد تبعتني.

همست له:

- ليس هنا.

قبل أن أجذبه بعيدًا إلى أول طابق من الجراج، حيث كانت السيارات الباكارد اللامعة، التي امتلكها أبي لكنه لم يقُدها قَطُّ، مخزنة. دخلنا إلى المقعد الخلفي في إحداها، متواريين عن بقية العالم.

قال ريكي:

- هل ستخبرينني بما يحدث؟

صحت من دون تفكير:

- هي تعلم. برنيس تعلم. وتريد المال وإلا ستخبر أبي. لكن إخبار أبي هو الطريقة الوحيدة للحصول على المال.

قال ريكي بصوت فيه من الفضول أكثر مما فيه من الغضب:

- كم تريد؟

أردت أن أبكي وأنا أقول:

- خمسون ألف دولار.

كان الموقف أبشع من أن تواتيني فكرة حيال ما يجب أن أفعل. أيًا كان اختيارنا، سيغير القرار حياتي بلا رجعة.

- ماذا سنفعل؟

كانت لدى ريكي الإجابة الوحيدة.

قال:

- نهرب. ليلة الغد.

٣٤

سأمنح من أسمى دار أوشن ڤيو للمسنين، أيًا كان، الاعتراف بالفضل حيثما كان. يملك المكان ما يَعِد به الاسم. من بعيد. وفقط لو نظرت ما بين الأبنية على الجانب الآخر من الشارع، التي تطل ظهورها حقًّا على المحيط.

في الداخل بهو أنيق يجعل المكان أشبه بفندق منه بدار للمسنين. توجد شجيرات نخيل في أصص، ومقاعد وثيرة، ولوحات لقواقع بحرية مرسومة بألوان الباستيل على الجدران. يمتد مكتب تسجيل بطول طرف من البهو، خلفه تجلس امرأة تبدو مسنة بما يكفي لأن تكون نزيلة. شعر أشيب. بدلة كاملة خضراء بلون النعناع. سيجارة مشتعلة محشورة بين شفتيها. تضيق عينيها وسط الدخان، مراقبة اقترابي. تقول:

- مرحبًا بكِ في أوشن ڤيو. كيف يمكنني مساعدتك؟

أنظر إلى البابين على جانبَي المكتب. أحدهما مغلق ومعلقة عليه لافتة بأنه للموظفين فقط. أما الآخر فمفتوح قليلًا، يكشف عن لمحة لرجل يدفع مشاية عبر رواق مفروش ببساط عنابي. الطريق إلى داخل أوشن ڤيو. أقول:

- أنا هنا لزيارة برنيس مايهيو.

تتطلع موظفة الاستقبال إليَّ من أعلى إلى أسفل، كأنها تقيِّم زيي الرسمي قبل أن تقول:

- لستِ واحدة من ممرضاتنا.
- لا. أنا أعمل مع شركة التأمين.
أرفع الحقيبة الطبية التي أحضرتها معي جزءًا من الحيلة، وأقول:
- طلبوا مني أن أفحص وظائفها الحيوية.
- لماذا؟
- لم يخبروني. تعرفين كيف تعمل شركات التأمين.
تومئ موظفة الاستقبال برأسها، معترفة في صمت بأن نعم، شركات التأمين فظيعة، ونعم، أنا وأنت مجرد ترسين في مجمع صناعي ضخم للرعاية الصحية يغلِّب الأرباح اللعينة على الناس كل مرة. لكنها ما زالت مترددة:
- لدينا طاقمنا الطبي الخاص الذي يقيِّم مرضانا.
- أنا فقط أفعل ما طُلب مني.
- أفهم ذلك. لكن إرسالهم إليكِ في هذه الساعة أمر غير مألوف.
- أتفق معك تمامًا. بمقدورك الاتصال بالمكتب الرئيسي إذا أردت. لكنهم سيبقونك على الخط ساعة وما يجب أن أفعله لن يستغرق أكثر من خمس دقائق. أتحقق من ضغط الدم، ومعدل النبض، ودرجة الحرارة. ثم أمضي إلى حال سبيلي.
آخذ نفسًا، فخور بنفسي - ناهيك بإحساسي بالذعر قليلًا - لقدرتي على الكذب هكذا من دون مجهود. تنفث موظفة الاستقبال خطًّا من الدخان وترمق الهاتف القريب من كوعها، وهي تفكر من دون شك في مقدار الوقت الذي ترغب في إهداره بشأن ذلك. من الواضح أنه ليس كثيرًا، لأنها تقول:
- خمس دقائق؟ فقط؟
هذا كل ما أستطيع أن أوفره. لم أستطِع الخروج إلا بعد أن أحضر آرشي العشاء إلى غرفة لينورا. طلبت منه أن يبقى معها بينما أسرع إلى البلدة للقيام بمأمورية مهمة. قلت له إنني سأغيب لثلاثين دقيقة. بما أن القيادة إلى هنا استغرقت خمس عشرة دقيقة والقيادة للعودة ستستغرق الوقت نفسه، أتصور

أنني لا أستطيع توفير إلا خمس دقائق مع برنيس مايهيو قبل أن يبدأ آرشي في الشعور بالارتياب.

أبتسم لموظفة الاستقبال وأقول:

- هذا حسب السيدة مايهيو، قد يستغرق الأمر أربع دقائق فقط.

تقول موظفة الاستقبال وهي تسحب نفسًا من سيجارتها:

- هي في جناح الكثبان. الغرفة رقم ١١٣.

أتبع البساط العنابي إلى عمق أوشن ڤيو. يساعدني دليل إرشادي بعد الباب مباشرة على تحديد اتجاهاتي. جناح الأمواج على اليسار، وجناح الكثبان على اليمين، والمساحة المشتركة إلى الأمام مباشرة. أتجه يمينًا، وأسير في رواق يفوح بروائح المنظفات ومعطر الهواء بالليمون ومجرد أثر لرائحة بول.

عند الغرفة ١١١، أبطئ خطواتي. وعند الغرفة ١١٢، أضبط قبعة الممرضات على رأسي وأسوي التنورة في زيي الرسمي. ثم أرسم ابتسامة على وجهي وأخطو داخل الغرفة ١١٣.

الغرفة صغيرة لكن مُرتَّبة. لائقة بما يكفي للزيارة، لكنها ليست مكانًا ترغب في قضاء وقت طويل به. على الرغم من ذلك، فإن برنيس مايهيو قضت سنوات هنا. وهذا واضح. في رقدتها مستندة إلى الوسائد مرتدية رداءً من قماش المناشف، تبدو برنيس بهيئة شخص لا يخرج كثيرًا. شعرها أبيض هائش، يتعارض مع وجه صار داكنًا بفعل بقع الشيخوخة. لها أنف مسطح، ووجنتان ممتلئتان، وذقن لا وجود له. حل محله بروز من جلد متهدل أشبه بخرقة مبتلة معلقة على خطاف، تتأرجح عندما تلتفت لتحدجني بنظرتها:

- من أنتِ؟

- اسمي كيت.

انتهى وقت الكذب في الرواق. لا خيار لديَّ الآن إلا إخبارها بالحقيقة.

- أعمل لدى لينورا هوب.

- هل أنتِ ممرضتها؟

- شيء من هذا القبيل، نعم.

تلتفت برنيس من جديد إلى التلفزيون الصغير المستقر في مقابل الفراش. برنامج عجلة الحظ يُعرض. كانت أمي تحب هذا البرنامج الخاص بالمسابقات. تقول برنيس:

- كيف حال لينورا؟

- بخير، إذا وضعنا كل شيء في الحسبان.

تتنهد بخيبة أمل وتقول:

- هذا شيء مُخزٍ لعين.

- هل ستشعرين بالسعادة لو علمتِ أن جسدها كله مشلول ما عدا يدها اليسرى؟

تنظر برنيس مايهيو إليَّ من جديد، والبهجة ترقص في عينيها.

- هل تعاني؟

- لا أعتقد هذا.

- كنت سأشعر بسعادة أكبر لو كانت تعاني.

ثمة مقعد خشبي موجود أمام الباب مباشرة. أتهاوى عليه وأضع حقيبتي الطبية على الأرض.

- مثيرٌ للاهتمام ما تقولينه عن امرأة يبقيكِ كرمها هنا.

تقول برنيس بحدة:

- أهذا ما تعتقدينه؟ كرم؟

- الشيء الوحيد الآخر الذي أستطيع التفكير فيه هو رشوة لشراء السكوت. أفضل تخميناتي أن هذا كي لا تخبري أحدًا بأن لينورا هوب كانت على علاقة بزوجك. أم يكون هذا لأنكِ رأيت شيئًا لم يكن من المفترض أن تريه في الليلة التي قُتل فيها أغلب أفراد عائلة هوب؟

تنظر إليَّ برنيس مايهيو مضيقة عينيها، كأنها تراني لأول مرة.

- أنتِ امرأة ماكرة، أعترف لك بذلك. وجريئة أيضًا. تدخلين إلى هنا ببساطة وتقولين شيئًا كهذا.

- هو صحيح، أليس كذلك؟

ترد برنيس بحدة:

- لم أقل إنه غير صحيح.

- أي شيء تريدين أن تخبريني به أولًا؟

- لقد بقيت صامتة منذ عام ١٩٢٩. ما الذي يجعلكِ تعتقدين أنني سأبدأ في الثرثرة الآن؟

- لأن شخصًا آخر مات.

تضيق عينا برنيس وتسأل:

- من؟

- ممرضة لينورا السابقة. عاملة. مثلي تمامًا. مثلك تمامًا. أعتقد أنها قُتلت. وأعتقد أن لهذا صلة بما حدث تلك الليلة عام ١٩٢٩.

أسكت منتظرة أن أرى أي نوع من الاستجابات سأحصل عليه. أملي أن يلعب ذِكري لماري على أوتار تعاطفها. هذا إن كان لديها أيٌّ منها. أنا على وشك أن أرى إن كانت برنيس مايهيو بغيضة كما تقول لينورا.

تعود المرأة العجوز بنظرها إلى التلفزيون، حيث تدير الممثلة ڤانا وايت عجلة الحروف بمرح ونشاط مرتدية فستانًا براقًا. لكن لا يبدو أن برنيس تنظر إلى التلفزيون أصلًا. نظرتها مثبتة على مكان آخر، مكان ناءٍ. لحظة في الماضي لا يستطيع أن يراها غيرها.

- لم يكن ريكاردو مثاليًّا.

تقولها برنيس وتتنهد، وفي تلك التنهيدة الواحدة ينضوي عمر من خيبة الأمل.

- عرفت ذلك عندما تزوجته. كانت له عين زائغة، إذا جاز القول. لكنه لم يكن سافلًا، حتى عندما كان يسكر، وهو أفضل مما يمكنني أن أقوله عن أبي. لذلك لم أندهش عندما ألقت تلك العاهرة الغنية شباكها حوله. كان بمقدورها أن تنال خيرة كل الشباب العاملين في المكان. بعضهم كانوا بدوام كامل. وبعضهم كانوا من أهل البلدة. بعضهم كانوا حسني المنظر

أيضًا. لكن لم يكن أحد منهم في وسامة ريكاردو. أظن أن هذا هو السبب في أنها وضعت عينيها عليه. كل ما كانت بحاجة إليه أن تغمز بتلكما العينين الزرقاوين الواسعتين له كي يضيع بلا رجعة.

- هل واجهتِه بذلك؟

- طبعًا. هل أبدو لكِ امرأة خجولًا؟

يجب أن أعترف بأنها لا تبدو هكذا إطلاقًا.

- ماذا قال؟

- أنكر الأمر بالطبع. كان متحدثًا لبقًا، حبيبي ريكاردو. كان بمقدوره أن يخرج بالكلام من أي موقف. حاول إقناعي بأنه لا شيء يجري بينهما، وتظاهرت بتصديقه. لكن كانت لديَّ خطة كما ترين.

يتعالى صرير المقعد عندما أميل إلى الأمام، وكوعاي على ركبتَي:

- رشوة شراء السكوت.

- بدا ذلك عادلًا تمامًا. كان زوجي يقيم علاقة مع واحدة من آل هوب أصحاب السمو والعزة. استحققت شيئًا مقابل ألمي وعذابي. لذلك أعطيتهم إنذارًا نهائيًّا: ادفعوا الثمن وإلا سأخبر الجميع أي نوع من الناس تكونون بالضبط.

- وكان عليهم أن يقرروا...

- في الليلة التي انفتحت فيها أبواب الجحيم.

تخبرني برنيس كيف مُنح كل طاقم الخدمة في هوبز إند إجازة تلك الليلة. أن هذا كان شائعًا على ما يبدو كل أسبوعين يوم الثلاثاء في موسم الركود. لم يكن هناك الكثير مما يجب عمله بمجرد دخول شهر أكتوبر. أخبرت برنيس زوجها بأنها ستذهب إلى البلدة لتشاهد فيلمًا.

- سألته إن كان يريد أن يأتي معي، وأنا أعلم أنه لن يأتي. لذلك أخذت معطفي وقبعتي وحقيبة نقودي وغادرت الكوخ.

- لكنكِ لم تغادري هوبز إند.

تلمس برنيس طرف أنفها، إشارة إلى أنني على حق.

- انتظرت في الخارج، على أمل أن أرى ريكاردو يتسلل خارجًا ليقابلها. وبالطبع، غادر الكوخ بعد نحو خمس عشرة دقيقة، وتهادى عبر الشرفة وعبر حمَّام السباحة إلى الجراج. في البداية، شعرت بالدهشة. تخيلي مكانًا بهذه الضخامة، بكل تلك الغرف، ويختاران المضاجعة في الجراج.

أنتفض مصدومة. لا، برنيس مايهيو بالتأكيد ليست امرأة خجولًا. تبتسم، سعيدة بأنها أخجلتني. تكمل حديثها:

- لكنني أدركت عندئذ ما كان يفعله. لم يكن ريكاردو رجلًا غبيًّا، على الرغم من ارتكابه كثيرًا من الأشياء الغبية. كان يعلم أنني كشفته. وأدركت أنه عرف أنني لم أذهب إلى السينما. كان التوجه إلى الجراج مجرد طريقة لإبعادي عن طريقه.

أفهم قصدها. بدلًا من الدخول عبر الأبواب الخلفية، ذهب إلى الجراج قبل الالتفاف إلى واجهة المنزل واستخدام الباب الرئيسي.

- اتجهت مباشرة إلى داخل ذلك المنزل، مستعدة للإمساك بهما متلبسين ثم إخبار ونستون هوب بما كانت تفعله ابنته مع زوجي بالضبط. كنت موقنة أنه سيدفع ثمن سكوتي. بعد فصل ريكاردو طبعًا. وربما فصلي أنا أيضًا. وهو ما كان سببًا أدعى كي أحصل على أكبر قدر من المال يمكنني الحصول عليه.

- لكن الأمر لم يسِر على ذلك النحو.

تقول برنيس بهدوء:

- لا. لم يسِر.

ألقي نظرة على ساعتي. اقتربت دقائقي الخمس من الانتهاء. لكنني لا أستطيع المغادرة. ليس قبل سماع القصة كاملة. وفي محاولة لحثها على الإسراع أقول:

- ماذا حدث عندما دخلتِ؟

- وصلت حتى المطبخ قبل أن تصطدم بي تلك العاهرة.

لا أستطيع افتراض إلا أن العاهرة المقصودة هي لينورا.

- بدت خائفة. في البداية اعتقدت أن هذا بسببي. أنها عرفَت باكتشاف أمرهما. لكنني عندئذ لاحظت يديها.

يبدأ مقعدي في الارتعاد. أطرق وألاحظ أنني أهز قدمي اليمنى بسبب نفاد الصبر والتشويق.

- ماذا عنهما؟

- كانتا ملطختين بالدماء.

تسكن قدماي على الفور، وكذلك بقية جسدي وأنا أتصور لينورا الشابة واقفة في المطبخ، والدم يقطر من يديها. صورة مرعبة لأسباب كثيرة.

- هل قالت شيئًا؟

- ليس في البداية. حدقت فقط إليَّ، مصدومة من رؤيتي هناك. وبعد ذلك سمعت كلتانا صرخة. جاءت من الطابق العلوي، وتردد صداها هابطة سلم الخدم.

- هل تعرفين لمن كانت؟

- إما السيدة هوب وإما الابنة الصغرى. كان صوت امرأة بالتأكيد. وعندما استمرت في الصراخ، أمسكت لينورا بسكين من فوق نضد المطبخ. ثم حدجتني بنظرتها وقالت: «اخرجي الآن حالًا».

- ماذا قلتِ؟

- لا شيء. أومأت برأسي فقط وغادرت. كنت أكثر رعبًا من قول أي شيء آخر. لكنني عرفت أن شيئًا فظيعًا يحدث داخل ذلك المنزل. لكنني لم أدرك مقدار فظاعته الحقيقية إلا بعد أن أتت الشرطة.

تطرق برنيس ناظرة إلى حِجرها، شاعرة بالخزي وتقول:

- أفكر في تلك اللحظة كثيرًا. لو رفضت الرحيل، ربما كانت لينورا لتقتلني على الفور. أو ربما ما كانت حوادث القتل الأخرى لتحدث. ربما كان من الممكن إنقاذ بعضهم. خصوصًا الابنة الصغرى. ڤرجينيا. الفتاة المسكينة. في تلك الحالة أيضًا.

- لماذا لم تخبري الشرطة بأيٍّ من هذا؟

تقول برنيس ببحة في صوتها:

- لأنني أردت أن أحمي ريكاردو. عرفت أن لينورا لم تكن المسؤولة الوحيدة عن تلك الجرائم. كان ريكاردو جزءًا منها أيضًا. لا بد أنه كان. لأنه لم يَعُد قَطُّ إلى الكوخ. لا تلك الليلة. ولا إلى الأبد. بمجرد اختفائه، علمت في أعماقي ما حدث. أنه ساعدها على قتل تلك الأسرة.

- ولماذا يفعل ذلك؟ قلتِ أنت نفسك إنه لم يكن سافلًا.

- لكن كان من السهل التأثير فيه. ظني أنها خدعته. لقد رأيت كم يمكنها أن تكون متلاعبة.

تلك الكلمة مرة أخرى. الكلمة نفسها التي استخدمتها مدام بيكر لوصف لينورا.

متلاعبة.

- أراهن أنها حكت له قصة حزينة عن والديها القاسيين وحياتها الفظيعة وكيف تعيش سجينة في ذلك القصر الكبير القديم. وأراهن أن ريكاردو صدقها. بعد بضعة أشهر من سماع هراء كهذا، لعله تعرض لغسيل دماغ حتى يعتقد أن السبيل الوحيد لبقائهما معًا أن تموت بقية عائلتها. لذلك ساعدها على قتلهم.

- ثم هرب.

- لا يا حبيبتي.

تقولها برنيس بصوت شديد الوحشية حتى إنه يتحول فعليًّا إلى زمجرة.

- قتلته لينورا أيضًا.

أظل جامدة تمامًا في المقعد، عاجزة عن الحركة. أحاول تخيُّل لينورا وهي تفعل أيًّا من هذا. لا تقتل أباها وأمها وأختها فقط، بل حبيبها أيضًا. لا يفعل هذا إلا وحش. ولينورا هوب التي أعرفها ليست وحشًا.

لا يعني هذا أنني أعتقد أنها بريئة تمامًا. أخبرتني بذلك هي نفسها.

لم أكن فتاة طيبة.

إطلاقًا.

وسترين بنفسك بعد قليل.

أعرف أيضًا أنها تخلصت من السكين المستخدمة في قتل والديها. لم تبذل لينورا أي محاولة لإخفاء ذلك عني. على الرغم من ذلك، بدأت في الاعتقاد بأنها بريئة من جرائم القتل الحقيقية. في رأيي، لم تكن مذنبة إلا بالتغطية على الرجل الذي ارتكبها حقًّا، بدافع من شعور مضلل بالحب والولاء.

لكن ما تخبرني به برنيس يحطم كل افتراضاتي. لو كان ما تقوله صحيحًا، فلينورا مذنبة تمامًا مثلما كان ريكاردو مايهيو. وربما أكثر، بما أنها ما زالت على قيد الحياة وهو... اختفى.

إلا إذا كانت برنيس تكذب.

ليس هذا مستحيلًا، نظرًا إلى اعترافها منذ قليل بأخذها المال طوال عقود من المرأة التي تقول إنها قتلت زوجها.

أقول:

- لو كانت لينورا قد قتلت ريكاردو، لماذا لم يُعثر على جثته مع الآخرين؟

لدى برنيس إجابة بسيطة على ذلك:

- دفعته من الشرفة. ألم تريها؟ تلك سقطة طويلة إلى المحيط.

لكن ذلك ما زال غير منطقي. لماذا تجعل لينورا شريكها في الجريمة يختفي؟ خصوصًا عندما كان يعني هذا توجيه كل الشكوك نحوها؟ إما أن برنيس تختلق كل هذا، وإما أنها أساءت فهم ما رأته. وبالحكم من واقع صمتها طوال تلك السنين، هي لا تهتم بذلك ما دامت تتلقى الثمن.

أقول:

- لا أعتقد أن الأمر يتعلق بحماية زوجك. بعد حوادث القتل، أدركتِ أن لديك طريقة جديدة للحصول على مقابل سكوتك.

- وخيرًا فعلت أيضًا. لأنه من المؤكد، كنا سنُفصل جميعًا خلال أسبوع. من

بقي منا، على أي حال. رحل نصف الطاقم بمجرد اكتشافهم ما حدث. كانت لينورا مشغولة باستجواب الشرطة لها حتى إنها لم تفعلها بنفسها. أرسلت صبي المطبخ ليفعلها.

- آرشي؟

تقول برنيس وهي تومئ برأسها:

- هذا اسمه. لم أكن لأتذكره قَطُّ. الفتى المسكين. لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة عندما قيل له أن يفصل كل من عمل معه. عندما وصل إلى الكوخ، لم يستطِع حتى أن ينظر في عينَي. ناولني فقط شيكًا بألف دولار، مكتوبًا بخط لينورا هوب نفسها.

أنظر إلى ساعتي مرة أخرى. تحولت الدقائق الخمس إلى عشر. والرجل الذي ينتظر عودتي هو الشخص نفسه الذي أعطى المال لبرنيس أول مرة.

- هل أخبركِ بأن هذا ثمن سكوتك؟

- لم يكن بحاجة إلى ذلك يا حلوة. كان دفع المال للناس أسلوبًا لدى آل هوب. فعلوا ذلك ليحصلوا على ما يريدون، سواء كانت تلك الخلطة التي كانت السيدة هوب تشربها دائمًا أم الخادمات الشابات الجميلات اللاتي كان السيد هوب يضاجعهن دائمًا. وهكذا أبقوا الناس صامتين، كلما وجدت واحدة من هؤلاء الخادمات الجميلات نفسها في مشكلة على سبيل المثال.

- إذن أخذتِ الشيك ورحلت فقط.

يلوح وميض بارد في عينَي برنيس قبل أن تقول:

- ليس تمامًا. قلت له أن يبلغ الآنسة هوب بأنه يجب أن يكون هناك شيك مماثل كل شهر وإلا سأخبر الشرطة بأنني رأيتها تحمل سكينًا في الليلة نفسها التي طُعن فيها والداها حتى الموت. بالطبع جاء شيك بالمبلغ نفسه في الشهر التالي. والشهر الذي يليه. وظلت حنفية المال مفتوحة من وقتها.

أقف، شاعرة بالقذارة في وجودها. لكنني أشعر بالاشمئزاز أيضًا من العودة إلى هوبز إند، لأنني أعرف أن بعض ما تقوله على الأقل صحيح. عن إدمان السيدة

هوب، وميول السيد هوب الجنسية، وكيف كانت العائلة تلقي بالمال أمام أي مشكلة تواجهها. أعرف ذلك لأنني ساعدت لينورا على كتابته.

وهو ما يعني أن كل من في المنزل باستثناء كارتر فاسدون.

بمن في ذلك لينورا.

أقول:

- لكنها على وشك أن تُغلق. لأنه إما أن تذهبي إلى الشرطة وإما سأذهب أنا.

تنظر برنيس من فوق كتفي إلى الباب ورائي، وتشرق ملامحها وهي تقول:

- يبدو أنها هنا بالفعل.

تقبض يد على كتفي وأسمع صوت المحقق ڤيك المألوف يقول:

- تعالي معي يا كيت. تعلمين أنه لا ينبغي لك أن تكوني هنا.

أقول محتجة:

- نحن نتحدث فقط.

- أنتِ تتعدين على الآخرين.

يقبض المحقق ڤيك على ذراعي ويجذبها وهو يقول:

- وتكذبين بشأن ذلك في أثناء تعديك.

ألتفت على الرغم مني إلى الباب. خلف المحقق تقف المرأة التي كلمتها عند مكتب الاستقبال. تحدجني بنظرتها وتقول:

- خمني من اتصل بشركة التأمين في النهاية؟ لا فكرة لديهم عمن تكونين.

يقول المحقق ڤيك:

- لكن أنا لديَّ فكرة. سآخذها من هنا. إلا إذا كنتِ تريدين أن توجهي إليها اتهامًا.

تفكر المرأة في الأمر، وتستغرق وقتًا طويلًا بشكل مزعج كي تحسم قرارها. تنظر إلى برنيس وتقول:

- هل أضرتك بأي طريقة يا سيدة مايهيو؟

- لا بأس. سألتني فقط بضعة أسئلة.

أقول:

- والآن عليكِ أن تخبريهم بما أخبرتني به.

لكن المحقق فيك لن يسمع شيئًا من ذلك:

- لقد أزعجتها بما فيه الكفاية يا كيت. هيًا بنا.

يمنحني ما يكفي من الوقت فقط كي أتناول حقيبتي الطبية قبل أن يجذبني إلى خارج الغرفة. وفيما نحن نغادر المكان، تبتسم لي برنيس ابتسامة صفراء بفم متباعد الأسنان وتقول:

- أبلغي لينورا تحياتي. وأنني سأراها في الجحيم.

٣٥

يُبقي المحقق ڤيك قبضته المحكمة حول رسغي وهو يقودني إلى سيارتي. يجدر بي أن أشعر بالإطراء إذ يعتقد أنني أمثل هذا التهديد الجسيم. أقول له وأنا ألوي ذراعي:

- يمكنك أن تفلتني الآن. لن أجري عائدة إلى الداخل كي أزعج برنيس أكثر من ذلك. على الرغم من أنني أوصي بشدة بأن تفعل ذلك أنت. سترغب في سماع ما يجب أن تقوله برنيس.
- تحدثت الشرطة إلى برنيس منذ أربعة وخمسين عامًا.
- إذن طالعت ملف القضية من وقتها؟
- نعم. لم يكن لدى برنيس ما تقوله إلا أن زوجها لم يَعُد إلى المنزل.
- كانت تكذب. وكنت لتعرف ذلك إذا عدتَ إلى هناك وأديت عملك اللعين.

أخيرًا يترك المحقق ڤيك رسغي عندما نصل إلى السيارة. من الهيئة الحانقة على وجهه، أتوقع أن يُصعِّد الأمور ويضع يدَي في الأصفاد. لكنه يقول:

- عودي وأدِّي عملك اللعين. اتركي التحقيق لي. لكن الأفضل أن تتركي ذلك المكان وتعودي إلى المنزل. أبوك يفتقدك.

أرمش بعينَي مندهشة:

- هو قال ذلك؟

- لا. لكنني أظن المكان موحشًا بالنسبة إليه الآن.
- ثق بي. ليس موحشًا.
- لذلك قررتِ أن تزعجي سيدة عجوزًا بريئة بدلًا من ذلك؟

أكتم ضحكة فظة. بريئة هي آخر كلمة كنت لأستخدمها في وصف امرأة جمعت المال طوال عقود كي تظل صامتة عما تعتقده أنه كان قتلًا رباعيًّا. وهذا لا يمثل شيئًا مقارنة بالجرائم التي تقول برنيس إن زوجها ولينورا ارتكباها. أقول:

- كنت هنا أسأل عن ريكاردو مايهيو. تعتقد زوجته أنه من فعلها، بالمناسبة. بمساعدة لينورا. وبعد ذلك قتلته.
- وما رأيكِ؟

أستند إلى سيارتي، وأفكر مليًّا في السؤال قبل أن أقول:

- رأيي أن شيئًا ما حدث تلك الليلة يتجاوز مقتل ثلاثة أشخاص واختفاء شخص آخر. شيء حرض العنف أو كان نتاجًا له.

من المسلَّم به أن لينورا كانت جزءًا من ذلك. ما أجاهد معه هو حسم مقدار الدور الذي لعبته. هل هي غلطتها بالكامل، كما تزعم برنيس وكاتب الألة الغامض الذي دخل غرفة لينورا؟ أم اجتاحتها أحداث تتجاوز قدرتها على التحكم؟ هل ألقت سلاح الجريمة كي تحاول تخفيف الضرر لكن انتهى الأمر بتحمُّلها اللوم عن كل شيء؟

أتمنى أن يكون الاحتمال الأخير، وأخشى أن يكون الأول.

- ماذا قالت تقارير الشرطة غير ذلك؟

يقول المحقق ڤيك:

- تلقوا اتصالًا بعد الحادية عشرة مساءً بقليل يوم الثلاثاء ٢٩ أكتوبر. أخبرهم المتصل بأن شخصين ماتا في هوبز إند.

أميل برأسي وأنا أتساءل:

- اثنان؟
- هذا ما يقوله التقرير.

لكن ثلاثة أشخاص قُتلوا تلك الليلة. الاحتمال السليم الوحيد أن الشخص الذي اتصل بالشرطة فعل ذلك بعد أن وجد جثتين فقط.

- من كان المتصل؟

- لينورا هوب.

من المنطقي أن تكون هي من اتصلت بالشرطة. من الطبيعي أن يكون هذا أول شيء تفعله لينورا إن كانت بريئة - أو تحاول أن تجعل نفسها تبدو بريئة. لكن في الحالتين، كان من المؤكد أن تعرف عدد الضحايا. إما أن لينورا كذبت على الشرطة، وإما أن شخصًا آخر كان لا يزال حيًّا عندما اتصلت بالشرطة.

أفتِّش في ذاكرتي، وأستدعي أول بضع صفحات كتبتها لينورا. من السهل تذكرها لأنها أكدت كم كانت تلك اللحظة هي أول ما تتذكره. الشيء الذي ما زالت تنتابها الكوابيس حوله.

هي على الشرفة.

السكين الدامية يغسلها المطر قبل أن تلقيها في المحيط بالأسفل.

أختها تصرخ داخل المنزل.

ڤرجينيا.

تلك من كانت لا تزال على قيد الحياة. وبعد ذلك ذهبت لينورا إلى الجراج لتحضر حبلًا.

أشعر بصداع عندما أتأمل ما يعنيه ذلك. ولا يبدو هذا في مصلحة لينورا تمامًا. في الواقع، يبدو كأن ڤرجينيا كانت ضررًا جانبيًّا، وقع في المكان الخطأ في الزمان الخطأ. وقرر شخص ما أنها يجب أن تموت، أيضًا.

الاحتمال الأرجح أن هذا الشخص كان لينورا، التي لم تَعُد في حوزتها السكين التي قتلت بها والديها واحتاجت إلى سلاح جديد. أما بالنسبة إلى من شنق، فربما كان ريكاردو، الذي إما أنه فر بعدها وإما أن لينورا دفعته من الشرفة، إن كانت برنيس على حق.

الشرفة نفسها التي دُفعت ماري منها.

يقول المحقق ڤيك:

- وجد رجال الشرطة الذين وصلوا إلى مسرح الجريمة البوابة الأمامية مفتوحة. عندما دخلوا المنزل، وجدوا إيڤانجلين هوب على بسطة السلم. ثم انتشر الضباط عبر بقية المنزل، ووجدوا ونستون هوب في قاعة البلياردو وڤرجينيا هوب مشنوقة من ثريا في قاعة الرقص.

- وأين كانت لينورا.

- في الشرفة.

هكذا عادت إلى الشرفة بعد مقتل ڤرجينيا. يزداد صداعي سوءًا. لأنني كلما سمعت المزيد، زاد اعتقادي بأن برنيس على حق.

وأن لينورا مذنبة.

- أُعلنت وفاة السيد والسيدة هوب في مكان الحادث. أما ڤرجينيا فأُخذت إلى الطابق العلوي.

- ميتة أيضًا.

يهز المحقق ڤيك رأسه ويقول:

- ليس إلا بعد ستة أشهر أخرى.

صدمة.

ظننت أن ڤرجينيا ماتت في الليلة نفسها التي مات فيها والداها. لكنها تشبثت بالحياة لمدة ستة أشهر أخرى. لست واثقة أيهما أسوأ - الرحيل على الفور مثل أمها وأبيها أم المكوث على باب الموت طوال تلك الفترة قبل أن تنسل عبره في النهاية.

- لماذا لم يشتبه أحد في ريكاردو مايهيو؟

يقول المحقق ڤيك:

- اشتبهوا فيه. بمجرد أن أدرك الجميع أنه اختفى ولم يَعُد، أصبح المشتبه فيه الأساسي. خصوصًا عندما اكتُشف أن إحدى سيارات ونستون هوب الباكارد اختفت من الجراج. من المحتمل أنه قتلهم، وسرق السيارة، وقادها

إلى أبعد مكان استطاع الوصول إليه. لكن لم يكن هناك أي شيء يثبت أن هذا هو ما حدث، أو أنه كان حتى في المنزل أصلًا.

- هل سأل أحدهم لينورا على الأقل عن ريكاردو؟

تقترب سيارة من مساحة صف السيارات، وتمسح أضواؤها الأمامية واجهة أوشن ڤيو قبل أن تستقر على وجه المحقق ڤيك الذابل. في العادة يبدو جامدًا. لكنه الليلة يبدو متعبًا فقط. يقول:

- في الحقيقة فعلوا ذلك. زعمت أنها لا تعرف من يكون. اضطر أحد رجال الشرطة إلى توضيح أنه كان حارس الأرض الأساسي في هوبز إند. سجل الشرطي ملحوظة بأنها بدت لا تعرف اسم الرجل حقًّا.

- كم مرة كلموها؟

- مرات عديدة طوال عدة أسابيع. وكانت قصتها دائمًا هي نفسها. لم ترَ شيئًا، ولم تسمع شيئًا، ولم ترَ مخلوقًا قَطُّ داخل المنزل غير عائلتها.

تلك على الأقل كذبة واحدة من جانب لينورا. لقد رأت برنيس، التي ضبطتها في المطبخ والدم على يديها بينما تقبض على سكين.

لكن ذلك ليس منطقيًّا. لو كانت لينورا مذنبة حقًّا، كيف أمكن أن تكون الدماء على يديها قبل أن تحضر السكين؟ هذا ممكن فقط لو استُخدمت أكثر من سكين.

أقول:

- ماذا عن السلاح؟ لم يجدوه قَطُّ، صحيح؟

- صحيح.

- هل كانت الشرطة متأكدة أنه لم تُستخدم إلا سكين واحدة؟

- تمام التأكد. لم يبدُ أن هناك أي سكين أخرى مفقودة من المطبخ، وجروح الطعنات في ونستون وإيڤانجلين هوب كانت بالاتساع نفسه تقريبًا، ما يوحي بأن سلاحًا واحدًا هو الذي استُخدم.

- هل لاحظوا أي شيء غير عادي في المكان؟ أي شيء على الإطلاق؟

- فقط أن غرفة ڤرجينيا هوب كانت قد نُظفت حديثًا. شم أحد رجال الشرطة رائحة ملمع الأرضيات عندما صعدوا بها إلى الطابق العلوي.

ألمس صدغَي. الصداع يتزايد. بلغ من السوء حد اندهاشي من أن جمجمتي لم تتشقق بعد، لتشكل شقًّا في حجم ذلك الممتد الآن في شرفة هوبز إند.

- بما أنهم لم يستطيعوا إثبات - أو نفي - أن ريكاردو فعلها، وبما أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك أيضًا بالنسبة إلى لينورا، أُغلقت القضية؟

يقول المحقق ڤيك:

- صحيح. أيبدو ذلك مألوفًا؟

يشتعل الغضب داخلي كالبرق. كهربائي. حارق.

- ابن عاهرة!

أقولها للمحقق ڤيك، على الرغم من أنها قد تكون مخالفة للقانون. لست على اطلاع بالقوانين التي تمنع سب محققي الشرطة. إذا كانت جريمة، فإن المحقق ڤيك لا يقوم بأي حركة لفعل أي شيء بشأنها بينما أجذب باب سيارتي لأفتحه وأنزلق خلف عجلة القيادة.

يقول قبل أن أتمكن من إغلاق الباب بعنف:

- أنا لا ألومك، لو تعلمين. كانت أمك تعاني. أتفهم ذلك. عانى أبواي عندما حان أجلهما. لكنني لم أخالف القانون في محاولة لإنهاء عذابهما.

- ولا أنا.

أنا على حافة البكاء، ولا أعرف إن كان هذا بسبب الغضب أم الأسى أم حقيقة أن كل شيء يتعلق بالأشهر الستة الماضية كان أثقل مما يجب على نحو لعين. عندما وصلت إلى هوبز إند، انغمست بروحي في محاولة معرفة قصة لينورا، لأنني كنت متلهفة على تغيير وجودي البائس بالتركيز على وجود شخص آخر. لكنني بعد ذلك وجدت ماري ميتة، ومن ساعتها دخلت الأمور في دوامة.

- لم أجعل أمي تتناول تلك الأقراص.

أقولها وأنا أزيح دمعة قبل أن تتمكن من السقوط، لأنني سأكون في وضع سيئ لو بكيت أمام المحقق ڤيك.

- لقد قتلت نفسها. لكن ماري لم تفعل ذلك. وأي شخص أذكى منك كان سيفهم هذا.

يتسع منخارا المحقق. العلامة الوحيدة على أنني نلت منه. على عكسي، هو يعرف كيف يتحكم في مشاعره.

- لآخر مرة يا كيت، ماري ميلتون لم تُقتل.

- كيف لك أن تكون بكل هذه الثقة في هذا؟

يُخرج المحقق ڤيك ورقة من جيبه. نسخة مصورة من ورقة مسننة الحواف وباهتة بفعل الماء. يدفع بها إليَّ ويقول:

- بسبب هذه.

يسري الخدر في يدَي وأنا أقرأ الجملة الوحيدة المطبوعة على الورقة.

- ما هذه؟

- نسخة من رسالة انتحار ماري ميلتون. أخبرتكِ بأننا وجدناها مع جثتها.

أتفحص الورقة مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، على أمل أن تنتج كل قراءة معنى مختلفًا. لكن كل المرات تعطي القراءة نفسها في كل مرة لعينة.

مع الأسف لست الشخص الذي اعتقدت أنني إياه

- ماري...

أتوقف، مفزوعة من الطريقة التي خرج بها صوتي. كأنني أتكلم تحت الماء. كأنني على مبعدة ألف ميل.

- ماري لم تكتب هذا.

يقول المحقق ڤيك:

- كتبته بالتأكيد. من غيرها يمكن أن يكون؟

بدلًا من الرد، أجاهد كي أقحم المفتاح في نظام الإشعال، وأجاهد أكثر كي أخرج من مكان صف السيارات. ثم أنطلق بالسيارة، تاركة المحقق ڤيك واقفًا

في أدخنة العوادم، وهو ما زال جاهلًا بحقيقة أن ما وجده مع جثة ماري لم يكن رسالة انتحار.

بل شيء آخر.

كتبه شخص آخر على الآلة.

وأعتقد أنني أعرف بالضبط ماذا تعني.

٣٦

لأنني لم أرغب في استخدام جهاز الاتصال الداخلي كي يؤذن لي بالدخول لدى عودتي، لم أغلق البوابة الأمامية المؤدية إلى هوبز إند خلفي عندما غادرت. ما زالت مفتوحة، الحمد لله، لتسمح لي بقيادة السيارة واجتيازها بسهولة. أتوقف بما يكفي للضغط على الزر المغروس في السور الداخلي كي أغلق البوابة ورائي أخيرًا. ثم أعود إلى السيارة وأسرع إلى الباب الأمامي، أطفئ المحرك، وأهرع إلى الداخل. المنزل هادئ بشكل مقلق وأنا أقطع الرواق مهرولة، وأتوقف عند بورتريهات العائلة على الجدار.

أتوقف لحظة عند لوحة لينورا، وأتأمل أنفها الصغير، وشفتيها الناضجتين، وعينيها الخضراوين. على الرغم من السنوات العديدة بينهما، لا شك أن الفتاة الموجودة في البورتريه هي نفسها المرأة التي أعتني بها.

أتوجه إلى البورتريه الأول في الصف، وأستخدم مفتاح سيارتي لأشق النسيج الحريري الذي يغطيه. وبمجرد أن أصنع ثقبًا كبيرًا بما يكفي لدس إصبعي من خلاله، أبدأ بتمزيق النسيج. يندُّ عن القماش الحريري صوت تمزُّق - زلق وشبه مخضل. ترى هل أثار نصل السكين المنزلق عبر حلق ونستون هوب صوتًا مشابهًا؟

هو الموجود وراء النسيج. ونستون هوب نفسه، يبدو مثل كل زعماء الصناعة

الآخرين في ذلك الزمان. متورد الوجه ومعتد بنفسه وسمين من الإفراط في الأكل، والإفراط في الخمر، والإفراط في كل شيء. التهم الرجال من أمثاله كل ما استطاعوا التهامه، ولم يتركوا شيئًا لغيرهم.

من التحديق إلى تلك السحنة الشرهة لونستون هوب، أستطيع أن أقول إنه لم تكن لديه أي فكرة عن المصير الذي ينتظره. لعله ظن أنه سيعيش إلى الأبد. لكن انتهى به الأمر ميتًا في القاعة المقابلة من الرواق، ملقى على طاولة بلياردو، واللباد الأخضر يتشرب دمه.

أنتقل إلى البورتريه التالي، مكررة خطواتي. أشق النسيج، أدس إصبعي، أخدش، أمزق. يسقط النسيج الأسود ليكشف عن إيڤانجلين هوب. كانت جميلة حقًّا. لم تكذب لينورا بشأن ذلك. بشرة مرمرية. شعر ذهبي. نحيلة، ذات قوام رشيق اكتسى بفستان يساويه أناقة ورشاقة. لكن بالرغم من كل هذا الجمال الأثيري المعروض، يوجد شيء ما غير سليم في مظهر السيدة هوب. هي شاحبة بشكل محير، الأمر الذي يجعلها تبدو رقيقة وهشة. أرنو إليها فتُذكرني بزهرة زنبق النهار على وشك الذبول.

على عكس زوجها، تبدو إيڤانجلين هوب كأنها تعرف جيدًا ما هو آتٍ.

يبقى بورتريه واحد فقط.

ڤرجينيا.

أشق وأدس. أخدش وأمزق. أستمر في التمزيق إلى أن أرى شابة تحمل بعض ملامح أمها ولا شيء على الإطلاق من أبيها. هي جميلة أيضًا، بطريقة متعجرفة بعض الشيء. في اللوحة، تبرز ابتسامتها مغصوبة، شبه قاسية. ثم هناك عيناها الملونتان بالأزرق الثلجي. يجعلني التحديق إليهما أتذكر ما قالته برنيس مايهيو عن ضياع ريكاردو بمجرد أن غمزت له لينورا بعينيها الزرقاوين الواسعتين.

بعينيها الزرقاوين الواسعتين.

يتسابق قلبي وعقلي وأنا أندفع إلى المكتبة، وأقترب من رف المدفأة، حيث تستقر تلك الجرار الثلاث المقلقة.

الأب والأم والابنة.

بيدين مرتعشتين، أمد يدي وأرفع الغطاء عن الجرة الموجودة على اليسار.

في الداخل كومة من مسحوق رمادي كئيب يُذكرني بشيء قاله القس خلال جنازة أمي.

من الرماد إلى الرماد، من التراب إلى التراب.

كلاهما حاضران ومحسوبان داخل الجرة، يهتزان مثل الرمال بينما أعيد الجرة على الرف وأضع الغطاء مكانه.

أتناول الجرة الثانية، وأرفع الغطاء، وألقي نظرة على مزيدٍ من الرماد.

لكن مع الجرة الثالثة، يبدو كأن حركاتي تتباطأ كأنها ذكرى سيئة. تمتد الثواني إلى دقائق وأصابعي تلمس الغطاء، وترفعه، وتضعه على الرف جانبًا. تبلغ حواسي حدها الأقصى من الرهافة عندما أقبض على الجرة.

أحس بالخزف باردًا على كفي.

أرى ذرات الغبار تنجرف عبر الهواء الراكد.

أشم رائحة صفحات مصفرة لكتب لم تُفتح طوال عقود.

أذوق طعمًا معدنيًّا على لساني. أدرك أنه الخوف مما سيحدث عندما أنظر إلى داخل الجرة.

ثم أنظر، وتعلو شهقتي حتى تتردد منعكسة من رفوف الكتب.

لأن ما أراه هو... اللاشيء.

لا رماد. لا تراب.

الجرة فارغة تمامًا.

كان ينبغي أن أعلم أن الليلة ستنتهي بكارثة. كان ينبغي أن أحس بذلك في الهواء العاصف. طوال اليوم، وانا اتظاهر بأنني طريحة الفراش، كنت أسمع الرعد يدمدم فوق المحيط مثل طلقات مدفع لحشد مقترب.

ثمة معركة قادمة.

وسيكون هناك ضحايا.

لكنني تجاهلت العلامات، وانشغلت أكثر مما يجب عن ملاحظتها بالتفكير في الهروب. تضمنت خطتنا، إن كان يمكن وصفها بذلك، أن أجمع أكبر قدر ممكن من أشيائي بعد أن يذهب كل من في المنزل إلى النوم. وبينما أفعل ذلك، يتسلل ريكي إلى الجراج ويسرق مفاتيح واحدة من سيارات أبي الباكارد. في العاشرة مساء، إذا سار كل شيء على ما يرام، سيقود السيارة إلى الباب الأمامي حيث أركبها وأضع حقيبتي. ثم ننطلق مبتعدين ولا ننظر خلفنا أبدًا.

وقتها، اعتقدت أنها ستفلح.

منح كل الخدم إجازتهم التي يأخذونها كل أسبوعين، وهو ما جعل ريكي يعتقد أن الخطة ممكنة. بما أن أمي تظل على مدى الساعة في سديم صبغة الأفيون، لن يكون هناك أحد غير أختي وأبي للإمساك بنا.

ولم أتوقع قَطُّ أن يفعلها واحد منهما.

في التاسعة إلا الربع، انسللت من الفراش وغيرت ملابسي بسرعة. لم تكن لديَّ فكرة عما تخبئه بقية الليلة، لكنني تمنيت في سري أن تتضمن رحلة إلى عدالة السلام. أحببت فكرة أن أتزوج أنا وريكي قبل أن يولد الطفل. آخر ما أردته لطفلنا أن يعتبر ابن زنى. وإذا كان الزواج هو ما ينتظرني تلك الليلة، فيجب أن أرتدي أجمل شيء أملكه: الفستان الساتان الوردي الذي ارتديته من أجل بورتريه عيد ميلادي. دخل فيَّ بصعوبة، على الرغم من أنه جرى توسيعه عدة مرات بعدها، ولم أفعل شيئًا لإخفاء حملي.

بعد أن لبست الفستان بصعوبة، ألقيت حقيبتي على الفراش وفتحتها. ثم اتجهت إلى الخزانة، وتناولت أكبر عدد من الفساتين استطاعت ذراعاي حمله. وعندما استدرت عائدة إلى الحقيبة، وجدت أختي واقفة عند الباب. وقفت ويداها خلف ظهرها، ممسكة شيئًا لم تردني أن أراه.

قالت، وهي تبدو مبتهجة لأنها قبضت عليَّ أتحرك بعيدًا عن رقدتي في الفراش:

- ماذا تفعلين؟

- سأرحل.

- إلى أين؟

- لا أعرف. إلى أي مكان غير هنا.

التمعت عينا أختي.

- ستهربين معه، أليس كذلك؟

- بلى.

قلتها وأنا ألقي الفساتين التي كنت أحملها داخل حقيبتي. من دون تغطيتها لي، تمكنت أختي الآن من رؤية ما كنت أخفيه طوال شهور. سرعان ما حلت الصدمة في عينيها محل اللمعة.

قالت بفم مفغور:

- يا إلهي الرحيم! ماذا فعلت؟

عدت إلى الخزانة وتناولت ملء ذراعَي من الثياب مرة أخرى.

- هل تفهمين الآن لماذا سأرحل؟

ما احتجت إليه من أختي تلك اللحظة أن تساعدني، تواسيني، تدعمني. هذا ما يفترض أن تفعله الأخوات لبعضهن. لكن أختي قالت ببساطة:

- لن يسمح أبي بذلك أبدًا.

أوقفني ذكر أبي ثابتة كالتمثال. قلت:

- من فضلك لا تخبريه. أرجوك دعيني فقط أرحل. أنت تكرهينني، في نهاية الأمر. ألن يجعل هذا حياتك أيسر بكونك الابنة الوحيدة؟

- ليس عندما يلوث اسم العائلة.

وقفت أختي منتصبة تمامًا، بذقن مرفوع، معتدة بتفوقها. كانت تعتقد أنها أفضل مني من جميع النواحي، ولم تعد تبذل اي محاولة لإخفاء ذلك.

- لن تكوني أنت فقط من ستتأثر. كلنا سندفع الثمن. فكري في سمعتك. فكري في سمعتي!

- تنتظرين مني البقاء هنا، مكروهة وبائسة لبقية حياتي، لمجرد الحفاظ على سمعتك الغالية؟

- لا. يكفيك القلق على سمعتك. إن رحلت، ستلقين بحياتك بددًا.

أرد عليها بسرعة:

- أو سأكسب حياة جديدة.

- في كلتا الحالتين، لا أستطيع أن أدعك تفعلين هذا.

- هيًا إذن. أخبريه. لن يمنعني هذا من الرحيل.

- إذن أعتقد أنه حان الوقت لإحدى ألعابنا القديمة. تذكرين كيف تلعبينها، أليس كذلك؟

دفعت أختي يدها من وراء ظهرها، كاشفة عما كانت تخفيه طوال هذا الوقت.

مفتاح.

باب غرفة نومي.

الذي لا يمكن إغلاقه إلا من الخارج.

قلت:

- لا! أرجوك!

ولم أتمكن من إخراج الكلمات قبل أن تغادر أختي الغرفة. اندفعت إلى الباب، شاعرة بحفيف الهواء السريع على وجهي وهي تغلق الباب بعنف خلفها. عندما وصلت إلى مقبض الباب، كان الأوان قد فات. طقطق المفتاح في القفل قبل أن أتمكن من القبض عليه. لويت المقبض على أي حال. لم يستجب.

كان الباب موصدًا بإحكام.

لمحت الباب على الجانب الآخر من الغرفة، الباب الذي يؤدي إلى غرفة الآنسة بيكر. من سوء الحظ، كانت أختي قد فكرت أيضًا فيه. سمعت المفتاح يدور في ذلك القفل وأنا أندفع داخل الغرفة.

صرت حبيسة تمامًا.

على الرغم من ذلك، ألقيت جسدي على الباب وبدأت في الدق عليه. على الجانب الآخر، تردد صدى ضحكة أختي الشيطانية عبر الرواق وهي تجري لتخبر أبي بما انتويت فعله.

صرخت وراءها:

- أخرجيني! من فضلك أخرجيني.

ارتطمت بالباب مرة أخرى وشعرت بشيء داخلي يغيض.

سائل.

يتدفق ما بين ساقَي على البلاط.

اجتاح الهلع جسدي، لأنني عرفت أن هذا يعني أن الطفل قادم.

مبكرًا.

وسريعًا.

مذعورة، دققت على الباب، منادية أختي وأنا أصرخ:

- أرجوك! أرجوك يا لينورا!

٣٧

أجد مدام بيكر في المطبخ، في يدها فتَّاحة زجاجات، تفتح بها زجاجة نبيذ كابرنيه على النضد. ترفع رأسها، مندهشة لرؤيتي أدخل من الرواق وليس من سلم الخدم.

- هل كل شيء على ما يرام بالنسبة إلى الآنسة هوب؟

أقول:

- نعم يا لينورا. ڤرجينيا بخير.

تتجمد فتَّاحة الزجاجات في يدها. للحظة فقط. ثم تجذبها، منتزعة فلة الزجاجة مع فرقعة كالهمس.

- لا فكرة لديَّ عما تتحدثين عنه.

المفارقة أن إنكارها يؤكد ظني. الطريقة المتصلبة التي تقف بها، ابتسامتها المغصوبة وعيناها الزرقاوان الفولاذيتان إعادة خلق دقيقة للبورتريه المكشوف في الصالة.

- ربما ستساعدكِ هذه.

أقولها وأنا أُخرج رسالة انتحار ماري المزعومة من جيبي وألقيها على المائدة. تتفحصها المرأة المتظاهرة بأنها مدام بيكر، ببرود لا تعكر صفوه شائبة، قبل أن تملأ كأسًا بالنبيذ. وفيما تفعل ذلك، أرفع الفتاحة من فوق النضد. بوضع المحادثة التي نحن على وشك إجرائها في الاعتبار، لا أريد أي أداة حادة في متناولها.

لكنني أريد واحدة في متناولي.

تدخل الفتاحة جيبي بينما تتناول لينورا هوب - الحقيقية - رشفة من النبيذ وتقول:

- هل من المفترض أن أعرف ماذا تكون؟

- كانت في جيب ماري ميلتون ليلة موتها. اعتقد المحقق ڤيك أنها رسالة انتحار. لكن لا أحد يكتب بهذه الطريقة. من دون علامات ترقيم أو أحرف كبيرة. لا أحد إلا أختك. التي كتبتها بعد أن كشفت لماري من تكون في الحقيقة، معتذرة عن تظاهرها بأنها شخص آخر طوال هذا الوقت.

ليس واضحًا بالنسبة إليَّ إن كانت ڤرجينيا - الحقيقية، الحية - تنوي أن تكشف هذا لي فعليًّا. أعتقد أنها أرادت ذلك. بعد ما حدث لماري، أظن أنها خشيت ذلك. لكنها لم تكذب عليَّ قَطُّ. كل ما كتبته كان صحيحًا. عندما سألتها من كان في غرفتها ليلًا، قدمت إجابة صادقة.

ڤرجينيا.

اسمها الحقيقي.

عندما سألتها من استخدم الآلة الكاتبة خلال الليل، قدمت إجابة صادقة بالمثل كما حدث عندما سألتها ممن كانت ماري تخاف.

أختها.

المرأة الواقفة قبالتي مباشرة وراء النضد.

أقول لها:

- لكنكِ تعرفين هذا بالفعل. عرفتِه عندما دفعت ماري من فوق الشرفة.

تقبض لينورا على كأسها بإحكام شديد، حتى إنني أخشى احتمالية أن تتهشم، وتقول:

- لم أفعل شيئًا كهذا! قتلت نفسها.

أربت على جيبي، متحسسة جسد الفتاحة الملتوي ورأسها الحاد كالسكين.

- كلتانا تعرف أن هذا ليس حقيقيًّا.

- مهما كان ما حدث لتلك الفتاة المسكينة لا علاقة له بي.
- بل له علاقة بك. لأنها عرفت أنكِ تخفين حقيقة أن أختك على قيد الحياة وأنكِ لينورا الحقيقية. منذ متى بدأ هذا؟
- منذ زمن بعيد.

تقولها معترفة بشيء واحد على الأقل: مدام بيكر باسمها الأول المجهول هي في الحقيقة لينورا هوب ذات السمعة السيئة.

- منذ أن جرت حوادث القتل تقريبًا.

أربعة وخمسون عامًا. فترة مذهلة من الزمن.

أقول:

- لماذا فعلتِ ذلك؟ وكيف؟
- أي جزء؟

تقولها لينورا بين جرعات كبيرة من كأسها. يتجلى مفعول النبيذ بالفعل. هي الآن أكثر مرونة، وأكثر استعدادًا بكثير.

- ادعاء موت أختي أم إجبارها على اتخاذ هويتي؟

أقول ورأسي يدور حرفيًّا من هذا كله:

- الاثنان. ماذا حدث حقًّا تلك الليلة؟
- لا أستطيع أن أخبركِ إلا بما مررت به أنا.

تجلس لينورا على مقعد مستدير بلا ظهر وتستقر في مواجهتي واضعة كوعيها على النضد. كأننا صديقتان حميمتان خرجتا لتناول مشروب في مكان ما. كأن كل هذا شيء عادي.

- كنت في الطابق العلوي في غرفتي، جالسة إلى تسريحتي ومنصتة إلى مشغل الأسطوانات الخاص بي، متظاهرة بأنني لا أختبئ من كل شيء يسير على نحو خطأ في هذا المنزل.

من السهل تصوُّر هذا لأنني تجسست عليها وهي تفعل ذلك بالضبط ليلة الأمس. تكمل:

- كانت بالفعل ليلة طويلة شنعاء. حدثت أشياء. أشياء فظيعة. ثم تصاعد الأمر. ثم هدأ كل شيء. في النهاية، قررت أن أنزل إلى الطابق الأرضي لأرى إن كانت كل الأمور بخير.

- ولم تكن.

عندما تهز لينورا رأسها، ألمح لمعتين رقراقتين في عينيها الزرقاوين الواشيتين. دموع تأبى أن تدعها تسقط.

- وجدت أمي على الدرج الكبير. ميتة بالطبع. عرفت ذلك على الفور. كان الدم موجودًا... في كل مكان.

تسكت لينورا لحظة، مرتعدة من الذكرى، ثم تكمل:

- بدأت أصرخ وأجري عبر المنزل مثل دجاجة مقطوعة الرأس. يا إلهي! هذا تعبير فظيع! لكنه يلائم رد فعلي تلك الليلة. أجري وأصرخ. أصرخ وأجري. إلى قاعة البلياردو مباشرة، حيث رأيت أبي.

عندما تتناول رشفة أخرى من النبيذ لتشد أزرها، أفكر كيف كان شعورها إذ تدخل القاعة، وترى أباها مرتميًا على طاولة البلياردو، وتلاحظ الدم يتقاطر داخل جيوب الطاولة.

- جريت إلى المطبخ، واتصلت بالشرطة، وأخبرتهم بأن والدَي قُتلا.

أومئ برأسي موافقة، لأن كلامها يتفق مع ما أخبرني به المحقق ڤيك عن تلقي الشرطة الاتصال بعد الحادية عشرة بقليل.

- ثم ذهبت للبحث عن ڤرجينيا. وجدتها مشنوقة هناك.

تومئ لينورا برأسها نحو مدخل المطبخ وقاعة الرقص هناك في الرواق بعده.

- كانت متدلية من إحدى الثريات. كان ينبغي أن أحاول إنزالها. أدرك ذلك الآن. لكنني اعتقدت أنها ميتة، تمامًا مثل والدَي. في مواجهة هذا الموقف اللاعقلاني، لم يكن بمقدوري أن أتصرف إلا بأسلوب غير عقلاني - خرجت إلى الشرفة وصرخت. من الخوف والحزن والحيرة. صرخت حتى انشلَّ حلقي ولم يَعُد باستطاعتي الصراخ أكثر من ذلك. وعندئذ وصلت الشرطة.

تمرر لينورا سبابتها على حافة كأسها وهي تحكي لي عن عثور رجال الشرطة على أسرتها ميتة كما هو مفترض ولا أحد غيرها في المنزل.

- نظروا إليَّ كأنني ممسوسة. على الرغم من أنني لم أفعل أي شيء خطأ. أول ما قلته لهم: «لست أنا الفاعلة». وهو ما زادهم شكًّا فيَّ. عكس ما كنت أقصد تمامًا. أجلسوني في غرفة الطعام وسألوني كل أنواع الأسئلة الفظيعة. من كان هنا غيرك؟ هل كان لديك سبب كي ترغبي في موت عائلتك؟ وظللت فقط أجيبهم بالإجابة نفسها: «لست أنا الفاعلة. لست أنا الفاعلة».

أشعر كأنني رأيت هذا من قبل بينما أستمع إليها، وأتذكرني في حجرة تحقيقات بلا ملامح، وتحديقة المحقق ڤيك الاتهامية، وبكرات جهاز التسجيل وهي تدور وتدور.

تقول لينورا:

- ثم حدثت معجزة. صاح أحد رجال الشرطة من قاعة الرقص بأن ڤرجينيا ما زالت على قيد الحياة. تبين أن الأنشوطة حول عنقها لم تكن محكمة تمامًا. تلك العقدة السيئة للحبل هي ما أنقذ حياتها على الأرجح. سمحت بمرور ما يكفي من الأكسجين لإبقائها على قيد الحياة. بالكاد. لم يتوقع أحد أن تصمد تلك الليلة، لذلك حُملت إلى غرفتها في الطابق العلوي بدلًا من الذهاب بها إلى المستشفى.

ترفع كأسها وتفرغها في جوفها قبل أن تملأها مرة أخرى وتتناول رشفة أخرى. تصلَّب عودها كي تكمل القصة. لأنه على الرغم من كون ما حكته رهيبًا بالفعل، فإنني أعلم أن الآتي أسوأ بكثير. تقول:

- استُدعي الدكتور والدن، طبيب العائلة. قال إن ڤرجينيا ميتة دماغيًّا وإن بقية جسدها سيتداعى سريعًا. تبين أن الدكتور والدن مخطئ من جميع النواحي. كان عقل ڤرجينيا حيًّا جدًّا. بدا أنها تستوعب كل ما يقال لها. كان جسدها هو ما مات. صارت مشلولة، بلا حراك، غير قادرة على الكلام، غير قادرة على فعل أي شيء.

- إذن كان ما أخبرتني به عن السكتات الدماغية وشلل الأطفال...
- كلها أكاذيب للتغطية على أن الشنق دمر حنجرتها، وتركها غير قادرة على الكلام، وقطع حبلها الشوكي ليتركها شبه مشلولة.
- ولماذا الكذب حول ذلك؟ لماذا تكبُّد كل هذا العناء للتغطية على كل شيء؟
- أنتِ لا تفهمين كيف كان الأمر بالنسبة إليَّ. كنت في السابعة عشرة من عمري فقط، مرعوبة ووحيدة. لم تكن لديَّ عائلة أخرى ولا أحد يرشدني. مات والداي. أختي كانت في غيبوبة فعليًّا. وفجأة صرت مسؤولة عن هوبز إند، وشركة أبي، وكل شيء. ثم أتى محامي أمي ليخبرني بأنني سأرث الملايين من جديَّ عندما أكمل الثامنة عشرة، وأن ڤرجينيا سترث أيضًا لو تمكنت من العيش حتى ذلك الوقت.

تحدق لينورا إلى كأسها كأنها كرة بلورية. لكن بدلًا من المستقبل، كل ما تستطيع أن تراه هو الماضي.

- في الوقت نفسه، ظل رجال الشرطة يتوافدون بشكوكهم وظنونهم. تركَت أعداد كبيرة من الخدم العمل في المنزل. وفصلت الآخرين قلقة من أن يظنوا مثلما ظنت الشرطة وأنهم ربما يتولون التحقق من الأمور بأنفسهم. تخلى عني أصدقائي على الفور. كما فعل بيتر.
- بيتر وورد؟ الرسَّام؟

أقولها وأنا أتخيل البورتريهات في الصالة، والنسيج الحريري الأسود متدلٍّ الآن من ثلاثة منها مثل شرائط زينة الحفلات. تقول لينورا:

- كنا عاشقين. على الأقل، كنت أنا عاشقة. بعد حوادث القتل، لم يرغب في أن تكون له علاقة بي. لم أرَه مرة أخرى. ثم كانت هناك أختي كي أعتني بها وملكية عقارية أديرها ولا أحد يساعدني إلا آرشي، الذي فعل ذلك فقط من منطلق ولائه لڤرجينيا. كنت أعرف أنه لا يبالي بي قيد أنملة. وكل ما أردته أن أكون في مكان آخر، أن أكون شخصًا آخر.

ترفع لينورا عينيها عن كأسها، باحثة عن التعاطف.

- بالتأكيد يمكنكِ تفهم ذلك. أنتِ تعرفين كيف يبدو الأمر حين تُتهمين بشيء لم تفعليه. أن يرحل الجميع، أن تتعاملي مع الخوف وحدك. في الأشهر الستة الماضية، ألم ترغبي في تغيير كل ما يتعلق بموقفك؟

رغبت. وفعلت. أتيت إلى هوبز إند.

أقول:

- بلى. لكن خياراتي كانت محدودة.

تجفل لينورا، كأن هذه أول مرة يشير فيها شخص إلى أن أناسًا مثلها لديهم امتيازات لا يستطيع أناس مثلي إلا أن يحلموا بها.

تقول:

- لم تكن خياراتي محدودة. عندما مرت ستة أشهر واتضح لي تمامًا أن الشرطة لا تملك أي دليل لتتهمني بأي جرم، أدركت كيف يمكنني الهروب.

أقول:

- أعلنتِ وفاة ڤرجينيا.

تقول لينورا وهي تومئ برأسها:

- كان هذا سهلًا. خصوصًا مع شخص فاسد مثل الدكتور والدن. أخذته إلى الجراج، وأريته ما تبقى من سيارات أبي الباكارد، وقلت له إن في إمكانه أن ينتقي منها ما شاء لو أعلن وفاة ڤرجينيا رسميًّا. وألقيت له سيارة أخرى من أجل زوجته لو زعم أيضًا أن صحتي تحتاج إلى الراحة والاستجمام بعيدًا عن هوبز إند. حسم هذا العرض الأمر. ماتت ڤرجينيا، وأكملت الثامنة عشرة وورثت ليس فقط نصيبي من ميراث جديَّ لكن نصيبها أيضًا. ثم سافرت إلى أوروبا بناءً على أوامر طبيبي. لكن قبل أن أرحل مباشرة عملت على أن أصبح مدام بيكر. وڤرجينيا...

أزفر، مذهولة ليس فقط من براعة خطتها، لكن من قسوتها أيضًا. أقول:

- أصبحت لينورا هوب.

أراك تومئين برأسك يا ماري.

كنت تعرفين، أليس كذلك؟

فتاة ذكية.

انتابني شعور بأنك تشكين في ذلك على الأقل.

نعم، اسمي الحقيقي ڤرجينيا هوب، على الرغم من أنها ماتت رسميًّا منذ عقود. خلال ذلك الوقت، ومن خلال قوة إرادة أختي الخالصة، أصبحت لينورا.

أخشى أن كيفية حدوث ذلك تتطلب القفز إلى الأمام. لا تقلقي. ستحصلين على القصة الكاملة حول حوادث القتل قريبًا. لكن حاليًّا، يجب أن أقفز ستة أشهر بعد تلك الليلة.

ظللت طريحة الفراش طوال ذلك الوقت، غير قادرة على الكلام، عاجزة عن تحريك أي شيء إلا يدي اليسرى. الدكتور والدن الذي لا نفع منه أعلنني ميتة دماغيًّا، بينما الحقيقة أن دماغي كان واحدًا من الأشياء القليلة فيَّ التي ما زالت تعمل فعليًّا. عرفت من آرشي، الذي ظل جانبي أغلب الوقت، أن والدَي ماتا وأن أختي أحرقت جثتيهما بمجرد أن سمح القانون بذلك. عرفت أيضًا أنها الشخص الذي يلومه الجميع على موتهما، على الرغم من أنه لم يكن هناك دليل يذكر لإثبات ذلك.

وعرفت أن اسمي تغير.

ليس رسميًا بالطبع. كان هذا ليخلف أثرًا ورقيًا، وهو آخر شيء كانت تريده أختي. كان هذا أقرب إلى تغيير داخلي، انغرز في حياتي بسرعة انغراز سكين في الأضلع.

ذات يوم، دخلت غرفتي من دون إنذار وقالت:

- اسمك لينورا هوب. اسمي مدام بيكر. لا تنسي ذلك قَطُّ.

في البداية، ارتبكت. على الرغم من أنني كنت في أضعف حالاتي وأكثرها تشوشًا، كنت أعرف أنني فرجينيا. لكن أختي ظلت تناديني بلينورا، كأن الأمر اختلط عليَّ. كأنني طوال حياتي كنت مخطئة في شيء محدد جدًا هو اسمي نفسه.

كانت تقول كل مرة تطل عليَّ في غرفتي لتطمئن على أحوالي:

- كيف حالك يا لينورا؟

في الليل، كانت تقول:

- حان وقت النوم يا لينورا.

في أوقات الوجبات، كانت تعلن:

- حان وقت الأكل يا لينورا.

ذات صباح، استيقظت لأجدها جالسة بجوار الفراش، ويدي في يدها. مسدت على ظهرها برقة، كما كانت تفعل أمنا. ومن دون أن تنظر إليَّ قالت:

- سأرحل لفترة. لا أعرف كم سألبث. سيعتني بك آرشي إلى أن أعود. وداعًا يا لينورا.

ثم رحلت.

لسنوات.

كم سنة؟ لم أعد متأكدة. يمر الوقت بطريقة مختلفة عندما لا تتكلمين، وبالكاد تتحركين، وتقضين أغلب وقتك تراقبين الفصول وهي تتبدل تدريجيًا خارج نافذتك.

عادت فجأة مثلما رحلت. دخلت غرفتي ذات يوم وقالت:

- عدت يا لينورا. هل افتقدت حبيبتك مدام بيكر؟

ارتبكت مرة أخرى. طوال الوقت الذي كانت فيه بعيدًا، كان آرشي يناديني فرجينيا. لكن ها هي ذي أختي عادت لتخاطبني باعتباري لينورا. سار الأمر على ذلك النحو شهورًا.

- كيف حالك يا لينورا؟

حان وقت النوم يا لينورا.

حان وقت الأكل يا لينورا.

استسلمت في النهاية. لم يكن لديَّ خيار.

صرت لينورا.

ناداني الطبيب الذي حل محل الدكتور والدن بهذا الاسم، وفعلت مثله كل الممرضات اللاتي اعتنين بي. اعتدت ذلك حتى إنني أحيانًا كنت أنسى من أنا حقًّا.

وماذا عن لينورا الحقيقية؟

صارت مدام بيكر تمامًا، بالطبع، متخذة مكان الآنسة بيكر الحقيقية، التي فرت من هوبز إند قبل حوادث القتل مباشرة. المرة الوحيدة التي اعترفت فيها بما فعلته كانت ذات ليلة بعد عودتها ببضعة أشهر. تسللت إلى غرفتي وضمتني بين ذراعيها. علامة أكيدة على أنها كانت مخمورة. لم تلمسني أختي قَطُّ وهي واعية. همست:

- أنا آسفة. كان يجب أن أفعل ذلك. كان يجب أن أحظى بحياة خاصة بي. فقط لبعض الوقت.

ومنذ ذلك الوقت، بدأت لعبة التظاهر. أنني أنا لينورا، وأنها مدام بيكر. أننا لسنا أختين، لكن مجرد ربة عمل عاجزة وخادمتها المخلصة. وهكذا ستظل الأمور إلى أن تموت واحدة منا نحن ابنتي هوب.

أعرف أنها تعتقد أنني سأرحل أولًا.

وهدفي الوحيد الآن في حياة كانت ملأى ذات يوم بأحلام ورغبات كثيرة أن أضمن ألا يحدث ذلك.

٣٨

- لا بد أنكِ ترينني شخصًا فظيعًا.

تقولها لينورا بعد أن حكت بالتفصيل حياتها بعيدًا عن هوبز إند. قضت عامين في فرنسا. تشرب في قاعات الموسيقى. تختلط بالفنانين. تُقبِّل الغرباء في شوارع باريس. قابلت جنديًّا أمريكيًّا، وقعت في الحب، خُطبت، تحطمت عندما مات. كل تلك الصور التي وجدتها في غرفة نومها كانت لقطات من تلك الحياة الأخرى.

الحياة التي حلمت بها ڤرجينيا.

الحياة التي سرقتها منها لينورا.

- نعم، أنتِ كذلك.

حتى لو كذبت، ستعرف من نظرة الاشمئزاز التي أثق بأنها ارتسمت على وجهي.

فظيعة. وأنانية. وبلا قلب.

لأن لينورا لم تستولِ فقط على الحياة التي تاقت أختها إليها، لكنها نفت أي فرصة لڤرجينيا كي تحظى بأي حياة من أي نوع على الإطلاق.

أقول:

- كيف استطعتِ ذلك؟ كانت أختك. أعلم أنكما لم تحبا بعضكما. لكنها كانت الوحيدة التي بقيت من عائلتك.

- ما الذي كان بمقدوري أن أفعله غير ذلك؟

- تقولين الحقيقة.

تضرب لينورا كأسها على سطح النضد، فينسكب النبيذ ويتناثر مثل الدم وهي تقول:

- حاولت! لم يصدقني أحد! في ذهن الجميع أن لينورا هوب ذبحت عائلتها. لم أستطِع الاستمرار في أن أكون هي. كنت لأغدو أسيرة في هذا المنزل مثل أختي. وأي نفع كان سيأتي من وراء هذا؟ لم تستطِع ڤرجينيا أن تتكلم، لم تستطِع أن تمشي، لم تستطِع أن تفعل أي شيء. بمنحي هويتي لها...

أقاطعها:

- على الرغم من إرادتها.

- نعم، على الرغم من إرادتها. لكن بفعل ذلك، تمكنت واحدة منا على الأقل من الاستمتاع بالقليل من الحرية. تمكنت واحدة منا على الأقل من عيش حياة خارج هوبز إند.

- لماذا عدتِ؟

تقول لينورا وهي تنشف النبيذ المسكوب بإسورة كمها، والنسيج الأسود يتشرب السائل الأحمر:

- كانت أوروبا تتغير، وكانت العاصفة تتجمع، وعلم الجميع أنها ليست إلا مسألة وقت قبل أن تجتاح القارة كلها. خرجت منها وعدت إلى هنا، متظاهرة بأنني مدام بيكر، المعلمة الضالة العائدة إلى منزل في أشد الحاجة إلى معونتها. صارت أختي هي لينورا هوب، الضحية البائسة لشلل الأطفال وعدة سكتات دماغية. ولأننا حافظنا على مستوى منخفض من التواصل مع الآخرين، لم يعرف أحد أن هذا كله كان كذبًا. لا أحد سوى آرشي، الذي فهم فائدة البقاء صامتًا.

- ولماذا لم ترحلي مرة أخرى بعد الحرب؟

تقول لينورا وهي تهز كتفيها:

- لم تَعُد لديَّ الرغبة. أو، بصراحة، المال. ما ورثته لم يكن ثروة غير محدودة. ومن المكلف الحفاظ على استمرار هذا المكان. وتطلَّب الحفاظ على أسرارنا تكاليف إضافية لكنها ضرورية.

- مثل الدفع لبرنيس مايهيو؟

تومئ لينورا برأسها، وقد بدا عليها انطباع ممتعض من معرفتي بذلك، وتقول:

- ليلة القتل، رأتني في المطبخ أُحضر سكينًا. وبالمناسبة أنا لم أستخدمها لقتل والدَي.

- إذن لماذا أنفقتِ كل هذا المال لضمان سكوت برنيس؟

- لأنه على الرغم من كوني بريئة، فإن شهادتها كانت لتغدو دليلًا احتاجت إليه الشرطة كي تتهمني بارتكاب جرائم قتل متعددة. عرفتُ ذلك، وعرفت برنيس ذلك أيضًا، لذا دفعت لها. لكن المال ينفد الآن. ولا يوجد حل أمامي. ابتعدتُ، ليس وقتًا طويلًا. لكنه كان كافيًا.

أقول بمرارة:

- ربما بالنسبة إليك. لكن ڤرجينيا لم تحصل حتى على ذلك.

تعقد لينورا ذراعيها وتحدجني بواحدة من نظراتها الثلجية وهي تقول:

- لو أرادت أختي - حقًّا - حياة كحياتي، لما حاولت أن تقضي على حياتها.

- ماذا تقصدين؟

- يا عزيزتي، بأي طريقة أخرى إذن تعتقدين أن الأمر انتهى بڤرجينيا متدلية من تلك الثريا؟

تدوي الصدمة داخلي مثل الرعد.

- هي شنقت نفسها؟ كيف عرفتِ ذلك؟

- كان هناك كرسي موضوعًا تحت الثريا. أظن أنها وقفت عليه لتعقد الحبل حول أحد فروع الثريا. ثم ربطت الحبل حول عنقها وقفزت من فوق الكرسي. بالكاد تحملتها الثريا.

أرجع بتفكيري إلى جولة المقتلة التي صحبتني فيها جيسي وكيف لاحظت الثريا المائلة التي بدت كأنها مجذوبة من السقف.

- ألم تكن حبلى؟

تقول بصوت حاد:

- لا. ليس وقتها.

أنتظر منها أن تُفصِّل. لكنها تصمت.

- لماذا لم تشك الشرطة في أن ڤرجينيا حاولت قتل نفسها لو كان هناك كرسي تحت الثريا؟

تحدق لينورا إليَّ من دون أن يطرف جفناها.

- لم يكن هناك عندما وصل رجال الشرطة.

لا حاجة إلى التفصيل هذه المرة. أفهم تمامًا ما تعنيه. بدلًا من محاولة مساعدة أختها، أزاحت لينورا الكرسي حتى لا يعرف رجال الشرطة أن ڤرجينيا قتلت نفسها.

يصيبني ذلك الإدراك بالنفور. أتراجع عدة خطوات إلى الوراء، راغبة في أن أضع بيننا أكبر مسافة ممكنة. إلى الآن، كان بمقدوري أن أستجمع تقريبًا بعض التعاطف على مضض مع لينورا. لكن هذا؟ هذا كان وحشيًّا.

- فعلتُ ذلك لحمايتها.

تقولها، وقد أدركت بلا شك ما أفكر فيه لأنني لم أبذل أي محاولة لإخفائه.

أقول:

- كيف كان ذلك حماية لها؟ حاولت أن تقتل نفسها ولم تفعلي شيئًا إلا التغطية على الموضوع.

تقول لينورا بصوت بارد كالثلج:

- لو لم أفعل ذلك، لعرف رجال الشرطة الحقيقة. لأدركوا، مثلي، سبب محاولة ڤرجينيا الانتحار.

أتراجع خطوة أخرى إلى الوراء، لكن هذه الخطوة مدفوعة بالصدمة فقط.

- تعتقدين أن ڤرجينيا قتلت والديكما.

- أعرف أنها قتلتهما.

تتحول نبرتها من فولاذية إلى مرتجفة، كأن صوتها كسره إزميل.

- بصراحة، لست مندهشة، في ضوء ما فعلناه نحن بها.

- من هم «نحن»؟

- أنا...

تقولها لينورا، وهي تقطع عبارتها برشفة من النبيذ تبتلعها بصعوبة قبل أن تكمل:

- وأبي. والآنسة بيكر الحقيقية. بعد ما فعلناه، المفاجأة الوحيدة أنها لم تقتلنا جميعًا.

وَلدت على بلاط غرفة نومي.

هذا واحد من الأشياء القليلة التي أتذكرها.

انزلق الطفل بسرعة شديدة حتى إنه لم يكن هناك وقت كي أتمدد على الفراش. لذلك اضطررت إلى التمدد في البركة التي صنعتها على البلاط، ورأسي يرتطم بالجدار فيما أتلوى من آلام المخاض.

شيء آخر لن أنساه أبدًا: العذاب المصحوب بالعرق طوال الوقت. كأنني كنت أنشطر نصفين، يتساقط جلدي، أولد من جديد عبر نار الألم الخالص.

لم يكن لديَّ غير أختي والآنسة بيكر، اللتين دخلتا مسرعتين للمساعدة بعد سماع صرخاتي. لم تعرف واحدة منهما ماذا تصنع. لذلك دفعت، وصرخت، وتألمت.

في لحظة ما، فقدت الوعي من الإرهاق وهذيان الألم. كان جسدي ما زال يدفع الطفل، ويصرخ، ويبكي، ويتألم، لكن ذهني كان في مكان آخر. تخيلت نفسي مع ريكي على تل مرصع بالزهور البرية ومن بعيد جبال بيضاء الذرى. وقفنا في نور الشمس، وطفلي بين ذراعَي، بينما الطيور في أشجار الصنوبر المحيطة تغني أغنية موجهة فقط لنا.

فقط عندما تحولت أغنية الطيور إلى بكاء عدت إلى الواقع من جديد. غريزة الأم. عرفت أن طفلي ولد.

وأنه في حاجة إليَّ.

هو في حاجة إليَّ.

عرفت أن طفلي صبي عندما عادت أختي من المطبخ بسكين كبيرة استخدمتها لقطع الحبل السري. كان ضئيلًا جدًا، وضعيفًا جدًا. لكن عندما نظرت إليه، شعرت بحب عنيف حتى إنه أفزعني. لم يهمني أي شيء آخر في العالم سواه. أنا أمه، وعرفت أنني سأفعل أي شيء لأحميه.

أخيرًا، صارت لحياتي غاية، هي أن أحب ابني أكثر من أي شيء آخر. كان ذلك الإدراك أسعد لحظة في حياتي.

غادرتني تلك السعادة في اللحظة التي رأيت فيها أبي أيضًا في الغرفة. قضى فترة المخاض يذرع غرفة الآنسة بيكر المجاورة جيئة وذهابًا، ولم يظهر إلا بعد أن سمع طفلي يصرخ. وعندما اقتربت أختي لتضع طفلي بين ذراعي، قال:

- لينورا، خذي الطفل إلى الغرفة الأخرى.

تجمدت أختي. لكن طفلي بين ذراعيها لم يتجمد. كان يتلوى، ويركل، ويبكي. امتدت إحدى يديه الصغيرتين نحوي، كأنه يعرف بالفعل أنني أمه وأنه ينتمي إلى أحضاني الخاوية. مددت يدَي أيضًا، إلى أن تلامست أصابعنا.

ثانية واحدة من التلامس.

هذا كل ما سمح لي به.

قال أبي بصرامة أكبر هذه المرة:

- لينورا، خذي الطفل.

- ألا تستطيع أن تضمه على الأقل؟

هز أبي رأسه وقال:

- لن يزيد هذا الأمر إلا سوءًا.

قالت أختي:

- لكنها أمه.

أجابها أبي:

- ليست كذلك. هي لم تحمل بطفل قَطُّ. وهذا الطفل ليس من آل هوب. لم يحدث شيء من هذا. والآن إما أن تأخذي ابن الزنى ذاك إلى الغرفة الأخرى وإما سآخذه منك وألقيه من الشرفة. ثم سأتبرأ منك أنت وأختك.

لم تستطع لينورا أن تجبر نفسها على النظر إليَّ وهي تنهض وتحمل طفلي خارج الغرفة، حتى وأنا أتوسل إليها أن تبقى.

- لا يا لينورا! أرجوك، أرجوك لا تذهبي! من فضلك أعطيني إياه!

أردت أن أجري وراءها، لكن لم أستطع. كان جسدي أضعف من ذلك. كان جهد الدفع بحياة جديدة إلى هذا العالم قد استنزف مني كل الحياة. لكنني حاولت، واستمررت في الصراخ:

- من فضلك يا لينورا! دعيني أضم طفلي!

لكنها كانت قد مضت بالفعل، وأغلقت الباب بين الغرفتين وحجبت صوت صرخات طفلي. أمسكت الآنسة بيكر كتفي أبي وهزته قائلة بصوت كالفحيح:

- ونستون، لا يمكنك أن تفعل هذا. هذا شيء وحشي.

قال أبي:

- هذا لمصلحة الجميع. لا تستطيع هذه العائلة أن تتحمل فضيحة أخرى.

- لكن فرجينيا ابنتك. ابنتك الشرعية الوحيدة. وإذا انتزعت منها هذا الطفل، فستخسرها إلى الأبد.

- أرفض أن يكون لي ابن زنى آخر في هذه العائلة.

ردت عليه الآنسة بيكر بصوت كالرصاص:

- هذا ما يقوله رجل له عدة أبناء من الزنى!

تجاهل أبي هذه الملحوظة، وركع أمامي، من دون أن يتأثر بحزني. حتى وأنا أبكي قال:

- أنا آسف يا حبيبتي. جلبت هذا لنفسك.

قلت بصوت يزداد وهنًا بسرعة مثل جسدي:

- أرجوك، أرجوك دعني أحتفظ به. سأكون فتاة مطيعة لو فعلت. لن أفعل أي خطأ آخر أبدًا.

ربت أبي على ذقني وقال:

- يا حبيبتي، لقد فعلت من الخطأ ما يكفيك العمر كله.

لطمني الإرهاق في موجات متتابعة بلغت من القوة حد أنني ظننت أنني أموت من انكسار قلبي. تمنيت ذلك. بدا الموت خيارًا أفضل من هذه الحسرة التي بلا قرار. لكنني بقيت على قيد الحياة بينما تلبسني الآنسة بيكر قميص نوم جديدًا وتضعني في الفراش. وبينما كانت تمسح الفوضى التي صنعتها على البلاط، أنصت كي أسمع صوت ابني في الغرفة الأخرى.

هدوء تام.

البكاء الوحيد كان صادرًا مني.

بعد أن انتهت من التنظيف، أمسكت الآنسة بيكر يدي وقالت:

- لا تقلقي يا فرجينيا. سأفكر في شيء كي أجعله يغير رايه.

كنت أكثر تعبًا -- وأكثر قنوطًا بشكل نهائي -- من أن أرد. وضعتني الحسرة والإرهاق في قبضتيهما، وشعرت كأنني أنجذب إلى هوة مظلمة لن اخرج منها أبدًا. آخر ما سمعته كان صوت الآنسة بيكر وهي تقول:

- أقسم لك، لن يأخذ هذا الطفل منك إلى الأبد.

كانت تكذب.

لم أرها قَطُّ -- ولا رأيت طفلي — مرة أخرى.

٣٩

لم أعتقد أن الأمر يمكن أن يسوء أكثر من ذلك. فقد تحملت ڤرجينيا ما فيه الكفاية.

لكنني كنت مخطئة.

لأن لينورا تستمر في الحديث، كاشفة عن كل السبل التي تعذبت بها أختها. أُجبرت أن تلد على البلاط. انتُزِع الطفل منها قبل حتى أن تتمكن من ضمه. ازدراء والدها العفوي في مواجهة انكسار قلبها. كل هذا شديد المأساوية حتى إن أنفاسي تضيق.

- كان عليكِ إيقافه. كان عليكِ تحدي أوامره.

هكذا أتكلم على الرغم من الاختناق المفاجئ في صدري.

تقول لينورا بصوت مكسور:

- أردت ذلك. حقًّا أردت ذلك. لكنك لم تقابلي أبي. كان قادرًا على القسوة بشدة. شعرت بالقلق من أن يقتل ذلك الطفل فعلًا لو واتته الفرصة. وكنت موقنة أنه سينفذ تهديده بالتبرؤ مني. لم أكن ابنته. ليس في الحقيقة.

- لكنها كانت أختك!

- اسمًا فقط. لم نكن مقربتين قَطُّ. كنت أنا وڤرجينيا نقيضتين مثل الصيف والشتاء.

المقارنة مناسبة. حين أنظر إلى لينورا هوب، كل ما أراه برودة ثلجية. وفي

الطابق العلوي ترقد ڤرجينيا، دافئة ومضطربة مثل ظهيرة في يوليو. أختان لم يكن بينهما ارتباط قَطُّ، مثل الفصلين اللذين يمثلانهما. حال شيء ما بينهما دائمًا.

هكذا أخذت لينورا الطفل إلى داخل ما كانت غرفة الآنسة بيكر لكنها الآن غرفتي. هدهدته وأسكتت صرخاته عن طريق السماح له بمص إصبعها الخنصر. وانتظرت عودة والدها ليخبرها بما يجب أن تفعل.

وفقًا للينورا، لم يأتِ قَطُّ.

تقول:

- أخيرًا جاءت الآنسة بيكر إلى الغرفة وبدأت تحزم أشياءها. عندما سألتها عما تفعل، قالت: «سأرحل بالطبع. مع الطفل».

تلاحظ لينورا دهشتي وتهز رأسها.

- ليس الأمر كما تظنين. على الرغم من كل أخطائها، كانت الآنسة بيكر امرأة طيبة. أقنعت أبي أن يفعل ما كان يفعله دائمًا: استخدام المال لإبعاد المشكلة. في مقابل بعض المال وواحدة من سياراته الباكارد، ستتولى حضانة الطفل. كانت خطتها أن تصبح أمًّا مؤقتة له إلى أن يمكن جمع شمله بڤرجينيا من جديد. وافقت على المساعدة ما دام أبي لن يعرف بتورطي أبدًا. ثم انطلقت بالسيارة في الليل واصطحبت الطفل معها.

- هل تعرفين إلى أين ذهبت؟

تومئ لينورا برأسها وتقول:

- كندا.

أفكر في كارتر، الذي كان مخطئًا بشأن نسبه الحقيقي. مستحيل أن يكون طفل ڤرجينيا هو نفسه الذي تُرك على باب تلك الكنيسة صبيحة الكريسماس. لا تزيد علاقته بعائلة هوب على علاقتي بها.

في الوقت نفسه، يبدو أن هذا يبرئ ساحة لينورا، التي اعتقدتُ أنها المسؤولة. بما أن كارتر لا يمت بصلة لڤرجينيا، فلن يرث شيئًا. لم يكن هناك سبب كي تمنعه لينورا هو وماري من اكتشاف ذلك.

تقول لينورا:

- كتبت لي الآنسة بيكر بعد بضعة أسابيع من حوادث القتل. سمعت بما حدث وقالت إنه نظرًا إلى تلك الظروف سيكون من الأفضل لو استمرت في تربية الطفل باعتباره ابنها. ولم أعترض.

أحدق إليها مصدومة.

- لكنه ابن أختك!

- ماذا تعتقدين أنه كان عليَّ فعله؟

أصرخ:

- أن تحتفظي به. أن تربيه. أن تحبيه. وكان عليكِ كذلك أن تدعي ڤرجينيا تحبه.

- وأي نوع من الحياة كانت لتغدو تلك الحياة؟ بالنسبة إلى ڤرجينيا والطفل كليهما؟ لم يكن بمقدورها أن تضمه، ناهيك بأن تطعمه. لم يكن بمقدورها أن تكلمه أو تلعب معه أو تفعل أي شيء من أجله.

- كنتِ ستجدين طريقة.

- كيف؟ كنت في السابعة عشرة. لم أكن أعرف شيئًا عن الاعتناء بطفل رضيع.

- هذا ليس سببًا كي تُفرقي بين أختكِ وطفلها!

يفور الغضب في صدري، ويتكسر داخلي كما تتكسر الأمواج على السفح تحتنا مباشرة.

- كيف استطعتِ أن تكوني بهذه القسوة؟

- قسوة؟ إنها العكس تمامًا. أؤكد لك. إبقاء هذا الطفل بعيدًا عن هذه العائلة كان هو أقصى أفعال الطيبة. بسببي أنا والآنسة بيكر، شب هذا الطفل من دون أن يعرف قَطُّ أن أمه الحقيقية قاتلة.

- وأنتِ تعاقبين ڤرجينيا بسبب تلك الحقيقة.

- هي تستحق العقاب! بعد ما فعلته، كان لا بد من دفع الثمن. لكنني أحميها أيضًا. ولطالما حميتها. فكري فيما كان ليحدث لامرأة في حالتها لو عرفت الشرطة بما فعلته.

أهز رأسي. هذا ليس سببًا وجيهًا بما يكفي. خصوصًا عندما لا يوجد أي شيء يشير إلى أن ڤرجينيا قتلت والديها، باستثناء محاولتها لشنق نفسها.

- لماذا أنتِ بهذه الثقة بأنها فعلتها؟ ماذا عن ريكاردو مايهيو؟

- ماذا عنه؟

أقول:

- كان هو وڤرجينيا على علاقة. كان والد الطفل. وتبعته برنيس مايهيو إلى هنا تلك الليلة.

تضحك لينورا. آخر رد فعل كنت أتوقعه. لا يوجد أي شيء مضحك ولو من بعيد حول حقيقة أنها تلوم أختها على حوادث قتل ربما لم ترتكبها. لكن لينورا تستمر في الضحك، قهقهة خفيضة تحمل من عدم التصديق أكثر مما تحمل من التسلية.

تقول:

- هذا مستحيل.

- لماذا؟

أسمع وقع أقدام على سلم الخدم. بعد لحظة، يظهر آرشي داخل المطبخ. لا أعرف منذ متى كان هناك أو مقدار ما سمع. كل ما أعرفه أنه كان وقتًا طويلًا بما يكفي له كي يجيب سؤالي:

- لأن ريكاردو كان معي تلك الليلة.

يتطلب الأمر مني لحظة كي أفهم ما يشير إليه. وعندما أفهم، لا أستطيع أن أقول إلا:

- آه! كنتما...

في غضون لحظات، أفكر في عشرة أسئلة متتابعة. لا يمنحني آرشي الوقت كي أسأل واحدًا منها. يقول:

- فوجئت مثلك الآن. لأنه أولًا كان متزوجًا، على الرغم من أن الحال كانت هكذا دائمًا في تلك الأيام وفي إطار خبرتي المحدودة. ليس الأمر كما هو

اليوم، حيث يُسمح بحرية أكبر قليلًا. وقتها، كان لا بد من إبقاء الأمر سرًّا. خصوصًا بالنسبة إلى شخص مثلي. كنت في الثامنة عشرة تقريبًا. حركة واحدة خاطئة قد تدمر حياتي بأكملها.

يخبرني آرشي كيف كان يلتقي هو وريكاردو سرًّا، متسللين بعيدًا كلما أمكنهما ذلك. لم يكن الأمر سهلًا. تشارك ريكاردو الكوخ مع زوجته. وأقام آرشي في إحدى الغرف فوق الجراج، حيث كانا يلتقيان عادة.

- أسميناها عشنا.

يسمح آرشي لنفسه بابتسامة صغيرة قبل أن تتحول إلى تقطيبة.

- وهناك كنا ليلة القتل.

يتبين أن برنيس كانت مخطئة بشأن محاولة زوجها أن يضللها بالذهاب إلى الجراج أولًا قبل التسلل إلى داخل المنزل من خلال الباب الأمامي. لكن مرة أخرى، كانت برنيس مخطئة بشأن أشياء كثيرة، من ضمنها مَن كان يقيم زوجها في الحقيقة علاقة معه.

يقول آرشي:

- بما أن الجميع مُنح إجازة وذهبت برنيس إلى السينما، عرفنا أن لدينا بضع ساعات لنفسينا فقط. لكن ريكاردو كان منزعجًا. قال إن برنيس واجهته بأنه يقيم علاقة مع لينورا.

تكتم لينورا ضحكتها وتقول:

- وهو ما كان سخيفًا تمامًا. لم أعرف حتى من كان.

يضيف آرشي:

- أخبرته بأنه يجب أن ينهي هذه العلاقة، بعد أن يبتزا ونستون هوب. أراد ريكاردو ألا تكون له علاقة بتلك الخطة. كانت خطأً، أخلاقيًّا وواقعيًّا معًا، وخشي أن تؤدي في النهاية إلى كشف الحقيقة عن علاقتنا. كارثة لكلينا. لكن كانت لديه خطة خاصة به. طلب مني أن أهرب معه.

- تلك الليلة؟

- على الفور. أراد أن نتوجه غربًا. ربما إلى كاليفورنيا. قال إنه سمع أن الناس هناك أكثر تسامحًا. قال إنه توجد فرصة لأن نكون سعيدين هناك. لكنني كنت أعرف أكثر منه.

يجر آرشي قدميه إلى مقعد بار. يجلس، منحنيًا، كأن الذكريات الحزينة التي يستدعيها تثقل كاهليه حرفيًّا.

- ليس الهروب أبدًا بالسهولة التي يبدو عليها. أعرف لأنني فعلت ذلك بالفعل، الهروب من عائلة كرهتني لأنني كنت مختلفًا، لأنني لم أكن مثل أغلب الأولاد الآخرين. لكنني وجدت طريقي هنا - وإلى ڤرجينيا.

أقول:

- هل كانت تعرف.

يجيب آرشي بإيماءة من رأسه قبل أن يقول:

- إنه واحد من الأسباب التي جعلتني أحبها كثيرًا. لم تصدر عليَّ حكمًا. أو تصمني. أو تحاول أن تغير من هويتي، والحمد لله. تقبلتني ببساطة. ولم يكن في استطاعتي تركها. لم أكن لأتركها وهي حبلى. لم أكن لأتركها وهي في حاجة إليَّ. لأن هذا شيء آخر أخبرني به ريكاردو - أن برنيس رأتها في الليلة السابقة وعرفت حالتها. وكان هذا يعني أن الجميع سيعرفون بعد قليل. وعندما يحدث هذا، ستحتاج إليَّ ڤرجينيا أكثر من قبل.

- هكذا بقيت.

أقولها وأنا لا أقصد تلك الليلة فقط بل كل الليالي بعدها. عقود من الليالي التي ظل يتسلل فيها إلى غرفة ڤرجينيا ليطمئن عليها ويتمنى لها أحلامًا سعيدة.

يقول آرشي:

- بقيت. ورحل ريكاردو. لم أسمع منه خبرًا بعد ذلك.

يجعلني حزن قصته مقتنعة بأن هوبز إند ملعون بطريقة ما. ربما كان مجرد حظ سيئ. أو ربما بسبب غطرسة ونستون هوب في بناء قصر على حافة منحدر على الرغم من معرفته أنها ليست إلا مسألة وقت قبل أن يتقوض ساقطًا في

المحيط. أيًّا كان السبب، لم يحظَ أحد هنا بالحياة التي أرادها. لم تُمنح لأحد نهاية سعيدة.

لا آرشي، ولا لينورا، ولا ڤرجينيا بالطبع. لكن على الرغم من معرفتي الآن بكل حكاياتهم المأساوية، يظل سؤال واحد بلا إجابة.

- إذن من كان ريكي؟

يقول آرشي:

- واحد من الفتية المحليين المستأجرين للقيام بأعمال الخدمة الموسمية. كانت جماعة منهم تأتي وتذهب طوال الوقت. لم تخبرني ڤرجينيا قَطُّ باسم عائلته. أو حتى اسمه الأول. استخدمت فقط تلك الكنية، الأمر الذي جعل من المستحيل تتبُّع أثره بعد حوادث القتل. أشك أنه أراد بذلك ألا يعثر عليه أحد.

يدور بداخلي مزيج غريب من المشاعر. هناك خيبة أمل من واقع أن ريكي لم يكن الشخص الذي ظننته. في الواقع، لم يكن شخصًا مهمًّا على الإطلاق. مجرد فتى استغل فتاة كانت وحيدة بشكل بائس إلى درجة أنها تخلت عن براءتها، وفي النهاية، عن حريتها.

لكن ڤرجينيا ليست بريئة من اللوم. أنا غاضبة منها. ليس لكونها ساذجة. كانت مجرد طفلة عندما أتى ريكي. لم تكن لديها أي معرفة أفضل مما فعلته. لكن ما فعلته بوالديها كان فظيعًا بما يتجاوز الخيال، إلى درجة أنني في الوقت نفسه أكرهها وأشعر بالأسى من أجلها، وعلى الرغم من كل ما عرفته الليلة، فما زلت متمسكة بالأمل في أن يكون آرشي ولينورا مخطئين.

أظن أن هذا يجعلني الشخص الساذج.

- لكن ما زال من الممكن أن يكون شخص آخر غير ڤرجينيا هو من ارتكب جرائم القتل، أليس كذلك؟

يتنهد آرشي ويقول:

- لم يكن هناك أحد آخر من الممكن أن يكون قد فعلها يا كيت. وأعلم أن

هذا يغير تصوُّرك عنها. لقد قضيت وقتًا كثيرًا أتساءل لماذا فعلت هذا. لكنني تصالحت مع حقيقة أنني لن أعرف أبدًا. قد لا أوافق على ما فعلته ڤرجينيا، لكنه لا يجعلني أكرهها. من الممكن أن تحبي أحدًا على الرغم من كرهك لشيء فعله.

- ما زلت أحاول أن أتصالح مع هذا.

تقولها لينورا ونحن نتبادل نظرة. أفترض أنها تعني أنها تعرف \أنني أعرف أنها من استخدمت الآلة الكاتبة في منتصف الليل، لتملأ ورقة بالاتهام نفسه.

الغلطة غلطتك

أنا عالقة في مكان بين بين، مذعنة لحقيقة أن ڤرجينيا قتلت والديها، لكنني ما زلت متشبثة بجذوة أخيرة من الأمل.

أقول:

- لكن لماذا أنتما موقنان تمامًا أنها فعلتها؟

تقول لينورا:

- لأنني رأيتها. في وقت لاحق تلك الليلة، بعد أن رحلت الآنسة بيكر بالطفل، سمعت ڤرجينيا تغادر غرفتها. ذهبت لأرى إلى أين هي ذاهبة ورأيتها تنزل الدرج الكبير.

- هذا لا يعني أنها مذنبة.

ترفع لينورا كأسها. وقبل أن تفرغها في جوفها تقول:

- بل يعني ذلك لو كانت ڤرجينيا تحمل سكينًا.

إلى يومنا هذا، ما زلت غير واثقة من أين وجدت القوة للنزول من الفراش ومغادرة غرفتي. أظنها قوة الإرادة الخالصة التي أثارها تصميم شرس لأم. لكن الألم كان ما زال يمزق جسدي وأنا أنزلق من فوق الفراش. التوت ساقاي، وللحظة اعتقدت أنني سأنهار على الأرض. لكنني ظللت ثابتة، أقاوم الوجع، شاعرة بضرورة أن أجد طفلي.

قبل مغادرة الغرفة، لمحت شيئًا مستقرًا على الطاولة المجاورة للفراش.

سكين.

السكين نفسها التي استخدمت لقطع الحبل الواصل بيني وبين طفلي، منسية الآن خلال الهياج الذي تبع الولادة. التقطتها، وأنا أقول لنفسي إنني بحاجة إلى شيء أستخدمه لأحمي نفسي. ضد ماذا؟ لم أعرف. ربما أبي. أو أختي والآنسة بيكر. لكن في أعماقي، عرفت أن العكس هو الصحيح.

كنت أبحث عن سلاح.

ولو كان هناك أحد في حاجة إلى حماية، فقد كان أبي.

غادرت الغرفة، والسكين في يدي، مقاومة الألم في طريقي عبر الرواق، وبدأت أعرج هابطة الدرج الكبير. عند البسطة، توقفت وأنصت. كان هناك صوتان قادمان

من قاعة البلياردو. أحدهما صوت أبي. والآخر صوت ريكي. وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من تمييز ما كانا يقولانه، فإن كليهما بدا غاضبًا.

هبطت الدرجات الباقية في بطء، حريصة ألا يصدر عني صوت. كنت في حاجة إلى معرفة ما كانا يقولانه قبل أن أقرر إن كان ينبغي أن أكشف وجودي. لو هدأ صوتاهما، ربما يعني هذا أن ريكي نجح في إقناع أبي بأن يدعنا نتزوج، يدعنا نحتفظ بالطفل، يدعنا نعيش في سعادة إلى الأبد.

كان ينبغي أن أدرك أن تلك الأشياء لا توجد إلا في الحكايات الخيالية. لأنه لم تكن هناك سعادة إلى الأبد. لم تكن من أجلي.

عندما وصلت إلى الطابق الأرضي، لمحت لينورا بالقرب من أعلى الدرج الكبير. همست وهي تتشبث بالدرابزين في عصبية:

- فرجينيا، ماذا تفعلين؟

رفضت أن أرد.

ستعرف بعد قليل.

وبينما أنا مستمرة في التحرك نحو قاعة البلياردو، سمعت خطواتها في رواق الطابق الثاني. تهرب بالطبع. هي أجبن من مواجهة الدمار الذي ساعدت على خلقه. فقط لو سمحت لي بالهروب بدلًا من ذلك، لما حدث أيٌّ من هذا.

كانت هناك ضجة في القاعة كذلك، أعلنت بوضوح أنه لم يهدأ شيء في الوضع القائم. فقط علا صوت أبي أكثر، انفجر خارجًا من قاعة البلياردو وتردد صداه في الصالة.

قبل أن أصل إليهما، توقفت لحظة عند البورتريهات الأربعة في الصالة. أراد أبي أن تجعلنا اللوحات نبدو مثل عائلة واحدة كبيرة وسعيدة، آمنين في حالنا، راضين بحياتنا.

ولتحقيق ذلك الأثر، كان ينبغي له أن يجعل بيتر وورد يرسمنا معًا. لوحة ضخمة تصورنا نحن الأربعة في أفضل هيئة، متخذين أوضاعنا بحرص في إحدى غرف هوبز إند العديدة حسنة التجهيز.

بدلًا من ذلك، رسمنا بيتر متفرقين. وفي هذه العملية، صوَّر بالمصادفة عائلتنا كما هي في الحقيقة -- أربعة غرباء، وحيدون تمامًا، وكل واحد منا محصور في إطار مذهب، غير قادر أو غير راغب في الهروب.

لكن ليس أنا، هكذا قررت.

كنت عازمة على أن أغادر هذا المكان إلى الأبد.

وسآخذ طفلي معي.

حتى لو اضطررت إلى القتل كي أفعل ذلك.

أحكمت قبضتي على السكين، ثم استدرت ودخلت قاعة البلياردو.

٤٠

في الطابق العلوي، المرأة التي اعتقدتُ أنها لينورا هوب في الفراش لكن مستيقظة تمامًا، كأنها عرفت أنني قادمة.

لا توجد أي مفاجأة.

لطالما كان لديَّ إحساس بأنها مدركة للأمور أكثر مما تُبدي. لعل ڤرجينيا عرفت أن هذه اللحظة قادمة منذ ليلتي الأولى هنا، عندما كتبت على الآلة هذه الكلمات المغرية.

أريد أن أخبرك بكل شيء

لم تفعلها، لكنني عرفت كل شيء على أي حال. إلى اللحظة التي مضت تبحث فيها عن أبيها، ممسكة بسكين في يدها.

قالت لي لينورا:

- جريت لأنبه أمي، التي كانت في ذهولها المعتاد. لم يكلف أحد نفسه عناء إخبارها بأمر ڤرجينيا، بمخاضها الطارئ، وأوامر أبي بانتزاع الطفل. لم تكن لديها أي فكرة. لكن بدا أن ذهنها اتقد عندما أخبرتها بما جرى - وقلقي مما يوشك على الحدوث. ربتت على ذقني وقالت «لا تقلقي يا عزيزتي. سأتعامل مع هذا». وكان هذا آخر ما قالته لي إلى الأبد.

ثم خيم الصمت على المطبخ. على الرغم من أننا لم نعترف بذلك، فإنني عرفت أنني ولينورا كنا نستدعي كلمات والدتينا الأخيرة.

من فضلك يا كيت كات. من فضلك. سآخذ واحدة فقط. أعدك.

أخيرًا قالت لينورا:

- لا أعتقد أن ڤرجينيا كانت تنوي قتلها. أعتقد أن أبي كان هدفها الوحيد وأن أمي علقت في الوسط بطريقة ما. ضرر جانبي. وأظن أن أختي أحست بالذنب الشديد حيال ذلك فحاولت أن تشنق نفسها.

قال آرشي:

- لذلك تصالحت مع كل شيء طوال كل هذه السنين. هنا، ڤرجينيا في أمان. هنا، لا يعرف أحد ما فعلت. هذا لمصلحتها. أومن بهذا من كل قلبي.

أضافت لينورا:

- لهذا لا أدعها تخرج. ولهذا نشير إليها دائمًا بالآنسة هوب. لو اكتشف الآخرون من هي وماذا فعلت - وما نستمر في فعله - قد يدمر هذا ڤرجينيا. تخيليها تذوي في إحدى المنشآت الحكومية. على الأقل هنا هي في منزلها.

لكن هوبز إند ليس منزلًا. إنه قفص مشيد من الأسرار. وڤرجينيا ليست الشخص الوحيد المحبوس فيه. لينورا وآرشي محبوسان أيضًا.

وأنا أرفض أن أنضم إليهم. لهذا أقف الآن عند طرف فراش ڤرجينيا. حان الوقت للوداع.

أقول لها:

- أعرف من تكونين.

تنظر إليَّ من دون اندهاش. في الحقيقة، أتبين لمحة رضا في عينيها، كأنها فخور بي لاكتشافي كل شيء.

- أعرف أيضًا أنك قتلتِ والديك.

ترفع ڤرجينيا يدها اليسرى، مستعدة لدق ردها.

- لا تفعلي ذلك.

أقولها وأنا لست في مزاج مستعد للإنكار. لكنني أيضًا لا أريد التأكيد. بشكل ما، لم يتغير شيء منذ ليلتي الأولى هنا. على الرغم من اعتقادي أنها مذنبة، فإنني كنت مترددة أيضًا حيال اكتشاف أنني كنت على حق. وبمجرد أن بدأت الكتابة على الآلة، انتهى الأمر بحدوث العكس. بدأت أعتقد أنها بريئة وأصبحت عازمة على أن أثبت صحة اعتقادي. ويتبين أنني كنت أخدع نفسي فقط، معتقدة ما أردت أن تكون الحقيقة، على الرغم من أنه في أعماقي كنت أعرف أنها ليست كذلك.

لعل ذلك هو ما أحس به أبي قبل أن يتوقف عن الحديث معي مباشرة. الجريدة في يده، وعدم التصديق في عينيه، يقول لنفسه النقيض التام لما يعتقده عميقًا في دخيلته.

ما يقولونه ليس صحيحًا يا كيت كات.

أقول لڤرجينيا:

- أفهم لماذا أحسست بضرورة فعل ذلك. كانت لديكِ أسبابك. وآمل أن تكوني نادمة عليها الآن. لديك الكثير من الوقت كي تفكري في أفعالك. وأتمنى فقط...

أسكت، عاجزة عن أن أصيغ ما أحس به بالضبط. لو كانت هناك كلمة تعني الشعور بالخديعة والحماقة وخيبة الأمل كلها في وقت واحد، يجب أن أتعلمها. لأن الحقيقة أنني أحببت ڤرجينيا. وما زلت أحبها، على الرغم من كل شيء. وهذا ما يجعل الأمر صعبًا إلى هذا الحد.

لعل رد فعل ماري كان بالطريقة نفسها عندما اكتشفت الحقيقة، الأمر الذي استلزم ذلك الاعتذار المكتوب من ڤرجينيا.

مع الأسف لست الشخص الذي اعتقدت أنني إياه

أقول:

- أتمنى لو كانت لديكِ القدرة على أن تحكي لي كل شيء بنفسك.

بدلًا من ذلك، لم أحصل إلا على تلميحات وأنصاف حقائق. على الرغم من أنها لم تكذب عليَّ قَطُّ بشكل مباشر، فإنها لم تخبرني بالقصة كاملة

أيضًا. كان هذا بسيطًا جدًّا مع ذلك. جملة بسيطة، مكتوبة على الآلة بيدها اليسرى، تخبرني بأنها ڤرجينيا هوب، وأن كل شيء اعتقدتُ أنني أعرفه كان كذبة، وأنها مذنبة.

لو فعلت ذلك، ربما استطعت أن أبقى. كانت مهمتي أن أقدم الرعاية لقاتلة. عرفت ذلك منذ البداية. وأعتقد أنني كان من الممكن أن أؤدي ذلك لأطول وقت لازم. لكن الآن؟ لا أعتقد الآن أنني سأثق أو أصدق ڤرجينيا مرة أخرى.

وهو ما يعني أن خياري الوحيد هو الرحيل.

أقول:

- وداعًا يا ڤرجينيا. أتمنى ألا تحاول من ستُكلَّف برعايتك بعدي أيًّا كانت أن تعرف الحقيقة.

ألوح لها تلويحة صغيرة حزينة، وأتحرك إلى داخل غرفتي، وأنا أغصب نفسي كي لا أنظر إلى ڤرجينيا في طريق خروجي. أشعر بنظرتها على أي حال، بحرارة عينيها الخضراوين تتبعانني وأنا أتحرك. ثم أرحل، كما وعدت، من دون حزم أمتعتي.

لا حقيبة الملابس.

ولا صندوق الكتب.

ولا الحقيبة الطبية.

أقرر أن أرتب مع كارتر أن يحضرها لي فيما بعد. أو ربما سأتركها هنا لتنضم إلى متعلقات ماري. مجموعة متنامية من الأشياء التي تركتها مقدمتا الرعاية السابقتان لمقدمة الرعاية التالية سيئة الحظ كي تكتشفها.

الشيء الوحيد الذي آخذه هو مفاتيح سيارتي، التي أقبض عليها في يدي وأنا أسرع نازلة سلم الخدم. المطبخ خالٍ، والحمد لله. لا أعرف أين ذهبت لينورا أو آرشي، ولا أبالي. لست في مزاج يسمح برؤيتهما مرة أخرى أيضًا. قبل الرحيل، أذهب إلى الهاتف المعلق على الجدار وأدير الرقم بسرعة، مدركة أن أيًّا منهما من الممكن أن يدخل بينما يرن الهاتف ويرن.

عندما يرد أبي أخيرًا، يبدو ناعسًا ومرتبكًا. أتحقق من ساعة المطبخ. منتصف الليل تقريبًا. لقد أيقظته.

أقول:

- أبي.

- كيت كات؟

قلبي، الذي كان يدق في ثقل لوقت طويل، يقفز في نبضة مبتهجة. لم أكن أعرف كم كنت بحاجة إلى سماع ذلك.

- هل يمكنني أن أرجع إلى المنزل؟ الآن؟

- طبعًا. ماذا يجري؟ يبدو صوتك خائفًا.

- لم أعد قادرة على البقاء هنا أكثر من ذلك. يجب أن أبتعد عن هذا المكان. وعنهما.

- عنهما؟

- لينورا وڤرجينيا. كانتا تكذبان طوال هذا الوقت. ولا أستطيع أن أكون جزءًا من هذا.

لكن الأمر ليس ذلك فقط. ثمة شيء آخر أيضًا.

يجب أن أعترف.

- عندما أصل إلى المنزل، لديَّ أشياء أخبرك بها. عما حدث لأمي.

أغلق الخط لأمنع نفسي من قول بقية الكلام. لا يمكن قول ذلك في الهاتف. يجب أن يقال شخصيًّا، وجهًا لوجه، وهو ما كان يجب أن أفعله منذ ستة أشهر.

ما يقولونه ليس صحيحًا يا كيت كات.

لكنه صحيح.

كله.

تغمرني ذكريات تلك الليلة وأنا أغادر المطبخ، وأهرول عبر الرواق، شاقة طريقي نحو الباب الأمامي.

أمي في ألم شديد لا يوجد ما يكفي من الكلمات لوصفه. لم تكن معذبة من الألم. كانت مشتعلة به. كانت مسكونة به.

وأنا أتهاوى حرفيًّا من الإرهاق والقلق والتعاطف الموجع، منتظرة أن يسري مفعول المُسكِّن، متلهفة أن يوفر لها مقدارًا صغيرًا من الراحة. مسَّدتُ شعرها. همست بكلمات ملطفة في أذنيها. صليت لإله لم أكن متأكدة من إيماني به كي يفعل شيئًا يريحها من بؤسها.

أخيرًا، انكسر الألم. كان لا يزال موجودًا بالطبع، لكنه يطهوها على نار هادئة بدلًا من درجة الغليان الكاملة. كبحه الفينتانيل إلى درجة كافية تسمح لأمي بالراحة، وهو كل ما كنت أستطيع أن أتمناه منطقيًّا في تلك اللحظة.

عندما سقطت في النوم، مددت يدي نحو زجاجة الفينتانيل، متأهبة لإعادتها إلى الصندوق المعدني المغلق تحت فراشي. كنت قد لففت أصابعي بالكاد حولها عندما أحسست بيد أمي على يدي تُثبِّتها.

همست:

- دعيها.

- تعرفين أنه ليس من المسموح لي أن أفعل ذلك.

- الليلة فقط. فقط في حالة احتجت إلى واحدة.

كان صوتها أجش، منهكًا، يمتلئ على نحو بطيء لكن أكيد بألم متجدد.

- أمي، لا أستطيع.

أحكمت قبضتها على يدي، في قوة مذهلة بالنسبة إلى شخص بلغ هذه الدرجة من الإنهاك التام. حين أتأمل الأمر الآن، لا أعتقد أنها كانت من يفعل ذلك.

كان الألم، يستحوذ عليها ويحركها كأنها عروس ماريونت.

همست أمي:

- من فضلك يا كيت كات. من فضلك.

ما تلا ذلك كان صراعًا عنيفًا بدا كأنه استمر ساعات لكنه في الواقع دام مجرد ثوانٍ. كان جزء مني مجبرًا على اتباع البروتوكول، وفعل الشيء الصحيح، والاعتناء

بها بالطريقة المسؤولة التي تدربت عليها. لكن جزءًا آخر مني كان يعرف أن أمي تتعذب، وأن باستطاعتي مساعدتها على تخفيف ذلك العذاب.

قالت:

- سآخذ واحدة فقط. أعدك.

حبة واحدة أخرى فقط.

لم يكن هذا بالشيء السيئ إلى هذا الحد.

كان هذا أكثر مما يوصى به، لكن أحيانًا تجب مخالفة القواعد.

خلصت إلى أن هذا الوقت كان من بين تلك الأحيان.

قلت:

- واحدة فقط.

ثم وضعت زجاجة الأقراص على الطاولة المجاورة للفراش. وعلى الرغم من أنني واثقة بأنها لم تصدر إلا صوتًا بسيطًا وقتها وهي تستقر على الطاولة، فإن في ذاكرتي صوتًا مدويًا مثل انصفاق الباب الأمامي لهوبز إند بعد أن أغلقته خلفي.

عندما ذهبت إلى الفراش تلك الليلة، كان لديَّ شعور سقيم بأن أمي تنوي أن تتناول كل الأقراص الموجودة في الزجاجة. أدعوه بالحاسة السادسة. أو بالهاجس السابق. لكنني أقنعت نفسي أنها أكثر وعيًا، متجاهلة كيف يمكن للألم البالغ أن يشوش قدرة المرء على الحكم. أردت أن أعتقد بأنها لن تتناول جرعة زائدة عن عمد، لذلك كان هذا هو ما اعتقدته.

نتيجة لذلك، ماتت أمي.

وكل هذا بسبب أفعالي.

أقفز داخل سيارتي وأقودها مبتعدة، وعجلة القيادة غير ثابتة في يدَي المرتجفتين. أرفض أن أعامل أبي مثلما عاملتني ڤرجينيا. التظاهر بالبراءة. إجباره على العيش مع الشك النكِد لبقية أيامه. دق إسفين بيننا إلى أن نصبح مثل الأختين هوب تمامًا - عالقين معًا في دائرة من الشك والشعور بالذنب.

ستحررني الحقيقة، حتى لو كان من المحتمل أيضًا أن تؤدي بي إلى السجن.

أوقف السيارة عند البوابة، التي تسد الطريق مثل قضبان زنزانة. أخرج من السيارة وأضغط الزر المغروس في السور. وفيما أعود إلى السيارة سيرًا، ترتج البوابة منفتحة.

ثم تصلصل.

ثم تتوقف.

أدق سطح السيارة في إحباط. ليس هذا. ليس \الآن.

وبينما أسير عائدة إلى البوابة، عازمة على دفعها حتى تنفتح على مصراعيها، أسمع وقع أقدام سريعة ومحتدة على العشب، يتبعها صوت كارتر اللاهث:

- كيت؟ إلى أين تذهبين؟

ألتفت إليه، مضيقة عينَي في وهج المصابيح الأمامية للسيارة بينما يخرج كارتر من الظلام.

- سمعتك تقودين سيارتك مبتعدة وجريت كي ألحقك. هل سترحلين؟

- نعم.

- لماذا؟

أقول:

- لأنني كنت مخطئة. كنا مخطئين.

أقترب من البوابة، ناسية ما حذرني منه كارتر عندما وصلت أول مرة.

هذا المكان من الممكن أن يعض.

كان محقًّا في ذلك على الأقل. لأنني عندما أجذب البوابة مرة أخرى، ألمس المكان الخطأ في التوقيت الخطأ. إنها قصة حياتي. كانت يدي قد التفت بالفعل حول أحد القضبان قبل أن أشعر بها - بقعة من الحديد المشغول الصدئ تآكلت بفعل الهواء المالح لتتحول إلى طرف حاد كالموسى.

يوخز الحديد جلد يدي اليسرى. أسب وألعن وأنا أسحب يدي منتفضة وأتفحص الضرر. على الرغم من صغر الجرح، فإنه من السوء بحيث يجعلني

أنزف. على الأقل لم يكن هذا هباءً. ها هي ذي البوابة مفتوحة بما يكفي لسيارتي كي تتهادى عبرها.

يقول كارتر:

- ما الذي كنا مخطئين بشأنه؟

- لينورا ليست جدتك. هي حتى ليست لينورا. هي ڤرجينيا، شقيقة لينورا.

يشحب وجه كارتر وهو يتراجع مترنحًا كرجل أصابته رصاصة للتو.

- أنا... أنا لا أفهم.

أبدأ السير نحو السيارة وأنا أقول:

- اركب وسأخبرك.

لا يتحرك كارتر بينما أنزلق خلف عجلة القيادة وأدير المحرك. أتفهم صدمته، مثلما أتفهم بوضوح ضرورة مغادرتي هذا المكان قبل أن يتسبب في مزيدٍ من الضرر.

ليس لي فقط، بل لكارتر أيضًا.

أقول له:

- تعالَ معي. الليلة فقط. تعالَ معي وسوف...

لا أعرف ماذا سوف نفعله. أتخيل شيئًا ما. أتصور ريكاردو مايهيو يقول الشيء نفسه لآرشي منذ أربعة وخمسين عامًا، وهو يحث الرجل الذي أحبه على الهروب من هوبز إند.

بقي آرشي.

لم يبقَ كارتر.

من دون كلمة، يفتح باب السيارة ويقفز إلى جانبي. أضغط دواسة البنزين، ونمر معًا من خلال البوابة، تاركين هوبز إند خلفنا.

٤١

يقول كارتر:

- دعيني أتأكد بوضوح مما فهمته. مدام بيكر هي في الحقيقة لينورا هوب. ولينورا في الحقيقة هي ڤرجينيا هوب. وهي التي قتلت والديها؟

- صحيح.

كنا على الطريق منذ عشر دقائق، تمكنت خلالها من إخباره بكل ما عرفته طوال تلك الليلة الطويلة السريالية. لكنني أتفهم سبب حيرته. هذا كثير على استيعابه، خصوصًا عندما يعني أنه جاء إلى هوبز إند عبثًا.

- ولا أمت بصلة لأيٍّ منهما.

يقولها كارتر متنهدًا، مذعنًا لحقيقة أن عائلته الأصلية ستظل لغزًا.

- أنا آسفة. أعرف كم كنت تريد أن تعرف.

- ظننت أنني عرفت بالفعل.

يحدق كارتر خارج النافذة، مراقبًا أشجار الصنوبر القصيرة على الجروف وهي تمر بجوارنا ونحن نهبط إلى البلدة.

- بدا أن التوقيت متوافق تمامًا.

ما لم يضعه أيٌّ منا في الحسبان احتمالية الولادة المبكرة، التي عرفت خلال تدريبي على المساعدة الصحية أنها أكثر شيوعًا لدى الأمهات المراهقات. نتيجة

لذلك، من الأرجح أن يكون لڤرجينيا ابن يعيش في مكان ما في كندا، غافلًا عمن تكون أمه أو ما فعلته، وكارتر - الذي يعرف هاتين الحقيقتين - ما زال لا يعرف من تكون جدته الحقيقية.

وماتت ماري بسبب هذا - حقيقة رهيبة نُسيت مؤقتًا في ليلة مليئة بالحقائق الرهيبة.

أقول:

- لا أستطيع الكف عن التفكير في ماري. كيف قُتلت من دون أي سبب.

يُبعد كارتر نظرته عن النافذة ما يكفي من الوقت كي يقول:

- أما زلت تعتقدين أنها دُفعت؟

- ألا تعتقد ذلك؟

يتنهد مرة أخرى ويقول:

- لم أعد أعرف. لست حفيد لينورا... آسف... ڤرجينيا. لذا لا يوجد أي سبب كي يقتلها أي شخص بسبب ذلك.

أقول:

- لكنها عرفت كل الأسرار الأخرى عن ذلك المكان. هوية لينورا الحقيقية. جناية ڤرجينيا. حقيقة أن كلتيهما ظلتا تكذبان بشأن ذلك طوال عقود. أحس شخص ما بالحاجة إلى إيقافها قبل أن تتمكن من كشف كل هذا.

- إذن لا يتبقى إلا آرشي أو لينورا.

- ربما. لكني لا أعتقد ذلك.

لقد كشف كلٌّ من لينورا وآرشي كل أسرارهما الليلة. نعم، لقد أجبرت لينورا على ذلك عندما أخبرتها بأنني أعرف أنها ليست مدام بيكر حقًّا. لكن كليهما كان صريحًا بعد ذلك. فعلا ما وعدت ڤرجينيا بأن تفعله في ليلتي الأولى في هوبز إند - إخباري بكل شيء.

ما لم يفعلاه هو جعلي أقسم على إبقاء الأمر سرًّا أو تهديدي بأي شكل. لو كان أحدهما شديد القلق من معرفة ماري بالحقيقة إلى درجة أنه أحس بالحاجة إلى قتلها، فلماذا ما زلت أنا على قيد الحياة؟

لأنني لا أمثل لهما خطرًا.

وأشك في أن ماري كانت خطرًا كذلك.

لكنها كانت خطرًا لشخص ما.

تنزلق يدي اليسرى من فوق عجلة القيادة، تاركة لطخة من الدم، لزجة وساخنة. أستخدم يدي اليمنى للقيادة. ألقي نظرة على الجرح. ما زال ينزف وربما تلوث، لكني سأبقى على قيد الحياة.

لكن ينبغي أن تذاب تلك البوابة وتتحول إلى حديد خردة.

أمسح يدي في تنورة زيي الرسمي، غير عابئة بالبقعة التي ستتركها. لن أرتدي هذا الزي مرة أخرى. في الواقع، لن أكون حتى مقدمة رعاية أبدًا بمجرد أن يكتشف مستر جرلين أنني تركت العمل، وفررت من هوبز إند من دون حتى إغلاق البوابة اللعينة خلفي.

تخطر لي فكرة أخرى، عن مرة أخرى تُركت فيها البوابة مفتوحة.

أقول:

- اسمع يا كارتر. متى قلت إنك وجدت البوابة مفتوحة؟

- يوم ماتت ماري.

- قصدت اليوم. أي يوم من الأسبوع؟

- الاثنين.

- وأي وقت؟

- في الصباح. لماذا؟

لأن كارتر قال إنه افترض أنها تُركت مفتوحة بعد تسليم البقالة. لكن آرشي أخبرني بأن هذه الأشياء تصل يوم الثلاثاء. وهي حقيقة أكدتها كل تلك الإيصالات التي وجدتها تحت فراش لينورا.

هذا يعني أن البوابة فُتحت لسبب مختلف.

ليس للسماح لشخص ما بالدخول والمغادرة، لكن للسماح لشخص ما بالمغادرة والرجوع من دون أن يكتشف ذلك أحد. فعلت ذلك أنا نفسي في

وقت سابق الليلة. فتحت البوابة عندما غادرت متجهة إلى دار أوشن ڤيو للمسنين وتركتها على تلك الحال حتى لا أضطر إلى الاتصال بالمنزل الرئيسي للسماح لي بالدخول.

بما أن البوابة كانت مفتوحة صباح الاثنين، فمن المحتمل أنها كانت هكذا منذ الليلة السابقة.

أقول:

- استلم المعمل بالفعل عينة دمك، أليس كذلك؟
- بلى. سُحبت مني قبلها بأسبوع. كل ما كانوا بحاجة إليه عينة دم ڤرجينيا.
- التي كان من المفترض أن تحصل عليها ماري ليلة الاثنين من أجلك كي تأخذها إلى المعمل في اليوم التالي.

يقول كارتر مذكرًا إياي:

- وهو ما لم يحدث قَطُّ.

دخلنا البلدة، الشوارع التي عرفتها طوال حياتي مضاءة بوهج مصابيح الشوارع الكئيب. نمر بأوشن ڤيو، حيث تشاهد برنيس مايهيو على الأرجح التلفزيون في هذه اللحظة نفسها، وبعد ذلك نمر بوكالة جرلين لمقدمي الرعاية الصحية المنزلية. أنعطف يمينًا، متجهة إلى منزل أبي على مبعدة مربعين من المباني. على الرغم من أنه ينبغي لي أن أفكر فيما سوف أخبره به عندما أصل إلى هناك، فإن عقلي مشغول بشيء آخر.

- كم يستغرق الأمر لتحليل عينة دم؟

يقول كارتر:

- قرابة اليوم.
- إذن إذا أخذت العينة إلى المعمل، لنقل، ليلة الأحد، فسيحصلون على النتائج ليلة الاثنين؟
- أعتقد ذلك.

يرمقني كارتر من المقعد المجاور ويقول:

- لماذا تركزين على ذلك كل هذا التركيز؟

لأنه يبدو ما حدث بالضبط. غادر شخص ما هوبز إند ليلة الأحد، تاركًا البوابة مفتوحة حتى يتمكن من العودة من دون أن يدرك أحد أنه غادر. لاحظ كارتر البوابة المفتوحة صباح الاثنين. ثم تركها مفتوحة في الليل لأنه انتوى أن يذهب إلى المعمل مبكرًا يوم الثلاثاء. خلال ذلك الوقت، استطاع شخص ما أن يغادر ويعود مرة أخرى.

شخص مثل ماري.

عادت من المعمل ليلة الاثنين.

بنتائج تحليل دم أُجري على عينة أخذتها إلى هناك في الليلة السابقة.

أضغط على الفرامل، وتتوقف السيارة مع صوت احتكاك حاد في منتصف الشارع. ينظر كارتر إليَّ، وقد استندت إحدى يديه إلى لوحة التابلوه وجسده ما زال منقذفًا إلى الأمام بسبب التوقف المفاجئ.

- ماذا تفعلين؟

أقول:

- إنه أنت.

عندما دُفعت من فوق الشرفة، لم تكن ماري راحلة بحقيبة السفر التي احتوت على رزمة ورق كتبتها ڤرجينيا وعينة دم على وشك الاختبار.

كانت عائدة بالنتائج.

أقول:

- عرفتَ أن ڤرجينيا ليست جدتك. سحبت ماري عينة من دمها وأخذتها إلى المعمل قبل يوم. ولأن عينة دمك كانت قد حُللت بالفعل، استطاعوا أن يعرفوا بسرعة إن كان هناك توافق. ولم يكن. وعندما أخبرتك ماري بالنتائج، قمت أنت...

- بقتلها؟ ولماذا أفعل ذلك؟

لأنه أراد هوبز إند. لقد غيَّر مكان عمله، ومكان إقامته، وحياته كلها. كل هذا

بسبب احتمالية أن يكون على صلة بلينورا هوب سيئة السمعة ويمكنه ذات يوم أن يرث كل ما كانت تمتلكه. وعندما أخبرته ماري بأن الحال ليست كذلك، فعل ما بوسعه كي يخفي تلك الحقيقة.

أقول:

- أنت فعلتها. أنت قتلت ماري.

- هل أبدو لك قاتلًا؟

لا يبدو كذلك. لكن ڤرجينيا أيضًا لا تبدو قاتلة. لكنه مذنب مثلها. الاختلاف الوحيد بينهما أنها الآن لا ضرر منها.

لكن كارتر ليس كذلك.

ألقي نظرة إلى الشارع أمامي، موازنة بين خياراتي. يقع منزل أبي في مربع البنايات التالي. أستطيع أن أرى الوهج الدافئ لمصباح الشرفة الأمامية، يشير إليَّ مُرحِّبًا. أستطيع أن أجري نحوه وآمل ألا يلحقني كارتر، أو أستطيع أن أجبره على الخروج من السيارة والانطلاق بها بقية الطريق إلى المنزل. أختار الخطة ب. يبدو الوجود داخل السيارة أأمن رهان.

أدس يدي اليمنى في جيبي، وأتحسس داخله بحثًا عن فتاحة الزجاجات. أجذبها وأرفعها، موجهة طرفها الحاد نحو جنب كارتر. يراها ويرفع يديه.

- يا إلهي! كيت، لا حاجة بك إلى ذلك.

- اخرج من السيارة.

يُبقي كارتر يديه حيث أستطيع رؤيتهما، ويفك حزام مقعده ويجذب مقبض الباب المجاور له. ينفتح مطقطقًا، ومطلقًا صفير تحذير لأن السيارة ما زالت تتحرك. يقول:

- أنتِ ترتكبين خطأً. أقسم لك إنني لم أفعل ذلك.

- لا أصدقك!

يموج الغضب بداخلي، ويجعل دمي يضخ بقوة، إلى درجة أنني أحس بالجرح في يدي ينبض. لقد كذب عليَّ. مثلما كذبت عليَّ ڤرجينيا. يلسعني ألم خداعهما

المتشابه كأنه حرق من الدرجة الثالثة. أطعن الهواء بالفتاحة، مجبرة كارتر على الاقتراب أكثر من الباب المفتوح.

- من فضلك يا كيت!

أدفع الفتاحة مرة أخرى، مائلة هذه المرة إلى الأمام حتى يكاد طرفها يلمس عنق كارتر. يندفع خارج السيارة ويقف في الشارع، مناديًا لي وأنا أنطلق مسرعة، بينما باب مقعده يرفرف مثل جناح مكسور.

مدركة أنه ما زال في إمكان كارتر أن يلحقني، أتوجه نحو الفناء لا ممشى السيارات، وأصعد فوق الرصيف ثم أنزلق حتى أتوقف على مبعدة قدم واحدة من الباب الأمامي. أندفع خارجة من السيارة، وصوت وقع قدمَي كارتر العالي والسريع في الشارع ورائي.

ينادي:

- كيت، انتظري!

أفعل النقيض، فأجري إلى الباب الأمامي، وأفتحه بقوة، ثم أصفقه لينغلق خلفي. يصل كارتر إليه في اللحظة التي أدير فيها الترباس. يدق على الباب، متوسلًا إليَّ:

- كيت، من فضلك! لقد أسأتِ فهم الأمر كله.

أتراجع مبتعدة عن الباب، غير واثقة بما يجب أن أفعله بعد ذلك. أحتاج إلى هاتف للاتصال بالمحقق ڤيك، ومطهر وضمادة لاصقة من أجل يدي، وأن أجد أبي حتى أتمكن أخيرًا من كشف الحقيقة حول موت أمي.

أتوجه إلى غرفة المعيشة، متوقعة أن أجد أبي في مقعده الكبير الوثير، ساهرًا ينتظرني مثلما كان يفعل عندما كنت مراهقة. لكن مقعده خالٍ. وكذلك غرفة المعيشة. والمنزل كله، على ما يبدو.

- أبي؟

أتحرك عبر الصالة، إلى غرفة النوم التي كان يتشاركها فيما مضى مع أمي لكنه ينام الآن وحده. أتلصص من وراء الباب، وألمح حقيبة سفر على الفراش.

حقيبة لا تخصه.

أصغر من حقيبته البالية، التي أتذكرها في عدد كبير من الإجازات العائلية. وألطف أيضًا. جلد طبيعي أحمر غامق اللون مثل البراندي. عيبها الوحيد مقبض مكسور، يتدلى من الحقيبة، معلقًا من طرف واحد فقط.

تضيق رؤيتي، والظلام يتدافع من كل الجهات إلى أن يبدو كأنني أحدق عبر نفق قطار. لكن لا يوجد نور في نهايته. ليس إلا الحيرة وأنا أقترب من غطاء الحقيبة. ترتجف يدي بقوة حتى لا أكاد أقوى على رفعه لأفتحها.

وعندما أتمكن من ذلك أخيرًا، أرى أنبوبة اختبار داخلها عينة دم ورزمة من الأوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة. أطالع السطر الأول من الورقة الأولى.

أول ما أتذكره -- الشيء الذي ما زالت تنتابني الكوابيس حوله -- هو عندما انتهى كل شيء.

يخرج مني صوت نشيج مخنوق. لا أستطيع أن أسمعه لأن دقات قلبي تتعالى في أذنَي. صدمة. أشعر بقلبي ينفطر إلى درجة تجعلني مندهشة من قدرته حتى على النبض أصلًا.

لأنني أعرف ما فعله أبي ليحصل على هذه الحقيبة.

وأعرف السبب.

طوال عمري سمعته يشار إليه باسم بات.

لكن اسمه الحقيقي باتريك.

باتريك ماكدير.

لم يخطر لي أن النصف الثاني من اسمه يمكن أن يتحول أيضًا إلى كنية مختلفة.

ريكي.

جلس ريكي على أحد المقعدين الجلديين بجوار المدفأة. ووقف أبي إلى جوار المقعد الآخر، وولى ظهره نحو الباب. لم يلاحظني أي منهما وأنا أتسلل إلى الغرفة، والسكين اللامعة في قبضتي تتقدمني. لم يدركا وجودي إلا عندما قلت:

- أين طفلي؟

- رحل يا فرجينيا.

قالها أبي وهو ما زال موليًا ظهره لي، كأنني لا أستحق حتى عناء أن يلتفت إليَّ.

- أعده.

- فات الأوان على ذلك يا حبيبتي.

- لا تنادني بهذا الوصف!

رددت عليه بحدة، وقبضتي تلتف بإحكام حول السكين.

- إياك أن تناديني بهذا مرة أخرى! أخبرني الآن بما حدث لابني.

- أخذته الآنسة بيكر. ولن تعود.

- ماذا تقصد؟

- أنها رحلت إلى الأبد.

قالها أبي كأنها أكثر شيء منطقي في العالم.

- وافقت أن تغادر هوبز إند مع الطفل، وتجد له منزلًا جيدًا، ولا تتحدث عن هذه الواقعة مرة أخرى.

سرت في داخلي صدمة ألم ساخنة ولاذعة. أدركت أنه ألم الخديعة. شعرت وقتها بأنني شديدة الغباء. بأنني حمقاء تمامًا لأنني تصورت أن الآنسة بيكر تستحق الثقة بينما كل ما كانت تهتم به في الحقيقة نفسها.

- بكم؟

قلتها لأنني أعرف أن هناك ثمنًا.

- ليس بقدر ما يطلب باتريك هنا.

نظر أبي إلى ريكي وقال:

- ذكرت الاسم صحيحًا، أليس كذلك؟ باتريك ماكدير؟

ابتلع ريكي ريقه بصعوبة وأومأ براسه.

- مقابل خمسين ألف دولار، سيرحل السيد ماكدير، ولن يعود أبدًا، ولن يتحدث أبدًا عن طفله ابن الزنى. أليس كذلك يا بني؟

تمتم ريكي من دون أن ينظر إليَّ:

- بلى يا سيدي.

قلت لأبي:

- لقد جعلته يوافق على هذا.

واضفت موجهة كلامي إلى ريكي:

- قل له لا.

أخيرًا، التفت أبي، وتنقلت نظرته من جزء فيَّ إلى الآخر. من وجهي المحبط أولًا، إلى يدي حيث ظلت السكين مشهرة.

قال أبي وهو مستمر في التحديق إلى السكين:

- والآن يا فرجينيا، لا داعي إلى ذلك.

أبقيت نظرتي على ريكي وأنا أقول:

- قل له! قل له إنك تحبني وإننا سوف نهرب ونجد طفلنا وتكون لنا أسرة سعيدة.

قال أبي:

- لكنه لا يريد ذلك. هل تريده يا بني؟

- أنت تكذب.

والتفت إلى ريكي:

- قل لي إنه يكذب!

تهربت مني نظرات ريكي مرة أخرى. إلى المدفأة المطفأة، إلى يديه، إلى بساط جلد الحمار الوحشي تحت قدميه. إلى أي مكان إلاي.

تمتم:

- هو على حق يا جيني. آسف.

- هل ترين؟

كانت نبرة أبي متفاخرة على نحو صادم. أدركت أنه يستمتع بأسوأ لحظة في حياتي.

- أعرف أنك تتألمين الآن، لكن هذا لمصلحتك. أنت لا تريدين أن يشدك شخص تافه مثله إلى الحضيض بقية حياتك.

- لكن...

كان هذا كل ما تمكنت من نطقه. أخرستني الصدمة وكسرة القلب. لكني أدركت أنه ما زال بمقدوري أن أبوح بالكثير مستخدمة السكين في يدي.

حاولت أن أندفع نحوهما، غير عابئة بمن أجرحه فيهما ما دمت سألحق ألمًا بشخص ما. لكن قبل أن أتمكن من الخطو، أوقفتني قبضة رقيقة حول الذراع التي أمسكت السكين.

أمي.

لا شك أن أختي استدعتها.

على الرغم من أنني فوجئت لرؤيتها خارج الفراش وتسير وحدها في المنزل، فإنه لم يبدُ على أمي أي انزعاج لرؤيتي ممسكة بسكين. كانت منتبهة لأول مرة منذ أسابيع، وعرفت ما كان يدور بالضبط في قاعة البلياردو تلك.

- لا يا حبيبتي.

قالتها ويداها تنتزعان السكين من قبضتي بقوة مدهشة:

- لا يستحقان أن تدمري حياتك الشابة بسببهما.

تركتها تأخذ السكين من يدي وانهرت مستندة إليها أبكي. بالسكين في يد والأخرى تمسد بها شعري، خاطبت أبي:

- خمسون ألف دولار يا ونستون؟ لقد ارتفع سعرك. لو كانت ذاكرتي صحيحة، لم تعرض إلا خمسة وعشرين ألفًا كي تجعل الرجل الذي أحببته يرحل.

قال أبي من دون أي قدر من الرقة في صوته:

- لم يمنعه هذا من أخذه. تستطيعين ان تحاكميني على هذا كما تشائين -- وقد حاكمتني بالتأكيد لكنه كان افضل ما حدث لك. سمح لك ذلك بالزواج، والتظاهر بأن لينورا ابنتي، والحفاظ على سمعتك الغالية من دون أن تمس.

كسرت كلماته شيئًا ما داخل أمي. شاهدت هذا يحدث. أظلمت عيناها وتصلب جسدها. في وقفتها الصامتة بلا حراك، ذكرتني بساعة جدار توقفت بطريقة مقلقة في منتصف الليل.

لكن جزءًا صغيرًا منها ظل يتكتك. رأيت ذلك أيضًا. شيء ملفوف حول تروس عقلها، مستعد للقفز.

وقد قفزت.

نحو أبي.

والسكين في يدها.

ولم تتوقف إلا بعد أن غاص النصل عميقًا في جنبه.

لم يصرخ أبي حين غاصت السكين فيه. صرخت أنا بدلًا منه، أطلقت صرخة حادة تردد لها صدى جهنمي في أرجاء القاعة. كان ما زال بمقدوري سماعه عندما جذبت أمي السكين من أحشاء أبي.

قبض أبي على الجرح، والدماء تسيل من بين أصابعه وهو يتعثر على طاولة البلياردو.

قالت أمي لريكي بصوت وديع كصباح ربيعي:

- من فضلك أخرج ابنتي من القاعة. الآن.

قفز ريكي من المقعد وأمسك بيدي، على الرغم من أن آخر شيء أردته كان أن أشعر بلمسته. لكني كنت أكثر ذهولًا ورعبًا من فعل أي شيء إلا تركه يجذبني من القاعة، إلى الرواق، ونحو البهو.

قلت:

- هذا حلم، أليس كذلك؟

قلتها لنفسي أكثر مما كنت أتحدث إلى ريكي.

- مجرد حلم فظيع.

لكن كابوس اليقظة استمر إذ تردد صوت خرخرة وغرغرة من قاعة البلياردو. بعد لحظات قليلة خرجت أمي، وهي ما زالت ممسكة بالسكين التي استحال لونها الآن قرمزيًا. غطى الدم قميص نومها وتقاطر من يديها في كتل كبيرة تساقطت عبر أرضية البهو.

انتزعت نفسي من قبضة ريكي وجريت صاعدة الدرج الكبير، غير راغبة في شيء أكثر من أن أكون في فراشي بالطابق العلوي، وأنام بسرعة، لأستيقظ على يوم جديد لم يحدث فيه شيء من هذا. سارت أمي عدة خطوات متثاقلة، وهي تتحرك كأنها في حالة ذهول. ربما ظنت أنها في حلم أيضًا. حلم رهيب فظيع منقوع في الدماء.

لكن عندما صعدت أمي السلالم لتنضم إلى ريكي على البسطة، رأيت أن كل هذا حقيقي أكثر مما يجب، وأن الدماء التي تغطيها لم تكن دماء أبي فقط.

بل كانت أيضًا دماءها.

تمزُّق في نسيج قميص نومها كشف عن جرح غائر في بطنها. لحظة أن رأيته، عرفت أن أمي أعملت السكين أيضًا في جسدها.

صرخت وأنا أهبط السلالم جريًا مرة أخرى:

- أمي!

أوقفني ريكي، الذي كان ما زال على البسطة، بصوت أجش:

- لا تقتربي أكثر من ذلك يا جيني!

توقفت في منتصف الطريق إلى البسطة، متجمدة من الحيرة والخوف. راقبت ريكي وهو يقترب من أمي ويتناول السكين المنقوعة في الدماء من يديها.

همست أمي له:

- أرجوك، أرجوك ضع نهاية لبؤسي.

هز ريكي رأسه وقال:

- أنت لا تعنين ما تقولين.

ردت أمي بحدة:

- لا تقل لي ما أعنيه. أنت لا تعرفني. لا تعرف كم عانيت. ولن تعرف بالطبع. ما أنت إلا نذل قليل الحيلة عديم القيمة لن يرقى إلى أي شيء.

قال:

- لا تتكلمي عني بهذه الطريقة.

قالت أمي:

- لماذا؟ إنها الحقيقة، أليس كذلك؟ أنت جئت من العدم، وستعيش مع العدم، وستموت مع العدم. أنت شخص بلا قيمة.

تصلب جسد ريكي، وتشنج متوترًا.

- لست كذلك.

قالت أمي:

- إذن فلتثبت ذلك. كن رجلًا مرة واحدة وأثبِت أنك لست قطعة من...

من فوق السلالم، صرخت عندما رأيت حركة وامضة في يد ريكي.

السكين.

حدث الباقي بسرعة شديدة حتى إنني أتذكره بالكاد. هذه رحمة صغيرة. ما

أتذكره -- صوت السكين وهي تخترق جذع أمي، وسقوطها على البسطة -- مرعب بما فيه الكفاية.

عندما انتهى هذا، هبطت بسرعة على السلالم إلى جانب أمي. كان واضحًا أنها جرحت جرحًا قاتلًا. صار وجهها شديد البياض، وفاض الدم في كل مكان. تشرب به قميص نومي بينما أصرخ في ريكي كي يتصل بالنجدة:

- ساعدنا! أرجوك.

ظلت السكين في قبضة ريكي. حدق إليها لحظة غير مصدق قبل أن ينظر إليَّ وإلى أمي المحتضرة مباشرة. تمتم:

- أنا... أنا آسف. لم أقصد أن...

قلت بصوت هامس مبحوح:

- اخرج.

- إنها الحقيقة يا جيني. يجب أن تصدقيني.

- اخرج!

قلتها مرة أخرى، لكن هذه المرة بصوت هادر وليد الألم والغضب والخوف.

ألقى ريكي السكين وفر من الباب الأمامي إلى جوف الليل المظلم.

بعد دقيقة من رحيله، رحلت أمي أيضًا. كنت ممسكة يدها عندما شعرت بآخر رفة من نبضها. ظللت ممسكة بها حتى بعد أن بدأ جلدها يبرد، من دون أن أعرف ماذا يجب أن أفعله غير ذلك. مات أبواي. اختفى طفلي. فر الرجل الذي أحببته يومًا ولم أعد أحبه. كيف من المفترض أن يستمر المرء في الحياة بينما لم يبقَ لديه شيء؟

الشيء الوحيد الذي أبعدني عن جثة أمي هو السكين التي قتلتها. كانت لا تزال على بلاط البهو، عاكسة الضوء بطريقة بدت كأنها استهزاء.

بدا أنها تقول:

- استخدميني. هذا ما يجب أن تفعليه الآن. ها هي ذي مخرجك.

ذهبت إليها، والتقطتها، وفكرت في غرزها في قلبي. توقفت قبل أن أفعل

ذلك، خوفًا من أنه في اللحظة التي سيخترق النصل فيها صدري، لن يكون قد تبقى قلب له كي يطعنه.

بدلًا من ذلك، خرجت إلى الشرفة، وتقاذفتني الريح والمطر المنهمر، وألقيت السكين في المحيط. إن شيئًا قادرًا على كل هذا العنف يستحق أن يكون في مكان لا يستطيع أن يجده فيه أحد.

لكنني كنت لا أزال راغبة في إنهاء حياتي. لا، ليس الأمر كذلك. بدا كأنني يجب أن أنهي حياتي. بالنسبة إليَّ، بدا أنها انتهت بالفعل. كل تلك الآمال والأحلام التي حملتها بالقرب من قلبي ضاعت مع كل شيء آخر. ومكانها أصبح هناك خواء مظلم اعتقدت أنني لن أهرب منه ما حييت. ربما كان جسدي حيًّا، لكن روحي كانت ميتة.

أسرع وأسهل شيء كان إلقاء نفسي من الشرفة. لكن عندئذ سأضيع مثل السكين التي قذفتها للتو في الأمواج. أردت أن يعثر الناس عليّ، حتى يفهموا عمق يأسي.

قررت أن أذهب إلى الجراج، حيث كنت أعرف ان هناك حبلًا مخزونًا فيه. تناولت قطعة طويلة منه وحملتها عائدة إلى الداخل، إلى قاعة الرقص. اخترت هذه القاعة لأنها بدت الأشبه بي. جميلة، نعم، لكنها خاوية أيضًا ومهملة.

في المطبخ، سمعت لينورا في الهاتف تتصل بالشرطة في جنون. كان ينبغي أن أضع في حسباني كم ستؤثر فيها أحداث الليلة. كانا والديها أيضًا. على الأقل أمي كانت أمها. وأنا أختها. لكني بشكل أناني لم أتوقف قَطُّ كي أفكر إن كانت ستقيم الحداد عليهما أم عليَّ. وانطبق الأمر نفسه على آرشي، الذي كنت أعرف أنه سيفتقدني بعمق.

انتفت كل الأفكار من عقلي وأنا واقفة على كرسي بعد أن ألقيت الحبل حتى التف عدة مرات حول إحدى أذرع الثريا. ثم عقدته حول عنقي على أفضل نحو استطعته.

بعد أن جذبته مرة واحدة لأتأكد أن الحبل لن ينفك من الثريا، أغلقت عينَي، وأخذت ما اعتقدت أنه نفسي الأخير، وقفزت من فوق الكرسي.

وتلك هي القصة كاملة يا ماري.

ليس ما توقعته، أليس كذلك؟ وليس ما توقعته أنا أيضًا. والآن بعد أن صارت في حوزتك، افعلي بها ما تشائين. أخبري العالم. أو لا تخبري أحدًا.

هي بين يديك الآن.

لكن أملي أن تشاركيها مع شخص ما، أن تنتشر في كل مكان، وأن يصل خبر منها بطريقة ما إلى ابني، حيثما كان، وربما يجتمع شملنا لوقت قصير.

٤٢

تملأ الدموع عينَي، لتصعب الرؤية وأنا أقود سيارتي عائدة إلى هوبز إند. أحكم قبضتي على عجلة القيادة، كأن هذا سيعوض عن رؤيتي المشوشة. أفكر لحظة أن أحاول ألا أرى على الإطلاق. وبهذه الطريقة ربما أنحرف عن الطريق وأسقط من فوق المنحدر إلى جوف المحيط، ومن ثَمَّ أتجنب مواجهة أبي. فكرة مغوية، في ضوء كل ما أعرفه الآن.

لكن هذا سيجعلني مثل ڤرجينيا تمامًا.

أحاول قتل نفسي بسبب شيء فعله أبي.

لكنها بقيت على قيد الحياة.

وأنا أنوي أن أفعل مثلها.

ليست لديَّ خطة فيما يجب فعله عندما أصل إلى هوبز إند. لست واثقة حتى إن كان أبي قد ذهب إلى هناك، على الرغم من أن الاحتمالات تؤكد ذلك. في الهاتف، أفشيت له أن ڤرجينيا ما زالت على قيد الحياة، لأقوده من دون أن أقصد إليها مباشرة.

أمسح عينَي، وأقبض بإحكام أكبر على عجلة القيادة، وأضغط أكثر على دواسة البنزين، دافعة سيارتي الإسكورت المجلجلة إلى ارتفاع أكبر داخل منطقة المنحدرات. وبينما أقود، أستمر في إبقاء عينَي على الطريق بحثًا عن كارتر، تحسبًا لأن يكون قد قرر العودة سيرًا في الطريق الطويل إلى هوبز إند.

بمجرد أن مرت الصدمة الأولى لإدراك أن أبي هو من قتل ماري، جريت إلى الباب الأمامي، على أمل أن أجده هناك. لكن كارتر كان قد مضى. مسألة أنني كنت مخطئة بشأنه، وأنني تماديت إلى درجة إجباره على النزول من السيارة، من أكثر الأفعال التي ندمت عليها الليلة.

من الأشياء الأخرى التي أشعر بالندم عليها القراءة السريعة للصفحات المطبوعة التي وجدتها في حقيبة ماري. هي أكثر بكثير مما استطعت أن أكتبه أنا وڤرجينيا. كانت هذه بالفعل القصة الكاملة. قصة لم أستطِع التوقف عن قراءتها حتى عندما جعلتني أشعر بالدوار والأسى.

أفهم الآن لماذا كانت ڤرجينيا مترددة هكذا حيال كشف كل شيء. لم ترغب في أن تكون الشخص الذي أخبرني بحقيقة أبي.

وما فعله.

جعل ڤرجينيا تحبل. وقبِل مبلغًا من المال كي يرحل إلى الأبد بعيدًا عن ونستون هوب. طعن إيڤانجلين هوب من منطلق مزيج من الغضب والشفقة. قتل ماري لأنها عرفت كل هذا.

هذا هو أصعب جزء في التعامل معه: حقيقة أنه ما زال قادرًا على القتل. لا أستطيع التوقف عن تخيُّله في ظلال القصر كامنًا، مهاجمًا في اللحظة التي رأى فيها ماري تتسلل عبر الشرفة. أعرف أنها كانت في طريقها لرؤية كارتر، بسبب قارورة دم ڤرجينيا التي وجدتها في الحقيبة أيضًا.

انتزعها أبي منها، ودفع ماري، وشاهدها وهي تنقلب من فوق السياج وتسقط في الهاوية من ورائه.

أخشى أن تكون ڤرجينيا هي ضحيته التالية.

خصوصًا بعد أن أصل إلى هوبز إند وأرى سيارة أبي النقل الصغيرة مصفوفة إلى جوار البوابة التي ما زالت مفتوحة. لا يغيب عني سبب اختياره أن يقطع بقية الرحلة على قدميه. فمن الأفضل أن يتسلل إلى المنزل من دون أن يكتشفه أحد، وهو ما فعله على الأرجح ليلة مقتل ماري.

أما أنا، بما أنني لا أملك سببًا للوصول في هدوء، فأستمر في القيادة.

أتجاوز البوابة.

وأقطع ممر السيارات.

إلى الباب الأمامي لهوبز إند، حيث يقف آرشي وقد سُلطت عليه أضواء مصابيح السيارة الأمامية كأنه ممثل على خشبة مسرح. يرتسم الارتياح على ملامحه عندما يراني أنزل من السيارة.

يقول في همس متعجل:

- أحدهم هنا. رأيته يسير في ممر السيارات.

- هل تعرف أين هو الآن؟

يهز آرشي رأسه.

- حسنًا، أعرف إلى أين يتجه.

- من يكون؟

- ريكي...

وأسكت قليلًا، متخوفة من إثقال كاهله بالحمولة الزائدة من المعلومات نفسها التي عانيتها عدة مرات الليلة، قبل أن أكمل:

- وهو أبي أيضًا.

قبل أن يتمكن آرشي من إبداء أي رد فعل، أدس مفاتيح سيارتي في يده.

- قُد السيارة إلى البلدة. اذهب إلى الشرطة واسأل عن المحقق ڤيك. سيعرف ما يجب فعله.

- لكن ماذا عنك؟

أبدأ في صعود الدرجات المؤدية إلى الباب الأمامي:

- سأكون بخير.

لا أخشى أن يلحق أبي أذى بي. لا أعتقد أنه سيبلغ هذا الحد. أضِف إلى ذلك أنه، باستثناء قتلي، لا يستطيع أن يؤذيني أكثر مما آذاني بالفعل. ڤرجينيا هي من أخاف عليها. هي عاجزة تمامًا - وهي طرف العقدة الوحيد الذي يحتاج إلى ربطه.

خطتي، التي تشكَّلت للتو واللحظة، أن أتأكد من وجود ڤرجينيا في أمان ثم أصرف انتباه أبي عن إيذائها لأطول وقت ممكن حتى يظهر المحقق ڤيك. وبينما ينطلق آرشي مبتعدًا بسيارتي، أندفع داخل هوبز إند، حيث يوشك ماضي ڤرجينيا وحاضري أن يتصادما.

أقف في البهو، وأبحث عن علامات وجود أبي. من الممكن أن يكون في أي مكان، ومن ضمن ذلك أن يكون في الخارج. على الرغم من ذلك، أستطيع الشعور بوجوده. نسخة شبحية منه، تكرر أفعاله منذ أربعة وخمسين عامًا.

يقف حيث أقف تمامًا.

يغلي بالذل والخزي والغضب.

يغرز السكين في صدر إيڤانجلين هوب.

الصوت واضح جدًّا حتى أكاد أسمعه، كأن الصوت الرهيب ظل يتردد صداه في البهو منذ عام ١٩٢٩.

ما لا أسمعه هو أي أصوات من اليوم الحالي. لا وقع أقدام ولا صرير أرضيات. قد يكون هذا شيئًا جيدًا.

وقد يعني أيضًا أنني تأخرت أكثر مما يجب.

تدفعني تلك الفكرة إلى عبور الصالة إلى المطبخ وسلم الخدم. لا أستطيع تحمُّل فكرة أن أصعد الدرج الكبير، ببقع الدم عليه التي سببها أبي. لا يعني هذا أن سلم الخدم أفضل. أنينه تحت قدمَي وأنا أصعده يبدو كأنه سينهار في أي لحظة. احتمالية بارزة. أعلى السلم، أشعر على الفور بميل المنزل الحاد. لقد ساء الوضع في الوقت القصير الذي غبت فيه.

أتسلل عبر الرواق، منحنية مع الميل. في طريقي أمد يدي داخل جيبي وأُخرج فتاحة الزجاجات. تصرُّف يربك عقلي. هذا أبي. الرجل الذي رباني. لا أستطيع تخيُّل الاحتياج إلى حماية نفسي منه. لكن في ظل هذه الظروف، يبدو الأمر ضروريًّا.

بدلًا من التوجه رأسًا إلى غرفة ڤرجينيا، أدلف إلى غرفتي، مفزوعة من مقدار

الاختلاف الذي بدت عليه. الأرضية أكثر ميلًا بشكل ملحوظ، الأمر الذي يجبرني على التفكير مرتين قبل كل خطوة. في طريقي إلى الباب المشترك، ألاحظ المرتبة متكومة عند طرف الفراش. سقطت بضعة كتب من الرف، وتبدو المرآة المعلقة على الجدار مائلة، بينما في الحقيقة بقية الغرفة هي المعوجة.

الباب المؤدي إلى غرفة ڤرجينيا مغلق. سنرى إن كان هذا بفعل أبي أم المنزل المتقلقل باستمرار. أقبض على فتاحة الزجاجات بإحكام، وأفتح الباب فتحة صغيرة وأسترق النظر إلى الداخل.

الغرفة كابية، لا ينيرها إلا سنا القمر الآتي عبر النوافذ المائلة على نحو أقرب إلى البحر بشكل ينذر بالخطر. في ذلك الضوء الكابي، أرى ڤرجينيا في فراشها، مستيقظة ومنتبهة.

أندفع إلى جانبها وأهمس:

- أبي في طريقه إلى هنا.

تعرف أنني أتحدث عن ريكي.

لقد عرفت منذ لقائنا الأول، عندما لم تلاحظ وجودي تقريبًا إلا عندما أخبرتها باسمي كاملًا. عندها انتبهت لي أخيرًا.

- سوف أُخرجك من هنا.

أضع فتاحة الزجاجات على الطاولة المجاورة لفراش ڤرجينيا، وأُحضر كرسيها المتحرك من الركن. على الرغم من أنه سيكون من الأسرع رفعها من الفراش وحملها نزولًا على الدرج، أعرف حدود قدرتي. الخيار الوحيد أمامي هو النزول بها فوق الكرسي المتحرك على الدرج الكبير بالطريقة نفسها التي فعلتها خلال رحلتنا المشؤومة إلى الخارج.

بعد رفعها من تحت إبطيها، أتمكن من إخراجها من الفراش وقطع نصف الطريق نحو الكرسي المتحرك قبل أن أسمع صوتًا في الرواق. تسمعه ڤرجينيا أيضًا، وتندُّ عنها نظرة مفزوعة مصدومة. كلتانا تدرك ماهية الصوت.

وقع أقدام.

تصعد سلم الخدم.

ببطء.

بتردد.

لحظة أسمعها، أعرف أنها خطوات أبي.

أتجمد لحظة. لا أعرف ماذا أفعل. حتى لو أجلست ڤرجينيا على الكرسي المتحرك قبل أن يدخل أبي الغرفة، سيلمحنا بالتأكيد عندما أحاول أن أدفعها إلى الخارج. لكن البقاء في مكاننا فكرة سيئة أيضًا. أقف ممسكة بڤرجينيا منتصبة، ولا أستطيع فعل شيء لحمايتها أو حمايتي. حياتها بين يدَي حرفيًّا.

تومئ ڤرجينيا برأسها نحو ركن الغرفة، في مساحة دامسة السواد بين الجدار والأريكة. على الرغم من أنها مساحة تتسع بالكاد لڤرجينيا، فإنها قد تكون كافية لإخفائها لو اكتفى أبي بالنظر داخل الغرفة وتابع طريقه. كما أنها خيارنا الوحيد مع تعالي صوت خطواته على سلم الخدم بصريره.

أجرُّ ڤرجينيا إلى المساحة القريبة من الجدار وأضعها هناك. ثم أعدو نحو مخبئي - غرفة نومي. أتكوم هناك في ركن تكتنفه الظلال، على أمل أن يكفي أيضًا لبقائي مخفية. من خلال الباب المشترك المفتوح، أستطيع رؤية ڤرجينيا على البلاط بجوار الأريكة. هي أيضًا في الظل، لكنها ليست مخفية تمامًا. ليست مخفية على الإطلاق.

أسمع صوتًا من الرواق، خلف باب غرفة نومي مباشرة.

أبي يعبر في طريقه إلى غرفة ڤرجينيا.

بالطبع يعرف أين تقع.

لقد أتى إلى هنا من قبل.

عندما يدخل غرفتها أخيرًا، أضطر إلى إطباق يدي على فمي لأمنعه من الصراخ. طوال هذا الوقت كنت أتمنى سرًّا أن أكون مخطئة، ألا يكون هو، أنه على الرغم من حقيبة ماري وتلك الأوراق المطبوعة، قد يكون الأمر غير صحيح.

لكن وجوده يمحو كل شك.

يعثر أبي على ڤرجينيا فورًا. الأمر ليس صعبًا. ساقاها، غير القادرتين على الحركة وحدهما، تبرزان من الركن المظلم الذي وُضعت فيه.

يقول:

- أهلًا جيني. لقد مر زمن طويل.

صوته هادئ، دافئ، مغازل لاهٍ. صوت رجل يرى حبًّا ضاع منذ زمن بعيد. في ظل ظروف مختلفة، قد يحسبه المرء موقفًا رومانسيًّا في الأغلب. لكنه الآن، موقف يبعث القشعريرة.

يقول:

- دعينا نرفعكِ من فوق الأرض.

ينحني أبي، ويرفع ڤرجينيا بين ذراعيه، ويحملها إلى الفراش. كان يفعل الأمر نفسه لأمي في أيامها الأخيرة، لينقلها برفق من أريكة غرفة المعيشة إلى غرفة نومهما. ينخلع قلبي وأنا أشاهده يفعل ذلك الآن مع ڤرجينيا. ويزيد الأمر سوءًا معرفة أن هذا الحنان يأتي من رجل قادر أيضًا على أفعال رهيبة.

يقول وهو يضعها في الفراش:

- ما زلتِ تعرفين كيف تفاجئين المرء يا جيني. أقر لكِ بذلك.

يجلس أبي بهدوء على طرف الفراش، ولدهشتي يأخذ يد ڤرجينيا في يده. يمناها.

أحبس أنفاسي، منتظرة أن يقول لي إنه يعرف أنني هنا وإنه يجدر بي أن أخرج من الظلام. لكنه يكتفي بالحديث إلى ڤرجينيا.

- طوال هذه السنين ظننتك ميتة. مشنوقة بحبل. أليس هكذا سار الأمر؟ بخلاف الجميع، كنت أعرف أن لينورا لم تفعلها. كنت أعرف أنكِ فعلتها بنفسك. في كلتا الحالتين، كنت ميتة على أي حال. لذلك لم أغادر البلدة قَطُّ. لم أشعر قَطُّ بالحاجة إلى الاختفاء. وبالطبع لم أعتقد أنني مضطر إلى القلق بشأن أن تخبري أحدًا بما حدث حقًّا. لذلك بقيت. بدأت مشروعي الخاص. قابلت امرأة رائعة. أنجبت ابنة.

تسري البرودة في دمائي عندما يقول عبارته الأخيرة.
هو يعرف أنني هنا.
وهو يُذكرني الآن بأي جانب يفترض أن أنحاز إليه.
يقول لڤرجينيا:
- شعرت بالأسف تجاه ما جرى. مهما كان، فقد أحببتك. على الأقل، اعتقدت ذلك. ونويت أن أفعل ما هو صواب من أجلك. لكننا كنا صغيرين جدًّا، وكنت خائفًا جدًّا. عندما أخبرني أبوك بأن الطفل اختفى وعرض عليَّ ذلك المال، كل ما شعرت به هو الارتياح. أخيرًا ظهر مخرج للموقف، على الرغم من أنني عرفت أنه سيؤلمك. وأفكر فيه أحيانًا؛ ابننا. أفكر فيه وأتمنى أن يكون بخير. لا أعتقد أن هذا كان سيحدث لو بقينا معًا. لم يكن ذلك ليدوم يا جيني. كنا مختلفين أكثر مما يجب.
يضغط أبي على يد ڤرجينيا برفق، كأنه يؤكد على وصول مقصده إلى غايته.
- أما عن أمك، فلم أقصد أن أُوذيها يا جيني. أقسم على ذلك. لكن شيئًا ما بداخلي انفجر ولم أستطِع السيطرة عليه. لقد فكرت في تلك الليلة كثيرًا. لا يمر يوم من دون أن أندم على ما فعلته. لكنني تعلمت أن أتعايش معه. وعرفت أنه على الرغم من ضخامة الخطأ، فلن أعاقَب عليه. ثم أتت ممرضتك تلك إلى المنزل تسألني إن كنت أوافق على إجراء اختبار دم.
أتمكن بطريقة ما من كتم شهقتي. لكنها تستقر مثل فقاعة في مؤخرة حلقي. أبتلعها بينما يخيم فوقي ما أثارته من إدراك.
لقد أتت ماري إلى منزلنا.
ذلك هو المكان الذي توجهت إليه ليلة الأحد تلك. ليس إلى المعمل، لكن كي ترى أبي.
وكنت هناك وقتها.
كانت المرأة التي سمعتها تتحدث إلى أبي. لم تكن خليلة أراد ألا يحدثني

عنها. لكن ماري، تحمل سرًّا أكبر. وعندما سمعته يتسلل خارجًا في الليلة التالية، كان في طريقه إلى هنا في الحقيقة.

يكمل أبي:

- أخبرتني بأنها عرفت أنني كنت أعمل في هوبز إند عندما كنت في السادسة عشرة من عمري. عرفت أنني أقمت علاقة مع ڤرجينيا هوب وأنني والد طفلها، الذي أُبعد عنها لكن قد يكون لديه ابن من صلبه يريد أن يعرف الآن من هما جدَّاه الحقيقيان. عندئذ أدركت أنكِ ما زلت على قيد الحياة. الشخص الوحيد الذي كان في إمكانه أن يعرف كل هذا منه هو أنت. يا إلهي! كان ينبغي لك أن تريها. مغرورة جدًّا. تتصرف كأنها شديدة الذكاء. لكنها لم تعرف نصف الحقيقة.

- لكنني أعرفها كلها.

على عكس الشهقة، لم أستطِع منع نفسي من قولها. أعرف أكثر مما يبقيني مختبئة وسمعت أكثر مما يبقيني صامتة. عندما أخطو من غرفتي إلى غرفة ڤرجينيا، أرى يدَي أبي تتحركان نحو عنقها وتضغطان عليها ضغطة خفيفة. يقول:

- قفي مكانكِ يا كيت كات. لن أُوذيكِ. وأعتقد أنك تعرفين ذلك. لكنني سأوذيها إذا اقتربتِ أكثر من ذلك.

منظر يديه - الكبيرتين والقويتين للغاية - حول عنق ڤرجينيا يوقفني في مكاني شاعرة بالبرودة. لكنني لا أظهر الخوف. بمقدورك أن تحس بخوف الآخر. هكذا علمني.

أقول:

- لا داعي إلى أن يتأذى شخص آخر يا أبي. تستطيع أن توقف هذا.

يلتفت أبي إليَّ، مظهرًا النظرة نفسها التي رأيتها ذلك الصباح عندما ظهر ذلك المقال عني في الجريدة. نظرة ألم وخديعة وخزي.

- لست واثقًا بقدرتي على ذلك يا كيت كات. لقد غصت إلى عمق بالغ الآن.

- لماذا قتلت ماري؟ إن كانت لم تعرف كل شيء، لماذا قتلتها؟
- لأنها عرفت ما يكفي. ليس الجزء الخاص بالقتل. لو عرفت، فهي لم تذكر شيئًا عنه.

يلتفت أبي من جديد إلى ڤرجينيا ويكمل:

- لقد أنهيتِ بقية القصة عندما عادت بعد أن طلبت مني أخذ عينة الدم. أعرف هذا لأنني قرأت عنه بعد ذلك. كتبتِ كل هذه الصفحات؟ قرأتها كلها. أنتِ كاتبة مجيدة حقًّا يا جيني. كاتبة مبشرة. لكن لم يكن ينبغي لك أن تخبريها بكل شيء. لم يكن ينبغي أن تخبريها باسمي اللعين. لكن حتى قبل ذلك، عرفت أنها تمثل عقبة. لذلك قلت إنني سأقوم باختبارها الغبي لدمي، لكن ليس في المنزل. ليس وابنتي موجودة. قلت لها إنني سآتي إلى هنا، إلى هوبز إند، متأخرًا في الليلة التالية وأنها ينبغي أن تترك البوابة مفتوحة. ثم انتظرت في الموضع نفسه الذي قابلتكِ فيه أول مرة يا جيني. وعندما رأيت ماري تسرع عبر الشرفة مع تلك الحقيبة، فعلت ما كان يجب أن أفعله.

أقول:

- والآن؟ ما الذي تخطط لأن تفعله الآن؟
- لا أعلم.

يقولها أبي حتى وهو يُحكم يديه حول عنق ڤرجينيا.

- لا أعرف بصراحة.
- إذن توقف يا أبي. أرجوك.
- لا أستطيع.

يبدأ أبي في اعتصار عنقها.

- لا أستطيع المخاطرة بأن تخبر أحدًا آخر.
- لن تفعل. لا تستطيع.

يتجاهلني أبي.

يهمس أبي بينما عينا ڤرجينيا تجحظان وتدمعان، وتصدر أصوات مختنقة من عنقها:

- أنا آسف يا جيني. أنا آسف جدًّا.

- توقف يا أبي!

ألقي بنفسي عليه، محاولة أن أوقفه. حتى في سن السبعين، لديه ما يكفي من القوة لإبعادي بذراع واحدة. أتعثر متراجعة في كرسي ڤرجينيا المتحرك، ويسقط كلانا. من موقعي متمددة على الأرضية، أرى أبي يرجع بيديه إلى عنق ڤرجينيا.

يحكم الخناق.

ويعتصرها.

ثم ألاحظ يدَي ڤرجينيا.

اليمنى تستقر على الفراش مشلولة.

واليسرى تحمل فتاحة الزجاجات، التي تناولتها من فوق طاولة الفراش.

بكل ما لديها من قوة، تهوي ڤرجينيا بها نحو أبي، وتشق فتاحة الزجاجات الهواء قبل أن تنغرز مباشرة في جانب بطنه.

يصرخ أبي متألمًا بينما يداه تسقطان عن عنق ڤرجينيا. يطرق ناظرًا إلى جنبه، حيث تبرز فتاحة الزجاجات من جذعه. تحيط بها بقعة داكنة بينما يتشرب قميصه الدماء.

قبل أن يتمكن من الإمساك بها، أنهض وأمد يدي وأجذب المقبض. أنتزع الفتاحة التي تنزلق خارجة من لحمه مع دفقة من الدماء. ألوح بها كأنها مطواة، وأقول:

- لا تلمسها مرة أخرى.

يضغط أبي بيد على الجرح. إصابته واضحة، لكنها ليست سيئة. هو حتى يطلق ضحكة حزينة ويقول:

- أعتقد أنني أستحق ذلك.

أقول:

- نعم.

مصدومة كيف لكلمة واحدة أن تحوي ستة أشهر من المرارة وخيبة الأمل.

- لو كنت أبًا أفضل، لما أتيتِ إلى هنا. لما قابلتِ جيني. لما عرفت شيئًا عن كل هذا.

- لقد دفعتني بعيدًا.

أحاول أن أخفي حزني، لكنه يتجلى على أي حال، ليصبغ صوتي بعاطفة مكسورة:

- احتجت إليك يا أبي. عندما ماتت أمي، \احتجت إليك وحق اللعنة! لأن ما حدث مع أمي كان فظيعًا. لكن...

أسكت، غير واثقة إن كان بمقدوري أن أنطق الكلمات التي يجب أن تقال.

حتى الآن.

حتى هنا.

- لكنك كنت محقًّا في الشك فيَّ. لقد تركت تلك الأقراص في متناولها. على الرغم من أن أمي أقسمت إنها ستتناول واحدًا فقط، كنت أعرف أنه من المحتمل أن تتناولها كلها.

- لا، لا تقولي هذا يا كيت كات.

- لكنها الحقيقة.

- لا. لا ينبغي أن تلومي نفسك. إنه خطئي. لم يكن ينبغي لي أن ألقي ذلك العبء عليك. لم يكن ينبغي لي أن أترك الأمور تصل إلى ذلك الحد. كان ينبغي أن أتقدم وأوقف الأمر كله بمجرد ظهور ذلك المقال في الجريدة.

فجأة، لا أجد نفسي في هوبز إند. يختفي المكان اللعين كله من ناظريَّ بينما أرجع في ومضة سريعة إلى المنزل، حيث أبي جالسًا إلى طاولة المطبخ، والجريدة في يده. يرفع إليَّ عينين دامعتين ويقول:

- ما يقولونه ليس صحيحًا يا كيت كات.
لم يقلها لأنه أرادها أن تكون الحقيقة.
قالها أبي لأنها كانت الحقيقة.
كان يعرف أنني لم أُعطِ أمي تلك الأقراص.
لأنه هو من أعطاها إياها.

٤٣

صدمة ويأس.

هذا هو كل ما أشعر به.

ليس غضبًا. ليس أسى. فقط هذان الحدَّان المتطرفان من الصدمة واليأس، يتغذى أحدهما على الآخر، ويتحولان إلى شعور لا أستطيع أن أصفه لأنني لم أشعر به من قبل، وأدعو الله ألا يضطر أحد غيري إلى الشعور به. أحس كأن كل جزء مني – الدماغ، القلب، الرئتان – قد انتُزع من جسدي ليتركني كيانًا أجوف.

معجزة أنني ما زلت واقفة.

لا أستطيع التفكير.

لا أستطيع الكلام.

لا أستطيع الحركة.

أبي، الذي ما زال يتمتع بنعمة هذه الملكات جميعًا، يخطو نحوي، بذراعين مفرودتين، كأنه يريد أن يعانقني لكنه يعلم أنني سأتهشم لو فعل.

يقول:

– أنا آسف يا كيت كات. أعرف أنكِ كنت تريدين مزيدًا من الوقت معها. وكنت أريد ذلك أيضًا. لكنها كانت تتعذب كثيرًا. كل ذلك الألم. فهمت لماذا تركت تلك الأقراص هناك من أجلها. لأنه لم يَعُد بمقدورك أن

تتحملي مزيدًا من عذابها. لم يَعُد بمقدور أحدنا. لذلك قررت أن أنهي الأمر.

لا أريد أن أسمع. لكن على الرغم من أن كل الوظائف الحيوية تخذلني حاليًّا، فإنه لم يبقَ إلا السماع. لا أملك خيارًا إلا استيعاب كل كلمة يقولها.

- لم أجبر أمك على ابتلاع الأقراص. تناولتها بإرادتها. عرف كلانا أن هذا أفضل لها. ما لم أقصده - ما لم يقصده كلانا - أن يقع اللوم عليك. وعندما حدث ذلك، لم أعرف ماذا أفعل. لكن صدقيني عندما أقول إنني لم أكن لأسمح لريتشارد ڤيك بالقبض عليكِ يا كيت كات. أقسمت أن أسلم نفسي لو وصل الأمر إلى ذلك الحد. لكنه لم يصل إليه قَطُّ. لذلك بقيت هادئًا، لأنني عرفت أنكِ ستكرهينني لو عرفتِ.

وأنا أكرهه.

شعور ثالث أخيرًا، شعور يتغلب على صدمتي ويأسي. يخبو هذان ليتحولا إلى صوت في الخلفية بينما تسود الكراهية الموقف. لكنها نوعية جريحة من الكراهية. نوعية خام وحارقة. كأنني من طُعن للتو.

لا أستطيع أن أجزم ما الذي يؤلمني أكثر: أنه وأمي قررا أن ينهيا حياتها من دون إخباري، ومن ثَمَّ أنكرا عليَّ فرصة أن أودعها، أو حقيقة أنه ظل صامتًا عندما أتت الشرطة من أجلي، وعندما حققت معي سلطات الولاية، وعندما أوقفت عن العمل.

يقول أبي:

- لذلك لم أستطِع الحديث معكِ بعدها. كان من الصعب جدًّا النظر في عينيك، وأنا أعرف ما فعلت، وأعرف أنني كنت سبب معاناتك.

بطريقة ما، أجد صوتي:

- لكنك رفضت إيقافها. فقط تركت الجميع يعتقدون أنني قتلت أمي. الأسوأ من ذلك، أنك تركتني أنا نفسي أعتقد ذلك.

يقول أبي:

- لم يكن ينبغي لي ذلك. كنت مخطئًا.

يخطو نحوي خطوة أخرى، ويجفل عندما يلمس جنبه. في أي لحظة أخرى، كانت غريزة تقديم الرعاية لديَّ ستنطلق. كنت سأفحص الجرح، وأحاول أن أنظفه، وأجد شيئًا لإيقاف النزيف. لكنني أبقى بلا حراك. جرحه لا يمثل شيئًا مقارنة بجرحي.

لعلِّي كنت سأبقى هكذا إلى الأبد لولا صوت يتناهى من الرواق.

طقطقة حادة بينما تنتهي لينورا هوب من حشو بندقيتها قبل أن تدخل غرفة النوم. لدى سماعه ذلك، يرفع أبي يديه ويلتفت ليواجهها. يقول:

- أهلًا لينورا.

تصوب لينورا ماسورة البندقية إلى صدره وتقول:

- من أنت؟ لماذا أنت هنا؟

- أنا باتريك.

على عكسي، تربط لينورا بسهولة بين اسم أبي والفتى الذي أحبته أختها منذ كل تلك السنين. بل يتكشف لها، بعد عقود كثيرة، أنه وليس ڤرجينيا المسؤول على الأقل عن بعض العنف الذي أودى بحياة والديها. تقول:

- كنتَ أنت...

يرد أبي بإيماءة مقتضبة:

- نعم، في الأغلب.

- امنحني سببًا واحدًا كي لا أطلق عليك النار حالًا لأقتلك.

يقول أبي وهو يهز رأسه في اتجاهي:

- لأن ابنتي لا ينبغي أن تكون هنا لترى ذلك.

تنظر لينورا إليَّ مذهولة:

- هل كنتِ تعرفين؟

أهز رأسي. عندما تراني لينورا أفعل ذلك، تنحرف ماسورة البندقية بعيدًا عن أبي إلى الأرضية. وإذ يتحينها فرصة، يندفع أبي إلى الأمام ويدفع لينورا إلى داخل الرواق.

أصرخ:

- لا!

من دون أن أعرف أيهما أصرخ فيه فعليًّا. أصرخ مرة أخرى، على الرغم من أنهما يتجاهلانني، عازمين تمامًا على تدمير أحدهما الآخر. لا أستطيع إلا أن أجري إلى الرواق وأنا مستمرة في الصراخ بينما يتكشف كل شيء مثل حادث اصطدام سيارة بالحركة البطيئة أمامي.

أبي يدفع لينورا.

يصطدم بها.

ماسورة البندقية تتحرك، تميل، تطلق النار.

تهب لفحة من السخونة والضوضاء عندما تنطلق البندقية. ينفجر جزء من الجدار خلف أبي، ليتناثر الجير والخشب وورق الجدران. يستمر هو ولينورا في التصادم، مقتربين أكثر من حافة الدرجة الأعلى من الدرج الكبير.

يتوقف أبي.

لا تتوقف لينورا.

تسقط على ظهرها، وتفارق البندقية يديها بينما ترتج لينورا هابطة السلالم وتنقلب على البسطة. أندفع متجاوزة أبي وأهبط الدرج الكبير، متوقفة بعد بضع درجات فقط لأنني ألاحظ شيئًا غريبًا.

السلم كله يرتجف.

وكذلك المنزل كله.

أنظر حولي، مذعورة فجأة. تركيبة الإضاءة في البهو تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف. من أعلى تتناهى عدة جلجلات إذ تنقلب قطع الأثاث في الطابق الثالث. ومن أسفل تصدر الأرض أنينًا خفيضًا، كأنها وحش على وشك أن يستيقظ. عندما أسمعه، أعرف في قرارة نفسي أنها ليست إلا مسألة وقت - دقائق، ربما حتى ثوانٍ - قبل أن يحدث ذلك.

وعندما يحدث ذلك، سينهار هوبز إند بأكمله.

أهتف بلينورا:

- اخرجي من المنزل! سآتي بڤرجينيا.

أبدأ صعود السلالم من جديد. تهتز الدرجات بشدة إلى درجة أنه لم يَعُد بمقدوري البقاء منتصبة ويجب أن أحبو صاعدة إياها. أستمر في الزحف عندما أصل إلى الطابق الثاني، مندفعة إلى جوار أبي.

- ماذا تفعلين؟

يقولها صارخًا كي يُسمع صوته من وراء أنين الأرض المتصاعد بثبات والقعقعة المدوية الراجفة التي يخلقها.

- أنقذ ڤرجينيا!

- لا يوجد ما يكفي من الوقت!

يمسك أبي بكتفَي. أتلوى في قبضته.

- يوجد لو ساعدتني!

تلتقي أعيننا، عمر من الشعور بالذنب والندم يمر بيننا، من دون أن ننطق حرفًا لكننا نحس به بشدة.

أقول:

- أرجوك. أنت مدين لي. أنت مدين لها.

يرمش أبي، كأنه يفيق من غيبوبة.

ثم يطلق سراحي، ومن دون كلمة أخرى، يندفع إلى غرفة ڤرجينيا.

أتبعه إلى الداخل، حيث تجلجل الغرفة مثل أرجوحة كرنفال مكسورة. ذلك الميل، المحسوس غالبًا والمرئي نادرًا، صار الآن ذكرى. حل محله ميل كامل يحول الغرفة إلى مضمار حواجز. في كل مكان حولنا، بدأت قطع الأثاث تنزلق نحو النوافذ، بما فيها الفراش الذي كانت ڤرجينيا راقدة فوقه.

يمسك أبي بكتفيها، وأمسك أنا بساقيها. نرفعها معًا ونحملها خارج الغرفة بينما يتأرجح المنزل بأكمله.

من خلفي أسمع الفراش الخالي ينزلق عبر الأرضية ويرتطم بالجدار.

في الرواق، تتحطم المزهريات ساقطة من فوق قواعدها إلى البلاط، وتتأرجح اللوحات على الجدران.

في الخارج، ثمة نغمات متنافرة متصاعدة لقوالب قرميد تنهمر على السطح والشرفة، بينما تنهار مداخن هوبز إند واحدة إثر واحدة.

أهرول أنا وأبي هابطين الدرج الكبير، محاولين ألا نُسقط ڤرجينيا بينما الدرجات نفسها تهتز وتتأرجح. على البسطة، يرفعها أبي على كتفه، محررًا يدَي كي أساعد لينورا.

ترفض الحركة.

أصرخ:

- يجب أن نذهب! الآن!

تهز لينورا رأسها:

- لن أرحل.

ردها هرائي للغاية إلى درجة أنني اعتقدته نكتة في البداية، على الرغم من أنه لا يوجد شيء مضحك ولو من بعيد في مسألة أن هوبز إند ينهار من حولنا. لكن عندما لا تبذل لينورا أي جهد لتنضم إليَّ عند المدخل، أدرك أنها جادة تمامًا.

تقول:

- لا أستطيع مغادرة هذا المكان. لن أفعلها.

أقول وأنا ممسكة بكتفيها ومحاولة أن أحرك القليل من المنطق داخلها:

- أنصتي لي يا لينورا. ستموتين لو بقيتِ هنا.

مضيعة للوقت والكلمات والأنفاس. هي تعرف ذلك بالفعل.

تلمس لينورا يدي وتمنحني ابتسامة حزينة:

- لقد أخذت وقتي بعيدًا عن هذا المكان. والآن حان دور ڤرجينيا. لقد انتظرت ما يكفي من الزمن. اعتني بها جيدًا يا كيت.

بدفعة خفيفة، تبعدني لينورا هوب قبل أن أتمكن من الرد. لا وقت للرد. لديَّ

فقط ما يكفي من الوقت كي أجري هابطة الدرج الكبير، وأقفز فوق الشقوق المتعرجة عبر أرضية البهو، والانضمام إلى أبي وڤرجينيا في الخارج.

يحملها إلى أن نصل إلى مكان لا تهتز فيه الأرض تحت أقدامنا. هناك، يُنزل أبي ڤرجينيا على العشب. أنضم إليها، باحثة عن آثار لإصابات. المذهل أنه باستثناء الجرح في جنب أبي، نجونا نحن الثلاثة من دون إصابات.

أمد يدي نحو قميصه وأقول:

- ما مقدار سوء إصابتك؟

يدفع أبي يدي بعيدًا، برفق وبطء، كأنه يتذوق اللمسة.

- أنتِ فتاة طيبة يا كيت كات.

يقولها قبل أن يقبّلني على وجنتي.

- ولطالما كنتِ كذلك. كان يجب أن أخبرك بهذا أكثر. أندم على ذلك الآن. أندم على أشياء كثيرة. لكن أنت؟ لطالما كنتِ مصدر فخري وبهجتي.

ثم يعود أبي إلى المنزل ويدخله من دون تردد.

أهمُّ إلى الأمام، متهيئة للجري خلفه، لكن ڤرجينيا تقبض على رسغي، متشبثة به، مذكِّرة إياي أنها ما زالت في رعايتي. كل ما أستطيع فعله هو الصراخ على أبي كي يعود، بينما أراه من خلال الأبواب التي ما زالت مفتوحة ينضم إلى لينورا على الدرج الكبير. لا ينظر أحدهما إلى الآخر، ولا يمد أحدهما يده إلى الآخر ليواسيه. يجلسان فقط.

بينما أجزاء من السقف تتساقط حولهما.

بينما النافذة ذات الزجاج الملون فوق البسطة تتهشم من الضغط.

بينما يرتجف المنزل بأكمله في حشرجة موته الأخيرة.

آخر ما أراه منهما، أبي ولينورا، يتشبث أحدهما بيد الآخر بينما يتأرجح الباب الأمامي منغلقًا.

بعد ذلك، وسط جوقة الأنّات والصرير والفرقعات التي تصم الآذان، يتبع هوبز إند المنحدر المنهار ويهوي في المحيط.

٤٤

تنساب الموسيقى من غرفة ڤرجينيا.

فرقة الجوجوز[1] التي تعجبها أكثر مما ظننت. أو ربما هي فقط تستمتع بالجديد. بعد أن حُرمت من أغلب وسائل التكنولوجيا الحديثة لزمن طويل، تطرب ڤرجينيا لكل الأشياء التي امتلكتُها لسنوات وأخذتُها من ثَمَّ كأمر بديهي. أهمها جهاز الاستريو الخاص بي، الذي يعمل أغلب الأيام من دون توقف. ومثله أيضًا التلفزيون، الذي جعل ڤرجينيا تجفل ارتياعًا عندما فتحته لها أول مرة. قضت الليلة بأكملها مبتهجة بكل ما يُعرض أيًّا كان. وظلت على الحال نفسها عندما اصطحبتها إلى السينما لمشاهدة الجزء السادس من فيلم حرب النجوم، على الرغم من أن كلتينا لم تفهم ما كان يجري بحق الجحيم. لكننا استمتعنا فقط بالعرض.

أتوقف عند مدخل غرفة نوم ڤرجينيا الجديدة. كانت من قبل غرفتي، لكنها لم تَعُد تحمل أي شبه بالمكان الذي شببت فيه. ساعدني آرشي وكيني على إزالة ورق الجدران ذي النقوش الوردية القبيحة ودهان الجدران بدرجة هادئة من اللون

---

(١) فرقة الجوجوز (The Go-Go's): فرقة روك أمريكية مكونة بالكامل من الإناث، وشُكِّلت في لوس أنجلوس عام ١٩٧٨. (المترجم).

الأرجواني. اختفى كل أثاثي القديم، وحلت محله أشياء تليق أكثر باحتياجات ڤرجينيا. رافعة مرضى جديدة. كرسي متحرك حديث. فراش تبرع به المستشفى المحلي تستطيع ڤرجينيا أن ترفعه وتخفضه بضغطة زر من يدها اليسرى.

انتقلت أنا إلى غرفة نوم والدَي القديمة. وهو تغيير لم أكن مستعدة تمامًا له. في تلك الأيام القليلة الأولى، بدا من الغريب النوم على الجانب الآخر من الرواق، في فراش وغرفة أكبر مما اعتدته. لكنني أعتاد ذلك يومًا بعد يوم. حتى الآن، لم أرَ كوابيس حول أمي إلا مرتين.

لم يكن هناك أي كابوس عن أبي.

وأتمنى أن تظل الحال هكذا.

بعد ما حدث في هوبز إند، لم يكن هناك أي شك أن ڤرجينيا ستبقى معي. كنت لا أزال مقدمة الرعاية لها في نهاية الأمر. كما أنها لا تملك مكانًا آخر تذهب إليه. إما هنا وإما مكان مثل دار أوشن ڤيو للمسنين.

كانت تلك الأيام الأولى المشحونة صعبة. خيم الحزن والأسى علينا نحن الاثنتين. فقدت ڤرجينيا أختها والمنزل الوحيد الذي عرفته طوال حياتها. وفقدت أنا أبي، المتبقي الوحيد من والدَي، وفقدت فكرتي عن الشخص الذي اعتقدت أنه كان. لكن الآن، بعد مرور شهرين، أصبحت الأمور أكثر قابلية للتحمل بعض الشيء.

يساعد في ذلك أن آرشي ما زال موجودًا وداعمًا كما كان دائمًا. حصل على عمل طاهٍ في فندق فخم على مبعدة بلدتين ويمر كل ليلة بعد ورديته ليطمئن علينا. لا يمكن قول الأمر نفسه عن بقية الأشخاص الذين عاشوا من قبل في هوبز إند. اختفت جيسي تمامًا، ولم تكلف نفسها عناء الاتصال بنا حتى بعد ما امتلأت عناوين الصحف الرئيسية في العالم بأخبار ما حدث.

أما عن كارتر، حسنًا، فهو يواجه مشكلة في النسيان والغفران. لا أستطيع لومه في الحقيقة. فقد اتهمته، في نهاية الأمر، بالقتل وتركته وقد تقطعت به سبل العودة إلى المنزل. وعندما نجح أخيرًا في العودة إلى هوبز إند، كانت قد انقضت ساعات

بعد انهيار المكان بأكمله. وما كان كوخه يومًا ما صار الآن جزءًا من كومة حطام هائلة تناثرت وسط أمواج المحيط الأطلنطي.

حاولت الاعتذار تلك الليلة، وحاولت مجددًا بعد بضعة أسابيع عندما دخلت الحانة التي بدأ العمل فيها بدوام جزئي. قال إنه يتفهم لماذا اعتقدت ما اعتقدته. بل ذهب إلى حد أن يقول إنه سامحني. لكن يمكنني القول إنه لم يعنِ ذلك تمامًا. كان مجرد شيء قاله لأنه أرادني أن أرحل.

وهو ما فعلته. وفعله هو أيضًا؛ راحلًا عن البلدة بعدها بوقت قصير للبحث عن عائلته الأصلية. أتمنى له التوفيق. وآمل أن يحظى بأي خاتمة سعيدة يحتاج إليها.

وأتمنى لي مثله.

فأنا، مثل كارتر، تواجهني مشكلة مع مسألة الغفران تلك بأكملها. على الرغم من مساعدته لي في إنقاذ ڤرجينيا، فما زلت أكره أبي على ما فعل، مثلما أكره نفسي لأنها ما زالت تحبه أيضًا. أعرف الآن أن آرشي كان محقًّا بشأن القدرة على الشعور بالاثنين. ينبغي أن أسأله كيف تعامل مع ذلك عندما يمر الليلة.

لكن حاليًّا، لديَّ ڤرجينيا التي يجب أن أوجه عنايتي لها. من بين متعلقاتها الجديدة آلة كاتبة كهربائية تستخدمها قليلًا، غالبًا كطريقة أخرى كي نتواصل. حتى الآن، لم تُبدِ أي أمارة على رغبتها في كتابة مزيدٍ من قصتها. أعتقد أنها لا تجد حاجة الآن بعد أن عرفها الجميع.

وبما أن حوادث القتل الأولى في هوبز إند غطت عليها أحداث كبرى مثل انهيار الأسواق التاريخي وبداية الكساد الكبير، فقد قررت وسائل الإعلام ألا تسمح بحدوث ذلك مرة ثانية. انتشرت في كل مكان تغطيات عن انهيار القصر، وجناية أبي، وكيف عاشت ڤرجينيا هوب، التي ما زالت على قيد الحياة، تحت اسم أختها لعقود. ما زالت تأتيني من وقت إلى آخر مكالمة من صحفي يطلب الحديث إلى ڤرجينيا.

وإجابتي المعهودة هي: «آسفة، لا تستطيع الحديث الآن».

لكنْ هناك أيام أتمنى فيها لو تستطيع. أعتقد أنه سيفيد ڤرجينيا أن تتمكن

من التعبير عما تشعر به تجاه ما حدث لها. لا أستطيع تخيُّل احتمال كل ما مرت به؛ من انتزاع طفلها منها إلى رؤية أمها تُقتل على يد حبيبها إلى إخفائها على يد أختها نفسها. هذا يجعل شعوري الشخصي بالأزمة أشبه بلعب أطفال مقارنة بها.

لكن ڤرجينيا الآن تشع سعادة بينما تجلس في كرسيها المتحرك وتستمع إلى الإيقاع الثابت للأغنية الدائرة.

«شفاهنا مختومة».

إحدى مفضلاتها.

أقول لها عندما تلمحني أراقبها:

- سوف آخذ دشًا. هل تحتاجين إلى أي شيء؟

ترد ڤرجينيا بدقة واحدة وتعاود الاستماع إلى الموسيقى. أتوجه إلى الحمَّام لآخذ حمَّامي. أفتح صنبور الماء وأنتظر حتى يدفأ. عندئذ تخطر لي تلك الفكرة التي تهاجمني دائمًا وأنا وحدي لا أجد شيئًا أفعله.

في مكان ما، لديَّ أخ نصف شقيق.

ربما.

لا سبيل إلى معرفة إن كان حيًّا. أو أين يوجد لو كان حيًّا. أو إن كانت لديه أسرة خاصة به. بدأت أنا وآرشي في تتبُّع الاحتمالات محاولين اكتشاف ما جرى للآنسة بيكر الحقيقية، على أمل أن تستطيع تلك المعلومة إرشادنا إلى مكان ابن ڤرجينيا وأخي نصف الشقيق. نفعل ذلك سرًّا، ممتنعين عن إخبار ڤرجينيا بسبب الخوف من إثارة آمالها. وحتى الآن، ما زال هناك مبرر لهذه السرية. فكل ما استطعنا معرفته أن الآنسة بيكر تزوجت في وقت ما عام ١٩٣٠ ورحلت. إلى أين، لا نعرف. اسم زوجها أيضًا غير معروف. كل ما نستطيع فعله حاليًّا هو الانتظار والأمل في أن يأتي مزيد من المعلومات في طريقنا.

أعتقد أن ڤرجينيا ستحب ذلك.

وسأحبه أيضًا.

على الرغم من أننا فعليًّا لسنا قريبتين، لكنها العائلة الوحيدة المعروفة التي تبقت لي.

ما زالت فرقة الجوجوز تغني عندما أخرج من الحمَّام. أسمع الموسيقى يتردد صداها عبر الصالة وأنا أجفف جسدي وأرتدي زيي الرسمي لهذا اليوم. بنطلون جينز، بلوزة مريحة، سترة صوفية. لا مزيد من ثياب الممرضات البيضاء من أجلي.

أعبر الصالة وأنا أمشط بأصابعي شعري الذي ما زال مبتلًّا.

- يا ڤرجينيا، ما مذاق حبوب الشوفان الذي ترغبين فيه من أجل...

أتجمد في مدخل الغرفة. على الرغم من أن الموسيقى دائرة والكرسي المتحرك موجود حيث تركته، ڤرجينيا نفسها ليست موجودة. أتفحص الغرفة، بغباء، كأنني أخطأت مكانها فقط وهي ليست غائبة تمامًا عن الغرفة.

بالقرب من الباب الأمامي طاولة تُستخدم في العادة من أجل البريد ومفاتيح السيارة. تستقر عليها ورقة وحيدة تحمل ستة أسطر مكتوبة بالآلة الكاتبة.

أحبس أنفاسي، وألتقطها وأبدأ في قراءتها.

في التاسعة والستين، ڤرجينيا هوب

كتبت لممرضتها هذه الرسالة القصيرة

أشكرك يا عزيزتي على إنقاذي

حان الوقت الآن كي أطلق سراحك

أودعك، وأسير رافعة رأسي

مدركة أنني خدعتهم جميعًا

عزيزتي كيت،

آمل ألا تندهشي لتلقيك هذه الرسالة. آمل أنك كنت تعرفين، في أعماق قلبك، أنني سأعاود الاتصال بك. الابتعاد عنك بالطريقة التي فعلتها كان لصالح الجميع، كما ترين، على الرغم من أنني كرهت فعل ذلك. لكنني خفت رد فعلك إذا عرفت الحقيقة.

بيد أنك كنت تظنين دومًا أنني قادرة على ما هو أكثر مما أبديه. لقد جعلني صمتي وسكوني غير مرئية تقريبًا لأغلب الناس.

لكنك يا كيت رأيتني.

والآن تعرفين الحقيقة. أستطيع السير، والكلام، واستخدام جسدي كله. الآن، أراهن أنك تتساءلين لماذا قضيت كل هذا الوقت الطويل متظاهرة بأنني لا أستطيع. الأسباب كثيرة، بداية من الحقيقة البسيطة بأنني في البداية لم تكن لديَّ الرغبة في الحركة.

كنت مندهشة مثل الجميع عندما نجوت من محاولتي الانتحار. وكنت محبطة أيضًا. على الرغم من أنها كانت معجزة، ظللت أتمنى لو كنت ميتة. تقت إلى هذا. أردت راحة الموت الحلوة بشدة حتى إنني تظاهرت بأنني مت حقًا. رقدت هناك ببساطة، بلا حراك، محاولة ألا أتنفس.

على الرغم من غبائه، ربما لم يكن الدكتور والدن مخطئًا تمامًا في تشخيصه. لأنه كان هناك شيء معتل بالفعل فيَّ، على الرغم من أنني ما زلت غير واثقة إن كان جسديًا أم نفسيًا أم عاطفيًا. ربما كان مزيجًا من الثلاثة جميعًا هو ما جعلني مشلولة على الرغم من أنني لم أكن كذلك فعليًا. كل ما أعرفه أنني شعرت بأنني فاقدة الحياة، خرساء، عاجزة عن الحركة. وهكذا بقيت.

لعلِّي كنت سأظل كذلك إلى الأبد لولا آرشي، الذي رفض أن يتركني. كثيرًا ما كان يهمس لي:

- ستتحسنين ذات يوم يا جيني. أنا واثق بهذا. وعندما تتحسنين، سنجد ابنك.

جعلني ذلك أتساءل إن كان محقًّا وإن كان ممكنًا أن أجد طفلي يومًا ما. كلما فكرت أكثر في ذلك، زاد شعوري بشرارة من ذاتي القديمة ما زالت مشتعلة بداخلي.

من دون أن أدع آرشي يعلم، بدأت محاولتي طويلة الأمد لإجبار جسدي على بدء العمل من جديد. بدأت بتحريك أصابع يدي اليسرى وانتهت بعد سنوات كثيرة طويلة بسيري في أرجاء غرفتي سرًا.

أظن أن أول سؤال يطرأ على ذهنك هو: لماذا لم أغادر هوبز إند عندئذ؟

أردت ذلك. أردت أشياء كثيرة جدًا. أن أسافر. أن أجري وأرقص وأغني. أن أربي الطفل الذي سرق مني بكل هذه القسوة.

لكنني كنت خائفة مما وراء هوبز إند. عرفت أن العالم تغير بشدة منذ صباي. خشيت أنني لو رحلت، لن أتعرف عليه. لكن هوبز إند كان مألوفًا، وقد وجدت عزائي في تلك الألفة. حتى السجن يغدو مريحًا إن كان هو الشيء الوحيد الذي تعرفينه.

السؤال الثاني الذي أراهن أنك تسألينه لنفسك الآن هو: لماذا لم أخبر آرشي على الأقل بأنني أستطيع الحركة والسير والكلام؟

إجابة ذلك أكثر أنانية بعض الشيء. لم أخبره لأنني خشيت أن تكتشف أختي الأمر لو عرف شخص آخر. وبعد أن عادت من أوروبا، حيث عاشت الحياة التي حلمت أنا بها زمنًا طويلًا، أردت أن أعاقبها. تلك هي الحقيقة الوحشية للأمر.

في البداية، فكرت ببساطة في قتلها. جريمة قتل كنت لأتحمل وزرها بسعادة.

لكن الموت سريع.

وأردت أن يدوم عقابها زمنًا طويلًا، طويلًا.

لذلك جعلت من نفسي العبء الذي اعتقدت هي أنني إياه. اعتقدت أنها تعاقبني ببقائي أنا وهي هنا. لكن في الحقيقة، لم تكن تعاقب إلا نفسها، واستمتعت أنا بمشاهدة ذلك. فكري فيها باعتبارها تنويعة على اللعبة التي كان يجبرنا أبي على لعبها. فزت أخيرًا. ومقدار الوقت الذي اخترت أن أحبس لينورا خلاله في غرفتها كان أكثر من خمسين عامًا.

لكن لم يكن الأمر فقط متعلقًا بالعداء نحو أختي. السبب الأساسي في بقائي أنني أردت أن أكون موجودة لو قرر ابني في أي وقت أن يأتي للبحث عني. خشيت لو رحلت ألا يعرف أبدًا أين أنا ومن ثَمَّ لا يتمكن أبدًا من العثور عليَّ.

بالنسبة إليَّ، كانت فكرة وجود احتمال بأن يجتمع شملنا ذات يوم تستحق الانتظار.

لذلك اخترت أن أستمر في التظاهر بالعجز، على الرغم من قدرتي على فعل الكثير. المدهش أن أحدًا لم يلاحظ، بمن في ذلك الممرضات الكثيرات اللاتي جئن قبل وصولك. كن كثيرات للغاية إلى درجة أنني نسيت أغلب أسمائهن ووجوههن. وأظن أنني كنت عرضة للنسيان بالنسبة إليهن بالقدر نفسه، لأن قليلات منهن من أولين لي اهتمامًا أصلًا. نعم، مارسن وظيفتهن الأساسية بإبقائي حية. لكن قلة منهن فقط من عاملنني على أنني إنسانة حقيقية. إنسانة ذات أفكار ومشاعر وفضول. أظن أن صمتي لعب دورًا صغيرًا في ذلك. من الممكن تجاهل المرء بسهولة إن لم يتكلم. وكنت أنا كذلك.

بالطبع، كل هؤلاء الممرضات تقريبًا كن مرعوبات مني. لا أستطيع لومهن في الحقيقة. كنت سأصاب بالرعب أيضًا، بناء على كل الشائعات التي انتشرت حولي. ولا واحدة من هؤلاء الممرضات كانت مهتمة بالحقيقة. حتى هؤلاء اللاتي اعتبرنني جديرة بالقليل من اللطف أو ببعض الحديث.

تغير كل هذا عندما أتت ماري. ماري المسكينة الحلوة. هي شخص آخر رآني. مثلك، كانت فضولية. إلى درجة أنها اشترت تلك الآلة الكاتبة على أمل أن أتعلم كيفية استخدامها وكتابة قصتي في النهاية.

فعلتها، كما تعرفين جيدًا.

أتمنى لو تمكنت من فعل الأمر نفسه معك يا كيت. كنت تستحقين معرفة الحقيقة. لكني لم أستطع دفع نفسي إلى إحباطك بالحديث عن موضوع أبيك. لذلك ماطلت وراوغت وضللت، وأنا أعلم أنك حتمًا ستكتشفين الأمر يومًا ما.

أشعر بالأسف حقًا من الطريقة التي عرفت بها الحقيقة في النهاية — وكل الأحداث التي تلت ذلك. لكن حقيقة تعاملك معها بهذه المهارة تكشف عن شخصيتك القوية.

في الوقت نفسه تقريبًا الذي كانت ماري تعلمني خلاله كيف أكتب على الآلة، حدث شيء آخر غير عادي.

مُنحت جهازًا رائعًا آخر اسمه الووكمان. ومعه شريط كاسيت يقدم كتابًا تقرأه بصوت عالٍ جيسي، الخادمة الجديدة في هوبز إند. على الرغم من أنني كنت أقرأ في الليل سرًا، كان من اللطيف أن أتمكن من الاستمتاع بكتاب في العلن، إذا جاز القول. لم أهتم بما كانت تدور حوله القصة، أحببت فقط أن تحكى لي حكاية جيدة.

تخيلي دهشتي عندما توقف الكتاب في منتصف الشريط الأول. في لحظة كنت أنصت إلى رواية من ثلاثية الشمال والجنوب للكاتب جون جاكس. وفي اللحظة التالية، انتهى سرد جيسي وبدأ حديث عادي:

- اسمعي، أعرف أنك لست لينورا هوب، لكن أختها ڤرجينيا. أعرف الكثير عنك. أكثر مما يعرفه أي شخص آخر، كما أعتقد.

وهكذا استمر الأمر، حوار من طرف واحد بيني وبين جيسي، يجري من خلال الرسائل التي تسربها بين الفصول.

- لا أعتقد أنك قتلت والديك. وحتى لو قتلتهما، مما حكي لي، كانا يستحقان ذلك. على الأقل والدك.

لم أخبر ماري، لكني واثقة إلى حد كبير بأنك تستطيعين الحركة وربما الكلام. أشعر بالفضول لسماع كيف يبدو صوتك.

وأخيرًا، جاءت أهم رسالة:

- بالمناسبة، أنا حفيدتك.

حكت لي جيسي كل شيء عن أبيها، الذي كان اسمه مارسيل. شب في منزل محب مع الآنسة بيكر وزوجها. لعب الهوكي، وأحب القراءة، وتفوق في الرسم. بعد الجامعة، حصل على وظيفة رسام تجاري في تورونتو. لم يتزوج حتى بلغ الثلاثينيات من عمره، عندما التقى فنانة زميلة ووقع في حبها. أنجبا طفلة واحدة، جيسي، وعاشوا حياة سعيدة معًا، مستمتعين بكل لحظة إلى أن توفي مارسيل بسبب المرض عام ١٩٨٢.

بعد موته، عرفت جيسي الحقيقة حول والدي مارسيل من الآنسة بيكر، المرأة التي كانت معروفة لديها دومًا بأنها جدتها. بعد أن قامت جيسي بالقليل من التحريات، اكتشفت أن هوبز إند في حاجة إلى خادمة وتقدمت للوظيفة. كانت نيتها محاولة اكتشاف معلومات عمن أكون وإن كنت قد قتلت والدي حقًّا مثلما يقول الجميع.

وانتهى بها الأمر إلى العثور عليَّ.

على الرغم من أنني حزينة لأنه لم تواتني قَطُّ الفرصة لمقابلة ابني، أعرف أن الحياة لا تعطيك دائمًا أعظم أمانيك. لكن ما زال بمقدور السعادة أن تتسلل إليها، وأنا الآن في غاية السرور لتمكني من معرفة حفيدتي. الأصوات التي أنا واثقة بأنك سمعتها خلال الليل كانت جيسي، التي كانت تأتي إلى غرفتي في ساعات الصباح الأولى حتى نتمكن من التهامس حول السبل التي خططنا للهروب بها. الخطط التي أجهضها مقتل ماري، ووصولك، والانهيار النهائي لهوبز إند. (نهاية حسنة لذلك المكان بالمناسبة!).

اضطرت جيسي أيضًا إلى العودة إلى كندا عندما توفيت الآنسة بيكر. خيبة أمل أخرى. أتمنى لو استطعت أن أشكر الآنسة بيكر على عنايتها بابني، على الرغم من أن الأمر انتهى به ابنًا لها أكثر مما هو ابن لي.

اليوم الذي اختفيت فيه من منزلك هو اليوم الذي جاءت فيه جيسي إلى نافذتي. سمحت لها بالدخول وأخبرتني بسرعة بالخطة الجديدة -- الرحيل فورًا.

لذلك رحلنا، مسرعتين إلى سيارة جيسي المصفوفة بجوار الرصيف. بمجرد أن دخلناها، ناولتني جواز سفر مزورًا عليه اسمي الحقيقي.

قالت:

- إلى أين تريدين الذهاب يا جدتي؟

نظرت عبر الزجاج الأمامي للسيارة، محدقة إلى هذا العالم الكبير الهائل الذي لم أتمكن قَطُّ من معرفته حتى الآن. قلت:

- إلى كل مكان.

وقبل أن نصل إلى المطار، كنت قد ضيقت الخيارات إلى باريس، حيث أكتب لك الآن هذه الرسالة، من شقة في الطابق العلوي تطل على برج إيفل.

أرجوك لا تغضبي مني بسبب الطريقة التي تركتك بها. أتوسل إليك. الطريقة التي عاملتنا بها الحياة، أنا وأنت، تكفي للغضب منها. دعينا لا نتصرف حيال بعضنا بالطريقة نفسها.

أردت أن أخبرك يا عزيزتي. ولم أفعل لأنني خشيت ألا تسمحي لي بالرحيل أو تغضبي لأنني أخفيت عنك كل هذا طوال الوقت الذي كنت تعتنين بي خلاله. و، نعم، أردت بأنانية بعض الوقت وحدي مع حفيدتي.

لا تنسي أنها أيضًا ابنة أخيك.

تستحقين أيضًا وقتًا معها.

كما تستحقين بالمثل أن تعيشي أخيرًا حياة تخصك ولا تخص شخصًا آخر. لذلك الغرض، أرفقت تذكرتي طائرة ذهاب فقط إلى باريس. واحدة لك

والأخرى من أجل آرشي، الذي أثق بأنك ستشاركينه هذه الرسالة. ستغادر طائرتكما في الأول من فبراير. أعز آمالي أن يكون كلاكما فيها.

حتى نلتقي مرة أخرى!

فرجينيا

موت ڤرجينيا هوب عن عمر يناهز ١٠١ عام

روما (أ ب) - توفيت ڤرجينيا هوب، الشخصية الرئيسية في واحدة من أكثر الجرائم إثارة في القرن العشرين، يوم الاثنين في ڤيلّتها في بورتو ڤيرجونيا على ساحل أمالفي في إيطاليا، عن عمر يناهز ١٠١ عام.

أثار مقتل ڤرجينيا المزعوم إلى جانب والديها الثريين، ونستون وإيڤانجلين هوب، لغطًا عام ١٩٢٩ وعناوين رئيسية صادمة بعد ٥٤ عامًا عندما اكتشف أنها ما زالت على قيد الحياة، وأنها أُجبرت على حمل هوية أختها الأكبر لينورا. اكتسبت ڤرجينيا شهرة أكبر عندما اعترفت بأنها ادَّعت حالتها طوال عقود.

كتبت في مذكراتها حياة ساكنة التي حققت أفضل المبيعات: «هل مثَّلت أكبر خدعة في القرن؟ لا أعتقد هذا. لكنني أود أن أعتقد أنها على الأقل ضمن أول عشرة».

ذلك المزيج من خفة الدم والتفاخر جعلها ضيفة ثابتة في حلقات البرامج الحوارية، حيث تلقف المتفرجون تفاصيل قصتها التي تليق بصحف الإثارة. عندما سألها المذيع ديفيد ليترمان لماذا كانت متلهفة هكذا على الكلام بعد التظاهر لعقود بعدم قدرتها على ذلك، أجابته ڤرجينيا: «تعويضًا فقط عن الوقت الضائع يا عزيزي».

وعندما لا تستمتع بشهرتها المتأخرة، كانت ڤرجينيا تقضي وقتها في السفر حول العالم، حيث زارت القارات السبع كلها، ومن ضمنها القارة القطبية الجنوبية، حيث احتفظت فترة بالرقم القياسي لكونها أكبر امرأة عمرًا تقوم بذلك.

خلفت ڤرجينيا حفيدتها جيسيكا أكسفورد وزوجها روبرت، وابنة حفيدتها ماري هوب أكسفورد، وصديقتها المخلصة وراعيتها ورفيقتها في السفر كيتريدج ماكدير.

شكر وتقدير

على الرغم من أن اسمي (المستعار) على الغلاف، فإنه لم يكن مقدرًا لهذا الكتاب أن يكون لولا العمل الشاق والمخلص من جانب آخرين كثيرين يعملون في الكواليس. شكرًا لمايا زيف، محررتي الرائعة، والرفاق الرائعين في دار داتون وبنجوين راندوم هاوس، ومن ضمنهم على سبيل المثال لا الحصر: إميلي كاندرز، ستيفاني كوبر، كارولين، باين، ليكسي كاسولا، آماندا ووكر، بن لي، جون بارسلي، كريستين بول، إيڤان هيلد. كَوْني جزءًا من أسرة داتون هو حلم نشر تحقق.

القول نفسه ينطبق على وكيلتي، ميشيل براور، وكل فرد في وكالة تريليس الأدبية ووكالة إيڤيتاس الإبداعية.

شكرًا لأفراد العائلة الكثيرين والأصدقاء والمؤلفين الآخرين الذين يساعدونني ويدعمونني ويلهمونني يوميًّا. عملية كتابة كتاب قد تكون عملية طويلة مليئة بالوحدة، ووجودكم خارج كهف كتابتي يساعدني أكثر مما تعرفون. شكر خاص لمايكل ليڤيو، الذي ساعدني مرة ثانية على اجتياز التوتر والضغط و، نعم، البهجة في إبداع كتاب جديد. حقًّا لا أستطيع فعل ذلك لولاك.

أود أيضًا أن أتوقف لحظة لأحيي مقدمي الرعاية الكثيرين الذين يعملون في المستشفيات ودور الرعاية ومنازل المرضى. هؤلاء الأبطال الذين لا يجري الاحتفاء بهم غالبًا يعالجون المرضى ويواسون المعذبين يوميًّا، ويؤدون عملهم بجد وكرامة وكبرياء. أنتم تهتمون بحق. أشكركم.

المؤلف

رايلي ساجر، اسم مستعار للكاتب تود ريتر (ولِد في ١٩٧٤) الذي يحمل أيضًا اسمًا آخر مستعارًا هو آلان فين. هو مؤلف سبع روايات، ووصل إلى قائمة النيويورك تايمز لأفضل المبيعات. من أحدث رواياته: «النجاة من الليل»، و«المنزل في الناحية الأخرى من البحيرة». يُعَد من أبناء ولاية بنسلفانيا، ويعيش الآن في برنستون بولاية نيوجيرسي.

المترجم

عبد الرحيم يوسف شاعر ومترجم مصري من مواليد ١٩٧٥. صدرت له ثمانية دواوين بالعامية المصرية، واثنان وأربعون كتابًا مترجمًا عن الإنجليزية. حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية لعام ٢٠١٦ عن ترجمته لكتاب: «ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة» للكاتب برنارد ماندڤيل.

فواجب على المثقف أن لا ينسى قضايا أمته ..
غزة السودان سوريا لبنان اليمن ....

«ينسج ساجر حبكة مذهلة مليئة بالانعطافات المفاجئة... عشاق دافني دو مورييه سيجدون في هذا العمل إثارة لا تُقاوم» — ببليشرز ويكلي

«إذا كنت تبحث عن إثارة لا تتوقف، فرايلي ساجر لن يخذلك» — كنتري ليفينج

«التشويق يتصاعد حتى الجملة الأخيرة الصادمة» — أوبرا ديلي

«لهواة الرعب الذين يعشقون حبكات مليئة بالتحولات غير المتوقعة، هذا هو الكتاب المثالي» — مِنز هيلث

«سيد الإثارة الذي يجعل قلبك يخفق بجنون!» — ميستري أند ساسبنس

«سيد التشويق الذي لا يُضاهى» — يو إس إي توداي

في ليلة دامية عام ١٩٢٩، هزَّت الجريمة المروعة لقتل عائلة هوب ساحل ولاية مين.

يعتقد الجميع أن الابنة لينورا، ذات الأعوام السبعة عشر، هي الفاعلة، ولكن الشرطة لم تتمكن من إثبات ذلك قَطُّ. ومنذ ذلك الحين، لم تنبس لينورا بكلمة عن تلك الليلة، ولم تغادر القصر المنعزل حيث وقعت المأساة.

بعد أربعة وخمسين عامًا، وفي عام ١٩٨٣، تصل كيت، مُقدِّمة الرعاية الصحية الجديدة، إلى القصر لرعاية لينورا التي باتت عاجزة ومقيدة إلى كرسي متحرك. بعد سلسلة من السكتات الدماغية، فقدت لينورا صوتها، ولم يَعُد بمقدورها التواصل إلا عبر آلة كاتبة قديمة. وذات ليلة، تنقر لينورا مفاتيحها برسالة لم تكن تتوقعها كيت: «أريد أن أخبرك بكل شيء».

«لم تكن أنا»، هكذا أقسمت.

لكنها الوحيدة التي لم تمُت.

بينما تساعد كيت لينورا في سرد الأحداث التي سبقت الجريمة المروعة، تتكشَّف أسرار دفينة، ويبدو أن الحقيقة أكثر غموضًا مما يعتقده الجميع. وعندما تظهر تفاصيل غريبة عن فرار الممرضة السابقة، تبدأ كيت في الشك: هل لينورا العاجزة ضحية حقًّا، أم أنها تخفي وجهًا آخر أكثر خطورة؟

